

مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق

المهجر الألفي لأبي العلاء المعري

يشتمل على وصف المهجران الذي أفاضه المجتمع العلمي العربي
لذكرى مرور ألف سنة على مولد أبي العلاء
وما قيل فيه من القصائد والنظم

دار صادر
بيروت

المهرجان الألفي للأدباء العرب

يشتمل على وصف المهرجان الذي اقامه المجمع العلمي العربي
لذكرى مرور الف سنة على مولد ابي العلاء
وما قيل فيه من القصائد والخطب



دار صادر
بيروت

المحجز الالهي لا يعاد المعجز

جميع الحقوق محفوظة

طبعة الأولى ١٩٦٤ - ١٩٦٥

الطبعة الثانية ١٩٦٤ - ١٩٦٥



ص.ب. ١٠ بيروت، لبنان / فاكس: ٩٢٠٩٧٨ - ٤٠٩٦١ - ٠٠
هاتف: ٩٢٨٢٧١ - ٤٠٩٢٢٧١ - ٤٤٨٨٢٧ - ٠١ ٤١٣٢٥٦ - ٠١

المقدمة

لو لم يوجد ابو العلاء المعري ، اولو وجد ومات صغيراً ، لما قام مقامه احد ، ولبقي مكانه في ديوان الأدب العربي خالياً الى الآن ، والى ما لا يمكن تحديده فيما سيأتي من الزمان . والأدباء من هذا النوع قليل في كل امة ، ينفس الدهر بهم على البشر ، ولا يجود بواحد منهم الا نادراً في مئات السنين .

اجتمع في ابي العلاء من الخصائص ما يعز اجتماعه في اعظم الرجال : نبوغ فطري ، وذكاء نادر ، وشعور رقيق ، وعقل راجح ، وخلق كريم ، وترفع عن باطل الحياة الدنيا فوهب نفسه بما فيها من هذه المزايا للعلم والادب ، ففاز منها بأعظم نصيب .

وكانت الثقافة الاسلامية لعصره قد استبحرت وتشعبت فنونها تدويناً وتأليفاً ووضعاً وترجمة واقتباساً ، كما كانت القرائح الأدبية قد جادت بروائع الشعر والنثر . فاطلع على كل ذلك اطلع تدبر ، واستوعبه واحاط به ، فكان تام الآلة كامل العدة لا ينقصه شيء من ثقافة عصره .

انصرف الرجل عن زخرف الحياة الدنيا الى العلم والادب والتفكير ، فنظم ونثر وآلف ودرّس ، مستقل الرأي ، حر التفكير ، يجهر بما

يعتقد ، ورائده الصدق ، وغايته الحقيقة ، ووسيلته الى ذلك ادبه المتميز
بالإتقان والإبداع وبرز الشخصية .

قد يكون في شعراء العرب من هو أشعر من أبي العلاء ، وقد
يكون في كتابهم من هو أكتب منه ، ولكن ليس فيهم من رمى
من وراء أدبه إلى غاية أنبل من غاية أبي العلاء الذي لم يكن أدبه
أدب المستجدين ، ولا أدب الغواة المستهترين الذين يهيمنون بالفن للفن ،
بل كان أدب من يعتبر نفسه صاحب رسالة يدعو إليها ، ويناضل
عنها ، ويقم الدليل عليها ، بمختلف الوسائل والأساليب ، شعراً ونثراً .
أدب أبي العلاء أدب إنساني سام شامل ، تخطى حدود الأجناس
والأديان والعصور ، فاشترك في اكباره جميع الأجيال ؛ وقد يفهم
منه ابن هذا العصر ما لم يفهمه القدماء ، وستفهم منه الأجيال الآتية ،
مالم نفهمه نحن في هذا العصر ؛ فكلمها تحرر العقل ، وسمت المدارك ،
وتهذبت النفس ، ازداد الإعجاب بأدب أبي العلاء .

ليس في ديوان الأدب العربي ، منشوره ومنظومه ، - على عظمتها
وجلالته قدره - ما يجزي عن أدب أبي العلاء في نبل المقصد ، وتعدد
المناحي ، وقوة الشخصية ، وظهور أثر العلم ، واخضاع الشعر للعقل ،
أو العقل للشعر ، حتى تجارياً منسجمين ، وتبارياً مؤتلفين . ولعل الافاضة
في التعريف بزياده في هذا المكان ، من الزيادات التي يستغنى عنها ، بعد
أن جمع هذا السفر بين دفتيه بحثاً ودراسات قيمة ، لم تدع مقالاً لقائل .

* * *

في شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٣ مرَّ على مولد أبي العلاء الف سنة ،
 فرأى المجمع العلمي العربي في دمشق أن يحيي من هذه الحادثة
 ذكرى تكون وسيلة للاستقصاء في دراسة أبي العلاء ، والتنقيب
 عن آثاره . فعزم على إقامة مهرجان أدبي عام يفتتح في دمشق في
 اليوم الثامن من شوال سنة ١٣٦٣ (٢٥ ايلول سنة ١٩٤٤) ودعا
 اليه اقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ، وبعض الأقطار الشرقية
 والغربية من يمكن ان تبلغهم الدعوة في هذه الحرب الضروس . ولم يكف
 يعلن عزمه على ذلك ، حتى تجاوزت بهذا الخبر أقطار العالم ، وبالغت
 مصر في تأييد المجمع وموآزرته في هذا العمل ، حتى نزلت له عن
 هذا المشروع بعد أن كانت عازمة عليه .

ولما أظّل الوقت المعين ، وصلت الوفود إلى دمشق فاستقبلهم أعضاء
 المجمع ، واحتفت بهم دمشق حكومتها وشعبها أبلغ احتفاء ، وكانوا
 في مجالس اجتماعهم وندوات سمرهم يثلون المدينة الفاضلة بما بثوه في
 الجو حولهم من أدب العربي وأخلاقه .

وافتنح المهرجان في دمشق تحت رعاية صاحب الفخامة رئيس
 الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي ، واستمر أسبوعاً أقيمت
 حفلاته الخطابية في دمشق ومعرة النعمان وحلب واللاذقية ، فشهدت
 البلاد أعظم حادث أدبي في تاريخ الأدب العربي ، وكان شغل الناس
 وحديثهم ، وموضوع الصحف وحديث الإذاعات اللاملكية .

حتى اذا انقضى ذلك الأسبوع البهيج وعادت الوفود إلى بلادهم ، ظلّ نبأ المهرجان حديث النوادي الأدبية في جميع الأقطار العربية ، وظلت الصحف والمجلات تتناول أخباره ، وتتناقل ما قيل فيه ، وتنتشر ما كتب عنه ، مدة لا تقل عن سبعة أشهر . وما نعرف حادثاً في هذه السنين مهما عظم شأنه ، لهج به الناس طول هذه المدة وعُنوا به هذه العناية .

أما ما أُلقي فيه وكتب لأجله من الدراسات والبحوث واقتصائد والخطب ، فمن خيرة ما جادت به قرائح أقطاب العلم والأدب في هذا العصر ، وهو في جملته أجمع وأمتع كتاب بحث عن أبي العلاء في كل نواحيه وأشاد بذكره ، وهو في الوقت نفسه صورة للأدب العربي المعاصر في نظمه ونثره وأساليبه بمحثة وبيانه . وكل ذلك مجموع في هذا السفر .

ولئن كان في عقد هذا المهرجان وطبع هذا السفر محمّدة ، فالفضل في ذلك لفخامة رئيس الجمهورية السورية ، فهو الذي استحسن الاقتراح ، وأمر بتحقيقه ، ورعاه بعنايته .

خليل مردم بك

الحفلة الاولى

في دمشق

لم يكبد المجمع العلمي العربي يعزم على اقامة المهرجان الاثني لآبي السلاء المعري ، حتى ابتداء الاستعداد له في كل مكان . فمهد المجمع إلى لجنته الادارية في تنظيم المهرجان وتحديد أمكنته ومواقيته وحفلاته ، فرأت أن يدوم المهرجان اسبوعاً كاملاً من ٢٥ ايلول إلى ١ تشرين الاول ١٩٤٤ ، وأن تشمل حفلاته مدن دمشق وحمص وحماة ومعرة النعمان وحلب والاذقية . ودعا المجمع أعضاءه العالمين والمراسلين إلى الاشتراك في المهرجان ، وكلف بعضهم اعداد كلة تلقي في الحفلات الخطابية . ودعت وزارة المعارف السورية وزراء المعارف في الدول العربية . فأرسلت الدعوة إلى وزراء المعارف في مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، واليمن . ودعي أيضاً بجمع فؤاد الاول للغة العربية ، ورؤساء الجامعات العربية ، وغيرها ، وبعض المستشرقين ، ونقباء الصحف في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة ، وممثلو محطات الاذاعة في سورية ولبنان وفلسطين ومصر . فاجاب كثيرون منهم دعوة المجمع .

ولم يحن موعد المهرجان ، حتى توافد المدعوون إلى دمشق ، وحلوا ضيوفاً على المجمع . والتقى أدباء مصر والعراق وفلسطين وشرقي الاردن وأدباء سورية ولبنان في مكان واحد . وكان هذا الاجتماع أعظم سوق أدبية شهدتها دمشق في تاريخها .

وكان وفد مصر مؤلفاً من السادة الدكتور طه حسين ، والاستاذ أحمد أمين ، والاستاذ عبد الحميد العبادي ، والاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والاستاذ أحمد الشايب . فقدموا إلى المجمع فور وصولهم هدية وزارة المعارف المصرية ، وهي « كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء » الذي طبعته مصر تخليداً لذكرى المهرجان .

وكان وفد العراق مؤلفاً من السادة الاستاذ طه الراوي ، والاستاذ مهدي الجواهري ، والدكتور مهدي البصير .

وحضر من فلسطين الاستاذ اسعاف النشاشيبي. ومن لبنان السادة فؤاد افرام البستاني ، والدكتور عارف العارف ، والاستاذ أنيس النصولي ، والاستاذ أنيس الخوري المقدسي ، ورئيس جامعة القديس يوسف ، والاستاذ رثيف خوري . ومن شرق الاردن الاستاذان أديب وهبه ومحمد الشريقي . ومن ايران الاستاذ عباس اقبال . ومن المستشرقين الاستاذان الفريد غليوم ، وهنري لاووست . ومن القدس السيد عزمي النشاشيبي ممثلاً للاذاعة والمطبوعات ، فضلاً عن الوفود الأخرى التي مثلت الاوساط العالمية في العاصمة والمدن السورية ، بمن سيأتي ذكر أكثرهم في الخطباء .

ولقد زارت الوفود في اليوم الاول من أيام المهرجان فخامة رئيس الجمهورية ، ومجلس النواب ، ودار الحكومة . والتقى الدكتور طه حسين في مجلس النواب كلمة بأسم الوفد المصري ، أعرب بها عن اعتراف مصر بفضل سورية ، لاحتفاءها بذكرى أبي العلاء . قال : « وكان طبيعياً أن تقوم سورية بهذا المهرجان الالائي ، فتدعو اليه سائر بلدان العالم العربي . فهي قد أعطت الأدب العربي أكبر شعرائه ، ولكن أعظم شاعر انساني اتجته سورية ، وحق لها أن تفخر به على العالم كله ، هو أبو العلاء . فلا غرو إذا سبقت العالم كله إلى الاحتفاء بذكره » . فرد عليه رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري بكلمة أشار بها إلى فضل مصر على العالم العربي بأدائها المعاصرين ومفكرها ، الذين كان لهم أعظم الأثر في احياء تراثنا الأدبي وتوجيهنا الفكري .

ثم أقام المجمع مأدبة غداء في فندق (أوريان بالاس) أطلق عليها اسم « المائدة العالائية » طبخ بها الطعام وعولج على شرط أبي العلاء ، لم يكن فيه لحم ولا سمن ولا بيض ولا لبن .

وكان موعد الحفلة الخطابية الاولى في الساعة الخامسة بعد الظهر في الجامعة السورية ، دعا اليها رئيس المجمع العلمي الاستاذ محمد كرد علي وزراء دمشق ، وعلماءها ، وأدباءها ، وأديباتها ، ووجهاءها ، وكبار موظفيها ،

واساتذتها . واعد في بهو الجامعة للوفود واعضاء المجمع سدة خاصة حول منبر الخطابة . وربط المنبر بمحطة الاذاعة بدمشق . واتخذت جميع الوسائل الفنية لتسجيل الخطب وإذاعتها من محطة الشرق الأدنى . ونصبت علامة المهرجان في صدر البهو بين الاعلام السورية وأعلام الدول العربية . وعرضت آثار أبي العلاء وما كتب عنه في خزائن خاصة عند مدخل البهو ، كما عرضت بعض تماثيل وصور لأبي العلاء صنعها عدد من الفنانين . وكانت صدور اعضاء الوفود وأعضاء المجمع مزينة بعلامة المهرجان ؛ وكانت موسيقى الدرك السوري تستقبل كبار المدعوين بأنغامها .

ولما حان موعد الحفلة أقبل نخامة رئيس الجمهورية بمحاشيته الرسمية ، فجلس على سدة المهرجان بين وفود البلاد العربية وأعضاء المجمع . وبدأت الحفلة بالنشيد السوري . وكان برنامجها على الوجه الآتي :

١ - كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية

٢ - كلمة وزير المعارف

٣ - كلمة رئيس المجمع العلمي العربي

٤ - كلمة الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف المصرية

٥ - قصيدة الاستاذ مهدي الجواهري ممثل وزارة المعارف العراقية

٦ - كلمة الاستاذ أحمد الشايب مندوب جامعة فؤاد الأول

وكان الناس يستمعون الى الخطباء والشعراء بصمت عميق دلّ على تذوقهم للأدب وميلهم إلى رجاله . وفيما يلي نص الخطب والقصائد التي أقيمت في الحفلة الاولى .

جميل صليبا



كلمة مضمرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية

السيد شكري القوتلي

أيها السادة :

لقد أتيح لي في الشهر الفائت أن أفتتح المؤتمر الاول للمحامين العرب ، وقد شعرت يومئذ باغتياب عظيم لمقد مثل هذه المؤتمرات العامة التي ينتظم فيها عقد الجماعات المختارة من الاقطار العربية ، فتتذكر شؤونها ، وتتداول أمورها ، وتحمل إلى ربوعها الدانية والقاصية ما شهدته من منافع لها وما حملته من ذكرياتها وآمالها .

ويسرني الآن أن أفتتح هذا الحفل الكريم ، وأرحب فيه بفريق جليل من أعلام الأمة العربية ، وقادة فكرها ، وحملة أعلامها ، وأقطاب بيانها ، وكبار شعرائها ، ورجال من غير هذه الأمة أولعوا بأدبها ، ودرسوا تاريخها ، وكشفوا القناع عن آثارها ومفاخرها ، فانضم بعضهم إلى بعض لاحياء ذكرى عبقرية من العبقریات العربية مضى عليها الف سنة ، ولكنها عاشت أجيالاً طوالاً ، وستبقى أجيالاً طوالاً . هذه العبقرية هي عبقرية شاعر حكيم لغوي أخلى ذرعه للفكر ، وحبس نفسه للعلم ، فكان يجد ويدأب في استجلاء أسرار الانسان ، وإدراك كنه المجتمع ، ويستنبط من حوادث الدهر الفلسفة والسياسة والأخلاق ، حتى طارت نفسه في فضاء بعيد من سلطان العقل المطلق من قيود الالفه والتقليد ، وردد شعره فلسفة جديدة أنكرها فريق وأجلها فريق . ولكن مهما قيل فيها فلا شك في أن صاحبها أحب الحقيقة ، وجعلها شعاره ودناره .

لقد كان يدعوا إلى الزهد وينكر حب المال وحب الشهوات واستيلاء المطامع ، ويتبرم بالدنيا تبرم الكاره لها البغض لشرورها ، ويعجب لاستئثار

الحاكمين الذين هم اجراء المحكومين ، ويصور في شعره خطرات النفس ودقائق
الشعور ، ويجاري الخطاطر في سيره ، حتى يكاد يلامسه ، ويسبح مع الكواكب
في أفلاكها ، والأطيار في أجوائها ، والاسماك في مسابحها ، والهوام والحشرات
في مساربها ومدارجها .

هذا هو أبو الملاء المعري الذي غاض ضياء عينيه ولكن ضياء بصيرته
كان يشق حجب الأستار، وبكشف جوانب الظلمات ، وبلغ ما تحار فيه
المقول من صحيح الرأي وعجيب الظن ، والذي هو اليوم ومن قبل ومن
بعد لواء من الألوية الخفاقة ، التي تتفيا الأمة العربية ظلالها ، وتوحي اليها
ما توحيه من عناصر بعثها وتوحيد قلوب ابنائها . وفي هذا اليوم الذي نجتمع
فيه لتخليد هذه الذكرى العظيمة ، ذكرى أبي الملاء ، الذي تفخر أرض
الشام بأن يكون فيها منبته ، وان يشرق منها الهامه ، تجتمع في مصر العزيزة
وفود البلاد العربية للعمل على توثيق المعري بينها . وانها لمصادفة سعيدة أن
نجتمع في يوم واحد تهتف بنا غاية واحدة، وتحدونا دعوة واحدة ، وهي اجلال
التراث العربي واعلاء شأنه ورفع مناره .



كلمة وزير المعارف

منذ عشرة قرون خلت شهدت مرة النعمان مولد ابنها البار أبي العلاء
فما كانت لتعلم أو لتعلم أن هذا المولود سيكون له شأن كبير في عالم الشعر
والحكمة وفي دنيا الأدب وإن قصائده سيرتلها كل لسان ينطق بلسان القرآن
ولم يخطر لها على بال أن ضريحه سيصبح في مستقبل الأيام مزاراً لأعظم
الأدباء وكبار الكتاب والبلغاء وفحول الفصحاء والشعراء يؤمونه ليضعوا على
مرقد أكاليل من أزهار الشعر وفنون الأدب جادت بها عقولهم وطبائعهم
وصاغتها قرائهم الفياضة .

سادتي : ودعت دمشق عيداً لتستقبل عيداً جديداً نثرت عليه روعتها
الف عام . دمشق التي عرفت أجداد بني أمية الأعظمين فاستمعت ربوعها
إلى شعرائهم الميامين . دمشق التي رددت جنباتها أصداء مجالس الخلفاء وحفلت
مغانها بحلقات الأدباء ستزحف بمن اجتمع من أعظم رجالات الأدب والعلم
من كل قطر عربي إلى مرقد أبي العلاء لتؤدي فروض التكريم والاحترام لروح
هذا الفيلسوف الكبير اعترافاً بجميل الصنع وبيض الأيادي .
إن تكريم العطاء في حياتهم والاحتفال بذكراهم واقامة مهرجانات لهم
بعد مماتهم سنة حسنة منها السلف من أهل العقول الراجحة .

إن دمشق لترحب بجمهرة رجالات الأدب من الطراز الأول وتفخر
لمرور هذه النجوم في سماءها ومن رأى في هذا اليوم البهيج بردى ونهيرات
النيرين تصفق بالرحيق ومن رأى حور دمر والفوطتين تتمايل بالقدر الرشيق
عرف أي تحية أكبار واعجاب ترسلها دمشق إلى هؤلاء الضيوف الاختيار
وعرف أي عاطفة زهو وغبطة وخيلاء يبعثها هذا الحدث العظيم .

شرقم يا سادتي لتشاطرونا الاحتفال بهذه الذكرى فأهلاً ومرحباً بالزوار
الأكرام والضيوف الأعظم الوافدين من وادي النيل العزيز وأرض الكنانة

والقادمين من بلاد الرافدين وعاصمة الرشيد أهلاً بأعلام المشرق والمغرب ثم أهلاً فشكراً لكم وللقائمين على هذا المهرجان التاريخي في ظل حضرة صاحب الفخامة الرئيس الأول وفي عهده الميمون تحقق له الأفضة وترنو إليه العيون .

سادتي الأكارم : هاهي ذي الف عام تنقضي على رسالة شيخ المعرفة وهي عامرة في نفوس الناطقين بالضاد باقية لتضيء سبل الأدب والحكمة خالدة على وجه الدهر . فهي خير ذخيرة لرواد الأدب تنير قرائهم وتلهب شعورهم وتصل عقولهم غذاها أبو الملاء من روحه وقلبه ونور بصيرته ستحملون يا سادتي هذا المشعل العظيم الذي خلفه المعري — ومن أخرى منكم بهذا الشرف — من عاصمة بني أمية إلى مرقد ابن الوليد ومن مدينة أبي الفداء إلى مرقد المعري فحاضرة سيف الدولة ثم إلى الشاطيء السوري . وستشخص إليكم العروبة بأبصارها وتصيخ إلى كلكم بأسماعها .

سادتي : ما كان المعري يحفل بالتكريم في حياته ولكنه واجب في أعناقنا تؤديه نحو الأجداد ودرس يفيد منه الأُحفاد نحتفل بذكره اليوم فالذكرى تنفع المؤمنين وأي نفع عميم توحيه ذكرى الشيخ الحكيم .

ان ذكرى المعري توحى إلينا أموراً كثيرة من سياسية واجتماعية وثقافية وترشدنا إلى تقائص عديدة نحن بحاجة ماسة إلى المبادرة لاستكمالها . أما السياسة فلها أربابها يعالجونها بقدر ما تسمح لهم الظروف وحسب مقتضيه المصلحة . وأما الناحية الثقافية فمن أجدر بها منكم فمعالجتها موكولة إليكم وفي ذمتكم وإيجاد الحلول الموفقة لها من خصائصكم . تنتظر الأئمة منكم تسيين المناهج لوحدة الثقافة في الأقطار العربية ووضع المصطلحات العلمية والفنية وإيجاد معاجم لها على اختلاف أنواعها ورسم خطة رشيدة للأدب يمكن معها لجيلنا الحاضر أن يشق طريقه على نور هديها وغير ذلك .

كان الأدب ولا يزال القائد الأعلى المطاع في معارك الحرية ووثبات الشعوب .

فيا أمراء البيان وأئمة لغة القرآن عليكم المول في سد هذه الثغرات

واليك المرجع في تدارك هذه الحاجات فالشباب متعطش إلى ما تركم الحميدة ومتشوق إلى نتائج مواهبكم الحميدة .

سادتي : لم يكن للمعري في حياته شغف في السياسة ولم يلتفت إليها بل كان منصرفاً بمجموعه إلى الأدب والشعر والفلسفة ولكن الأحداث والوقائع التي كانت تجري حوله لم يغب عنه أثرها ولم يكن مرتاحاً إلى نتائجها وعواقبها . كان يشعر بتفكك في عرى الوحدة العربية وبضعف في سلطان الخلافة والملك . فمن ذلك الضعف والتفكك نشأت دويلات عديدة كانت إلماً على بعضها . هذا ما أثار نفس أبي العلاء الحساسة وألهم شعوره فأرسل صيخته ندوي في الآفاق مردداً هذه الأيات :

ولو أني حيث الخلد فرداً لما أحييت بالخلد انفراداً

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاداً

هذه دروس ومواعظ القاها المعري على الناس وخلدها للأجيال القادمة فاستحق منها كل اجلال وتكريم واستحققت ذكراه التخليد والتأييد . إن عيدنا الأكرم يا سادة : هو اليوم الذي تتحقق فيه أمنية هذا الشيخ الحكيم ألا وهي الوحدة العربية الشاملة . فيرحمك الله يا أبا العلاء رحمة واسعة ويجعل مقرك الجنان وسلام الله على روحك الالية وسلام عليكم أجمعين .

نصري البخاري



كلمة رئيس المجمع العلمي العربي

سادتي ، سيداتي :

الاحتفاء بأبي العلاء ، والاشادة بذكراه ، دعوة إلى الأدب في أنبل غاياته ، وأعف مقاسده ، وإلى الأخلاق الكريمة ، والانسانية في مثلها العليا . فلقد كان أبو العلاء داعية رشد وسلام ، دعا إلى عالم يستحلي نظمه من عقل الحكيم ، وقلب الشاعر ، وورع الزاهد ، وتقوى العابد ، ونزاهة المخلص ، يظله الاخاء والسلام ، وينكر الظالم والخصام .

لقد مثل أبو العلاء الأدب العربي أشرف تمثيل في حياته وسيرته وآثاره ، وكانت ذكراه بعد الف سنة من مولده مظهرًا من أشرف مظاهر الأدب العربي ، اشتركت بها الدول العربية وسعى اليها وسام فيها الصفوة من أعلام العلم والأدب في الأقطار العربية ، وشاركهم في هذا العمل نجبة من كبار المستشرقين . فسيخطب الخطباء ، وينشد الشعراء ، ويتلو الباحثون العلماء في حفلات هذا المهرجان بدمشق والمرة وحلب واللاذقية ما لا يدع مقالاً لقائل ولا مجالاً لجائل في أبي العلاء وما اليه ، فضلاً عن البحوث والفصول والقصائد التي بعث بها من لم يقيس لهم الحضور ، فلهم جميعهم جزيل الشكر ، من سعى بنفسه وتبحر مشاق السفر ، ومن بعث بالبحوث الممتعة .

لم يكد المجمع العلمي يقترح على الحكومة عقد هذا المهرجان حتى رحب به فضامة رئيس الجمهورية وشمله برعايته وعطفه وافتتحه بنفسه ، وشاء أن تسام بشرف الحفاوة به جميع البلاد الشامية ، لما في ذلك من تكريم الفضيلة والأدب ، وشد عرى التعارف بين مفكري العرب ، فأضاف إلى مآثره العديدة هذه المآثرة الجليلة .

كانت تبشير اجتماع كلمة العرب وجمع شملهم تلك الاسواق الأدبية التي

كانوا يعقدونها قبيل الاسلام ، يتبارى فيها الشعراء والخطباء . وهذا المهرجان بما سطع فيه من مصابيح العلم والأدب في الأقطار العربية ، مجتمعين في صعيد واحد ، لغاية واحدة ، رمز لاجتماع الكلمة وجمع الشمل . « والتاريخ يعيد نفسه » كما يقولون ، « وما أشبه الليلة بالبارحة » كما نقول .

وانه لمن يمن هذا المهرجان وسعد طالمه أن يتفق عقده في دمشق وعقد مؤتمر الوحدة العربية في الاسكندرية في يوم واحد ، وقد بدت تبشير السلام تكشف دياجير الحرب ، وتطلعت النفوس الى عالم كعالم أبي الملاء مبني على الحق والرافة والمواخاة الانسانية .

قال كارلايل في كتاب الابطال : (لو خیرنا بین أن نترك شكسبير أو بلاد الهند ، لقلنا سواء أحكنا الهند أم لم نحكمها فلا غنى لنا عن شكسبير . فسيجيء يوم يصبح فيه أبناء بريطانيا مبعثرين في نواحي الكرة وحينئذ يكون شكسبير الملك الذي يضمنا جميعاً) .

وهذا يوم نرى فيه أدب أبي الملاء من شعر ونثر ، وسيلة لاجتماع مفكري العرب ما بين المغرب الأقصى واليمن ، ورمزاً لتوحيد كلمتهم وانتظام عقدهم ، وآية لجمع الشمل ووصل الجبل ان شاء الله .

محمد كرد علي



الفصول والغايات

سيدي صاحب الفخامة الرئيس

سيداتي وسادتي

لو استشير ابو العلاء في هذا المهرجان الذي نقيمه الآن احتفالاً بعيد
الآلاني لما حفل بالعيد ولا أقر المهرجان فقد كان ازهد الناس في هذه المظاهر
وأشدهم انصرافاً عنها ونفوراً منها . ولكنه من غير شك كان يرضى بعض
الرضى عن هذا الحفل الذي يقام لآحياء الأدب في ظل الدولة التي كان يتمناها
ويدعو اليها ولكنه لا يظفر بها ولا ينتظر أن يكون الظفر بها قريباً . في ظل
الدولة التي لا يظلم زعمائها الرعية ولا يستجيزون كيدها ولا يمدون مصالحها
وهم اجراؤها .

أظن ان هذه الصفة من صفات المهرجان هي التي كانت ترضى ابا العلاء
وتعلاء قلبه الحزين البائس غبطة وسروراً . فقد كان أبو العلاء ابد الناس عن
الآثرة وأقربهم الى الايثار وأشدهم نقداً للناس وأعظمهم رحمة للناس ايضاً .
ورحمته للناس وشوقه الى أن يراهم ناعمين في ظل العدل والامن والسلم هي التي
كانت ترضيه عن هذا المهرجان الذي تقيمه سورية في ظل حكومتكم العادلة
الكريمة الطامحة الى المجد الموقفة من الخير الى ما تريد سورية وإلى ما يريد
العرب لهذا الوطن الكريم .

والواقع أن من حق سورية أن تقيم هذا المهرجان وان تحتفل بذكرى ابي
العلاء وتحيي عيده الآلاني . فأبو العلاء نايبة الادب العربي غير مدافع وهو فذ
في هذا الادب لم يسبقه مثله ولم يلحقه مثله ، وانما كان منحة فريدة اتيح
له أن يمتاز بشعره وعلمه وفنه وفلسفته وسيرته من جميع الذين سبقوه أو جاؤا
بعده من الادباء .

هو نابغة الأدب العربي غير مدافع وهو في الوقت نفسه سوري خالص تستطيع سورية أن تفاخر به لا ينازعها فيه قطر من أقطار البلاد العربية ولا يخصها فيه مصر من أمصار البلاد العربية .

فقد كان لسورية قبل أبي العلاء حظ عظيم من المجد الادبي وفضل عظيم على الادب العربي . وكان لها شعراء يمتازون في تاريخنا الادبي المجيد ولكنهم لم يخلصوا لها كما خلس لها أبو العلاء . فلسورية أبو تمام والبحري بل يمكن أن يضاف اليها المتنبي ايضا . ولكن هؤلاء الشعراء وغيرهم قد نازعت فيهم أقطار أخرى فابو تمام قد ذهب إلى مصر وإلى العراق والبحري قد ذهب إلى العراق والمتنبي قد جاء من العراق وعاد اليه وكلهم تأثر بهذه البيئات البعيدة من سورية وأثر فيها بحيث استطاعت هذه البيئات ان تضيفه الى نفسها وان تفاخر به .

أما ابو العلاء فهو الشاعر السوري الخالص ولد في سورية ونشأ فيها وتوفي فيها ولم يغب عنها الا وقتا قصيراً ذهب فيه الى العراق ولكن دون ان يكون محتاجاً الى هذه الرحلة لتكوين شخصيته او إتمام نضجه أو تحقيق شهرته . وأبو العلاء يحدثنا وهو صادق اذا تحدث بأنه لم يحتاج الى استاذ ولا معلم منذ بلغ العشرين ونحن نعلم انه رحل إلى العراق حين قارب الاربعين وان شهرته كانت قد سبقته الى بغداد قبل أن يصل اليها بزمن طويل .

فمن حق سورية اذن أن تستأثر بأبي العلاء وأن تفخر بأنها قد منحت الادب العربي نابغة الفذ . ولكن سورية كشاعرها الفيلسوف تكرة الاثرة أشد الكره وتحب الايثار اعظم الحب وهي من أجل ذلك لا تفاخر ولا تكأثر وانما تدعو الاقطار العربية وغير الاقطار العربية لمشاركتها في أحياء عيد أبي العلاء لا لأنه مجد سورية بل لانه مجد العروبة ومجد الانسانية كلها .

وقد أقبلت وفود هذه البلاد العربية تكرم أبا العلاء في سورية وتكرم سورية في أبي العلاء وإني يا صاحب الفخامة لعظيم الحظ من السعادة والنبطة حين أحمل اليكم وإلى سورية وإلى اخواننا الذين يشاركون في هذا المهرجان تحية مصر صادقة خالصة يملؤها الوفاء والاخاء . وحين أعلن ان مصر قد

قدرت من سورية هذه العاطفة الكريمة وهذا الوفاء النبيل للمجد العربي وهذا الحرص الكريم على احياء هذا المجد باقامة هذا المهرجان . وقد رأت مصر أن تشارك سورية في احياء هذا المجد العربي للقديم مشاركة متواضعة فقررت حكومتها ان تنشر آثار ابي العلاء أو بعبارة ادق كل ما يمكن الحصول عليه من آثار أبي العلاء نشرًا علميًا صحيحاً وبدأت في ذلك بالفعل وحرصت على أن يأتي وفدها الى هذا المهرجان ومعه باكورة هذا العمل الذي لن يتم في عام أو أعوام قليلة ولكنه سيحتاج الى الجهد المتصل والوقت الطويل . . ويسر مصر ان تقدم الى المهرجان أول جهدها في هذا الموضوع وهو هذا المجلد الذي يشتمل على ما أمكن جمعه مما كتب القدماء حول أبي العلاء .

فقد رأت مصر ان يكون هذا المجلد مقدمة صالحة لآثار ابي العلاء يستطيع العلماء ان يعتمدوا عليه إذا أرادوا أن يدرسوا حياة شيخ المعرة ويعرفوا آثار القدماء فيه . ثم رأت مصر ان تكون مشاركتها في احياء ذكرى ابي العلاء متصلة بشخصه وبلده وقد علمت ان سورية قد جددت قبر الشيخ وأقامت الى جانبه مكتبة فقررت أن تشارك في هذه المكتبة وكلفني وزير المعارف ان أعلن ان الحكومة المصرية تبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السوروية بعض ما تحتاج اليه هذه المكتبة من الكتب .

والآن أريد أن أحدثكم عن كتاب الفصول والغايات وآسف أشد الاسف لأن الوقت لن يسمح لي بأن أحدثكم عنه فيما أحب من تفصيل بل فيما يستحق من تفصيل . فكتاب الفصول والغايات من أعظم آثار ابي العلاء خطراً في تاريخ الادب العربي ولعله أن يكون اعظم هذه الآثار خطراً في تاريخ الحياة اللائية نفسها . وأول ما أحققه من ذلك هو أن كتاب الفصول والغايات ، يؤرخ لنا فلسفة أبي العلاء تأريخاً دقيقاً وليس هذا بالشيء القليل . فابو العلاء يثبتنا به قد كان ينتظر الخير ويرقه دون أن يظفر به حتى اذا بلغ الثلاثين ولم يبلغ ما كان يريد وجه حياته وجهة جديدة (١)

وإذن فلم يطلب أبو الملاء فلسفته في بقداد ولم يجدها فيها وإنما ارتحل بها الى بقداد وعاد بها الى المعرة لم يصف اليها إلا هذه السيرة العملية الشديدة التي ألزمته داره . فاما ما عدا ذلك من فلسفته النظرية والعملية فأكبر الظن أنه قد دفع اليها شيئاً فشيئاً ثم ألزمها منذ بلغ الثلاثين أي قبل رحلته الى بقداد ببضع سنين .

وهذه الفلسفة الملائية نفسها معروضة في كتاب الفصول والغايات عرضاً واضحاً أشد الوضوح غامضاً أشد الغموض أن صح هذا التعبير فأبو الملاء كما تعرفون رجل أتعب نفسه وأتعب معاصريه وأتعب الناس بعده وسيظل يتعبهم الى آخر الدهر لأنه على صرامته وصراحته واستقامته في حياته العملية لا يسلك الطريق الواضحة المستقيمة في عرض آرائه وإنما يلتوي بها أشد الالتواء يصرح حيناً ويومئ أحياناً وهو معلم بطبعه وهو شديد على نفسه وعلى الناس وكل هذا يجعل عباراته غامضة ملتوية ويشغلنا بالفاظه عن معانيه وبأساليبه عن آرائه وبفنه عن دخيلة نفسه ومع هذا كله فإن فلسفته معروضة في الفصول والغايات عرضاً حسناً للذين يستطيعون أن يصابروه ويحتملوا صحبته الحلوة المرة اليسيرة الشاقة . وليست هذه الفلسفة الا فلسفة ابيقور قد لأم بينها وبين بيئته الاسلامية ملائمة رائمة حقاً حتى خدع عنها كثيراً من الناس فظنوها اسلامية خالصة ورأوا فيها مذهباً موروثاً من مذاهب الزهد والنسك .

وأكبر الظن أن فلسفة ابيقور قد وصلت الى أبي الملاء من طريق الطب اليوناني ومن طريق طب جالينوس بنوع خاص فقد كان أبو الملاء معجباً أشد الإعجاب بجالينوس قرأ طبعه مترجماً الى اللغة العربية ومفصلاً في كتب الطب العربي وهذه الفلسفة الملائية الابيقورية تقوم قبل كل شيء على انكار الملة الغائية التي يؤمن بها كثير من الفلاسفة وأصحاب الديانات جميعاً . فالأشياء لم تخلق بهذه الغايات التي نرى أنها خلقت لها . وكان من الممكن أن تخلق على غير صورها المعروفة ، وكان من الممكن أن ينظر الانسان بقدميه ويثم بمنكبيه

ويكي باصابعه . واذن فالعالم لم يخلق لنا والطبيعة لم تسخر لحاجتنا واذن فلا ينبغي ان نستحل منها كل ما نستحل ولا أن نستأثر بخيراتنا لانفسنا ولأن نؤلم الحيوان للذتنا ولا أن نظامه لمنفعتنا . فليس حقنا في الحياة بأكثر من حقه وليس لنا عليه هذا السلطان الذي نتحلله لانفسنا .

انما هذا كله غرور جاءنا من هذه الاثرة التي خيلت الينا ان العالم خلق من اجلنا وسخر لمنفعتنا هذا هو الاصل الاول من أصول الفلسفة العلائية التي نجدها في كتاب الفصول والغايات . والاصل الثاني هو أن من حقنا ان نستمتع بالذات الى أقصى حد ممكن ولكن هذا الاستمتاع لا سبيل اليه لانه لا يصح ولا يستقيم الا اذا خلا من الالم والظلم والعدوان . وليس الى هذا سبيل . واذن فالانصراف عن هذا الاستمتاع هو الخير كل الخير وهو الحق على الرجل الذي يعرف ما يأتي وما يدع . والاصل الثالث ان هذا العالم لم يخلق نفسه ولم يخلق عبثاً وانما خلقه إله ليس في وجوده شك وخلقته لحكمة ليس فيها شك ولكن عقولنا لا تعرفها ولا تستطيع ان تعرفها لأنها لم تمنح وسائل هذه المعرفة كما ان اجسامنا لم تمنح السلم الذي يوصلها الى الثريا .

هذه هي الاصول الاساسية لفلسفة ابي العلاء وهي كلها معروضة عرضاً دقيقاً في الفصول والغايات ولكن الوصول اليها شيء دونه أهوال . أهوال تأتي من اللغة ومن الاسلوب ومن حرص ابي العلاء على ان يكون معلماً وبراعته في هذا التعليم . فليس الفصول والغايات كتاب فلسفة فحسب ولكنه كتاب لغة قبل كل شيء أو كتاب تعليم للغة . هو مذهب من مذاهب الأُمالي والمقامات التي يقصد بها اصحابها الى استعمال الالفاظ في معانيها اللغوية المختلفة بحيث يكون استظهار الطلاب لها يسيراً . ثم هو بعد هذا كله أو قبل هذا كله ان شئت كتاب وعظ وارشاد وتعجيد لله وإشادة بقدرته وحكمته فليس فيه فصل الا وفيه كل هذه المعاني وليس فيه فصل الا وهو يقصد به الى كل هذه الاغراض والكتاب على هذا كله كتاب ادب بالمعنى الرفيع لهذه الكلمة . فيه فن رائع لا يجده عند غير ابي العلاء من الكتاب ، فيه تصوير للطبيعة على نحو ما صورها شعراء

الطبيعة من الجاهليين والاسلاميين ، وفيه تصوير للسماء على نحو ما صورها شعراء القدماء من جهة وأصحاب النجوم والفلك من جهة أخرى . وفيه تصوير للضمير ودخيلة النفس وما يثور في القلب من عاطفة وما يضطرب فيه من أماني وما يؤذيه من حرمان وما يخطر للعقل من خاطر وما يؤله من اليأس حين يعجز عن الوصول الى الحق وما يرضيه من هذه المتعة التي يجدها حينما يظفر ببعض الحق . كل هذا في كتاب الفصول والغايات ، وفيه أكثر من هذا ، فيه التزام ما لا يلزم فتأليف الكتاب على حروف المعجم لم تدع اليه ضرورة وانما هو شيء فرضه أبو العلاء على نفسه لينتقصي ما يستطيع استقصاءه من الفاظ اللغة وليأخذ نفسه بهذه اللذة المؤلمة والمشقة الحلوة التي يجدها الانسان حين يكلف نفسه ما لا يطيق الناس ثم يرى انه ينهض بهذا التكليف في قوة وأيد وقهر للمصاعب واقتحام للعقاب .

وقولوا مثل ذلك فيما يلتزمه في السجع والغايات من القيود المخرجة ، بل فيما يلتزمه حين يلائم بين الكلمات في أثناء الفصل الواحد من القيود التي لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك عن شيئين أما أولهما فقد تساءل عنه القدماء واختلفوا فيه اختلافاً مصدره الحب والبغض وهو هل أراد أبو العلاء في كتاب الفصول والغايات إلى معارضة القرآن ! فأما أنا فأجيب على هذا السؤال في غير تكلف ولا تعمل فقد كان أبو العلاء أذكى قلباً وأرجح عقلاً وأنفذ بصيرة وأشد تواضعاً وأحسن علماً بطاقته من أن يحاول هذه المعارضة أو يقصد اليها . ولكنه كان كغيره من أدباء المسلمين معجباً بالقرآن مكبراً له مقدراً لروعته الفنية فليس من شك في أنه كان يتثقل أو يستحضر بعض أساليب القرآن حين كان يفكر في كثير من الفصول والغايات . يذهب في ذلك مذهب كثير من أدباء المسلمين لا ليجد فيه ولا نجد فيه نحن جرجاً ولا جناحاً .

أما السؤال الثاني فلا أعلم أنه خطر لأحد من القدماء وهو مع ذلك سؤال له خطره في تاريخ أبي العلاء . فأبي الكتاين سبق صاحبه الى الوجود ، وكان أصلاً له ومؤثراً فيه . الفصول والغايات ام اللزوميات . اما انا فأكاد

اقطع بأن الفصول والغايات هو الذي سبق إلى الوجود، وهو الذي أنشأ اللزوميات انشاءً وما بين أيدينا من كتاب الفصول والغايات كله يدل على ذلك دلالة قاطعة. فأبو الملاء يترجم ما لا يلزم على نحو من الانحاء في الكتاب كله وفي قوافيه بنوع خاص. واكبر الظن أن أبا الملاء قد حاول التزام ما لا يلزم في كل شيء من حياته وفي إنتاجه الأدبي حتى أصبح هذا الفن له ملكة كأنه طبع عليها فكان يؤدي في هذا الفن ما يريد أن يؤديه من المعاني شعراً أو نثراً ولكنه بدأ بالتزام هذا الفن في النثر رغبة في التعليم وتيسيراً على الطلاب. أثرون أن أبا الملاء على كثرة ما اختلف الناس فيه قد كان فياسوف الرأي والحياة وكان مع هذا كله أديباً عالماً شاعراً كاتباً طرق من فنون الأدب والعلم العربي الاسلامي ما لم يتح لأديب غيره أن يطرقه فجنى بذلك على نفسه وجنى على الناس. جنى على نفسه حين حير الناس في أمره فزعم له بعضهم الفلسفة ونفى عنه الشعر وزعم له بعضهم الشعر ونفى عنه الفلسفة ويوشك قوم من الناس أن ينفوا عنه الشعر والفلسفة جميعاً وجنى على الناس بهذه الحيرة التي اضطرم اليها وورطهم فيها فاختلفوا وما يزالون يختلفون وسيظلون يختلفون في أمره. أشاعر هو أم فيلسوف! أكاتب هو أم عالم أم معلم! والواقع أنه قد جمع هذه الخصال كلها وجمعها على أحسن شكل وأجمل انسجام وأروع فأخذ من الشعر خلاصته ومن الفلسفة الانسانية صفوتها ومن علوم اللغة وآدابها ما لم يجتمع لأحد غيره من العلماء والأدباء وجنى على نفسه وجنى على الناس، ولكن أي نابغة لم يجن على نفسه ولم يجن على الناس. أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى بنبوغه ليسعد الناس أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى على الناس ويكلفهم من أمره وأمرهم شططاً ليعبوا ويمجدوا ويظفروا وينتجوا ويستمتعوا. وهل تظنون أننا كنا نستطيع أن نجتمع لهذا المهرجان لو لم يشق أبو الملاء على نفسه وعلى الناس.

طه حسين



الفيلسوف الحر

قف بالمرّة وامسح خدها التراب
واستوح من طيب الدنيا بحكمته
وسائل الحفرة المرموق جانبها
يا برج مفخرة الأجداد لا تهني
فكل نجم تمّ في قرارته
والمالم الحائر الجبار هل وصلت
وهل تبدلت روحاً غير لاغية
وهل تخبرت ان لم يأل منطلق
أم أنت لاحقاً تدري ولا مقة
وهل تصحح في عقباك مقترح
نور لنا ، اننا في أي مدج

واستوح من طوق الدنيا بما وهبا
ومن على جرحها من روحه سكبها
هل تبتغي مطمحا أو ترتجي طلبها
ان لم تكوني لأبراج السما قطبا
لو انه بشماع منك قد جذبا
كف الردى بحياة بعده سببا
أم لا تزال كأمس تشكي اللغبا
من حر رأيك يطوي بعدك الحقبا
ولا اجتواء ولا برءاً ولا وصبا
مما تفكرت أو حدثت او كتبنا
مما تشككت ان صدقا وان كذبنا

* * *

أبا العلاء ، وحتى اليوم ما برحت
يستزل الفكر من عليا منازلها
وزمرة الأدب الكابي بزمرة
تصيد الجاه والألقاب ناسية
من قبل الف لو انا نبتغي عظة

صناعة الشعر تهدي المترف الطربا
رأس ليمسح من ذي نعمة ذنبا
تفرقت في ضلالات الهوى عصبا
بأن في فكرة قدسية لقبا
وعظتنا أن نصون العلم والأدبا

* * *

على الحصر وكوز الماء يرفده
أقام بالضجة الدنيا وأقمدها

ودهنه ورفوف تحمل الكتبنا
شيخ أطل عليها مشفقاً حذبا

بكي لأوجاع ماضيها وحاضرها
وللكآبة ألوان وأفجعها
تناول الرث من طبع ومصطلح
وألهم الناس كي برضوا مغبتهم
وان يمدوا به في كل مطرح
لثورة الفكر تاريخ يحدثنا
ان الذي ألهم الأفلاك مقوله
لم ينس ان تشمل الأنعام رحمته
حنا على كل منصوب فضمه

* * *

سل المقادير هل لازت سادرة
وهل تعمدت ان أعطيت سائبة
هذا الضياء الذي يهدي لمكنه
فان فخرت بما عوضت من هبة

* * *

تلمس الحسن لم يمدد بمبصرة
ولا تناول من ألوانها صوراً
لكن بأوسع من آفاقها أمداً
بعاطف يتدفق كل معتلج
وحاضن فزع الأطياف أنزلها
أهوى على كوة في وجهه قدر
وقال للعاطفات العاصفات به
الآن يشرب ما عتقت لا طفحاً
الآن قولي اذا استوحشت خافقة
هذا البصير يرينا بين مندرس
زبحية الليل تروي كيف قلدها

ولا امتري درة منها ولا حلبا
يصد مبتعد منهن مقتربا
رحباً ، وأرهف منها جانباً وشبا
خفاقه ويزككه إذا انتسبا
شعافه وحباها معقلاً أشبا
فُسد بالظلمة الثقبين فاحتجبا
الآن فالتمسي من حكمه هربا
يخشى على خاطر منه ولا حيبا
هذا البصير يرينا آية عجا
رث العالم ، هذا المرتع الخصب
في عرسها غرر الأشعار لا الشها

لعل بين العمى في ليل غربته
وساهر البرق والسمار يوقظهم
والفجر لو لم يلد بالصبح يشربه
والصبح ما زال مصفراً لمقرنه

وبين فحمتها من الفسة نسبا
بالجزع يخفق من ذكراه مضطربا
من المطايا ظماء شرعاً شربا
في الحسن بالليل يزجي نحوه العبا

* * *

يا عاريا من نتاج الحب تكربة
نموا عليك ، وأنت النور ، فلسفة
وحلوك ، وأنت النار ، لاهبة
لاموجة الصدر بالهدين تدفه
ولا تدغدغ منه لذة حاملاً
حاشاك ، انك اذكي في الهوى نفساً
لا اكذبك انت الحب منهم
كم شيع الأدب المفجوع محتضراً
صرعى نشاوى بأن الخرد لعبتهم
ارتهم خير مافي السحر من بدء
عاني لظى الحب بشار وعصبتة
وهل سوى أنهم راحوا وقد نذروا
هل كنت تخذل اذ ذابوا واذ غبروا
تأبى انحلالاً رسالات مقدسة

وناسجاً عفة اراده القشبا
سوداء لا لذة تبني ولا طربا
وزر الذي لا يحس الحب ملتها
ولا يشق طريقاً في الهوى سربا
بل لا يطيق حديث اللذة العذبا
سمحاً وأسلس منهم جانباً رطباً
بالجور يأخذ منا فوق ما وهبا
لدى العيون وعند الصدر محتسبا
حقى اذا استيقظوا كانوا هم اللعبة
واضمرت شر ما قد أضمرت عقبا
فهل سوى أنهم كانوا لها خطبا
للحب مالم يجب منهم وما وجبا
لو لم ترض من جماع النفس ما صعبا
جاءت تقوّم هذا العالم الخربا

* * *

يا حافر النبع مزهواً بقوته
وشاجب الموت من هذا باسمه
ومحرج الموسر الطاغى بنعمته
والتاج اذ تحدى رأس حامله
وهؤلاء الدعاة الماكفون على

وناصراً في مجالي ضعفه القربا
ومستمدداً لهذا ظله الرجا
ان يشرك المصر الخاوي بما نهاها
بأي حق واجماع به اعتصبا
أوهامهم ، صنم يهدونه القربا

محمد مرہدی الجواہری



(١) نقات هذه القصيدة عن بعض الصحف لأن صاحبها لم يبعث بها الى المجمع

أبو المراءى المعري

شاعر أم فيلسوف ؟

- ١ -

بين الشعر والفلسفة صلة وثيقة . فكلاهما يعتمد على الحقيقة . ويحاول إدراك الأشياء إدراكاً حراً صحيحاً عميقاً . ثم يعرضه بأسلوبه الخاص . فإذا كان الفيلسوف يجعل همه درس الأشياء ليعرف ماهيتها وما بينها من صلات بحيث يؤثر هذا الدرس في سلوكه ويكسبه براعة في فهم الأمور ومعالجتها فإن هم الشاعر أيضاً أن يظفر بهذا الدرس نفسه ثم يؤدي ثمرته فكراً صائباً وشعوراً صادقاً .

- ٢ -

هذا هو الأصل العام الذي يجمع بين الشاعر والفيلسوف . ومنه يظهر أن موضوعهما واحد : الله ، والانسان ، والطبيعة . وإذا كان هناك ما يميز بينها فذلك يكون في الطريقة . طريقة التناول والاداء . فالفيلسوف يؤدي الحقيقة عارية خالصة . والشاعر يؤديها مغمورة في الشعور .

والفيلسوف يتناول الأشياء مؤثراً باحثاً مقررراً والشاعر يتناولها متأثراً ناقداً مصوراً . كل منها يعالج الشعور الانساني . إلا ان الفيلسوف يدرسه مستقلاً عن عقله كأنه مادة خاضعة للتحليل الكيميائي ولكن الشاعر يعالجه ممزوجاً بعقله ويضيفه على فكره ليذيقه فيه . فالشعور عند الاول سيء خارجي بخلافه عند الثاني .

كذلك الخيال فإن كان فروضاً علمية فهو اداة الفيلسوف وإن كان 'مصوراً' مبداً كان لغة الشعور وميزة الشاعر ،

بقيت لغة الرجلين . فاللغة عامة رموز مبهمة قاصرة لا ضبط للمدلولاتها إلا في الأعلام وأسماء الأماكن . أما المدلولات المعنوية فلا تستطيع اللغة ضبطها ضبطاً دقيقاً بهذه الألفاظ . ومع ذلك فلغة الفيلسوف أدق دلالة وأضيق تحديداً وأكثر اصطلاحاً لاعتمادها على معانيها الوضعية أو القاموسية ، ولكن لغة الشاعر دونها في هذه الأوصاف لأنها تؤدي معاني ثانوية لازمة يحملها عليها الشاعر بما يتصوره في الأشياء ، لذلك كان من حق الشعراء أن يحوروا في مدلولات الألفاظ تحويراً واسعاً لتستوعب المعاني الفنية التي تدور في نفوسهم . ومن هنا كان الخطر الكامن في تفسير الشعر بهذه اللغة العادية التي ترد في المعاجم .

كل من لفني الشاعر والفيلسوف أدنى إلى القصد والابحاز إلا أن إيجاز الشاعر من باب الرمز والاكتفاء وإيجاز الفيلسوف من باب المطابقة والتحديد الدقيق . لغة الفيلسوف مقيدة لأنها وسيلة ولغة الشاعر أكثر حرية إذ هي عناية لا بد أن يتوافر لها قسط من الجمال الموسيقي الذي يلائم ما تؤديه من شعور صادق وحقيقة ناصعة . وأخيراً لاغنى للشعر عن الفلسفة ليكون قيم المعاني خالداً بجانب جماله الفني الأصيل وعلى الشاعر أن يكون فيلسوفاً أولاً ليقم فنه على أساس من الصواب والعمق ، فإذا ما دخلت الفلسفة مجال الشعر وخضعت لصياغته الفنية صارت سهلة مستساغة . وامتزاجهما معا هو المثال الكامل في الآداب . وهنا نذكر ما قاله ابن رشيق : « والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر فإن وقع فيه شيء منها فيقدر . ولا يجب أن يجعل نصب العين فيكونا مثثكا واستراحة . وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس وحرك الطباع . فهذا هو باب الشعر الذي وضع له لا ما سواه » . (١)

وهذا النص يوحى إلينا بأمور :

منها أن مقياس الشعر الأول هو الانفعال وأما الثقافة أو الافادة فليست من باب الشعر على حد تعبير ابن رشيق .

(١) المدة ٤ ج ١ ، ص ٨٣ مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧

ومنها أن الفلسفة لذلك أدب آخر غير أدب الشعر لقيامها على النفعية العقلية . وخير لها الا تتصل بالشعر إلا لما ما دامت غير مؤثرة ولا مطربة . ومنها ان النقاد السابقين فهموا الشعر على انه ضرب من التصوير غايته التأثير واتخذوا البحتري مثال ذلك بخلاف الحكميين ابي تمام والمتنبي . ولعل الجاحظ من شيوخ هذا الرأي .

وعندنا أن هذا الرأي يذكر للشعر صفة أساسية هي أظهر صفاته ولكنها ليست وحدها أم ما فيه فان جانب الفكرة خطير في الشعر لا يستقيم له تأثير بدونه . . . والواقع أن الشعر ضرب من التفكير والتصوير والتعبير . فإن أراد ابن رشيق بالفلسفة هذه الحكمة العارية والتقرير العلمي فله عذره ولا أدري إذا كان قد وضع نصب عينيه هو هذه الصور الثلاث في الشعر العربي

- (١) صورة البحتري بجمال تصويره وحسن تعبيره .
- (٢) وصورة المتنبي بحكمته الشائمة وعبارته القوية .
- (٣) وصورة المعري بفلسفته الخالصة وأسلوبه التقريري .

— ٣ —

وإذا رجعنا الى تاريخ الشعر العربي لم نجده يخلو من النظرات الفلسفية في كل خطواته لأن التفكير الشعري هو تفكير فلسفي أيضاً . ولكننا نقصد الآن إلى الإشارة الخاطفة إلى بعض المعالم الواضحة التي عالج فيها الشعر العربي رأياً واضحاً أو مذهباً مستوياً من جانب الفلسفة .

(١) ومن أقدم ما عرفنا من ذلك ما قال طرفة بن العبد في معلقته إذ تناول بأسلوبه الشعري مذهبه في الالحاد والشك في الآخرة والسخرية بالمتحرجين حوله . والحرص على اللذة متهاكاً عليها . ولقد كان طرفة في عرضه هذا مثال الشاعر الذي جمع بين وضوح المذهب وقوة العقيدة وصدق الشعور ، وكان لذلك صداه في أسلوبه الموسيقي الرائع . وكان امتزاج الفلسفة بالشعر عنده مثالا كاملاً عرفناه فيما بعد عند أبي نواس من المستهترين .

ومن المناسب ان نذكر هنا زهير بن أبي سلمى حين دعا إلى السلم أيام الجاهلية الحمراء ثم طائفة الصعاليك من الشعراء الذين ناروا على اثره الاغنياء في الجاهلية وصوروا نزعتهم هذه بشعر قوي جميل .

(٢) وفي القرن الثالث الهجري لما أخذ الشعر في سبيل الحضارة ظهر أبو تمام وأخذ يفلسف الشعر وإن لم يكن هو فيلسوفاً وبذلك صار رأس أصحاب المعاني في الشعر .

ظفر أبو تمام بثقافة ممتازة من فلسفة ولغة ودين ونحو وأدب وتاريخ وعقائد وقد ظهرت معالم ذلك في شعره .

ثم وهب ذكاء نادراً ، وحساً دقيقاً ، وإخلاصاً لفن الشعر عميقاً يتكى فيه على نفسه ويذيب له مخه في سبيل تنميته وتجويده وتوليد معانيه ليكون فناً جميلاً نافعاً يجمع بين جمال التصوير وعمق التفكير .

لذلك شاعت في نظمه معان غريبة وحكم منشورة في ثنايا قصيده فعد بذلك أحد الحكميين وصاحب مذهب التجديد لما عد البحري شاعر المحافظة أو عمود الشعر .

ولكن أبا تمام أصيب بعد ذلك بالغلو في البديع فاعتمد على الجناس والطباق ، والاستعارة فوق الغريب من اللفظ والطريف من المعاني فأفسد بتكلفه هذا قسماً من شعره غير قليل ، ولعل هذا التكلف كان خطوة أولى للزوميات أبي العلاء وإن اختلف التكلف بينهما فردده عند أبي تمام الترقيش الفني وعند أبي العلاء الرصف اللغوي .

وبذلك اجتمع في شعر أبي تمام خواص كونت شخصيته الفنية من معان جديدة ، وصور بديمة . وألفاظ غريبة ونقل للشعر من فن للتصور إلى فن للتصوير والتفكير . والذي يعيننا هنا أنه كان خطوة جريئة في استحالة الشعر العربي — أو الاسلامي — لما زواج بين الفكرة الفلسفية وبين الصياغة الفنية ولقي عناء ذلك لاأخذه المسألة بقوة صارمة ، فهذا شيء . . . وشيء آخر هو أن حكمته قليلة منشورة في قصائده وأن الفلسفة عاشت عنده على هامش الشعر لم تفره ، وإن ذكاه كان العامل المباشر في معانيه التي

سماها الناس فلسفة ، وأنه لم يحفظ للشعر مكانته فتكسب به ، وإن حفظ له صنعته الدقيقة كما قال : —

خذها مثقفة القوافي ، ربها لسوانح النماء غير كنود
حذاء تملأ كل أذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد
كالدر والمرجان ألف نظمه بالشذر في عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنعم وشيه في أرض مهرة أو بلاد تزيد
(٣) وجاء القرن الرابع ومعه المتنبي تلميذ أبي تمام فظفر كذلك بثقافة
عريضة لغوية ، ودينية وصوفية وفلسفية فوق ما أفاد من تجارب وألم
من حكم أرسطو .

وقد تمثل هذه الثقافة في ديوانه وصارت الحكمة أو المعاني الفلسفية
جزءاً من كيان فنه الشعري تحيا داخله وتقومه وبذلك نجد الفلسفة عنده
أدخل في الشعر منها عند أبي تمام كما نجدها محافظة على قواها إلى درجة
ملحوظة . فالتناسخ والحلول والمجوسية والمانوية وغيرها صريحة عنده يوردها
مرتبطة بمعاني الشعر على أنها أقيسة فنية أو براهين منطقية .

وكذلك الشأن في حكمته التي اكتسبها من تجاربه أو اقتبسها من المعلم
الأول ، فانها ترد في ثنايا قصيده ذات اعتبارين : مستقلة أو كأنها مستقلة في
صياغتها الفلسفية فهذا وجه ، ثم هي خاضعة لتيار القصيدة العام ولجوها ، وهذا
من شأنه أن يكسبها إلفاً ويخفف من طبيعتها الأصلية .

وأسلوب المتنبي لم يسلم هو أيضاً من الغريب البدوي ، والاصطلاح العلمي ،
والشدوذ في العبارة حتى غاظ النحاة وأعنت اللغويين ، وصار له نحو خاص . . .
ذلك لانحراف عبارته عن الصياغة المألوفة حتى قال أنصاره إن صناعته كوفية . .
ولعل أبا الطيب كان يتعمد ذلك جرأة منه وتحدياً للنحويين .

وناحية هامة نشير إليها دون تفصيل أيضاً هي أن المتنبي كان أستاذ
أبي العلاء الأول المحبوب سواء في ناحيته الفنية والعكرية أي أنه كان
أستاذه في الشعر والحكمة جميعاً ، فكان أبو الطيب مثال المعري في نظم

الشعر أيام صباه وشبابه . وإن كثيراً من المعاني التي احتفل بها أبو العلاء موجودة عند أبي الطيب .

إلا أن أبا العلاء كثيراً ما كان يأخذ المعنى وينحرف به عن طريق استاذه لما كان بين المزاجين من فروق . . فالميري مثالي والمتنبي واقعي .

وخلاصة ما نذكره هنا عن المتنبي أنه لم يكن فيلسوفاً وإن تفلسف في شعره ، وقد وردت حكمته في مواطنها المناسبة دون أن تنظم فصولاً ومقطوعات ، وأن ذلك مع قوة صياغته جعلها مقبولة وكسا من عريها الفلسفي الأصيل .

المتنبي ضاعف ما سبقه إليه أبو تمام واجتمع في شعره أشياء كانت مقدمة التحول النهائي الحاسم الذي نهض به أبو العلاء في هذا المضمار .

— ٤ —

فماذا فعل الميري؟ وبم امتاز؟

(١) حظي أبو العلاء بثقافة هي خلاصة الثقافة الإسلامية في القرن الخامس ، فكانت لغوية نادرة ، ودينية إسلامية ومسيحية ويهودية ومجوسية وأدبية وفلسفية وتاريخية ، فيها التنجيم والتصوف ، وفيها من كل شيء ، فكانت يونانية وفارسية وهندية مما فاض به شعره وثره .

(٢) بدأ حياته الشاعرة بتقليد المتنبي أستاذه المفضل فأخذ يحذو حذوه منذ صباه وفي شبابه أيضاً ، وبدأت علامات هذا التقليد باستعمال الغريب وفي الأخذ بالبدیع ، وفي المبالغة وتناول المصطلحات العلمية والفلسفية والدينية . أنشأ أكثر سقط الزند في شبابه وبلغ في بعض قصائده درجة الشاعر المثالي وبخاصة في مراثيته الدالية المشهورة في أبي حمزة الفقيه لأنه زواج فيها بين الشعر والفلسفة مزوجة خالصة دون أن تشوبها شائبة تفسدها من غريب أو بدیع أو التزام مالا يلزم فكانت هذه القصيدة من بين شعره

تاجاً على رأسه متألق الجواهر استوت بها عنده صنعة الشعر الأصيل ، فيها جمال الأسلوب الذي استهوى النقاد من البحري وجملوه من أجله الشاعر الفذ ، ثم تمتاز بعد ذلك بهذه المعاني الرائعة الدقيقة العميقة ، وبهذا الشعور السامي والاتقن الواسع . وعندي أن أبا العلاء كان بهذه القصيدة يرثي الدنيا جميعاً ويقف على هذا البرزخ بين الحياة والموت ، يبكي عدوان الآخرة على الأولى ويمجّب لسلطان الموت وسطوته .

ولو أن أبا العلاء اطرّد شعره كله أو أكثره على نسق هذه القصيدة ما قرّن به شاعر عربي آخر . وإذا ، كان يكون أبو العلاء سيد شعراء العربية غير مدافع وأولام جميعاً بالمكانة الأولى في هذا الفن الرفيع .

(٣) ولكن أبا العلاء حين اكتملت له شخصية الشاعر الكامل أخريات شبابه ، وانتهى عهد التقليد الفني نجده يتحول عن هذه السبيل تحولاً يكاد يكون عقوقاً لهذه الموهبة الرائعة كما يتحول عن حياته الاجتماعية ويعتز لها رهين الحبسين أو الثلاث ويصبح في حياته الحسية والأدبية إنساناً آخر .

خضعت حياته الحسية لأوضاع قاسية صارمة من الحرمان والزهد في الطعام واللباس وبفض الزواج والنسل ولزوم البيت وتحامي الناس إلا أن يكونوا طلاب علم ، أو زواراً معجبين يلمون به لحظات ، أو يكتبونه مجادلين . . . حياة أساسها التشاؤم والسخط واحتقار الحياة وإذلالها .

وأما حياته الأدبية فكانت عكس ذلك تماماً ، حرية في التفكير لا حد لها ، وغنى نفسي عزيز صان به نفسه وأدبه ، وتأمل عميق قد يفضي به إلى الحيرة والشك حين يمجز العقل أمام المعضلات ، وهو شك يمس الدين والعقل والحس والخير ، وكانت مناقشاته للديانات تنطوي على سخرية بها وبالأوضاع الاجتماعية وبهذا النفاق الانساني العام .

(٤) وفي هذه السجون الثلاثة نظم أبو العلاء « اللزوميات » في تمجيد الله وتنبية الناس وقد برأها من الكذب وتوخي فيها الصدق كما قال في

مقدمتها . ومع ذلك فقد ألم فيها بمسائل شتى من الفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية ثم العملية فوق ما فيها من عظات .

وتأليف هذه اللزوميات — من ناحية الشكل فقط — خاضع لخطة مرسومة ذات أبواب وفصول ولكنها أبواب وفصول شكلية تقوم على حروف المهجاء ، فكل حرف باب من أبواب القافية ، فصوله حركات تلحق هذا الحرف رفقاً ونصباً وجرّاً ثم سكوناً .

وقد تكلف أبو العلاء في لزومياته أشياء أخرى منها اللغوي فلم نجد ديواناً جمع من غريب اللغة ما جمعت اللزوميات ، ومنها المروضي بالتزام حرف أو أكثر قبل القافية فهذه قسوة أدبية وسجن للمعاني والآراء .

ثم استخدم الجناس بين آخر الأبيات وحشوها في مواضع شتى ، وبذلك فاق جميع من سبقوه من أهل هذه الصنعة النظمية والنثرية أيضاً .

(٥) والأمر الخطير أن هذا التعميد اللفظي لم يكن في صالح الفلسفة ولا الشعر ، إذا جاز لنا أن نعد اللزوميات ديوان شعر — ولعله لا يجوز — فقد كان أخرى بأبي العلاء الفيلسوف أو المتفلسف أن يؤدي آراءه أو مذهبه في عبارات مشورة واضحة قائمة على التقرير المعلي المنظم ليستطيع التشرح والتدليل ثم ليسهل على الناس الأخذ عنه بدلاً من هذا الاغراب اللغوي والتعميد اللفظي الشاذ .

ولكن أبا العلاء شاعر منذ حين فهل أبت عليه طبيعته ان يترك فنه الأول ؟ وإذا صح ذلك وكان لا بد من وصله بالفلسفة . . فما معنى هذا التصريف اللغوي والبدعي ؟ ! هذا التعميد إنما يعجب به الكلفون بحل المعميات اللغوية والذين يعطفون على أبي العلاء ولكنه إعجاب إلى حين يمجّد الجد وتطلب المعاني لدرسها ونقدّها فاذا بهم يضيقون به ويمدون حائلاً صفيقاً بينهم وبين ما ينبغي وأبسط قوانين البلاغة ألا يحول اللفظ دون المعنى وان يوفر جهد القارئ لدرس الأفكار وإدراك الصور لا غير ، فاللغة في

باب الفلسفة وسيلة خالصة وهي في الشعر جزء من الغاية على شرط ان تكون غاية من ناحية الوضوح والجمال لا من ناحية الاغراب والتعقيد .

وإذا كان قد سلم لأبي الملاء في لزومياته قطع تحققت فيها المزاوجة بين الماماني الفلسفية والصياغة الفنية فإنها قليلة في هذا الديوان الضخم ، بحيث لا تضفي على صاحبه صفة الشاعر ، إذ غلب عليها التقرير والسرء ، والتكرار والوعظ حتى عاد ديوان نظم . . . وإيته ديوان نظم فاسفي خلا من هذه الكلف الكثيرة .

(٦) والذي فات أبا الملاء ، فلم يُعِن به ، أن الفلسفة بقيت في ديوانه هذا عارية في الخالب لم يلبسها ثوباً فنياً من أسلوب الشعر كما حاول هوفي بعض سقط الزند وكما حاول من سبقه إلى حد كبير . . . إذاً ، لبقيت للأسلوب روعته وقوته وزهد عنه الابتذال . والغريب ، أو الطبعي ، أن هذه الكلف نجدها في اللزوميات ولا سيما التكرار المنظومة كما نجدها في اللزوميات المنشورة — أعني الفصول والغايات — وفي اللزوميات المنظومة والمنشورة معاً (ملق السبيل) فالأفكار معادة فيها جميعاً .

وقد أربى أبو الملاء على سابقيه في استخدام المصطلحات العلمية واتخاذها أقيسة وبراهين ليس فيها جمال الشعر وإن كان فيها نظرف النحويين والفقهاء . لم أنس أن هناك نوعاً من الشعور يحسه قارئ اللزوميات دائماً ولكنه شعور مصدره العطف على الميري ، وجانب الحياة الحزين الذي سيطر عليه ففتنى به آثاره ، وهذه الماماني الحكيمية السليمة . ولكن متى كان الحزن واليأس والفشل غاية الأديب ؟ ومتى كانت الفلسفة سلبية دائماً هدامة ؟

— ٥ —

أمامنا الآن — في باب النظم الملائني — سقط الزند الذي يمد ديوان شعر أبي الملاء ثم اللزوميات ديوان فلسفته ، فأيهما يمد نصه الأصيل ؟ وبمباراة أخرى هل أبو الملاء شاعر أو فيلسوف ؟

يذكره فريق من المستشرقين شاعراً فيلسوفاً وإن اختلفوا بعد ذلك في تقدير مكانته ولا سيما في الناحية الفلسفية .

يرى نيكلسون Nicholson أنه شاعر فيلسوف سجل في آثاره ميول التشاؤم والحيرة لمصر الانحلال الاجتماعي والفوضى السياسية .

وفون همر Von Hammer يمدّه شاعراً كأبي تمام والبحري والمتنبي ويميزه بالفلسفة . وأما فون كريمير Von Kremer الذي عني بدرس اللزوميات فإنه يمدّ أبا العلاء من أعظم الأخلاقيين « فلاسفة الأخلاق Moralists » وإن رأى فيه مرجليوث رجلاً شاكاً حيران . أراؤه سلبية . وليست أخلاقياته شيئاً بجانب ما أصيب به من شك وبأس ثم يعود نيكلسون Nicholson فيلاحظ أن آثاره خالية من المنهج الفلسفي وإن أفكاره شتتت غير منسقة . احتواها نظم معقد . لا تخلو من تناقض (١)

أما طه حسين فيرى أنه قد كان فيلسوفاً حقاً (٢) وقد أوضح هذا الجانب وبين آراء المعري في كثير من المسائل الفلسفية بناء على ما استخرجه من اللزوميات وهي مسائل تدخل في أبواب الفلسفة الطبيعية أو العلم الأدنى والفلسفة الرياضية أو العلم الاوسط والفلسفة الالهية أو العلم الاعلى ثم الفلسفة العملية . وبين مصادر هذه الفلسفة وردها الى الحياة والفلسفة اليونانية والهندية والفارسية ثم إلى الكتب الدينية على اختلافها . . . وهكذا دخل أبو العلاء مجال الدراسات الفلسفية على أنه فيلسوف نظم فلسفته في اللزوميات ونثرها في الفصول والغايات وفي بعض الرسائل ومع ذلك فهناك مأخذ على أبي العلاء الفيلسوف :

(١) أول ذلك أن أبا العلاء لم يبتكر شيئاً في الفلسفة يمد رأيه أو مذهبه أثر به في مجراها العام فإن فلسفته إما مأخوذة من أصول قديمة اختارها وآمن بها وإما تأملات في الحياة مردّها مألقي من تجارب وأحداث انتهت به إلى مثل

(١) رابع . Nicholson · Literary History of the Arabs pp - 313 - 320

(٢) ذكرى أبي العلاء . ص ٣٣٠ ط ١٩١٥ م

ما انتهت اليه عند الناس فكانت أفكاراً عامة .. ومهما يكن له من تسجيل لها وخضوع في حياته لسلطانها .. فهذه أقل درجات الفيلسوف .

(٢) ثاني ذلك حيرة أبي العلاء وتردده بين الآراء دون أن يقطع برأي في بعض المسائل أو في رؤوسها لذلك دعي عند بعض الأقدمين والمحدثين شاكا ، يؤمن بالعقل وينكره . ويقول بالجبر ثم بالاختيار ، ويتمنى الموت ويفزع منه ، وينتظر البعث ويسخر به .. ولا يرد على ذلك اصطناعه التقية والتعمية على الناس ، فهذا ليس شأن الفيلسوف على أن التردد إنما ينتاب الإنسان أول الامر ولا يلزمه .. والاصار لا أدريا .

(٣) ثالث ذلك طريقة الاداء وهذه لم تكن فلسفية بحال فقد رأينا أنه نظم فلسفة أو اختار النظم ليقيد بها آراءه والاصل أن تثر الفلسفة إذ كان النثر لغتها الطبيعية ولا يقال إنه نثرها في الفصول والغايات فإن هذا الكتاب أيضاً ليس إلا لزوميات ثرية أصابه من ضروب الإغراب والتعقيد والصنعة ما أصاب زميله . ومهما يمتد أنصار المعري لهذه الكلف وذاك الغموض فإنها يقللان من قراء المعري وتلاميذه .

وهناك أمر آخر يتصل بطريقة الاداء هو تشتت الافكار وانتثارها هنا وهناك بحيث لا تجتمع الافكار المترابطة في باب . هي آراء قد تتفق وقد تتخالف مع ذلك مما يشبه للناس ان آراء المعري خطرات طارئة . بصرف النظر عن قيمتها الذاتية .

هذه الاعتراضات معناها ان الناس يتقمون من أبي العلاء انحرافه عن السبيل الطبيعية وتمقيده حياته وأدبه وخضوعه لنوع من الاتكاس في عزله . ولكن هذا في الحقيقة أسف غير نافع . وخير لنا أن ننظر الى ابي العلاء كما وجد وان نتفح به في حدود ماهي* له دون أن نرجو منه مثالا لم تحققه الأيام . ونتيجة ماسبق ان ابا العلاء متفلسف . وأن إطلاق لفظ الفيلسوف عليه يجب أن يفهم على وضع خاص هو انه درس الفلسفة واصطنعها في حياته لا انه ابتكر في الفلسفة أو أخضعها لسلطانها .

- ٦ -

وفي الجانب الشعري يرى كثير انه شاعر ممتاز وربما عده بعضهم خير شعراء العربية مؤيدين دعواهم ببراهين :

منها انه الشاعر العربي الفذ الذي استطاع أن ينظم الشعر الفلسفي أو يزوج بين الشعر والفلسفة مزاجاً نادرة . في قسم من شعره حفظت للشعر قيمته وللأسف شيوعها وسلطانها ذلك في شبابه وأما شيخوخته فقد أثمرت لنا اللزومات . وفيها مقطوعات هي مثل في معانيها وعبارتها على الرغم مما قيدت به من لوازم .

ومنها صدق شعره الذي يصور حياته العقلية وال عاطفية تصويراً صحيحاً لآراء فيه . وصار الدارس غير محتاج إلى مصدر آخر يصحح به هذا المصدر الأصيل لفهم أبي العلاء ومنها انه نزه شعره عن الاتجار به في سوق المديح فحفظ لفنه مكانته . وهذه المسألة وإن كانت شكلية ولكن لها قيمتها في فن الشعر أيضاً متى حفظت له حريته وصدق شعوره وفتح باباً للفلسفة ليكون فناً نافعا جميلاً .

ومع ذلك فهناك من ينكر على أبي العلاء شاعريته :

يقول ابن خلدون في معرض التعريف بالشعر ووجوب جريه على أساليب العرب المعروفة للشعر : « كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب . (١) »

ويقول : « ولا يكون الشعر سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن ولهذا كانت شيوخنا رحمهم الله يعميرون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرقي الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعميرون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية كما مر فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق (٢) »

(١) المقدمة ص ٦٥٠ ط التقدم (٢) نفس المصدر ص ٦٥٦

وقبل ذلك قال ابن رشيق إن الفلسفة باب آخر غير الشعر لأنه يقوم على التصوير والتأثير ومرد هذا كله ، هنا ، ان المعري في اللزوميات ناظم لا شاعر لخروجه على الأساليب العربية لفن الشعر وإقحامه الفلسفة والحكمة فيه بدرجة جاوزت المألوف بل بدرجة أحواله نظماً ليس من الشعر في شيء .

ومعنى الأساليب العربية عند ابن خلدون هو الطبيعة التي جرى عليها الشعر العربي منذ نشأته إلى عهد أبي تمام ثم المتنبى والمعري . وهي طبيعة غلب عليها جمال التصوير وحسن التعبير المفضيان بالشعر إلى أن يهز النفوس ويحرك الطباع ومثال ذلك عند هؤلاء النقاد هو البحترى وأما المتنبى والمعري فقد خرجا على هذه الأساليب بما أكثر من الحكمة في الشعر أولاً . ثم بما ادخلها عارية أوتكاد محافظة على قوالبها العلمية التقريرية ثانياً فماد بها قولها نظماً ليس من الشعر في شيء .

هذا المقياس كما قلنا ليس بخاطيء إلا من ناحية ضيقة وقصوره عن الشمول ولا سيما حين مثوله بالبحترى تاركين سلسلة أبي تمام وصاحبه . فالشعر مقبول لحسن تصويره وجمال تعبيره كما هو الشأن عند البحترى . ولكنه مقبول أيضاً لسلامة تفكيره وقوة أسلوبه كما هو الشأن عند الآخرين . . فهذا وجه . وأما ناحية التأثير التي جعلوها مقياساً لجودة الشعر فلا شك أنها تتوافر في شعر أبي تمام والمتنبى وقسم من شعر أبي الملاء .

المسألة ، إذاً ، مسألة هذه الفلسفة الملائية واحتلالها ميدان الشعر فأما إلى حد اتصالها بالشعر فهذا شيء طبعي بل هو الاصل وإنما الكلام بعد ذلك في مسألة الكم والكيف . أي إلى أي مدى يتسع لها هذا الفن الرفيع ؟ وكيف يستسيغها أو كيف يمرضها على القراء ؟

لا شك أن كثرتها تؤثر في جمال الشعر وقوة تأثيره وخير أن يأخذ منها هذا الفن باعتدال ، لا يقل حتى يمود الشعر صوراً وعبارات فقط كما قال الاقدمون ولا يكثر حتى يمود الشعر نظماً ثقیلاً مملولاً . . على أن المسألة في الحقيقة مسألة الكيف وهي طريقة المرض فإن كانت الفلسفة عارية خالصة

تقريرية كانت النتيجة ذلك النظم الذي يضيق به الناس جميعاً ويتجاوز دائرة الشعر، وإن كانت معروضة في صياغة فنية ، بحيث تذوب الآراء في أساليب الفن فانها تكسبه قوة ولا تفقده الجمال .

ولا شك أن الأقدمين كانوا على صواب حين وجهوا تقديم الى اللزوميات أو الى كثرتها على أساس المقياس الشعري فوجدوا فيها رسماً فلسفياً وقيوداً لغوية عروضية بدئية يمتقها الشعر ويمجها الذوق . . ولكنهم لم يضعوها على مقياس النظم الفلسفي ، ولعلهم - لو فعلوا - كانوا يرون فيها رأياً آخر أدنى إلى الانصاف وأقرب إلى مزاج أبي العلاء وما أحاط به من مؤثرات . وعلى كل فهذا رأي القدماء في شعر أبي العلاء ، وهذا ما نراه نحن بحيال ما رأوا ، فهل هذا كل ما يؤخذ على أبي العلاء في لزومياته ؟

هناك ما أخذ آخرى متصلة بأبي العلاء الشاعر . فإذا أخذنا اللزوميات جملة لاحظنا هذا التكرار الكثير الذي يصرف القارئ ويخيل إليه ان المعري ضيق المادة الفكرية ، وقد يكون من دواعي هذا التكرار اضطرار أبي العلاء أن يملأ فصول ديوانه التي أدارها على حروف الهجاء وحركاتها الأربع . ولكن متى كان التعقيد مبرراً للتكرار ؟ ومتى كان عيب - يـمـيـغ عيباً ؟ وهناك التشاؤم الذي يطبع هذا الديوان طابعاً أسود ويشوه الحياة أمام الناس : أيصح أن يكون مادة لديوان كامل ، أم أن وظيفة الشعر تهذيب النفوس وحملها على الرضا واحتمال الحياة وإشاعة البهجة والسرور ، أم أن شيئاً من البكاء لازم لتصفية النفوس وتحقيق الاتزان في الحياة وبخاصة اذا كان ذلك عن طريق هذا الفن الرفيع ؟ مهما نقل من ذلك أو نبرره بأن وظيفة الشعر هي التعبير لا غير ، فإن أبا العلاء ساخط حزين نخشى أن يبعث اليأس في النفوس ، ويسلط عليها الأمل الضائع ، والألم المقيم . وقد ذكرنا هذا التعقيد اللغوي والعروضي والبديعي . وما قد يجوز على المعنى فيقصر أو يتر في سبيل هذه اللوازم ، وإنما نلاحظ مع ذلك أن معاني أبي العلاء المتناثرة التي حشدها في لزومياته أحالت قصائده مجموعات من الأبيات المتناثرة أيضاً ، بحيث لا نجمهما ، في الغالب ، إلا وحدة البحر والقافية . وبحيث أثر ذلك على وحدة القصيدة وتنسيقها العام .

هذه المآخذ تؤثر حتماً في مكانة المعري الشاعر . وتجعلنا نسأل أنفسنا : هل تكفي بعض قصائد في سقط الزند لتضع أبا العلاء في صف الشعراء الممتازين ؟ هل نستطيع أن نعد اللزوميات ديوان شعر وبها يكون أبو العلاء من رجال هذا الفن الرفيع ؟ وهناك مستشرق آخر هو الاستاذ — دي بور De Boer — تناول أبا العلاء الشاعر الفيلسوف فقال : « غلا البعض في رفع شأن أبي العلاء المعري (٩٧٣ — ١٠٥٨ م) فعدوه شاعراً فيلسوفاً وجعلوه في مكانة لا يستحقها . نعم لأبي العلاء في بعض الأحيان آراء معقولة وعواطف خليقة بكل احترام ولكنها ليست فلسفة . وليس القالب الذي صيغت فيه ، بما فيه من تكلف وبما يقلب عليه من ابتذال ، بالذي يسمو إلى منزلة الشعر ، ولو أن أبا العلاء عاش في ظروف خير من التي عاش فيها [كان ضريراً ولم يكن غنياً] لكان من المحتمل أن يقدر على الإجابة في شيء من النقد الاولي الذي يقوم على نقد الألفاظ ، وهو ، بدلاً من أن يدعو إلى محبة الحياة ، دعا إلى الزهد في ملذاتها ، وكان متبرماً بالأحوال السياسية بوجه عام ، وبآراء العامة في الدين ، وبمزاعم الخاسرة في العلم . غير انه لم يستطع أن يأتي في ذلك بمجديد . ويكاد أبو العلاء يكون خلواً من كل مقدرة على ربط الأشياء بمضاهيها . لقد كانت له مقدرة على التحليل ، أما التركيب ، فليس له منه نصيب . وتعاليم أبي العلاء عقيمة ، وعلمه كشجرة أصلها في الهواء كما قال هو في بعض رسائله وان لم يقصد أن يقول ذلك عن نفسه (١) »

لاشك ان دي بور وقف عند اللزوميات وأخذها جملة على أنها ديوان شعر ، ثم كان مثالياً في نقد أبي العلاء الفيلسوف الشاعر .

— V —

والآن نجد أبا العلاء حيران بين الشعر والفلسفة ، فأين نضعه ؟ قد يكون من السهل أن نجتمع له بين الوصفين . فعنده فياسوفاً لهذه الآراء التي أشرنا إليها ، ونعده شاعراً لقصائد في سقط الزند ومقطوعات من اللزوميات .

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٧٧ من الترجمة العربية .

وقد يكون من الجائز أن تنفي عنه الوصفين ، لقلة روايته الشعرية مع كثرة آثاره
النظمية فلا يكون من الشعراء المعدودين ، وإن تقف عند تردده وعدم ابتداعه ،
فلا نمدحه من الفلاسفة الأولين .

ولكننا نمود ففسأل : لم يقرأ المعري ؟ أسلوبه الفني الرائع أم لأفكاره
وتأملاته ؟

لاشك أن الناس يقرأون أبا الملاء في الاصل والاكثر لجانبه الفكري ،
وحكمه الخالدة وشكوكه الرائعة . فهذا هو السبب الأساسي لقبال الناس عليه
وصبرهم على لزومياته .

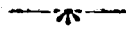
ونتيجة ذلك :

أنا إذا قسنا أبا الملاء بمقياس مثالي كان أبو الملاء متفلسفاً .

وأما إذا حكمنا عليه بمقياس مقتصد فإنه يكون فيلسوفاً .

أحمد السائب

أول شوال سنة ١٣٦٣ هـ } القاهرة في
١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ م



الحفلة الثانية

في دمشق

لما انتهت الحفلة الخطابية الاولى عاد أعضاء المهرجان إلى فندق (اوريان بالاس)، حيث اقام المجمع العلمي لهم مأدبة عشاء دعا اليها أعضاء الحكومة والوزراء السابقين وعلماء دمشق وأدباءها ووجهاءها .

وفي اليوم الثاني أعد المجمع برنامجاً لزيارة الأماكن الاثرية في دمشق ؛ فبكر أعضاؤه إلى الفندق ، وصحبوا الوفود الى متحف دمشق ، والجامع الأموي ، ودار المجمع العلمي العربي ، ودار الكتب الظاهرية ، وقبر صلاح الدين الأيوبي ، وجامع الشيخ محي الدين بن العربي ، والبيارستان القيمري . ولما انتهت الزيارة عاد أعضاء المهرجان الى فندق (اوريان بالاس) لحضور وليمة الغداء التي أقامها وزير المعارف تكريماً لهم .

وما ان حان موعد الحفلة الخطابية الثانية في الساعة الخامسة بعد الظهر حتى توافد المدعوون إلى الجامعة السورية . وكان اقبال الناس على هذه الحفلة لا يقل عن اقبالهم على الحفلة الاولى . وكانت الخطب تذاق من محطة دمشق ، وتنقل بمكبرات الصوت الى الاماكن البعيدة . أما برنامج الحفلة الثانية فقد كان على الوجه الآتي :

١ - الأستاذ أحمد أمين : سلطان العقل في نظر المعري

مثل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
وجميع فؤاد الأول

٢ - الأستاذ محمد اسعاف المنشاشيدي : التفاؤل والاثريّة عند المعري
عضو المجمع العلمي العربي

- ٣ - الاستاذ محمد البرم :
عضو المجمع العلمي العربي
ابو العلاء « قصيدة »
- ٤ - الأستاذ ألفريد غليوم :
من جامعة اكسفورد
المعري في نظر المستشرقين
- ٥ - الاستاذ عارف النكدي :
عضو المجمع العلمي العربي
المعري من الوجهة الاصلاحية
وقد تخلل هذه الحفلة دور موسيقى غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق قطعة
من شعر أبي العلاء . وهي :
- يا ساهر البرق أيقظ راقدا السمر
وان بخلت عن الأحياء كلهم
ويا أسيرة حجلها أرى سفها
ماسرت الا وطيف منك يصحبنى
لو حط رحلي فوق النجم رافعه
يود أن ظلام الليل دام له
ولما انتهت الحفلة الخطائية دعي أعضاء المهرجان الى حفلة عشاء أقامها
المجمع العلمي في حديقة المتحف حضرها الوزراء ورؤساء المعاهد العلمية
ورؤساء المحاكم وكبار الأساتذة والموظفين .
وفيا يلي نص الخطاب التي القيت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

سلطان العقل عند أبي العلاء

يرى الفاري لثراث أبي العلاء — وخاصة اللزوميات — اشادة بالعقل واعترافاً بقوة سلطانه فهو أعز ما وهب الانسان .

والعقل أنفـس ما حـبـبـتْ وان يُضـعَ يوماً يَضَعُ، فغوى الشراب وما جلب وهو الهادي الوحيد لمعرفة الخير والشر والحق والباطل فلا حاجة الى انتظار امام معصوم يرشد الناس الى ما يعمل وما يترك فالعقل كفيل ببيان ذلك كله .

يرتجي الناسُ أن يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظنُّ لا امام سوى العقل — مشيراً في صبحه والمساء
ولكن الناس في كل زمان ما قدروا العقل قدره ولا وفوه حقه ولا عرفوا
كيف يتفعمون به .

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من أخبارهم طرف
يخبـر العقل أن القوم ما كرموا ولا أفادوا ولا طابوا ولا عرفوا
عاشوا طويلاً وماجوا في ضلالتهم ولا يفوزون — ان جوزوا — بما اقترفوا
بالعقل والتفكير الصحيح تنقشع الغيوم وتنجاب الظلاء وتهون الصعاب
وتتكشف الحقائق .

اذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ما صعبا

خذوا في سبيل العقل تهذبوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج
ولا تطفئوا نور الملـيـك فانه تمتع كل من حجى بسراج

فكروا في الامور يكشف لكم به — ض — الذي تجهلون بالتفكير
والدنيا مملوءة بالتجارب ولكن التجارب طير اختبأ في عشه انما يستطيع
أن يصيده من منحن العقل والعمر

ان التجارب طير تألف الحمرا يصيدها من أفاد اللب والعمر
والعقل هو المرأة الصادقة ترى فيها الحقائق ، لا كلام الناس والاخوان
أرى اللب امرأة اليبس ومن يكن مرآته الاخوان "يصدق ويكذب
وانما يقيد العقل ويمنعه عن ادراك الحق والعمل به ما ركب فيه من
طبع وشهوات فالعقل مغلولاً بالشهوات كالشمس يحجبها الغمام .

يتحارب الطبع الذي مزجت به مهجُ الأثام ، وعقلهم ، فيغله
ويظلم ينظر ، مما سناه بنافع كالشمس يسترها الغمام وظله
حتى اذا حضر الحمام تبينوا ان الذي فعلوه جهل كله

واللب حارب فينا طبعاً يكابد حربه

* * *

والعقل أحسن هاد لفعل الخير وترك الشر وخير الخير ما أتاه صاحبه
لأنه جميل لارغبة في مشوبة ولا خوفاً من عقوبة
عليك العقل وافعل ما رآه جميلاً فهو "مشتارُ الشوار
ولا تقبل من التوراة حكماً فان الحق عنها في قوار

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها
وأخيراً فالعقل نبي صادق من اتبعه رشد ومن صد عنه غوى
أيها الثران "خصصت بعقل فأسأله فكل عقل نبي
وهكذا وهكذا ملئت اللزوميات بهذه المعاني وكررت على أشكال مختلفة
نكتفي منها بهذا المثل لندل به على قيمة العقل في نظره وسلطانه والاعتداد
به ولننظر بعد كيف استخدمه

لقد حمل على نضج عقل أبي الملاء ذكاؤه الفطري واطلاعه على الفلسفة
اليونانية وصداها في الفلسفة الاسلامية وطول تفكيره وتأمله الذي اعانه
عليه وحدته وعزلته وتجرده من شواغل الدنيا ما استطاع .

وفي الفلسفة اليونانية لون زاه من ألوان العقلية والعقليين الذين يرون
للعقل الحق المطلق في الحكم على الاشياء والبرهنة على صحتها أو بطلانها ولا
يؤمنون بشيء ، ولا عقيدة ولا تقاليد ولا مواضع الا اذا قام البرهان العقلي

م (٤)

على صحتها ومالم يقم البرهان العقلي عليه لا يسلّمون به مهما كانت السلطة التي تحيي به — وبذلك أخضع هؤلاء اليونانيون كل شيء للعقل وسلطانه ، فكما خلقوا العلوم الرياضية بمقولهم كذلك خلقوا الفضائل والرذائل بمقولهم وقرروا النظم الاجتماعية وأشكال الحكم السياسية بمقولهم من غير ان تملئها عليهم أية سلطة خارجية فالعالم عندهم عالم عقلي والانسان ضال مالم يكتشف قوانين نفسه وقوانين الطبيعة حوله بفعله ويسر على القوانين التي توائم بين نفسه والعالم الخارجي كما يرشد اليه عقله .

قرأ أبو العلاء هذا وتأثر به تأثراً عميقاً يدل عليه ما أشرنا اليه قبل من تمجيد للعقل وسلطانه ولكنه من ناحية أخرى نشأ في الاوساط الدينية وقرأ تعاليمها وتعمق مبادئها وهي تقضي بأن وراء العالم المادي المنظور عالماً روحانياً غير منظور ، وإن كان السلطان في عالم المادة للقانون الطبيعي يدركه العقل فالسلطان في عالم الروح حق وان كانت آلة العالم المنظور وادراك قوانينه هو العقل فالآلة العالم الروحي وادراك قوانينه هو الوحي وفي هذا العالم الروحي الله لا العقل هو مصدر التشريع وهو المرشد الى الفضائل والرذائل وهو واضع الشعائر الدينية وهو الذي ربط بها الثواب والعقاب وعلى الانسان ان يطيع أوامر الدين ولولم يهتد الى بعضها العقل لأن قوة العقل في الانسان محدودة ووراء قوة العقل قوة الوحي

هاتان الصورتان - الصغيرتان جداً - اذا انعكستا في النفس سببتا الحيرة والاضطراب والقلق وقلماسلم من قلقهما الا من ألحد جداً فلم يخضع الا للحكم العقل أو آمن جداً فأسلم عقله لأيمانه وهناك أصناف من المذاهب الدينية والفلسفية أرادت التوفيق بين هاتين الصورتين بأشكال مختلفة مما ليس مقصداً الآن .

فلننظر الى ابي العلاء المعري كيف وقف من هاتين الصورتين ، كيف كان موقفه من سلطان العقل وسلطان الدين

لقد أعلّى شأن العقل كما رأينا وأراد ان يستخدمه على طول الطريق فبدأ ينقد به العادات والتقاليد ونظام الحياة الاجتماعية في عصره فكان في ذلك موفقاً كل التوفيق .

لقد نقد الملوك والأمراء لأنهم بوضعهم العقلي خدام الأئمة .

إذا ما تبينا الأمور تكشف لنا وأمر القوم للقوم خادم
فما بال هؤلاء الخدام يمدون عليها ويظالمونها
مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وهم يصدرون من الأوامر ما لا يتفق والعقل والمدل ثم ينفذون ما يأمرهم
بقوتهم وسلطانهم لا باقتناعهم فإذا نفذ أمرهم قيل ما أسوسهم
يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رياسته خساسة
وهؤلاء المسلطون على الناس لا عقل لهم ولا عدل عندهم شياطين في ثياب
ولاية لا يهمهم جوع الناس إذا ملئت بطونهم وخمرت رؤوسهم
ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل بخص الناس كلهم ان بات يشرب خمرأ وهو مبطان
وحول هؤلاء الولاية بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو اشد
قسوة لا يرحمون دمة مظلوم ولا صرخة مستغيث
يجور فينفي الملك عن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كأن وجوههم صفا لم يلين بالغيوث الهوامع
والتقصاة لا عقل ولا عدل
وأي امرئ في الناس ألني قاضياً فلم يعض أحكاما كحكم سدوم
وفقهاء صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام
كأن نفوس الناس والله شاهد نفوس فراش ما هنت حلوم
وقالوا فقيهه والفقيه مموه وحلف جدال والكلام كلوم
ووعاظ يقولون ما لا يفعلون ويأتون ما ينكرون
رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصبياء صبحاء ويشريها على عمد مساء
وشعراء ليسوا الا لصوصاً يمدون على من قبلهم في سرقة أقوالهم ويمدون على
الا غنياء بمديحهم لسلب أموالهم

وما شعراؤكم الا ذئاب تلصص في المدائح والشباب
أضربن تود من الأعادي وأسرق للمقال من الزباب (١)
وقوم تسودم الخرافة فيلجئون الى المنجمين والعرافين والمعزّمين وما لهؤلاء
بذلك من علم ولكن شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلات والمغفلين
متكهن ومنجم ومعزّم وجميع ذاك تحيل لمعاش

لقد بكرت في خفها وازارها لتسأل بالأمر الضرير المنجبا
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
ويوم جهال الهلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذي فوق صدره لجاء بمين أو أرمّ وجمجما

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد كم هوعائش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهماً وأتى الحمام وليدها في شهره
وبعد أن تقدم طبقات من الملوك الى القضاة الى الوعاظ الى التجار الى
النساء تقدم جملة ، فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون الا للفناء
وهكذا كان أهل الأرض مذفطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

لو غربل الناس كيما يمدّموا سقطاً لما تحصل شيء في الفرائيل
أو قيل للنار خصي من جنى ، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرايل

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم بر ولا ناسك الا الى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب
وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يصنفوا اليه ولم يلتفتوا له وتجاهلهم
عقل يرشد وطبع يُفوي فجروا وراء طبعهم وبصقوا على عقلهم
فأوسع بني حواء هجراً فانهم يسرون في نهج من الفدر لاحب

وان غير الاثم الوجوه فما ترى لدى الحشر الا كل أسود شاحب
إذا ما أشار العقل بالرشد جرم الى الغي طبع أخذه أخذ صاحب

واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية مالها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى وضع الجناح اصابه تعذيب

الى الله اشكو مهجة لا تطيعني وعالم سوء ليس فيه رشيد
حجى مثل مهجور المنازل دائر وجهل كمسكون الديار مشيد

العقل ان يضعف يكن مع هذه الداء يا كعاشق مومس تغويه
أو يقو فهي له كحرة عاقل حسناء يهواها ولا تهويه
فطبعك سلطان لعقلك غالب تداوله أهواؤه بالتشخص
سقيت شراباً لم تهناً بيرده فعنيت من بعد الصدى بالتفحص
وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه وكان في ذلك
موفقاً كل التوفيق ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك
عيوب المجتمع في جملة وتفصيله ويالج ظواهرها ويعمق في النفس الانسانية
في دقة وتحليل ومظهر توفيقه أيضاً أنه لم يتناقض في هذا الباب ولم يضطرب
ولم يجمع وجرى على وتيرة واحدة في صراحة ووضوح وانسجام
وسبب نجاحه في هذا أمران - الاول - ان الامور الاجتماعية والاخلاقية
التي نقدها هي في صميم اختصاص العقل فالعقل أداة صالحة لربط الاسباب
بالمسببات والامور الاجتماعية والاخلاقية تجارب تحدث فتحدث نتائجها تظلم
الملوك والحكومات فتسوء حال الأمة وتمدل فيصلح حالها وللوعاظ
غاية هي ارشاد الناس من طريق اعطائهم المثل بانفسهم والدعوة الى الخير
بالسنتهم فاذا لم تتحقق هذه الامور فالوعاظ شر وهكذا فكل ما نقده أبو العلاء
من هذا القبيل داخل في دائرة العقل والتجارب ، والاخلاق العقلية التي قررتها
الفلسفة اليونانية هي بعينها تقريباً الاخلاق الدينية لانها أيضاً نتيجة تجارب
لصالح المجتمع وقد نقدت مظاهر المجتمع والاخلاق من قبل أبي العلاء كما فعل

ابن المقفع مثلاً ولكن مهارته كانت في ابرازها ابرازاً فنياً رائعاً — والسبب الثاني في نجاحه في هذا الباب أن ناقد هذه الامور متمتع بكثير من الحرية فلا لوم على أحد اذا نقد المجتمع ونقد الاخلاق بل ان الناس يصفقون للناقد ويعلمون شأنه لأنه يدعوهم إلى الكمال المحب إليهم من أعماق نفوسهم لذلك صرّح بكل ما يريد في هذا الباب وهو آمن مطمئن فنحج .

بعد هذا انتقل خطوة أخرى في النقد أدق وهي تحكيم عقله في المسائل الدينية الشرعية الفرعية مثل اليد كيف تودى بخمسة دینار وتقطع في ربع دینار . تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نمود بمولانا من النار يد بخمس مئین عسجد وودیت مابالها قطعت في ربع دینار ومثل ان الاسلام جاء لمحو الأوثان والانصاب فكيف عظمت بعض شعائر الحج كاستلام الحجر الأسود وتقبيله ونحو ذلك .

ما الركن في قول ناس لست أذكرهم الا بقية أوثان وأنصاب إلى نحو ذلك وهذا النوع قد عرض له أناس من أول عهد الاسلام أرادوا أن يحكموا العقل في التمايل الاسلامية فصدوا كالتي سألت عائشة مابال المرأة تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة فقالت لها عائشة أحرورية أنت ؟ وكالذي روى أن ربيعة الرأي سأل سميد بن المسيب عن عقل أصابع المرأة ماعقل الاصبع الواحدة قال عشرة من الابل قال فاصبعان قال عشرون قال فثلاث قال ثلاثون قال فأربع قال عشرون قال ربيعة فعندما عظم جرّحها نقص عقلها ؟ فقال له سميد أعراقي أنت ؟ انما هي السنة .

ومن أجل هذا روي عن علي أنه قال لو كان الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخفين خيراً من المسح على ظاهرهما فجاء أبو العلاء ينقد على هذا النحو فلم يرتجّ لقوله وردّ عليه الشعراء المتدينون فيما قال . ثم خطوة أخرى أجراً وهي عرض الحديث والاخبار الدينية على عقله وصرخته بأن كثيراً منها لا يرتضيها العقل سواء في ذلك ما أتى به اليهود أو النصراني أو المسلمون .

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه
وغير بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبوه

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنًا ولكن فيها ضعف اسناد
فاشاور العقل واترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادي

هل صح قول من الحاكي فنقبله ام كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار

ضلت يهود وانما توراتها كذب من العلماء والاحبار
قد أسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا فتموا باسناد إلى الجبار
وإذا غلبت مناضلاً عن دينه ألقى مقالده إلى الاخبار

مسيحية من قبلها موسوية حكمت لك أخباراً بعيداً ثبوتها
وفارس قد شبت لها النار وادعت لنيرانها ألا يجوز خبوتها
فما هذه الأيام الا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

تقوّة دهركم عجباً فأصغوا إلى ما ظل يُخبّر ، ياسهود
إذا افكر الذين لهم عقول رأوا نبأ يُحق له السهود
غدا أهل الشرائع في اختلاف تُقضى به المضاجع والمهود
فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهود
ولم تستحدث الايام خلفاً ولا حالت عن الزمن العهد

دين وكفر وأبناء تُقضى وفر قان ينص وتوراة وانجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

إذا رجع الحصيف الى حجاج تهاوت بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يفسك جهل في صراها
والناس لا يحكون عقلهم في دينهم وانما هي تقاليد يتبعونها وعادات يجرون عليها.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بمحجي ولكن يعلمه التدين أقبوه
وطفلُ الفارسي له ولّاة بأفعال التمجس دربوه

في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدئمه وأن تفكر فيه معشر الحدوا
وأهل كل جدال يمسون به اذا رأوا نور حق ظاهر مجدوا

وقد سبقه المعتزلة إلى تحكيم العقل في الأحاديث وأنكروا منها ما لا يتفق
والعقل وخاصة «النظام» فقد كان ينكر الحديث في صراحة اذا كان عقله
لا يقره، لا يكتفي في الحكم على الحديث بالوضع اذا ضعف استناده ولكن أهم
من ذلك اذا لم يصبر أمام العقل ولكن أبا العلاء جرؤ على ما لم يجرؤ عليه
النظام وأمثاله وأراد أن يعرض الاخبار الدينية كلها أحاديث أو غيرها على
محك العقل وختم هذه المرحلة بقوله الشديد الجريء

تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من افتراها
فقال رجاله وحي أناه وقال الآخرون بل افتراها
وما حجني الى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها
اذا رجع الحكيم الى حجاجه تهاوت بالشرائع وازدراها
وقد كذب الذي يفتدو بعقل لتصحيح الشروع وقد مَرَضَنه

وقد قوبلت أقواله في هذا الباب ببعض السخط ولكنه سار فيه أيضاً بخطى
ثابتة غير مضطربة وانما قلت ببعض السخط لأنه صاغها صياغة عامة يحتمل
كثير منها التأويل في جانبه

بعد ذلك نأتي الى المرحلة الثالثة في تقده العقلي، وهي أخطر المراحل
واشدّها وأوعرها وهي التي تعرض فيها لصميم الدين هل الله موجود أو لا
وهل هناك وحي أو لا وهل هناك حياة أخرى أو لا وهل الانسان في هذا العالم
مجبور أو مختار — ما الحق في ذلك كله وأين أجده وكيف أجده؟

هنا كانت تتراءى له صورتان السابقتان المتعارضتان صورة الفلسفة

اليونانية ومن نحا منحاهما وهي التي تصوّر أن العقل وحده أداة المعرفة وهو وحده الذي يستطيع الوصول إلى الحقائق في ذاتها والمعارف التي تصلنا عن طريقه هي وحدها الحق ولا حق غيرها والصورة الدينية التي تصور أن الحق يأتي من الله على لسان أنبيائه وأن مرد الحق إلى الوحي لا إلى الفلسفة وأن مركز الحق في القلب لا في الرأس — لم يستطع أبو العلاء التوفيق بين الصورتين ولا أن يكون صورة واحدة مؤلفة منهما ولا أن يضع لهذه دائرة اختصاص ولتلك دائرة انما تركها كما هي اعتركان وكل ما فعل أنه كان ينظر أحياناً إلى هذه الصورة فتعجبه ويستلهمها فتلهمه وينظر أحياناً إلى الأخرى فتعجبه ويستلهمها فتلهمه ، ان نظر إلى الأولى ألهمته الحاداً وان نظر إلى الأخرى ألهمته إيماناً ينظر إلى الأولى فيتوقد ذهنه فلا يرى إلا أسباباً ومسببات ومنطقاً ونتائج ومقدمات لاتسلم إلا إيماناً فينكر وينظر إلى الأخرى فيخفق قلبه ويرهف شعوره فيتربح من نشوة الايمان وهو في كلتا الحالتين صادق معبر عن نفسه أصدق تعبير وهذا الموقف ليس بعيداً عن حال كثير من المثقفين في كل عصر فكم منهم يحار ويصدق ، ويلحد ويؤمن كالنفس تشدو لها أنعاماً حزينة فتحزن وأنعاماً سارة فتسر ، « إن الانسان يطغى أن رآه استغنى » وإذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا هو وأكثر مؤرخي أبي العلاء يخطئون لأنهم يتصورون في أبي العلاء وحدة الزمان والمكان والفكرة بل يتصورون نفسه الانسانية حجراً لاتعتريه حالات فمن اعتقد ايمانه تأول له آيات الكفر ومن اعتقد كفره لم يأبه بآيات الايمان والحق أن من أكفره صادق ومن جعله مؤمناً صادق كلاهما يصوّر حالة من حالات نفسه وما أكثر حالات التغير في النفس اليقظة المتوثبة ، ثم هو في حال إيمانه صريح لايحتاج إلى كناية أو مجاز فهو يتفق وآراء الجمهور وفي حال الحاده مضطر إلى الكناية والمجاز خشية من السوء ومع هذا فقد تستغويه الفكرة فلا يعبأ بالناس ولا يعبا بموته أو حياته .

لاتعيد لفظي عليّ فأني مثل غيري تكلمي بالمجاز

وليس على الحقائق كل لفظي ولكن فيه أصناف المجاز

اصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة وعند ذلك فاقعد كاذباً وقم

لاتخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وان تفعل فأنت مفرر
لنعد إلى موقف أبي العلاء من هذه المسائل الاساسية في الدين في
ضوء هذا الرأي هل الله موجود؟ الازوميات مليئة بالاجابة بنعم .

إذا كنت من فرط السفاة معطلا فياجحد اشهد أنني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلاً وأزعم أن الأمر في يد واحد
فأني رأيت الملحدين تمودهم ندامتهم عند الأكف الواحد

تعالى الله كم ملك مهيب تبدل بعد قصر ضيق لحد
أقر بأن لي رباً قديراً ولا ألقى بدائمه بمجحد

للملك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات اماء
فاللهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنشرة والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ماما بك في قول ذلك الحكماء
خاني يا أخي أستغفر الله فلم يبق في الا الذماء

ليفعل الدهر ما يهيم به ان ظنوني بخالقي حسنه
لاتياس النفس من تقضله ولو أقامت في النار ألف سنه

هو الفلك الدوار أجراه ربه على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له العز لم يشركه في الملك غيره فياجهل انسان يقول لي الملك
الح الح

وأحياناً أخرى تجد له ما يجمع به في الانكار كقوله :
أما الاله فامر لست مدركه فاحذر لجلك فوق الارض إسقاطا

مق عرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وقد عرضه

هل الكون قديم أزلي كما قال أرسطو أو هو مخلوق فان كما يقول
الدين ؟ أحياناً هذا وأحياناً ذاك فمن ناحية يقول :

وليس اعتقادي خلودَ النجوم ولا مذهبي قدمَ العالم
ومن ناحية أخرى يقول :

إذا صح ما قال الحكيم فما خلا زماني مني منذ كان ولا يخلو
أفرّق طورا ثم أجمع تارة ومثلي في حالاته السدر والنخل

خالق لا يشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدمُ هذا قبله آدم على إثر آدم
هل الانسان في هذا العالم مجبر أو مختار ؟
أما أكثر شعره فالقول بالجبر

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

جبلة بالفساد واشجة ان لامها المرء لام جابلها
وأحياناً يميل إلى الاختيار ومسئولية الانسان

لا ذنب للدنيا فكيف تلومها واليوم يلحقني وأهل نحاسي
عنب وخمر في الاناء وشارب فمن الملوّم أعاصر أم حاسي
وأحياناً يرى التوسط بين الجبر والاختيار

لا تمش مجبراً ولا قدرياً واجتهد في توسط بين بينا
هل هناك بعث وحياة أخرى ؟

أحياناً نعم وأحياناً لا
فنعم كقوله

وما انا يائس من عفو ربّي على ما كان من عمد وسهو

أما الحياة فلا أرجو نوافلها لكنني لإلهي خائف راجي

أأصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

واني لأرجو منه يوم تجاوز فيأمر بي ذات العين الى اليسرى

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعما ل الى دار شقوة او رشاد

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر او صح قولي فالخسار عليكما

ضحكنا وكان الضحك مناسفاة وحق لسكان البسيطة ان يكوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك
و « لا » كقوله

خذ المرأة واستخبر نجوما تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ولكن لا تدل على النشور

مالي بما بعد الردى مخبره قد ادمت الأنف هذى البره
الليل والاصباح والقيظ والابراد والمقبره
كم رام سبر الامر من قبلنا فنادت القدرة لن تسبره

دفنهم في الارض دفن تيقن ولا علم بالارواح غير ظنون
واخيراً هل هناك وحي وانبياء او لا

الجواب ايضاً نعم ولا

فنع في مثل قوله

ام الكتاب اذا قومت محكمها وجدتها لاداء الفرض تكفيكما
لم يشف قلبك فرقان ولا عظة وآية لو اطعت الله تشفيكما

افلة الاسلام ينكر منكر وقضاء ربك صاغها واتى بها
و « لا » في مثل قوله

افيقوا افيقوا ياغواة فانما دياناتكم مكر من القدماء
ارادوا بهاجم الخطام فأدر كوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

قالت معاشر لم يبعث الحكم
وانما جملوا للقوم مأكلة
الى البرية عيساها ولا موسى
وصيروا لجميع الناس ناموسا
ولو قدرت لماقت الذين طفوا
حتى يعود حليف النبي مرموسا

ان الشرائع القت بيننا احتناً
وهل ايجت نساء القوم عن عرض
واودعتنا افانين العداوات
للعرب الا باحكام النبوات

هفت الحنيفة والنصارى ما هتدت
اثنان اهل الارض ذو عقل بلا
ويهود حارت والمجوس مضلله
دين وآخر دين لاعقل له
وهكذا وهكذا

لقد فكر ابو الملاء طويلاً بعد هذه المرحلة الطويلة واستعرض ما فكر وما قال فماذا رأى؟ رأى تناقضاً في الفكر، وفي القول، يسلمه التفكير يوماً الى الشيء انه أبيض فيعلمه ثم يسلمه يوماً آخر الى انه اسود فيعلمه فاذا هو آخر الامر يعلمه انه اسود وايض معاً ومحال ذلك، أيها الحق اهو اسود ام ابيض، لا بد ان يكون اسود فقط او ابيض فقط أما اسود وايض معاً فضلال، وما هذا العقل الذي يسلمني الى الشيء وقيضه؟ عند ذلك صرخ من اعماق نفسه بأنه حائر لم يوفق، ضال لم يهتد وان ليس في الناس من يستطيع هدايته فكلمهم اما عاقل لادين له او دين لاعقل له وهو يريد ان يكون ديناً عاقلاً، والمطمئنون الذين استطاعوا ان ينجوا من الحيرة مقلدون لم يؤمنوا عن فكر وعقل فهو لاء ضالون لتقليدهم وهؤلاء ضالون لحيرتهم فلا امل في هؤلاء ولا هؤلاء ان تجد عندهم هادياً والعقل وما ادراك ما العقل؟ اسلمت له قيادي فلم يسلم لي قياده، وآمنت به كل الأيمان وفضلته على كل الاديان وجعلته نبياً من الأنبياء ونوراً يلمع في الظلماء فلم يؤد رسالته ولم ينقع غلته فلا كفر به كما كفرت بغيره ولا أنكر سلطانه كما انكرت كل سلطة ولا كسر قيادتي التي غنيت عليها في مدحه ولا أضع اناشيد اخرى في ذمه فهذا هو الجزاء الوفاق لمن وفيت له فلم يف لي واكبرت شأنه فأصغر شأنني وركنت اليه فحيرني جربت النقل فلم اطمئن اليه وجربت العقل فلم اطمئن اليه فلا أرفع علم الشك واعلن ان لا يقين.

سألت عقلي فلم يخبر وقلت له سل الرجال فما أفتوا ولا عرفوا
قالوا فمانوا فلما أن حدودهم إلى القياس أبانوا المجز واعرّفوا

أرواحنا ممنا وليس لنا بها علم فكيف إذا حوتها الاقبر
سألغوني فأعيتني اجابكم من ادعى انه دار فقد كذبا

أصبحت في يومي أسائل عن غدي متحيراً عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي ان اظن وأحدسا

وقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاب على التظني

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة أي المعاني باهل الارض مقصود
لم تعطنا العلم أخبار ينجي بها نقل ولا كوكب في الارض مرصود

انما نحن في ضلال وتعليق فان كنت ذا يقين فهاته
ولحب الصحيح آثرت الروم م انتساب الفتى الى امهاته
جهلوا من ابوه الا ظنونا وطلا الوحش لاحق ببهاته

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس تنصادم
لقد تركت الدنيا للدين والنقل للعقل ولذة المادة للذة الروح فلا افدت هذا
ولا ذاك واخيراً

رحلت فلا دنيا ولادين نلته وما اوبقي الا السفاهة والخرق

عقدة أبي العلاء اتت من عظمته وضعفه نبع من قوته - قد منح
عقلا قويا دائب النشاط يريد ان يطحن كل شيء يصل اليه ليعرف كنهه وشمورا
قويا رحيا بالانسان رائيا لبؤسه رحيا بالحيوان معذبا نفسه في سبيل الرحمة به ،
ومثل هذا الشمور القوي يريد ان يؤمن ومثل هذا العقل يريد ان يواصل هذا
البحث حتى يصل الى الحقيقة ، ولكن - وهنا موضع العقدة - انه يريد ان يؤمن

بعقله كما آمن بشعوره والعقل ليس أداة صالحة لأدراك الغيب - ادراك الله والحياة الأخرى والوحي والملائكة وما الى ذلك انما خلق ليكون أداة للحياة الدنيا ووسيلة لحفظها وبقائها ورقمها وهو عاجز كل العجز ان يرسم بريشته عالم الغيب المجهول الذي لا يخضع لقانون سبب ومسبب ومقدمة ونتيجة وزمان ومكان وحيز وحدود .

لقد شغلت الفلسفة القديمة بالبحث وراء المادة فدارت حول نفسها ولم تصل الى نتيجة حتى جاءت الفلسفة الحديثة وعلى رأسها « كانت » فتحول بعض فلاسفتها من البحث فيما وراء المادة الى البحث في العقل نفسه ومقدرته على المعرفة وحدود ما يمكن ان يعرف وما لا يمكن ان يعرف ، ان العقل انما يستمد معلوماته من الحواس وكل البحوث في سائر العلوم حتى ادق العمليات الرياضية والهندسية منشؤها الحواس أعمل فيها العقل بالمقارنات وما الى ذلك والحواس لا تدرك من العالم الا بقدر فاذا انخفض الصوت عن قدر معين أو ارتفع عن قدر معين لم تسمع وهكذا العين والشم واللمس فكم في العالم من اشياء لم تدركها عقولنا لانها لم تدركها حواسنا - والعقل لا يستطيع أن يسير الا مستنداً على حواسه ولا يمكن أن يدرك من العالم الا مظهره هل يستطيع أن يدرك ما الضوء وما الكهرباء وما الجاذبية انما يدرك آثارها ومظاهرها هل يستطيع أن يدرك مركز نفسه وحقيقة شعوره كلا انما يدرك آثار ذلك في الحياة الخارجية - من أين أتينا أين كانت حياتنا قبل أن نحيا ماذا تكون حياتنا بعد ان نموت ما حقيقة علاقتنا بالعالم الخارجى حولنا كل هذه الأسئلة ومئات نحوها لا نعرفها ولا يستطيع العقل أن يعرفها ولم يتقدم العقل في ادراكها كما تقدم في العلم بقوانين المادة - كم في العالم من حجر مغلفة لم نعط مفاتيحها .

انما نشمر بالله وبالحياة الأخرى وبالمملكة الروحانية من غير أن نعقلها وتطمئن نفوسنا اذا آمنت وتقلق وتضطرب اذا ألحدت ، « لقد ارتفع برجسون » (الفيلسوف المعاصر) الى أوج الشهرة في أعوام قلائل لأنه دافع عن الاثاني الإنسانية وآمالها فكم اغتبط الناس واطمانوا اذ رأوا فيلسوفاً يصون لهم ما يرجون من خلود وما يمتقدون في إله وقال وليم جيمس « لقد بحثت في نفسي ولم أعلم ما هي وما شبهها وأين تسكن وكيف تتغير وكيف تكون مجبورة وكيف تكون

مختارة ، وتغير نظرياتي في ذلك من وقت الى وقت ولكن مع هذا أؤمن بنفسى وأؤمن أنها مركز لكل ما أعرف عن العالم حولي « كذلك الشأن في ادراك المبدأ والمنتهى والله والخلود ، انها عقيدة وإيمان لا قضايا منطق .

اعتبر الاديان كلها ، مبعثها ومظهرها ، تجدها تختلف باختلاف الالام ورقبها وطبيعتها وتتغلب عليها صفة من الصفات تكاد تكون كالمحور : كاللضحية ومعنى الابوة والرحمة والغفران واطاعة الاوامر والفن والجمال وانكار الذات والاحسان الى الجميع والشفقة على الحيوان والشجاعة والجهاد في سبيل نشر الدعوة ولكن كل هذه الصفات على اختلافها من قبيل العواطف والمشاعر ولم نر ديناً أتى بفلسفة عقلية - لماذا هذا وقع في الحب وهام بمن يحب ولماذا هذا جمدت عواطفه ولم يحب ؟ لا ادري ولست تستطيع أن تقنع المحب بالحجج العقلية حتى يسلو ولا ان تقنع من جمدت عواطفه حتى يحب - ان عقله قد يقيم البرهان على خطأ الحب وقد يمنعه من الزواج ولكن لا يستطيع ان يمنعه من الحب وهكذا الشأن في كل المشاعر وهكذا الشأن في الدين الذي في القلب لافي العقل - اذا بحث الدين بالعقل المجرد لم تكن النتيجة ديناً ولا فلسفة وانما شيء تافه اسمه « علم الكلام »

وقد اراد ابو العلاء ان يضم الى ايمانه بقلبه ايمانه بعقله فلم يستطع ، وكانت العقدة . ولو نام شعوره وانتبه عقله لألحد مستريحاً ولو نام عقله وانتبه شعوره لآمن مستريحاً ولو صحا عقله وشعوره ورسم لكل حدوده وعرف لكل دائرة اختصاصه لاستراح أيضاً ولكنه اراد ان يصل الى الفاكهة المحرمة على العقل فلم يفلح وقلق واضطرب كما يقلق ويضطرب - كل من خرج على قوانين الطبيعة وحاول الخروج على طبائع الاشياء لأن الدين يفذي حاجة من حاجات النفس لاغنى لها عنه الا اذا مرضت هذا هو السبب في انه تقد المجتمع فنجح وتقذ الاخلاق فنجح وتقذ الاخبار فنجح وتقذ الدين في صميمه فلم ينجح يعجبني وصف بعضهم لهيجل وصفا ينطبق على أبي العلاء انطباعاً تاماً اذ قال « انه رجل كفر عقله وآمن قلبه » كما يصدق عليه ايضاً قول جوته عن « فاوست » « انه عقل طمى على القلب فاشق صاحبه » وايا ما كان فهذه الشخصية الفذة الشخصية المؤمنة الكافرة لشخصية الفلسفة الحائرة اخرجت كل ذلك وكل ما كان يتناوبها من نبضات قلب وخطرات عقل في صور فنية رائعة امتعت الناس وان اشقت صاحبها فرحمه الله ورحمه الله .

احمد امين

أبو العلاء المعري

المتشائمون

الغزائل والابرية في كلام الشيخ

١

كان النبي محمد، وكان هذا القرآن، هذا الكتاب المعجز، فكانت تلك الدنيا العجيبة العربية، وكان مع الهدى والخير ذلك العلم وذلك الأدب وتلك الفنون، وكان أولئك الأئمة وأولئك النابغون وأولئك العبقريون، وكانت تلك المؤلفات الفائحات المحققات، وكان أولئك المؤلفون الراسخون في العلم المستبحرون. وكان هذا العبقرى أبو العلاء المعري (أحمد بن عبد الله ابن سليمان) رب هذا المهرجان. كانت الحضارة العربية وكانت هذه المدينة الغريبة ولن يقدر أن يكفر إفضال المفضلين كافرون. فمحمد والقرآن هما شأنا هذا المجد، وهما القائدان، وهما الهاديان، وهما الشمسان الباهرتان ذواتا الضياء السرمدي في العالمين [كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون — فاذكروني أذكركم واشكروا لي، ولا تكفرون]. [سورة البقرة آ ١٥١]

* * *

«دمشق عروس الشام المومقة، وواسطة عقدها المرموقة»
في دمشق هذه التي قلت فيها — يا أبا العلاء — قولك هذا في رسالتك الى (أبي منصور محمد) قدمه المهرج المريون لك اليوم هذا المهرجان بعد ألف سنة من سعادتك بكونك وسعادة العربية بك. وإن أمة أقامت من بعدك هذا الدهر الأطول تصارع الكروب والخطوب، وتقارع تلك الهمجيات الشرقية

— ٦٥ —

٢ (٥)

٣ • المهرجان الألفي

والوحشيات الغريبة ثم لم تبد بل لم تهين ولم تستكن ، إن أمة وقاها كتابها ووقت لغتها ولسان كتابها ، وعرفت قدرها في الأقدار ، وفضلها من قبل ، ومساها اليوم ، وأرادت ألا تزول وأن تكون فكانت ، أن هذه الأمة لقوية وعزيزة وسائدة وخالدة في الخالدين .

* * *

بلاد الشام جلها ، ولا أقول كلها ، و « أن مع اليوم غداً يأسعده (١) »
لا تردد كثيراً في هذا الوقت قول الشيخ :
ألفنا بلاد الشام ألف ولادة نلاقي بها سود الخطوب وحرها
فطوراً نداري من سبيمة ليها وحيناً نصادي من ربيعة نمرها
فالحال اليوم - يا أبا الملاء - متهاذن ، والدهرمهاذن ، وفي الدار من قبلك صالحون
وصادقون ومخلصون و « ما الخلاص إلا في الاخلاص (٢) » ، كما يقول أبو منصور
الثعالبي ورئيس القوم (٣) ملاّن من الفضائل الاسلامية ومن المرية والوطنية ،
وهو كما أحببت وكما أردت وكما قلت :
إذا ماتيننا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم .

لا يتركن قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكيناً .
وقد أتى بكثير الخير وأكثره ، ومهرجانك هذا هو حسنة من حسناته .

* * *

كونت المرية في اللغات تكوين الأملاس (٤) والراديوم في المدنيات .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء]

ولله أن يفضل لساناً على لسان ، وأن يحظي انساناً على انسان (٥)

[ورفنا بعضهم فوق بعض درجات]

(١) من امثالهم

(٢) في كتابه (المبهج) ورواه في كتابه (الايجاز والابحار) .

(٣) صاحب الفخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

(٤) هو الأملاس والمهزوزة واللام فيه اصلتان ، ولم يصب المجد في قوله : « ولا تقل الماس فانه

من لحن العامة » وقد وجدت (الأملاس) في الفائق ج ١ ص ٣٣٦ وفي النهاية لابن الاثير .

(٥) أحطيت فلاناً على فلان من الخطوة والتفضيل (المخصص) .

والشيخ يقول في (الفصول والغايات) : « وربك خص بالفضيلة من اختار »
واذا قال المبقرى ابن جني : « انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة
اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والركة ما يملك على جانب الفكر
حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » فما غالى بما قال ولا بالغ بل كان من المقتصدين
وهذا شيخ العربانيين العلامة الكبير (نلينو) الذي حذق لغات متقدمين ومتأخرين
من الغربيين والشرقيين يعالن في خطبة غير متمسح في الكلام ولا مصاد بأن
« العربية تفوق سائر اللغات رونقاً وغنى ، ويمجز اللسان عن وصف محاسنها »
« لغة العرب » أفصح اللغات وبلاغتها آتم البلاغات (١) « ولو تمثلت لغة عادة
لأنشد المنشدون :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن انسان من الحسن جنت (٢) .

فنتت هذه العربية (أبا الملاء) فتوناً وسحرته فنونها ، فأقبل رجلاً
مسحوراً . شغف بكتابتها (قرآنها) ذاك الشغف ، وكلف بقريضها أي كلف ،
وهام بالفاظها هيامه بأقوالها .

« ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالاعجاز . . . ما حذني على
مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . . . جاء كالشمس الأمتحة . . . لو فهمه الهضب
الراكد لتصدع (٣) [وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون] وإن الآية
منه أو بعض الآية ليعترض في أفصح كلام يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب
المتلألئ في جنح غسق [فتبارك الله احسن الخالقين] (٤) » .
« أجدني ركبكاً في الدين ركافة أشعار المولدين (٥) »

ومن علق بأقوال العرب الأقدمين من الجاهليين أو المخضرمين أو الاسلاميين
استنزل كلام المحدثين ، وقضى قضاء أبي الملاء . وللکلام العربي القديم سلطان قاهر

(١) الزمخري .

(٢) الشفري الازدي في مفضليته (اسبكرت) طالت وامتدت ، والمقن - كما يقول الانباري
شارح المفضليات - : دقت في حسنها ، وجلت في خلقها .

(٣) الكتاب يقول : لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدماً من خشية الله . . .

(٤) أبو الملاء في (رسالة الغفران) .

(٥) أبو الملاء في (الفصول والغايات) .

إذا استمكن من نفس خليطه سحره عما سواه (١) ، فلا يتقبل إلا إياه . ولولا أن عبقرية أبي تمام وعبقرية المتنبي جهرتا الشيخ وبهرتاه ما كان تخم جيباً في (رسالة الفران) ذاك التفخيم مشيراً إلى مقصدها له فائتات ثم قال : « إني لأضن بتلك الأوصال أن يظل جسدها وهو بالموعدة صال ، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستنق من المحار (٢) وما كان افتتن بأبي الطيب تلك الفتنة . وسبك حبيب - وان كان محدثاً - عجيب . ولفته قد ضارعت أو قاربت في القوة قديمة مطبوعة .

* * *

ذكر صاحب (النيث المسجّم في شرح لامية المعجم) جماعة من « الذين رزقوا السعادة في أشياء لم يأت بدم من نالها » فلما جاء إلى الشيخ قال : « أبو العلاء المعري في الاطلاع على اللغة » . يقول الأمام الشافعي في (رسالته في أصول الفقه) :

« لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، واكثرها الفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي » . ولو أحاط انسان غير نبي بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وان لم يحط به كله فقد أحاط - كما يخال - بجمله وتليذه أبو زكريا التبريزي يقول كما ذكر ابن العديم في كتابه (الأنصاف والتحري) : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري » .

* * *

عبقرية عربية ثرت فهرت ، ونظمت فمجبت ، وفكرت فخبرت ، وأبدعت وتفننت إذ قالت وألفت فأدهشت . وعلمها في كل فن من فنون اللغة في وقتها علم إحاطة (٣) علم الحفي (٤) المحيط لا العالم التتفة (٥) . وإذا لم نر (الايك والفصون)

(١) سحره عن الشيء : صرفه عنه .

(٢) المحار جم المحارة : الصدفة .

(٣) علمه علم إحاطة إذا علمه من جميع وجوهه لم يفته منه شيء .

(٤) الحفي : الذي يتعلم الشيء باستقصاء .

(٥) التتفة : الذي يتفد من العلم شيئاً ولا يستقصيه . وكان أبو عبيدة يقول في الاصمعي

ذاك رجل تتفة .

— وهو نحو من مئة جزء — وغير الايك والفصون ، ومؤلفات الشيخ كثير (١) فقد رأينا المطبوعات المعروفة ، واستدللنا بما حضر على ماغاب ، ولم نستبعد ماروى ابن القارح في رسالته : « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه وباللغة والعروض من الخليل » ووجدنا ابن القارح هذا من المقتصدين حين يقول : « ... لقد سمعت من رسائله عقائل لفظ ، ان نعمتها فقد عبتها ، وإن وصفتها فما أنصفتها . وأطربتني (يشهد الله) لإطراب السماع . وبالله لو صدرت عن صدر من خزائنه وكتبه حوله يقلب طرفه في هذا ، ويرجع الى هذا ... لكان عجيباً صعباً شديداً . ووالله لقد رأيت علماء ، منهم ابن خالويه اذا قرئت عليهم الكتب ولا سيما الكبار رجعوا الى أصولهم كالمقابلين . يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط . والمعجب العجيب والنادر الغريب حفظه لأسماء الرجال (٢) ، والمنثور كحفظ غيره من الاذكياء المبرزين المنظوم . وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ؛ ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه . »

واني لأقول : انه لمن النادر الغريب أن يحتاز الأديب عبقرية ثرية ، وعبقرية شعرية كما احتاز هذا الشيخ وإذا كانت الاجادة لاتتفق في في المنظوم والمنثور معاً الا للاقل — كما قال ابن خلدون — فكيف حال العبقرية ؟ وهذان الشاعران العبقران أبو تمام والمتنبي لم ترو لنا كتب الادب والسير من ثمرهما إلا رسالة قصيرة للاول سطرها البديعي في (هبة الأيام) ورسالة أقصر منها للثاني أوردتها ابن خلكان في (وفيات الأعيان) وأما البحري المسكين فكان لا يستطيع أن يخط في النثر سطرأ ، واذا خاطب احداً في شأنه وجه اليه شعراً . قال الشيخ في احدي رسائله : « روي ان البحري كان لا يقدر على كتب رقعة ، فيجعل المنظوم عوضاً عن المنثور . »

وأية محلوفة بالقرآن وإعجازه لو أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وهم عند ابن الاثير وغير ابن الاثير أشعر العرب « هؤلاء لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته » مشوا في عرض (العروض)

(١) قالوا : انها مئتا مجلد .

(٢) رسالة ابي العلاء الى ابي القاسم بن -بيكة بعزبه بأخيه - تؤيد قول ابن القارح .

المتشعبة ومناحي (النحو) المتفرقة المتصعبة كما مشى الشيخ ، ونقبوا مثلما نقب واستظهروا من مقالات الفلاسفة والمتكلمين ومصنفات الفقهاء وأهل النحل بعض ما استظهر — لأجبلوا اجبالاً^(١) أو غث كلامهم وجاؤا في القريض قرازيم^(٢) . لكن عبقرية الشيخ قوية جنية قد تسيطر على كل فن ، ولم يسيطر عليها فن ، ولم ينزل نظيمها وتثيرها من عليائها في وقت ، ولم تبدل لهما ديباجة أو بهجة

* * *

إذا قال أبو الطيب :

مابه قتل أعاديه ولكن يتقي أخلاف ما ترجو الذئاب
فقطّ وشطّ وبدت (فاعلن) في المروض (فاعلاتن) في حين أن المتنبي —
كما قال الشيخ — : « كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام . يغير الكلمة بعد أن تروى عنه . ويفر من الضرورة وإن جذبه إليها الوزن^(٣) » . وإذا قال (الوليد) البحري :

وكان الأيام أوتر بالحسن عليها يوم المهرجان الكبير^(٤)
فكسر وجاء نقص من الزيادة . وإذا قال حبيب بن أوس :
بالقائم الثامن المستخلف اتطأدت قواعد الملك ممتداً لها الطول^(٥)

(١) أجبل الشاعر : أقعم .

(٢) القرازم . الشاعر الدون ، وهو يقرزم شعره يجمي به رديئاً .

(٣) رسالة أبي العلاء إلى أبي الحسين أحمد بن عثمان النسكي البصري .

(٤) مراجع (الموشح) للمرzbاني ، وذكر الشيخ في رسالة إلى النسكي أن البحري كسر في قوله :

ولماذا تقيم النفس منه شيئاً جعل الله الفردوس منه جزاء

(قلت) : رواية البيت في ديوانه المطبوع في بيروت هي :

ولماذا تقيم النفس . . شيئاً يجعل الله الفردوس منه بواء

(٥) تراجع (المثل السائر) : النوع الأول معرفة علم الرئية من النحو والتصريف .

(قلت) في الديوان المطبوع في بيروت : (اعتدلت) مكان (اتطأدت) واليقين أن فاسعاً

قديمأ أراد اصلاح الكلمة ولو اطلع حبيب على ما جاء به هذا الوراق أو التاسع ليج وضج ، وأثر خطأه على هذا الاصلاح وأبن كلمة من كلمة ؟ . . .

فهو (١) البيت في اللغة بـ (اتطادت) ولم يتطد .
 اذا جازف في اللغة المجازفون وطفف المطففون « ويل للمطففين » فعند الشيخ
 الموازين القسط ، عنده القسطاس المستقيم ، وميزان الصيدلاني (٢) الحكيم .
 « موازين صدق ، كلها غير عائل (٣) » .
 ثر أبو العلاء مترسلاً ومسجماً فبذ النائر في وقته والذين من بعده
 كلهم أجمعين ، وشعر فتبدى في سماء القريض شمساً علائمة لاتأفل ما كان القرآن ،
 وكان هذا الاسان المبين .
 ولقد أصاب الشيخ وأطاب (٤) حين حاش في رسائله ودواوينه وكتبه
 الكلمات الغريبات ، فجمع ناديات شاردات لم نر كثيراً منهم في معجم من المعجمات .
 وان غريبات قديمتا نشأن في (الجزيرة) مع أخوات هن - لحريات أن يظهرن
 وأن يمرفن . وقد برع أبو العلاء اذ نص تلك الغرائب في حلل عدنيات (٥) من
 المبارات كأنهن عرائس قعدن فوق منصات . ولأن تجتاف لفظة غريبة جملة أو
 بيتاً خير من توحيد (٦) . ولكل لغوي في التصنيف نمط . واذا احسن المعري
 فقد أجاد ابن سيده ، وأجاد الجوهري وابن دريد .

* * *

لم يكن الشيخ من المبكرين الملمين بل كان من المبكرين الدارين المدركين ،
 تعلم واستعلم فلم ، وسأل واستفهم ففهم . وللقائل الملم حال ، وللدارس حال ،
 ولذا وحي ، ولهذا مقال ، والوحي لا يحصل ، ولا يؤازره مؤازر .
 وقد استهام الشيخ بلغة العرب ، وكان متمناه في دنياه أو مرجاه (٧) الاثمي

(١) تهو : اتهدم

(٢) الصيدلاني والصيداني : منسوبان الى الصيدل والصيدن وهما أصول الاشياء وجواهرها
 والتون للمبالغة (الفائق) .

(٣) عائل : مائل .

(٤) أطاب : جاء بقى طيب .

(٥) عليه عدنيات أي ثياب كريمة ، وأصلها النسبة الى عدن ، تقول : مررت بجوار مدنيات

عليهن رباط عدنيات (الاساس)

(٦) وحد الشيء : صار على حدته .

(٧) استعمل اللفظة أبو الطيب المتنبي وقال سمعتها من العرب .

أو مثله الأعلى أن ينبغ فيها وفي علومها فنبح ، وبلغ حيث بلغ . فهو به (١) هو هذه اللغة ، وفنون زمانه التي شاء عرفانها هن للهوي تبع .

وإذا تبادى الشيخ في إعجابه بالعرب الأقدمين ، وتطربه سجع محدثين مسجعين فقلد فقد افتن في تقليده واجتهد ، فعد في الشعراء والكتابين من المبدعين . وتذرع أبو العلاء بالله وتحاميده وتمساجيده فنظم (اللزوميات) وصاغ أوحاك (الفصول والغايات) والمقاصد لغوية لألحانية (٢) ، لادينية ، وإن اشتملت على أشياء منوعة مهولات (٣) ملونات قد بدت مثل (صندوق العجب) . وما كان يغرب حين يغرب حتى يعمي مقالة ولكن ايعلم قدرة وبراعة . وكيف يكفر معني قصده وقد أصحبه شرح الغريب من ألفاظه .

ومؤلفات الشيخ العبقريه هن بنات القصد والتكلف وبنات الاثرية .
« . . . وقد تكلفت في هذا التأليف - يعني اللزوميات - ثلاث كلف ، الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها . والثانية أن يحجى رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك . والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم من ياء أو ثاء أو غير ذلك من الحروف » .

ولو لم يجب الشيخ داعي أثرته ، ويحقق قوله في (لاميته) ويقصد ويتكلف ما كانت امثال (اللزوميات ، والفصول والغايات ، والأيك والفصول) مما عرفناه وحرمانا إياه جهل الجاهلين . وضلال الصليبيين وتربية التتر وحوادث الأيام ، وما كانت العربية ازدادت ثروة بياهرات عبقریات تباغت بها ، وباهت غيرها من اللغات ، وإذا هجّن في العلم والأدب تكلف الضعفاء العاجزين حين يتكلفون فتكلف العباقرة القادرين يحل عن كل تعيب أو تهجين .

* * *

حرث أبو العلاء القرآن حرثاً (٤) عجياً ، وسيط هواه بلحمه ودمه ،

(١) هو به : محبوبه ، ممشوقة .

(٢) هذه نسبة الى اسم الله عز وجل إلا أنه وقع فيها تغيير من تغييرات النسب واقتضاب صيغة ، ونظيرها الرجولية في النسبة الى الرجل والقياس الهية ورجليه (الفائز) .

(٣) ورد المهول في شعر قديم رواه المختص وفي أمثال العرب .

(٤) في حديث ابن مسعود : احرثوا هذا القرآن . وفي [الاساس] : وحرث القرآن

أطلت دراسته وتدره .

واستهداه فهداه وذهن او ادرك من الهية (الكتاب) وسماويته ومن عربيته الناصية الصافية ذات الاعجاز ، وبلاغته الخارقة المادة ما دركه الفصحاء البلغاء من العرب في عهد النبي او كاد يدرك ذلك . ولا تستقلن هذه الكبدودة . ومصنف الشيخ (تضمين الآي) « وهو إن لم نره فقد سمعنا خبره (١) » يبين أنه بلغ في علم (الكتاب) المبالغ - كما يقول الزمخشري - ولا يضمن مثل ذلك التضمن الفائق البديع الا من خرجه (القرآن) هذا التخرج العظيم البليغ . [ومن يهد الله فهو المهتدي] .

بصر الكتاب الالهي الحمدي (أحمد بن عبد الله بن سليمان) بعجائبه وآياته فاستيقن واستبصر ، وارتوى الشيخ من كثر البلاغة القرآنية فأزهر الكلام العالائي ونور .

نور القرآن قولاً فعلاً وسما صاحبه في القائلين . انما القرآن هدي الناطقين ، انما القرآن نور العالمين . غث قول لم يهذه (الكتاب) .
والقرآن ، القرآن ذلكم الكتاب العجيب المبين ؛ إنه يراه نابغة الأوربيين
الأديب البقري العظيم (جان ولفنغ غوت) قد أعطى فيه كل مقام حقه ، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه كما يراه قوياً ، عظيماً ، سامياً ، متعالياً ، رائعاً مهيباً قد خرق العادة ، فلا غرو أن يبلغ أثره في العالم - كما قال - حيث بلغ .
ألا إن القرآن في الكلام مثل محمد في الأُنام . فان وجدت لمحمد خطيراً (٢)
ألقيت للقرآن نظيراً .

[قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً] .

دعاكم الى خير الأمور محمد وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشبه الدجى من طالعات وآفل

(١) مقتبسة من البديع الهمداني ولشبل الدولة في الزمخشري :

زمخشري فاضل أنجيه زمخشري
كالبهر إن لم أره فقد أناني خبره

(٢) خطير الشيء مثله [الخصم] وفي اللسان : فلان ليس له خطير أي ليس له نظير ، وهذا خطير لهذا أي مثل له في القدر ، ولا يقال للدون الا لشيء السري .

وألزمكم ما ليس . يمجز حمله أذا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس وعاقب في قذف النساء الفوافل
وحرم خمرأ خلت ألباب شربها من الطيش ألباب التام الجوافل
فصلى عليه الله ما ذر شارق وما فت مسكاً ذكره في المحافل^(١)

* * *

أبو العلاء « هو جوهرة جاءت الى الدنيا وذهبت ^(٢) » .

٢

لما شاء الله أن يثب قبيل من نامية^(٣) الله تلك الوثبة ، أن يطفر تلك الطفرة ، وليست الطفرة على ذي القدرة والحول بمحال ، واعتدلت القامات [ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم] وتحركت الألسنة بعد حين من الدهر طويل بتلك اللهجات اليبينات ، وكرّم الله اناسي^(٤) كثيراً على سائر المخلوقات بالذي دعتة اللغات (العقل) وهو نعمة الله الكبرى ، وفضيلة الانسان على غيره العظيم . [ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً] .

« الباب أهل الألباب ، ولكل حيوان حس ولكن الله فضل الناطقين ^(٥) » .
لما كان الذي سمته الافرنجية (Evolution) وصرنا الى أفق الانسانية الذي ذكره ابن خلدون ووضحه وفصله النشويون تفصيلاً [وقد خلقكم أطواراً] ونجم في الأدمغة ذلك (الفكر) المضيء ، وهو خير مافي الدنيا بل هو كل مافي

[١] أبو العلاء .

[٢] قال الصفدي في [نكت المبيان في نكت العبيان] : « حكى لي عن الشيخ كمال الدين

ابن الزملاكاني انه قال في حقه هو جوهرة النخ » .

[٣] خلقه لأنهم ينون .

[٤] في (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي : فأما أنفس أصناف الحيوان كالفرس والحمار فأما أنفس نافسة غير كاملة ، وهي ضميقة لأنها لم تجد إلا الاحساس والحركات ، ولم يشم فيها نور النفس الشريفة ، ولم يلبث فيها شعاع العقل الكريم فوجب من هذا الوجه أن تكون تابعة لأبدانها جارية على فسادها وطلانها لأن الحكمة انتهت الى ذلك الحد في كونها حشواً لهذا العالم وزينة ومبالغ الى غايات وأغراض .

الدنيا — كما يقول العلامة بوانكريه — ومحل العقل (الدماغ) كما ذهب الى ذلك أبو حنيفة وأرنست هيكل لا القاب كما ظن الشافعي . واستنبط الحجى معاني للأشياء كانت خافية قبل ذلك (الارتقاء) وهشت النفوس وبشت بما ترى العيون ، وأقبل (الادراك) وآتى (الفهم) فأدرك المحسوس أو المحس ، وفهم المنظور ، والحس البحث والنظر الصرف كما يشعر غير الناطق ويلمح من دون فكر وفهامة هما كلاشي ، كونهما مثل العدم ، إن الهناء والسعادة في البصيرة لا البصر .

لما ارتقيننا وعقلنا وعلمنا وبنينا وحضرنا وغرسنا وتلونا :

[هوَ أنشأكم من الأرض واستمركم فيها] .

[هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً] .

وقال الشيخ أبو العلاء :

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر — طوفه بالكعبة — حول قاف (١) ثم يؤوب الى فراشه والليلة ما همت بالأسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجرة من تهامة (٢) فيوقد بها ناره في بيرين (٣) وقاصية الرمال (٤) » ففتحنا قوله ، وطار في الجو أو في السهمى (٥) مثل الطيور الطائرون ، وسمعنا في دمشق سرار القوم بله الطنطنة (٦) في برلين وفي لندن وفي باريس وواشنطن وبله العططة (٧) في ميادين القتال . وأورى (مركوني) ما أورى وهو في سفينته في بحر الروم فأضاءت (سدني) في أقصى الأرض [ويخلق مالا تعلمون] .

(١) قاف : جبل يحيط بالأرض . . . وقاف في سلم الذي هو جبل في المدينة : يثرب .

(٢) تهامة : مكة ، وبلاد شمالي الحجاز .

(٣) بيرين : من أصقاع البحرين ، وبيرين قرية من قرى حلب .

(٤) رويت هذه الشذرة في إحدى مقالاتي في [الرسالة] ٢٥٠ س ٦ في ١٧ صفر ١٣٥٧ ،

وهو ان المقالة [المختصرات وكتاب الفصول والغايات] .

(٥) السهمى : الهواء ، الجو .

(٦) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به .

[٧] العططة : تنابع الأصوات في الحرب وغيرها .

لما قطعنا ماقطعنا ، وبلغنا مابلغنا ، ومشينا اليقدمية (١) وحمدنا وشكرنا
و [الحمد لله رب العالمين] طلعت علينا أجواق تذم الوجود ، وتهجو الحياة ،
وتطري العدم ، وتلعن الدنيا ، وتكنيها بأمر دفر وأمر درر ، وتصفها بأنها دار
قلعة (٢) ، منزل قلعة (٣) ، وتسمى خيراتها حطاماً . وجاء فوج أنكر كونها .
ولم يجد لها مثلاً ؛ « قيل لبعضهم : كيف ترى الدنيا ؟ قال : وما الدنيا ؟ لا أعرف
لها وجوداً » « وقيل لآخر : مامثل الدنيا ؟ قال : هي أول من أن يكون لها مثل »
وتماهى محمد بن واسع في استحقارها بل جاز المدى « قيل له : فلان زاهد ، قال :
وما قدر الدنيا حتى يجهد من يزهد فيها » وأقبل الحجاج بن يوسف متقرباً
متحشاً (٤) فقال في احدى الخطب : « والله ما أحب أن ماضى من الدنيا بماضي
هذه . ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » وتالله لو أن هذا الكها كه - وكان
الحجاج قصيراً أصفر كها كها (٥) - أبدى الى العربية تلك اليد ، وتقرب الى
(الكتاب) ذاك التقرب الكريم المشتهر ، وولع بالقرآن ولماً كبيراً حتى قال عمر
ابن عبد العزيز : « ما حسدت الحجاج على شيء حسدي اياه على حبه القرآن وإعطائه
اهله » لولا كل ذلك لسخطنا واطلنا القول فيه . وبدا (الوليد) متحذلقاً متفلسفاً
في هذه المقطوعة التي اخرجته من بغداد :

اخي ، متى خاسمت نفسك فاحتشد لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدق
ارى علل الأشياء شتى ولا ارى التـجمع الا علة للفرق
ارى الدهر غولاً للنفوس وإنما بقي الله في بعض المواطن من بقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى ؟ وعرج على الباقي وسائله لم بقي ؟
ولم ار كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن بعينه تطلق

[١] اليقدمية : التقدم بالهمة والأفعال . وفي [الفائق] في حديث ابن عباس ان ابن أبي
العاص مضى اليقدمية وأن ابن الزبير مضى القهري . أي المشية اليقدمية التي يقدم بها الناس أي
يتقدمهم وروى بالفاء غلطاً .

[٢] قلعة : ابتلاع ، تحول وارتحال .

[٣] منزل قلعة : المنزل الذي لا تملكه والقلعة من المال مالا يدوم .

[٤] [القري] المتك [المتعنت] المتعب .

[٥] [الكها كه] هو الذي اذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس ضاحك من الكها [الفائق]

تراها عياناً (وهي صنعة واحد) فتحسبها صنعي لطيف وأخرق (١)
ومن قوله له :

ان الزمان زمان سو جميع هذا الناس بو .

وأطل علينا أحمد بن الحسين الكندي مجهوراً هذا الكلام (٢) :

إذا كان الشباب السكر والشيب هما فالحياة هي الحما

هل الولد المحبوب إلا تلة وهل خلوة الحسنة إلا أذى البعل

وما تسع الأزمان علمي بأمرها وما تحسن الأيام تكتب ماأملي

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشاق فيه إلى النسل

يقول ابن الاثير في كتابه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) :

« كنت سافرت إلى مصر سنة (٥٩٦) ورأيت الناس مكبين على شعر

أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ،

فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إني فاوضت عبد الرحمن بن علي البيساني

في هذا فقال لي : (ان أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس) ولقد صدق

فيما قال ، فهل نطق المتنبي بتلك الأبيات عن خواطر الاناسين أم لغابها

عن سوانح الشياطين ، انهم الشعراء يفتلتون (٣)] ألم تر انهم في كل واد

يهيمون [و « الشعر للخلد (٤) مثل الصورة لليد ، يمثل الصانع ما لا

حقيقة له ، ويقول الخاطر ما لو طولب به لا نكره (٥) » . « وإذا رُجع

(١) في أمالي المرتضى : قيل : ان السبب في خروج البحري من بغداد هذه

الآيات ، فان بعض أعدائه شتم عليه بأنه تنوي حيث قال (صنعي لطيف وأخرق)

وكانت العامة حينئذ غالباً على البلدة ، فظاف على نفسه ، وقال لابنه أبي الفوت :

قم يا بني حتى نطفي هذه النائرة بخرجة نلم بها شمتا ونمود ، فخرج ولم يمد .

(٢) جهود الكلام : فخره .

(٣) الفلته الكلام يقم من غير إحكام وقد افلته وفي الأساس : افلته الكلام :

ارتجىل . وكل شيء فله فلة قد افلته .

(٤) (الخلد) القلب ، النفس .

(٥) أبو العلاء في مقدمة (سقط الزند) .

إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبيء عن اعتقاد الإنسان (١) ،
ودهمنا ابن الشبل البغدادي هتاتاً (٢) جدافاً (٣) يردد هذا الشعر :

صحة المرء للسقام طريق وطريق الفناء هذا البقاء
بالذي نفتندي نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
قبح الله لذة لأذانا نالها الامهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقد فإيجادنا علينا بلاء
ليت شعري وللبلى كل ذا الخلق بماذا تميز الأنبياء
موت ذا العالم الفضل بالنطق وذا السارح البهم سواء
لاغوي لفقده تبسم الأَرْض ولا للتقي تبكي السماء
إنما الناس قادم إثر ماض بدء قوم للآخرين انتهاء

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لناس في أي شيء ففي أفهامنا منك انهيار
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدرسها البوار
ودنيا كلها وضعت جنيناً غذاه من نوائبها ظؤار
هي المشواء ماخبطت هشيم هي المعجاء ماجرحت جبار
نعاقب في الظهور وما ولدنا ويذبح في حشا الأم الحوار
وننتظر الرزايا والبلايا وبعد فبالوعيد لنا امتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضب أخرجته الوجار
فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار ؟
وكانت أنما لو أن كوناً نخير قبله أو نستشار
لقد استأسد ابن الشبل على الحق وبالغ في المفظة والسلطة (٤) ، ولقد

- (١) أبو العلاء في (رسالة الغفران) في أثناء حديث عن المثني .
- (٢) هتات (مهذار كثير الكلام .
- (٣) جدف بئمة الله : كفرها واستقلها . وفي حديث : لانجدفوا بئمة الله .
- (٤) (المفظة) تخليط الخبر (والسلطة) الكلام على غير نظام .

عجبنا اذ سمعنا المقترح ، وأطلنا الكركرة والقهقهة . إنَّ على مبدعنا أن يستشير تلكم الذريرات (أعني الاناسية) في الكون أو في العدم ، ويقول لها : « أنت على المتخير ، أنت بالمختار ، أنت بالخيار . ولها أن تنعم أو تلالي (١) . [وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون] .

« ذرية الانس ، لا تُزهوا فانكم ذرا تعدون أو غلاماً تضاهونا (٢) »
ان الاناسي لم يمتثلوا بشرأ أو أبشاراً أسوياء إلا من بعد آلاف من الحقب ومن بعد أطوار مختلفات كثيرات لا يعلم عددها إلا الله . ومثل ابن الشبل انما نشأ ذرية لاتكاد ترى بالمجهر [ثم أنشأناه خلقاً آخر] درجته سنة الله إلى حيث انتهى أو ارتقى . وكان لا يحس في وقت ولا يسمع وما عقل ان عقل — إلا بالأمس ، ففي أي طور وفي أي حين يخير أو يستشار ؟ . [ان الانسان ليطنى أن رآه استغنى] او رآه قد احتس من بحر علم الله حسوة . !

ان قوماً لم يريدوا ان يكونوا ، وما احبوا ان يكون غيرهم ، فذموا الدنيا ذاك الذم ، وصبغوها للناظرين بأردل صبغ بأشبع صبغ « غرارة ضاربة ، جائلة زائلة ، نافذة بأفدة ، أكالة غوالة (٣) » كما يقول قطري ، ان كان قال هذا . وهجوا قطين الأرض ، أهل الدنيا شر هجاء .

(١) تلالي : قول : لا ، لا .

(٢) أبو الغلاء .

(٣) من خطبة أوردتها الجاحظ في (البيان والتبيين) وابن عبد ربه في (العقد) وروى بعضها ابن قتيبة في (حيول الأخبار) وعزها هؤلاء الى قطري بن الفجاءة . ورواها الرضي في مجموعة (النهج) وقال شارحه ابن أبي الحديد : « قد رأيتها في كتاب (الموفق) لأبي عبد الله المرزباني سرودة لأمر المؤمنين (عليه السلام) وليس بعيد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها من بعض أصحاب أمير المؤمنين ، فان الحوارج كانوا أصحابه وأنصاره . وقد لقي قطري أكثرهم » قلت : صانها عندي مجهول .

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها مافي البرية كلها لإنسان (١)
 أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعة حر (٢)
 زمان يمر وعيش يمر ودهر يكر بما لا يسر
 وحال يذوب ، وهم ينوب ودنيا تناديك أن ليس حر (٣)
 وإذا سمعوا المتفائلين الخلف يقولون : (ليس في الامكان أبدع مما كان)
 تحذوهم صائحين : (ليس في الامكان أقبح مما كان) وما النجاة عندهم لمرجي خلاصه
 مما يقاسي ويرى الا في الانتحار .
 كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٤)
 ولهم في قتل الناس نفوسهم وتزيينه أقاويل ، شرحها طويل . وهؤلاء القوم
 الذين سماهم المصطلح العربي بالمتشائمين واسمهم بالفرنجي (بسيمسم) إما أن يكونوا
 الهيين ومؤمنين ، وإما ان يكونوا دهرين طبيعيين .
 [وقالوا : ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما
 لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون] .
 ودان أناس بالجزاء وكونه وقال رجال : انما أتم بقل (٥)
 « ضل الذي قال : البلاد قديمة بالطبع كانت والآنم كنتها
 وأماننا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورقتها (٦)

(١) ابن الهبارية .

(٢) البديهي من شعراء القيمة .

(٣) ابن سفة .

(٤) التلبي .

(٥) و (٦) ابوالعلاء ، قال شارح (سقط الزند) : « هنا رد على الدهريين الذين يقولون :
 أن العالم قديم بالطبع لم يزل كذلك ولم يحدث بأحداث محدث والناس كالكليات يبتنون ويعودون بالموت
 هشيماً ، وهذا كفر صريح وضلال بعيد بل الحق أن العالم محدث مخلوق أحدثه الواحد الحق بقدرته » .
 وفي « شرح التهج » لابن أبي الحديد :
 « قال قاضي القضاة : انه أحد من العقلاء لم يذهب الى نفي الصانع للعالم ، ولكن قوه من الوراثة
 اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة لم يذهب أحد إليها وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا
 إلا له العالم ولا صانع أصلاً ، وانما هو هكذا ما زال ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر . وأخذ ابن -

فان كانوا من الأولين فهل يحق الا الايقان كل الايقان بأن ليس -
ثمة الا الحكمة التامة والاثقان .

[ماترى في خلق الرحمن من تفاوت] .

[صنع الله الذي اتقن كل شيء] .

[الذي أحسن كل شيء خلقه] .

[صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟] .

والله أعلم من كل عليم وأحكم من كل حكيم [أغسبتم انما خلقناكم عبثا]
وان كانت برهمية وبوذية تريان الكون شراً ، فليست البرهمية والبوذية
على شيء . ولا يحتسب بمثلها . وان عدها (أرثر شوبنهاور) أكمل الاديان
طراً من أجل هذا المعتقد .

نعم « ما الدنيا إلا مُعمرى ^(١) ولا خلود إلا في الأخرى ^(٢) » ، و « الدنيا
قنطرة الآخرة » ، لكن هل علينا أن نقعد في القنطرة نشفق ونزق ،
ونخمش الوجوه ، ونلطم الخدود ، ونلدِّم الصدور حتى يمحي الأجل ،
حتى يمحي وقت النقلة و (الكتاب) يقول :

[ولا تنس نصيبك من الدنيا] .

ونطقُ (الكتاب) فصلُ الخطاب .

وان كان القوم المتشائمون من الآخرين فسوف يسألون : هل علمتم
كيف كنتم ؟ هل علمتم كيف كانت داركم ؟ إنما كانت داراً تستمر استعماراً
ولم تزل بقايا خبايا في الزوايا تضطرم . فافرموا تأريخها واقروا تأريخكم ، وفتشوا
صحائف الأنساب .

— الراوندي هذه المقالة فصرها في كتابه المعروف بكتاب « التاج » . قلت : ذكر الشيخ ابن الراوندي
وتاجه هذا في (رسالة النيران) وبما قاله : وأما ابن الراوندي فلم يكن الى المصلحة يهدي ، وأما
تاجه فلا يصلح أن يكون نهلاً وهل تاجه الا بما قالت السكاهة : اف وق ، وجورب
وخب

(١) العمرى ما تجمله للرجل طول عمره أو عمره . قال تلمب أن يدفع الرجل الى أخيه داراً
فيقول : هذه لك عمرى أو عمرى ، أبنا مات دفنت الدار الى أهله ، وكذلك كان فلم في الجاهلية
(الاسان) .

(٢) الزمخشرى .

م (٦)

[هل أتى على الانبيان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً] .
وانظروا كيف عادت (١) (محلة) (٢) كيف عادت هذه (الفبراء) ،
وانظروا كيف عدتم بشراً ، وكيف سدتهم أقربين وأبعدن . وان تأخر
من عترتكم متأخرون اذ تقدم متقدمون فتعلموا أن السابقين والمتوقفين
المتسكنين لم يبرحوا في البدء ، لم يبرحوا في أول الطريق ، لم يبرحوا
في الطور الشنبزي كما قال توماس أدیسون :

تشبه بعض بعض فما تزال الشائل قردیه (٣)
فأجدر بالدهريين الطبيعيين الذين ينشدون :

خذ من الدنيا بحظ قبل أن ترحل عنها
فهي دار لا ترى من بعدها أحسن منها (٤)

فلا يرون أن هناك دارين ، وأن هناك معنيين : معنى هذي ، ومعنى تلك
بل يقولون : كل شيء معناه ومنتهاه فيه — أجدر بهؤلاء ألا يكونوا من
المتشائمين في حين . ومقالمهم هذا المقال .

* * *

ان الفقى بكونه سعيد ، بكونه حسب قد سعد بما وجد — كما يقول
الانكليز — فذروا التشاؤم في الحياة يا أيها الناس ؛ وأبهجوا أنفسكم
واجتذلوها لعلكم لا تحزنون . كونوا من المتفائلين ، من أهل الفؤول (٥) ،
ولا تشاموا ولا تطيروا وتمثلوا بهذا البيت وقد تمثل به رسول الله كما ذكر
الشيخ في رسالة الغفران :

تقابل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحققا

- (١) العود بمنى الصبرورة ، وهو كثير في كلام الرب كثرة فاشية لانكاد تسمهم
يستملون صار ولكن عاد ، ماعدت أراء ، عاد لا يكلمني ، ما عاد لفلان مال (الكشف) .
- (٢) محلة : الأرض ، وكحلة السماء .
- (٣) أبو العلاء .
- (٤) رواها صاحب (فتح الطبيب) ولم يسم فائلها .
- (٥) جمع الفأل .

وكان (صلى الله عليه وسلم) كما روت أحاديث — يتفائل ولا يتطير .
وكونوا لإثاريين أثريين في هذا الوجود كما تقوا أنفسهم ، وكى تصونوا
جنسكم ، وتسعدو وترتقوا . إن الآثية والآثية هما الفضيلتان العظيمتان
متحدتين لافترقتين ، وأولى لأثري كفر بالآثية ثم أولى ! وأولى لا يثاري
لم يؤمن بالآثية ثم أولى ! إن الأول شرير شيطان من الشريرين ،
وإن الثاني — إما كان — لذو جنة في المجانين .

واستمعوا لما يقول شيخنا أبو العلاء فقد أعلنت أقواله الحقيقة ، وهدت
إلى الطريقة ، وعززت شريعة المتفائلين ، وفندت مذهب المتشائمين ، وبينت
للناس كيف يحيون ، وكيف يقوون ، وكيف يسرون في هذا الوجود .
ولو اطلعنا على أكثر مما اطلعنا عليه مما أملاه الشيخ لروينا من هذه
المعاني كتباً كبيرات لاصفحات معدودات ولكن قد حال بيننا وبين المراد
جهل الجاهلين وجرم التتر والصليبيين — كما ذكر ذلك من قبل — فاجتزأنا
برواية ثقة من الأقل الباقي .

٣

الآمل :

لي أمل ، فرقانه محكم أقرؤه غصاً كما أنزلا

أجرى من الخيل آمال أصرفها لها بحقيّ تقرب وإخباب^(١)

لا تقنطن أيها الانسان ، فإن بلغتك^(٢) عند الله الكريم ، والرزق يطلبك
وأنت تبصر الأحلام ، لو أن للرزق لساناً هتف بمن رقد ، أو يداً لجذب
المضطجع باليد ، أو قدما لوطي* على الجسد . لا يزال الرزق مرتقاً على الهامة
ترنيق^(٣) الطير الظاء على الماء المطمع^(٤) .

(١) التقرب والحب : ضربان من سير الفرس في الأصل .

(٢) البلغة ما يبلغ به من العيش ولا فضل فيه ، وتبلغ بكذا اكتفى به .

(٣) رفق الطائر خفق بجناحيه في الهواء ودرف ولم يطر .

(٤) المطمع الذي أطعمها في النزول عليه (أبو العلاء) .

سمّ الهلال إذا عاينته قرأً إن الأهلة عن وشك لا تقار

وقد يخمل الانسان في عنفوانه وبينه من بعد النهى فيسود

أحسبت الخير ليس بمثمر؟ بلى . ان للخير ثمرة لذت في المظم ،
وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد في المظم ،
فما ظنك بشمرة هذه صفتها ؟ .

هون عليك :

الأمر أيسر مما أنت مضمره فاطرح أذاك وهون كل ماصبا

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح هان ماصبا

العلم كالقفل ، ان ألفتته عسراً فخله ثم عاوده لينفتحا

دع ماضٍ وصعب ، إلى مانعٍ وهان . واترك المضلة إلى المرشدة فان
طرقات الخير كثير .

لا طيرة

الأيام كلها لله ، وربما ساءتلك عروبة (١) ، وسرك الخميس . وإذا نزل
بك نازل في يوم فلا تمنقه لذاك .

بركات الله ورحمته

يسبث الله في نهار وليل بركات من رزقه مدروره (٢)
غشيت رحمة الله كل الحيوان ، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات .

(١) الجملة ، في «النهاية» : هو اسم قديم لها وكأنه ليس بجرمي ، يقال : يوم عروبة
والعروبة والأنصح ألا يدخلها الألف واللام .

(٢) «مدرورة» كثيرة ، في الأساس : ومن المجاز : درت الدنيا على أهلها
إذا كثرت خيرها .

فرح الملا^(١) بالكلا^(٢) وحق لهم أن يبتهجوا برزق الله الكريم . جاء اللبأ^(٣) وذهب الوبأ^(٤) ، فسبحان الله العظيم ! يا خصب ، ثب لتراق الكتب^(٥) على الكتب^(٥) وعلى الله رزق العالمين .

والشمس تغمر أهل الأرض مصلحة ربت جسوماً وفيها للعيون سنا
عطت لك الشمس ما يغني اخادعة عن أن يكون له في الأرض طاهونا
الاقدام، الجسارة :

واني رأيت الصعب يركب دائماً من الناس من لم يركب الغرض الصعبا
والعيش جسر ، نال من هو جاسر أو كاد فيه وخاب من لم يجسر .
ويحمد الصابر الموفي على غرض لا عاجز بمرى التقصير معقود
ينبني للمسبوق ألا^(٦) يؤثر بصبوح ولا غبوق^(٦) ، فليستحي المتأخر أن يفتخر
الخفيف من رأي السخيف ، فاجر على معارئك في تقوى الله ؛ واخيل
بفوارسها من مطرات^(٧) .

انما نحن في أحلام نائم لأحلام ذوي الغزائم ، وقد يرى الراقد نفسه مع

(١) الكلا : العشب ج أسكلا .

(٢) اللبأ : اللبن ، أوله .

(٣) بالصعر والمد .

(٤) الكتبة الطائفة من طعام او غيره ، القليل من اللبن .

(٥) الكتيب : التل من الرمل .

(٦) الصبوح كل ما أكل وشرب غدوة وهو خلاف النبوق : شرب العشي « الاسان » .

(٧) الخيف : جم خيفة ، (المطرة) العادة « منطرات » جم منطرة وهي المجتهدة في

المدو . والتفسير للشيخ .

الفراق ، فاذا استيقظ رآها بالجدد (١) .

وكن في كل نائبة جريئاً تصب في الرأي ان خطي* الهدان (٢)
وسائل من تنطس في التوقي لأية علة مات الجبان (٣)

اشجع فان أقدار الله لاتعجل الى الشجاع . صل على الظالم بالمنصل (٤) .
الدنيا ، الحياة :

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجد كما جدوا وألهو كما لهوا

أمور دنياك سطر خطه قدر وحبها في السجايا أول السطر

ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضر عشقها

نفسى بها ونفوس القوم ملهجة ونحن نخبر أنا لانبايها (٥)
أمرتنى بسلو عن خواصها فانظر هل أنت مع السالين ساليها؟
ولا ترى الدهر إلا من يهيم بها طبعاً ، ولكنه باللفظ قاليها
فترو من هذي الحيا ة لكي تموت النفس ريا

* * *

الموت ، كرهه

والنفس آلفة الحياة فدمعها يجري لذكر فراقها منهله !

ولم أرد المنية باختيارى ولكن أوشك الفتيان سحبي (٦)

(١) « الجدد » : الارض .

(٢) الهدان الضيف الجبان الذي لا يهتدي لأموره (شرح السقط) والهدان اللاحق التقبل .

(٣) تنطس في كل شيء اذا ادق فيه النظر (الاساس) .

(٤) المنصل - بضم الميم والصاد ، وبضم الميم وفتح الصاد - السيف . في التاج : قال ابن

سيده : لانعرف في الكلام اسماً على فعل ومفعل الا هذا وقولهم منخل ومنخل .

(٥) ملهجة : مولدة .

(٦) الفتيان البيل والبار .

ولو خيرت لم أترك محلي فأسكن في مضيق بمد رحب !

فليت الفتي كالبدري جدد عمره يمود هلالاً كلما فني الشهر !

أحسن بدنيا القوم لو ان الفتي لا يقتضى ، وأدعيه لا يحلم (١) !

تضاعف همي أن أتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا الرواقص (٢) !

فوهاً لأشباح لكم غير أنها تبدل من أوطانها بزموس !

أنبأنا اللب بلبقيا الردي فالغوث من صحة ذاك النبأ !! !

موت البطولة

هناك ضرب من الموت لا يكره ولا يذم بل يحب ويعظم ، وهو موت البطولة في الوغى . وقد حرض الشيخ عليه ، والحرب شرعة العربي :

إذا المرء لم يغش الكريمة أوشكت جبال الهويى بالفتى أن تقطعا (٣)
والجهاد من دين المسلم :

[كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون] .

[واجاهدوا في الله حق جهاده] .

[واجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون] .

[انفروا خفافاً وثقالاً (٤) ، واجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون] .

(١) يقتضي : يطالب كأن الحياة دين عنده فأذا جاء الأجل انتضاء يقتضي .

(٢) رقص البعير يرقص رقصاً - محرك القاف - اذا اسرع في سيره . ولا يقال يرقص الا للامب والابل وما سوى ذلك فانه يقال : يقفز وينقر . (السان) .

(٣) الكعبة العرفي في مفضلية .

(٤) خفافاً من السلاح وثقالاً منه أو ركبناً ومشاة أو شباباً وشيوخاً أو صحاحاً ومراسماً (الكشاف) القصد بالآية الحث على الفرار على كل حال نصب أو تسهل (مفردات الراغب) .

وإذا كان الحال كما قال الشيخ :
وما سلّ المهند للتوقي كسل المشرفية للتشفي
فالموت يومئذ خير من ألف حياة ، خير من الخلود .

* * *

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء يفتنى أهلها الطعن والضربا
فان قبيحا بالمسوّد ضجّة على فرشه يشكو إلى نفر الكربا

كل يحاذر حتفاً وليس يقدم شره
ويتقى الصارم المضرب أن يباشر غربه
والترع فوق فراش أشدّ من ألف ضربه

لقد ركزوا الأرماع غير حميدة فبعداً خليل في الوغي لم تطارد !
وما يجمع الأشتات إلا مهذب من القوم يحمي بارداً فوق بارد (١)

لضربة فارس في يوم حرب تطير الروح منك مع الفراش (٢)
أخف عليك من سقم طويل وموت بعد ذاك على الفراش

ألا تنهض للحرب وتدعو للوغي شوسك (٣) ؟
وقد علمتُ وغيري عن مشاهدة أن الملا الف قوم في الوغي ليس (٤)

وجدتك اعطيت الشجاعة حقها غداة لقيت الموب غير هيوب

من السعادة أن يموت القوم كراماً .

(١) (البارذ) السيف ، البوارذ السيوف القوائل (الاسان) يحمي السيف فوق الدرع
أو السيف فوق السيف .

(٢) فراش الرأس : عظام رفاق تلي التحف .

(٣) الأشوس : الجري على القتال الشديد (الاسان) .

(٤) رجل أليس من رجال ليس وهو الذي لا يبالى هولاً ولا يروعه شيء (الاساس) .

للهديد الملا على سائر الجوه — ذلّ العدى وعزّ الضيوف

فوارس خيلكم تعطي منهاها إذا دُمى نواجذها الشكيم (١)
وفي بيض السيوف يياض عيش بذلك — فاعلموا — نطق الحكيم

* * *

القوة :

يخضع الظبي الأُخضع (٢) ، وينتصر الليث المهتصر .

* * *

المال ، تشميره :

والمال خدن النفس غير مدافع والفقر موت جاء بالاهمال
أو ماترى حكم النجوم مصوراً بيت الحياة يليه بيت المال

ماليسر كالعدم في الاحكام بل شحظت حال المياسير عن حال المحاويج

أنفق لترزق فالثراء الظفر ، ان يُترك يشن ويمود حين يُقلم

يفني لمن يرث أن يحترث ، وإلا في التراث .

جل من سخره لقضاء الحاج

أعتمد على ذي وجهين ، ما عرف قط بالمين . لو كان رجلاً لكان ناصح
الجيب . . . سبح ربه مذ خلق ، اذا انطلق به فهو منطلق . ومتى بُعث في المآرب
قضاها ، والله بلطفه أمضاها . ثم يُحبس ولا دنب له ، سجن فهو طول الدهر
مستريح ، لاتلج عليه الشمس ولا الريح . لا يأكل ولا يشرب . . . له منزل

(١) الشكبة في اللجام الحديدية المترصنة في فم الفرس التي فيها الفاس . وفأس اللجام الحديدية

القائمة في الحنك .

(٢) الأُخضع الذي في عنقه خضوع خفة (أبوالملا) . رجل أخضع : راض بالذل (الاساس)

مادخله لهم . . . اذا غاب الحافظ عنه فله الختم ، وليس ذلك من القضاء الحتم . . .
 'خصص بالعمر الطويل ، وتناسخه جيل بعد جيل ، فظهر في الأكاليل ، والاسورة
 والخلخال ، والكأس الدائرة بشراب الكرم والنخيل ، ماشاب ولا هرم ، ولا
 درم (١) للكبر ولا دريم (٢) ملكه قوم فدفنوه ، فتناولت في الأرض سنوه ،
 ثم ظهر ما نسي اسمه ، ولا تغير جسمه . . . به صفرة من غير الضرب ، ظهر بها في
 الشرق والغرب . . . تلقاه معلماً بالتوحيد ، وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله
 أنطق بعظمته كل جماد . . . جل من سخره لقضاء الحاج .

* * *

العمل :

تروم رزقاً بأن سموك متكللاً وأدين الناس من يسمى ويحترف

لاتقومن في المساجد ترجو بها الزلف
 معملاً بسط راحتك الى نائل يلف
 ورم الرزق في البلاد فان رمته ازدلف

يعرى الفقير وبالدينار كسوته وفي صوانك ماإعداده خرف

أملك من شداد بن عاد ساعة تفتقر الأملاك رجل اشترى كرساً (٣) ،
 وقصد منابت الشجر محتطباً ، فرجع بالمضد (٤) متكسباً ، فأحل في المكسب وأطاب .

لايصبرن فقير تحت فاقته ان السباريت جابتها السباريت (٥)

(١) درم من الدرمان وهو تقارب الخطو .

(٢) درم من الدرهم وهو سقوط الاسنان ، ومن ذلك قيل : كذب ادرم ما والمني ان نقشه ام
 يزل وخشونه لم تخلص (أبو الدلاء) .

(٣) الكبر : الحبل ج كرور .

(٤) المضد : ماعضد من الشجر ، وعضده قطعه بالمضد وهو كل ماعضد به الشجر (الاسان) .

(٥) (السباريت) القلوات [جابتها] قطعتها [السباريت] المساكين والمحتاجون ، هم

سبروت وسبريت . وفي نقائض [جرير والأخطل] لأبي تمام : صلك الرجل وسبرت اذا افتقر .

وفي [التاج] سبرت الرجل قم وتمسكن .

من في اللجة يغبط السائر على المحجة، والمسافر يغبط المقيم، والغنيمة مع الظاعنين.

العمل - وان قل - يُستكثر اذا اتصل ودام .

من سهر في الليالي السود فأحر به أن يسود .

يُبلغ أمل بعمل ، وأهل التقصير بلا عون ولا نصير .

أجد عملك وجدّ فيه .

طدّ بناءك على أس .

* * *

الشمر ، النبات :

فاذا ملكت الأرض فاحم ترابها من غرسه شجراً بغير ثمار

اذا رملة لم تحمي بالنبات فقد جهلت إن سقتها السواني (١)

* * *

الفسل ، الزواج

والنسل أفضل ما فعلت بها فاذا سميت له فمن عقل

إذا شئت يوماً ان تقارن حرة من الناس فاختر قومها ومجارها

اذا خطب الحسناء كهل وناشي فان الصبا فيها شفيع مشفع

ولا يزهدنها عدمه ، إن مُدّه لأُبرك من صاع الكبير وأنفع

وما لاخي الستين قدرة سائر اليها ولكن عجزه ليس يُدفع

ويخفض في كل المواطن ذمه وان كان يُدنى في المحل ويرفع

اذا ما ابن ستين ضم الكعاب اليه فقد حلت البهلة (٢)

(١) السانية : السابقة ، من بالسواني السحب .

(٢) البهلة - بالفتح ويضم - اللعنة ، ومنه حديث أبي بكر : من ولي من أمر الناس شيئاً

فلم يطمع كتاب الله فليبه به أمة .

هو الشيخ لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله (١)
 فلا يتزوج أخو الأربعين الا مجربة كهـله
 رأى الشيب في عارضيه المسن فنعـم القرين له الشهله (٢)
 اذا كانت لك امرأة عجوز فلا تأخذ بها أبداً كما با
 فان كانت أقل بهاء وجه فأجدر أن تكون أقل عابا
 وحسن الشمس في الايام باق وان مجت من الكبر اللعابا
 ومن جمع الضرات يطلب لذة فقد بات بالأضرار غير سديد

* * *

معاملة الصغار

ورققاً بالأصغر كي يقولوا غدونا بالجميل معاملينا
 فأطفال الاكابر إن يوقوا يروا يوماً رجلاً كاملينا
 لا تزدن صفاراً في ملاعبهم فجاز أن يروا سادات أقوام
 وأكرموا الطفل عن نكريقاله فان يعش يدع كهلاً بعد أعوام

* * *

...وبالوالدين احساناً

العيش ماض فأكرم والديك به والام أولى باكرام وإحسان
 وحسبها الحمل والارضاع تدمنه أمران بالفضل نالاكل انسان

(١) وللشيخ :

واحدة كنتك فلا تجاوز الى اخرى نجى بمولات
 ولا يتأهلن شيخ مقل بمصرة من المنتهات
 فان الفقر عيب إن أضيف اليه السن جاء بمولات
 (٢) الشهله : النصف المائلة ، المجوز وذلك اسم لها خاصة ، واسمأة شهله كهله ، ولا يقال :
 رجل شهل كهل ولا يوصف بذلك إلا أن ابن دريد حكى : رجل شهل كهل .
 وللشيخ :

اذا خطب الزمراء شيخ له غنى وثانيه عدم آثرت من تفاق

تحمل عن أميك الثقل يوماً فان الشيخ قد ضعفت قواه
أتى بك عن قضاء لم ترده وآثر أن تفوز بما حواه

حفظ الصحة

دار نفسك وان بلغت سن الهرم كما يدارى الوليد .
إفراط الشبع آفة على كل حيوان .

سئتك خير لك من درة زهراء تعشي أعين الناظرين
عجبت للضارب في غمرة لم يطع الناهين والآمرين
يكسر باللؤلؤ من جهله خشباً عتت عن أمل الكاسرين

تجزأ ولا تجعل لحفك علة باكفار طعم ، ان ذلك لوم^(١)

لا تزلن^(٢) وكن رثيال مأسدة ان الرشاد ينافي البادن الربلا

الشبية

إذا ما حبت نار الشبية ساءني ولو نص لي بين النجوم خباء

ان الشبية نار ان أردت بها امرأ فبادره ، ان الدهر مطفئها

السفر

لو ملكت الرحيل جولت في الآفاق حتى يملني التجويل .

(١) تجزأ بالي: قطع بالي. واكتفى به. اكتف بجزء من أكله .

(٢) الرثالة : كثرة الاعم وهو ديل وديل .

أدب السلوك

الكتاب المختوم يشتمل على سر مكتوم ، فان فضضته ولم يأذن من أمرك عليه فقد أوضعت (١) في سبيل الخائنين .

لا يبصر القوم في مغناك غسل يد على الطعام الى أن يرفع السور (٢)
ولا يكن ذاك الا بعد كفهم أكفهم ، ويسيرُ الفعل ميسور
فان تقرب خدام الفتى حرصاً والضيف يأكل رأي منه مخسور (٣)

* * *

لكل زمان ما يشاكله

أعدد لكل زمان ما يشاكله ان البراقع يستتبّن بالشيم (٤)
فان ضربت بسيف الهند في ومد ف سيف افرنجة الخبوء للشيم (٥)

* * *

المرء شبه زمانه

وإن الفتى فيما أرى بزمانه لأشبه منه شيمة بأبيه (٦)

* * *

الناس

والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض - وان لم يشعروا - خدم (٧)

(١) مشيت .

(٢) سور بمعنى عرس ووليمة (شفاة النليل) وفي النهاية (في حديث جابر أن رسول الله (ص) قال لأصحابه : قوموا فقد صنع جابر سوراً أي طعاماً يدعو الناس اليه ، واللفظة فارسية .

(٣) المرض : الأثتان تغسل به الثياب والأيدي على أثر الطعام .

(٤) الشبامان خيطان في البرق تشده المرأة بهما في قفاها .

(٥) (ومذ) حر (الخبوء) المد المدخر الشيم (البرد) .

(٦) في (امالي القاضي) : هشام بن عروة : الناس بزمانهم أشبه بأنهم وروى ابن هندو في كتابه (الكلم الرومانية في الحكم اليونانية) لافلاطون : لا تقصروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

(٧) قالوا : الحضر ، محركة فهل سكنت ضرورة ؟

ان خالفوك ولم يحجر خلافهم شراً فلا بأس ، ان الناس أخيف (١)
 قال الخليفة العظيم عمر : « أعقل الناس أعذرهم للناس »
 ومن عرف الناس وتاريخهم ووراثتهم القرية والبعدة (L'atvisme)
 ومنشأ ما يسمى (رذائل) وأسبابها عذر ولم يستعجب مما يشاهد . يقول الشيخ :
 يلقاك بالماء النير الفتي وفي ضمير النفس نار تقد
 يعطيك لفظاً ليناً مسه ومثل حد السيف ما يعتقد
 وهذان البيتان ان دل ظاهرهما على معائب في الناس ففيها ما ينبغي بارتقاء لهم
 عجيب ، فقد أسمى هذا الفتي الذئب الجشع الحاسد المحتقد سافك دم أخيه من أجل
 ثعلب ظفر به أو يربوع ومن أجل مستنقع رده أو مطيطة (٢) - قد أسمى هذا
 الفتي وارث الفرائز يلقاك أحسن لقاء ويخاطبك خطاباً جميلاً وفي الضمير والمعتقد
 ما أبان الشيخ . فاذا طال تكلفه ما يتكلفه ، واستمر اعتياده ما يعتاده « وعادة المرء
 تدعى طبعه الثاني » كما يقول شيخنا حكى بعد أدهار باطنه ظاهره ، شبه جوانيه
 برانيه ، وحسبك منه اليوم ذاك اللقاء وذاك العطاء وان كان في ضمير النفس نار تقد ،
 وساء ما يعتقد .

... كذلك سخرناها لكم :

قال الامام ابن قيم الجوزية في كتابه (طريق الهجرتين وباب السعادتين) :
 « ... ولما انتهى أبو عيسى الوراق الى حيث انتهت اليه أبواب المقالات طاش عقله ،
 ولم يتسع لحكمة إيلامٍ وذبحه صنف كتاباً سماه (النوح على البهائم) فأقام عليها
 المآتم ، وناح وباح بالزندقة الصراح » .
 وقال العلامة الفيومي في المصباح :

ويحرمون - يعني البراهمة - لحوم الحيوان ، ويستدلون بدليل عقلي فيقولون :
 حيوان بري من الذئب والعدوان فايلا منه ظلم ، خارج عن الحكمة . وأجيب بظهور
 الحكمة ، وهو أنه استسخر للانسان تشريعاً له عليه ، واكراماً له كما استسخر
 النبات للحيوان تشريعاً للحيوان عليه . وأيضاً فلو ترك حتى يموت حتف أنفه مع

(١) من الهجاز : هؤلاء أخيف أي مختلفون .

(٢) المطيطة : الماء المختلط بالطين الذي يتمطط أي يتمدد لثورته [الفائق] .

كثرة تناسله أدى الى امتلاء الأفنية والرحاب وغالب المواضع ، فيتغير منه الهواء ، ويكثر به الفناء ، فيجوز ذبحه تحصيلاً للمصلحة وهي تقوية بدن الإنسان ، ودفعه لهذه المفسدة العظيمة . وإذا ظهرت الحكمة انتفى القول بالظلم والعبث .

وشيخنا الميري يقول داعياً الى الارتفاق به :

يأكل أطايب الأعفاء من سمح بالرسل في أيام السفاء (١) ، ويلج الغمار باذل السمار (٢) ، وتلني الضيفان على الجأئد بملء الجفان . لا يثني عليك فصيل بالأصيل . ومن اخضرت شربته (٣) بالواد أكيات مرهده بالتمر الجلال (٤) . ومن ركب العامة (٥) في طلب الصيد كانت بطون عياله قبوراً للحيتان . ومن تتبع بقوسه موارد الوحش كثر في منزله الوشيق (٦) .

وقال (الوليد) : النبع ليس بثمر وأخطأ، سرب الوحش من ثمر النبع (٧)

(١) [الأعفاء] جمع عفو وهو المجيش [السفاء] قلة اللبن ، يقال : ناقة سفي وهي ضد الصفي ، والمعنى أن من سقى فرسه اللبن في أيام قلته طرد عليه الوحش فصادها [أبو العلاء] .
العفو : المجيش سمي به لأنه يفي عن الركوب والأعمال [الفائق]
(٢) [النمار] جمع غمرة وهي الشدة [السمار] اللبن المذيق ، والمعنى أن من سقى فرسه ساراً وثق بجريه فوج غمار الحرب [أبو العلاء] .

(٣) اخضرت شربته أي صار عليها طلعاب من كثرة الماء وادمان السقي (أبو العلاء) الشربة مثل الحويض يفرحول النخلة والشجرة ، يملأ ماءً يسع فيها فتتروى منه ، والجهم شرب وشربات (التاج) .
(٤) أكيات المربد أي صار فيه ثمر يوصف بالكثرة ، والرب نصف الثمرة بالكثيث ، والجلاد جمع جلدة وهي الثمرة الشديدة التي لا تتوسف أي تنقص (أبو العلاء) .

(٥) العامة ضرب من السفن (أبو العلاء) وفي الأساس : وركبوا العام أي الارماث الواحدة عام لانها تنوم في الماء وفيه : وركبوا الرمث في البحر وهو الطوف : وهو من قرب منفوخ فيها .
(٦) الوشيق الاسم المتعدد طولاً ، والقطعة وشيقة (أبو العلاء) .

(٧) (في شرح سقط الزند) :

» أراد الوليد بن عبيد البحرني وذلك أنه قال في شعره :

وعيرني خلال الدم آونة والنبع هريان ، مافي عوده ثمر

يعني بالنبع الشجر الذي يصل منه السقي ، قال البحرني : (ان النبع لا ثمر له) وقد أخطأ في قوله فان قطع الوحش التي تصاد من الظباء والحمر والبقر الوحشية - من ثمار النبع ، وذلك أن السقي إنما تبرى من النبع ، ويرى الى الوحش عنها ، وتصاد بها ، فالوحشي اذن من ثمر النبع «...»
و (هريان) معروف ، وقد ترك البحرني مراده ضرورة .

حِلة ابلك وعشارها (١) أروت ضيفك غزارها ، وملأت جفانك وذارها (٢)
 لن تبكيك بكارها اذا السنة كثر قطارها ، وذُبح في الروضة فارها (٣) ، واعتم
 بالروضة بهارها (٤) . سأم ابلك شرارها .

* * *

الآثرية ، الايثارية .

ان ترد أن تخص حراً من الناس بخير فخص نفسك قبله .

اذا لم يكن لي بالشقيقة منزل فلا ظهرت عزاؤها والشقائق (٥)

اذا كان اكرامي صديقي واجباً فاكرام نفسي - لاحالة - أوجب

ومن أطال خلاجاً في مودته فهجره لك خير من تلافيه (٦)

اذا ولي صديقك فول عنه ، فانما يُنزل بالوادي ذي الشجر والروض الميم (٧)
 ويقدم بزند العفار (٨) مادام واري النار ، فاذا خبت ناره بطل اختياره ، واذا
 السقام لم يمك الماء فهو زيادة في مشقة المسافر .

(١) « الجلة » المسان - الكبار - من الأبل يكون واحداً وجمعاً ويقع على الذكر والأنثى
 « اللسان » عشراً - أنثى - على حملها عشرة أشهر والجمع عشار ومثله نساء وناس ، ولا ناك لها « المصباح »

(٢) وذارها جم وذرة وهي القطعة من اللحم « أبو العلاء » .

(٣) ذبح الفار للمسك وهو هنا استمارة لروض « أبو العلاء »

(٤) اهتم التبت اذا طال وكثر [أبو العلاء] . [البهار] : ثبت طيب الريح : الراد .

(٥) [الشقيقة] الفرجة بين الرمال [النزاه] المطر الشديد الوابل [الشقائق] سعائب تهب

بالامطار الندقة ، والشقائق هو هذا الزهر الاحمر المعروف .

(٦) [خلاجاً] نزاهاً - جناباً .

(٧) كل ما اجتمع وكثر عيم والجمع عيم ، والميم الطويل من الرجال والبنات [اللسان] .

(٨) الفار شجر يتخذ منه الزناد ، المرخ والعفار شجرتان فيها نار ليس في غيرها من الشجر

[اللسان] وفي أمثالهم : (في كل شجر نار واستجد المرخ والعفار) وقد رواه الهماني وشرحه .

(٧) ٢

٤ . المهرجان الألفي

لاتاو (١) لمفسد تاو (٢) ، فان الذيب جدير بالتعذيب .

آخ في الله الاخوان ، ولا تقل لبميرك : إخ في دار الهوان (٣) .

ادفع الشر اذا جاء بشر وتواضع انما أنت بشر

بأي لسان ذامني متجاهل علي ، وخفق الريح في ثناء
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

اذا ماقلت ثراً أو نظيماً تتبع سارقو الألفاظ لفظي

كأنني اذا طلت الزمان وأهله رجعت وعندي للأمان طوائف (٤)
وقد سارذكري في البلاد فني لهم باخفاء شمس ضوءها متكامل
واني وان كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الاوائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفه فلست أبالي من تفول الفوائل
فلوبان عضدي ما تأسف منكبي ولو مات زندي ما بكته الا نامل

وكم من طالب امدي سيلقي دون مكاني السبع الشدادا
ويطمئن في علاي وإن شسي ليأنف أن يكون له نجاداً
ويظهر لي مودته مقالاً وينغضي ضميراً واعتقادا
لي الشرف الذي يطل الثريا مع الفضل الذي بهر العبادا
وأحسب ان قلبي لو عصاني فعاود ما وجدت له افتقادا

تماطوا مكاني وقد قهم فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجهم كما ينبع الكلب ضوء القمر

* * *

(١) أوى له : رقى ورث له ، وأشفق عليه ، يأوي مأوية ومأواة .

(٢) تاو : هالك ، توي كرضي يتوى وطى تقول : توى كسى .

(٣) إخ - بسكون الخاء وفتحها - صوت اناخة الجبل ، ولا فعل له .

(٤) طلت : فقت (الطوائف) ج طائفة : الترات الذحول .

وافعل بفيرك ماتهواه يفعله وأسمع الناس ماتختار مسمعه (١)
ولو أني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا
فياوطني ، ان فاتني بك سابق من الدهر فلينم لساكنك البال
وما سرني أني أصبت معاشرا بظلم واني في النعيم غلدا
فانفع اخاك على ضعف تحس به ان النسيم بنفع الروح هباب
كيف لا يشرك المضيقين في التمسمة قوم عليهم النماء
أنجد أخاك على خير يهم به فالؤمنون لدى الخيرات أنجاد
نجد بعرف ولو بالزرر محتسباً ان القناطير تحوى بالقراريط

(١) هذا البيت يشمل الاثرية والايثارية معاً . ولحكماء الاغريق قبل التاريخ الميلادي بخمس
مئة سنة وفي الانجيل والحكيم الصين ما يشبه قول الشيخ . وروى البخاري في جامعه : « لا يؤمن
أحدكم حتى يجب لأخيه ما يحب لنفسه » والحديث «كريم - كما ترى - هو أنري ايثاري .
ولأنني المتأهية .

ولا خير فيمن ظل يبغي لنفسه من الخير ما لا يبتغي لأخيه
وروى البهاري في حماسه لعبد الله بن معاوية الجعفري .

ارض للناس ما رضيت من الناس والا فقد ظلمت وجرتا
وروى السبكي في طبقات الشافعية الكبرى لأبي سليمان الخطابي :
ارض للناس جميعاً مثل ما رضيت لنفسك
اغما الناس جميعاً كلهم أبناء جنسك
فلم تقس كنفك ولهم حسن كحك

وفي (كامل) المبرد هذا القول : « خير الناس للناس خيرهم لنفسه » قال أبو العباس : وذلك أنه
إذا كان كذلك اتقى على نفسه من السرقة لئلا يقطع ومن القتل لئلا يقاد ، فلم الناس منه باتقاه
على نفسه .

فدار خصمك ان حق أنار له ولا تنازع بتمويه واجلاب

اذا ماتيننا الامور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

لا يترك قليل الخير يفعل من نال في الأرض تأييداً وتمكيناً

أضيء بالمعروف وأتلق ، وأطلق يمينك فعداً تنطلق .

انظر بين يديك ، واجعل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل ليك ،
واذا الجأعدوك الدهر إليك فانس حقودك الغبرات (١) ، أطعم سائلك أطيب طعاميك ،
واكس العاري أجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بأرفق كفك .
الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ، ورحم المسكين ، وتبرح بما لا يجب
عليه ، وكره الحنث ، وكفر عن اليمين .

لتكن سماؤك نزة (٢) ، وثرى (٣) أرضك قريباً ، فنعم الشيء الثراء لمن
كسا العاري وأطعم السفبان .

ذرت (٤) البركة في طعام أكل منه الضعيف ، وزعت البركة من طعام
خص به الغني دون الفقير ، والله مطعم المطمئن . وزر حرام يوقع الحققة
في قميص انتسج من حل ، وقطرة الدم تقع في المزايدة (٥) فلا يحل منه الطهور .
أرّ نارك لطارقك (٦) ، ولا تؤرها لاحراق الجار ، والله جار (٧) من

(١) الغبرات . القديمات ، ومنه غبر الجرح اذا انتفض لفساد فيه قديم (أبو العلاء) .

(٢) حين نزة غزوة الماء ، وكذلك السحابة ومطر ثرواسم القطر (الاسان)

(٣) الثري : التراب الندي ، والثري الندي (الاسان) وفي الاساس : وبلغت ثرى فلان اذا أدركت
ما يطلب منه .

(٤) ذرت نفرت ، بذرت .

(٥) المزايدة ظرف من جلد يحمل فيه الماء .

(٦) أرى ناره تأريه : أشعلها ورفضها .

(٧) جاره : مجيره .

لا جاره من المستضعفين . وبرّ في قلبك خير من برّة (١) في يدك ، فاتق الله ،
وكن من الأبرار الطاهرين .

قد نفسك إلى الواجب ولو بجزير ، وكد معاديك بأن تجتنب أفعال
الكافرين ، ودل السائل لتكون نعم الدليل ، ودم على ما قربك من الأبرار
الطيبين ، ودن من فعل خيراً معك فانك مدين .

بإفاعة الأنام ، وولاة أمور الأنام ، مرتع الجور وخيم ، وغبه ليس
بحميد ، والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام .
كلنا عبيد لله .

من بخل بطعام ، فقد بخل بقليل الانعام .

بعدت رائحة قنار ، تظهر تارة بعد تار (٢) . ثم لا ينال خيرها الفقير .

النفاق يلبسك ثوب الاشفاق ، والافتقار يذهب الاحقاد ، والأشر
يهلك البشر ، لا كتبنا الله مع الأشرين .

مارياً قطر (٣) ورائحة حبيب عطر بأطيب من ثناء مستطر (٤) يشفي به
بر على مبر (٥) .

* * *

تلك طائفة من أقوال الشيخ ، وفيها التفاؤل كله في الحياة ، وفيها
الآثية — كما أن فيها الإيثارية — وكان شيخنا د يلبس بالشطرنج والترد
ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، كما روى الصفدي في (نكت الهميان)
وكان خفيف الروح يدعب ويفاكه ، ومن فكاهته في إحدى رسائله إلى

(١) البرّة حلقة من سوار وقرط ، وخلخال من فضة أو ذهب .

(٢) في (الصحاح) : وربما قالوه بمحذف الهاء قال الرازي : بالويل تارا واليبور تارا .

(٣) القطر — بضم الطاء — وسكونها — العود الذي يتبخر به ، وقد قطر ثوبه ، وتقطرت المرأة ،

والعود في المقاطر : الجاسر .

(٤) مكتوب .

(٥) أبر الأمور : طلب بها البر والاحسان إلى الناس والتعرب إلى الله تعالى .

أبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري وقد غير هذا اسمه ، وقصر كنيته — هذه النبذة :

«... وأهل البصرة^(١) (سلمهم الله) ينسبون إلى قلة الحنين ، أليس قد مرت به هذه الحكاية وهي انه وجد على حجر مكتوب :

ما من غريب وان أبدى تجلده إلا سيدكر عند العلة الوطناء
فكتب تحته إلا أهل البصرة . فاذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم
فكيف بالذين عرفوهم من اخوانهم ؟ والدليل على ما قلت أنه — ادام الله عزه —
لم يثبت^(٢) اسمي ، جعلني محمداً واسمي أحمد... وله أن يقول انه تشبث بالكنية
فاستغنى بها عن الاسم . فأما أنا فحفظت اسمه وكنيته ونسبه ، ولم أنس أيامه
ولا مذاكرته ، وقد جعلت جواب كتابه نائباً مناب الاجتماع معه...
وما عبت على أهل البصرة قلة التفاتهم إلى الأوطان وانما وصفتهم بقوة القلوب
والأكباد لأن العرب تصف نفوسها بذلك ، أليس قد بلغه قول قتادة
ابن مسلمة الحنفي :

يبكى علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الابل
فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه ؟ أما السمة فغيرها ، وأما الكنية
فقصرها ، فانا لله وانا إليه راجعون ! هذا أمر من الله ليس هو من ضعف
الشاعر ولا وهن القائل ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب والاتفاق الردي
لمن سمي وذكر... وانما تفوت من ذلك لأني قصير الهمة قصير اليد
مقصور النظر أي مكفوف ، مقصور في البيت أي لازم له فكأنني محبوس
فيه . فما كفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم ،
لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لو كنت أطول من ظل الرمح لصرت
أقصر من سائلة الذباب^(٣) ، قد كدت أمصح في الارض كما تمصح الظلال^(٤)...
وقد مدحني بما ليس في ، ولكنه في ذلك على مذهب الخطباء والشعراء ،

(١) البصرة : مثناة والفتح والسكون اللفظة العالية والنسبة اليها بكر الباء وفتحها .

(٢) أثبت الشيء : عرفه حق المعرفة . وفي الأساس : أثبت الشيء معرفة اذا قبله علماً .

(٣) السائلة : جانب النقي .

(٤) أمصح الظل : ذهب .

وزعم صاحب المنطق في كتابه الثاني من الكتب الأربعة أن الكذب ليس بقبیح في صناعة الشعر والخطابة ، ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط . . . ، وما (رسالة الففران) المبقرية إلا كتاب أماليح وأفأ كيه وأها كيم (١) . وكان الشيخ كلفاً بالحمد والمجد « والثناء على الرجل أحسن الملبوسات (٢) » « وغير ملوم من عشق الثناء لأنه أحسن حبيب مزور وأبقى بنفس مذكور (٣) » وقد أعلن ذلك ابن القارح في رسالته المشهورة إلى أبي الملاء :

« . . . ويعلم الله الكريم (تقدست أسماؤه) أني لو حننت إليه (أدام الله تأييده) حنين الواله إلى بكرها ، أو الحمامة إلى إلفها ، أو الغزالة إلى خشفها — لكان ذلك مما تغيره الالبالي والأيام والمصور والأعوام لكنه حنين الظمان إلى الماء ، والخائف إلى الأمن ، والسليم (٤) إلى السلامة ، والغريق إلى النجاة ، والقلق إلى السكون بل حنين نفسه النفيسة إلى الحمد والمجد ، فاني رأيت نزاعها إليهما نزاع الاسطقسات (٥) إلى عناصرها ، والأركان إلى جواهرها . . . »

* * *

ولإذا أقام أبو الملاء في عرينه مضرباً فيه (٦) ، فقد كان مطالاً على الدنيا — وان خيل أنه تخلى منها — وما كان أخا زهد (٧) فيها ، لافكر له في شيء . وكانت شؤون أمته تمنيه أعما عناية ، والمتشائم لاتهمه حالة ، ولا يبالي بأمر بالة . كتب إلى أبي الحسين بن سنان ، وقد أوذم على نفسه الحج (٨) ، والعدو يزأر في الثغور :

(١) جمع أمكومة والأهكومة كالأنجوبة من التعجب .

(٢) أبو الملاء في « الفصول والفايات » .

(٣) أبو الملاء في رسالته إلى بعض أولياء السلطان يشتم في صديق له كان عاملاً يعرف بالحمين ابن عبسة . والمنفس كالنفيس ، نفس نقاسة وأنفس ناقاسة .

(٤) السليم : اللديع ، وانما هي اللديع سليماً لأنهم تطيروا من اللديع فقلبوها إلى كذا قالوا للجبني أبو البيضاء وكذا قالوا للفلاة فافازة فاعادوا بالفوز وهي مهلكة (اللسان) .

(٥) العناصر الأربعة في مذهب القدماء وهي الماء والنار والارض والهواء . . .

(٦) أحرب في بيت : لم يرح .

(٧) كل من نسب إلى شيء فهو أخوه كقولهم أخو سفر وأخو عزمات وأخو قنار وأخو خر وأخو ،

لذة (الخصم) .

(٨) أوذم على نفسه حجاً أوجب وعم به أبو صبيد : وأوذم على نفسه سفرأ أوجب (الخصم)

«... وسفر مولاي إلى الحج في هذه السنة حرام بسل... وهل سمع في أخبار الصحابة (رحمهم الله) أو التابعين أن رجلاً خرج من مصافة (١) العدو يريد بيت الله الحرام... وهو (أدام الله تمكينه) أمين من أمناء المسلمين، يرهف الشوكة (٢)، ويستجيد الأمانة (٣)، ويحصن ماوهي من سور... البيت العتيق منذ عصر آدم يزار ويحج، ماخيف عليه انتقال ولا تحول، ولا غيره عن المهد منير... أما يعلم أن لأهل البلد أنساً برؤية شخصه واستماع قوله. وما ينبني أن يكون كما قيل في المثل: (لج فحج) ولو قال وليد لوليد في ليل داج وهو عناد محاج: من يؤجر في مقامه في الديار أضعاف أجره في حج واعتار؟ فقال الوليد الآخر: (محمد بن سعيد) لوقع سهمه غير بعيد. وحماية الذمار (٤) أولى من حج واعتار...»
ولما صبأ الفتى طارق (خلده الله في جهنم).

وفارق دين الوالدين برائل ولولا ضلال بالفتى لم يفارق (٥)
أرسلها (نزومية) صاعقة مجلجلة أحرقت ذاك المضلل. وهذه النزومية — وهي واحد وعشرون بيتاً (٦) — توضح فرط عنايته بأمنته واستمسكه بنحلته، وتنبئ بأنه كان يداخل القوم في أحوالهم وإن كان جليس نفسه (٧).

* * *

اقرأ كلامي إذا ضم الثرى جسدي (٨) فإنه لك ممن قاله — خلف (٩)

محمد اسعاف الفسائي

- (١) صافه فهو صاف إذا رتب صفوفه في مقابل صفوف العدو، والمصاف — بالفتح وتثنية الفاء — جمع مصف وهو موضع الحرب الذي تكون فيه الصفوف (الامان).
- (٢) الشوكة: السلاح. رهف السيف وأرهنه: رقق حده، شحذه.
- (٣) الأمانة: الدرع المحكمة الملتزمة.
- (٤) الذمار كل ما يلزمك حمايته والدود عنه. في الأساس: هو حامي الذمار إذا حمى ماله لم يحمه ليم وهن من حماه وحربه كقولهم حامي الحقيقة.
- (٥) أبو العلاء.
- (٦) ذكر الشيخ طارفاً هذا في نزومية أخرى وفيها التوبيخ الشديد والذم البالغ.
- (٧) فلان جليس قسه إذا كان من أهل العزلة.
- (٨) أبو العلاء.
- (٩) شاء صاحب هذه الكلمة أن يثلو في الحفلة فنبأ منها لأن الوقت لا يسم لتلاوتها كلها.

أبو العلاء

١ - مهرجانه

أجل هو يوم الشعر تطنى عباقره
مشي مهرجان الدهر فيه مباحراً
وقام جلال الحق يسعى وأقبلت
وودت دهاقين القرون لو أنها
ولولا حياء الليل نصت مواكباً
فوى ربه من سدره الخلد سدة
شهاب تحاماه الرجوم وساطع
وسيف جلالة الدهر دهرأ فلم يجد
أذاب اختيال الدهر في كبريائه

وتعلاً أسمع الخلود منابره
فخفت له الأفلاك نشوى تباهره
وفود انتهى من كل صوب تسايه
ميامنه في جيشه ومياسره
عذارى الدجى في حشده وحرأره
يلوذ بها ناهي الزمان وأمره
من الفجر مغمور به من يناكره
له دولة تسطو به وتشاوره
فدانت له أسرارته ومجاهره

٢ - ذكاؤه وقوة طبعه

هو الشاعر الأعلى فمن ذا يكابره
وماذا يقول اليوم فيه مفوه
ولو نشرت آي النوايج جملة
له يقظات توقظ الوقد في الصفا
وجذوة طبع تترك البحر مارجاً
وطبع علا السبع الطباق فأسلست
يطأطى من تيه الكواكب وادعاً

وقد طبق الدنيا فمن ذا ينافره (١)
وقد أثقلت ظهر الزمان مفاخره
لأربت عليها آيه ومازته
وتبعث ميت الروض يهتز ناضره
وبصر فيها الليل أين مخاطرته (٢)
له رهبة أو رغبة لا تماكره
فتعنو له طوع الهوى لا تعاسره (٣)

(١) في المروي أن شعر أبي العلاء بلغ مائة ألف بيت وإن كان المدون منه دون ذلك بكثير.
(٢) المارج : الشمة الساطع ذات الالهب الشديد او النار بلا دخان . ومخاطره : مسالكه وطرقه .
(٣) أكثر أبو العلاء ، من ذكر النجوم ومظاهر الفلك والشمس والقمر وألوان الطبيعة ووصف الكواكب ومصيرها ، فرادى وجماعات ، أكثراً أبر به على كل شاعر . —

تتيه بذكره الليالي وتنتشي
فلا تدعوا في الوسع طوقاً فكلنا
حناسها ما طربّ الحفل ذاكره (١)
رعيته في حفله وعساكره

٣ - ثورته على الملوك

تأنق في إكليل مجدك ضافره
ولو ملكت زهر النجوم قيادها
تهاداك أعناق القرون ، فتارة
وما كنت الا الشمس إن غال عارض
ترفعت عن صوغ المحال وأكبرت
وأسمعتهم سجع الحمام فردّوا
فأصليتهم نار القوافي ورعتهم
فرفت على هام العصور ضفائره
لأهوت اليه النيرات تصاهره
نهوضاً وأخرى يدرك الجدّ عاثره
سناها فغن وشك يبدد غامره
لها تكت ميناً فافتكت جرائر
زئير الضواري العاديات هزائره (٢)
بكل حديد الطرف قُبّ خواصره (٣)

— قال : سبحان من برأ النجوم كأنها
وقال : وفي كل شهر تصرع الدهرجة
وقال : زحل أشرف الكواكب داراً
(١) قال : ينافس يومي في أمسي تشرفاً
(٢) قال أبو العلاء وقد استشفع به أهل المرة إلى صالح حين تزوله بجيشه عليها فشفعه بهم
ورحل عنها بعد أن وهبهم له :

ولما مضى العمر إلا الأقل
بشت شقيماً إلى صالح
فيسمع مني سجع الحمام
(٣) القب : جمع أقب وهو الضامر من الخيل وموئته قباء ، والمعنى أن كل بيت من شعر أبي
العلاء يصير بعبوب الملوك يكشفها للناس سريع إلى هناك فضاغهم مرة الحبول الضامرة . فن ذلك قوله :
وأرى ملوكاً لا تسوس رعية
فعلام تؤخذ جزية ومكوس

وقوله :

ساس الأنام شياطين مسالطة
في كل مصر من الوالين شيطان

وقوله :

رئس الناس بالدهاء فابنفسك صر ينقاد طوع دهاه

إذا زار مختال الملوك تضاءلت عليه ثياب الملك وارتاع طائرته (١)
وممت به أجناده وتنكرت بشاشتها أبهاؤه ومقاصره
فما في بني حواء غيرك شاعر يهاب وتخشى وهو عفو بوادره

٤ - هو والناس

ولو كنت ذا زين لأن لذي الحجا ولكنه ظلم الوري ليس للوري
م الناس ما أعطوا أخا الحق ذرة من الحق الا مصلتات حناجره
فكم ضاع فجر في ظلام نفوسهم وغاب أصيل مشرقات زعافره
وكم ضل في دهمهم رائد الضحي وأخطأ بحجاً قصده ومساييره
ولولا الحقود المستكنات لارتووا سراب الفلاحت لمياً هواجره
فما أبعد القطب المدى في سموه عن الأرض لولا الشر منهم يحاذره

٥ - بيازه وغفرانه

طلعت على الدنيا ظلاماً فسقه بيانك حتى أسلمته دياجره
ضربت على الجحان جزية قاهر فجاءت بأخبار السماء تواتره
وأفضت اليك الحالكات بنفيها مكشفة أحنائه وضمايره
فهللت جلباب الحقائق فانبرى أخوها ياديها الهوى وتجاهره
كأن البيان الحر قبلك ما ضفت على أحد ، حتى أتيت ، مآزره
ولو كان وحي بعد وحي محمد لما كان إلا وحيك السح هامره
جلوت به الاخرى نعيماً وجاحماً وصورته حتى كأنك عامره (٣)
وخلدت من «غفرانك» الفذلوري مناهل وحي مفعم من يناظره

(١) وقال :

مل المقام فكم أعاثر أمة أمرت بنير صلاحها امراؤها
ظلموا الرمية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

(٢) قدر الله التي كقدره تقدير أي قضاء .

(٣) في رسالة النفران .

٦ - أنفثه وشموخه

لكل عظيم جنده ومعاشره
ونحن بني الآداب جندك لم يكن
جلالك في كل القلوب موطد
وتاجك معقود على الدهر خالد
وما زال ركب الدهر حيران تأهياً
تجاوزت طوق الحاسدين فأقلموا
وأثقلت للأحرار عرشاً على السهى
وأنهضت للأخلاق مجداً وعزة
تركت المني للساهرين مع المني
وأعرضت عن دنيا الأنام محلقاً
فما صحت في أعقاب ماض ولا هفا

تمز به طوراً وآناً تضافره
لذي صولجان مثله إذ نكأثره
مكين إلى أن يبعث الخلق ناشره
يزان به تاج الدجى ويؤاصره
يحرك لا تلقي ملاذاً مواخره
وأنى ليجتاز الخضم قناطره
تعاورته في كل عصر أخايره
يحن لها من محور الزهر دائره
وصعدت للهم البعيد تساهره
إلى الملاء الأعلى يناجيك كابره
بليك للأوطار سؤل تداوره

٧ - اشفاقه على الانسان والحيوان

وسمت الورى نوراً وطرفك موصد
فلو جمحت خيل الصباح جذبتها
وطفت على الدنيا تواسي حريها

على النور فياض الجوانب نازره
أعنتها كي ينقذ الكون باكره
وتأسو جراح البؤس تدمى معاقره (١)

(١) قال: أسأت ببيدك في صيفه
وسوف يجازيك رب السماء
وقال: إذا كسر البعد الأنا-ضده
وقال: وابك على طائر رماه فتى
أو صادفته حباله نصبت
بكر يبنى المائز مجتهداً
كأنه في الحياة مافرح
وقال: يا ضارب الآود البطي وظهره
أدق به فشهد أنك ظالم

وحملت ميرك عالم يطق
فشم لا حكاية وانتطق
أذا له إن الأنا-م إلى كسر
لا- فأوهى بضم الكفا
نقل فيها كأنما كفا
قص عند القروق اونتها
نصن فتى عليه أو حفا
لاوز ريمله كعزد الضارب
في ظالمين أباعد ما ظوب

أملتَ لديدان الثرى في حشا الثرى
يملأها وقد الظما وتجاوره (١)
ولم تنس عيراً يقرع الضيم ظهره
وأشفقت للبرغوث يعقر طامره (٢)
وقمت بعدذر الليث يقات طائعا
جبلته في فرسه مايساوره (٣)
وساحت ذئب القفر بالشاة ساغبا
يمزعه ناب الطوى وأظافره (٤)

٨ - خلوده

صحا الدهر الا بعض مس نخامره
لذكرارك وارنأاد المحجة سادره
فليس على الصبراء أو في سمائها
كمجذك مجد لاتين مفارقة

(١) قال في الفصول والبايات : لتكن أفضالك لوجه الله ما استطعت وعزز ذلك على سكان الأرض ، ولكن توجد من وراء اجتهاد . وإذا فشتك الشدائد إلى المفازة ومك خبط من الأبق - أي القتب - ومسك ماء وفشرت لك اليداء فم جفر - بشر - فأصبت منه بئيتك ، فاصنع حوضاً ولو قيد فتر فألن فيه من تريم ذلك الجفر فإأصابه من وحش أو إنس أو ذي جناح فلك من الله الثواب وإن كنت على أوافاض - عجلة - فاسق الأرض لينتفع به ولو بنات العمق - الدود - ولا ترض جزاء على الحسنة بثلاث .

(٢) العبر : الحمار . قال في اللزوم :

لقد راينى مفدى الفقير بجعله
على المعير ضرباً ساء مايتقلد
يعمله مالا يطيق فلون وفى
أحال على ذي فترة يتجعد
وقال : تسريح كفي برغوثة ظفرت به
أبر من درهم تحليه عتاجاً
كلاهما يتوق والحياة له
حبية وهدوم العيش . يحتاجاً

(٣) قال في اللزوم :

وما ذنب الفراغم حين صيفت
وصير قونها مما تدمي
لقد جبلت على فرس وخرس
كما جبل الوقود على التمي

(٤) قال في عذر الذئب ، وذؤالة علم له :

ولولا حاجة في الذئب ندمو
لصيد الوحش ما اقتصر الغزال
وما لذؤالة المسكين صبر
فيعرفه عن الحمل الهزال
وقال : ولوعلمتم بما في الذئب من سب
أذن لساعتم بالشاة فاذيب
وقال : كم قال طاهيك من صفراء فاردة
وذا تلولين صارت قوت مكسال
وقد ضننت بشاة وهي مرضمة
على أزل قتيد القوت عسال
بخلت أن يتفدى طفله دمها
وأنت شارب لذالطعم سلال

ودنياك دنيا لا يحيط بكنها
صليب قناة النفس ما أضمرت وى
عدوت مدى الاملاك ذكر أو سودداً
فما ألف نعمان وكسرى وقصر
وأى لظى في ساطع الشمس ساطع
وقد عز ابليساً على الفخر آدم
كلا عزت المرباه اذ قام أحمد
فلا زال بمجد الاحمد بن مرفراً

بيات وكون لاتناهى عباقره
لذي لجب مهوى المنايا بواتره
وجزت لما يستطيع مجدك كافره
يضاهيك مهما عز في الارض ناصره
له لذب مهما تعالت مساعره
بمجدك واستعلى على الجن فافره
بني الارض واجتاحت دنائها ضوامره
على الضاد نهاضاً بها لا تدابره

٩ - شعره لله والخير والحق والاخلاق

مضى بالقرىض الناس في كل مهيع
سموت به عن كل سؤل سوى العلى
فلله والاخلاق والبؤس بعضه
لا وشك أن تنسى به الاسد بطشها
ورد على المحروب ما بز غاصب
وأبت خطى الاقدار يقطى رفيقة
وقوم من زيغ الزمان فلم تدُر

وسخرته للحق يسطع باهره
يساقطها بث الجوى وتشاطره
وللخير والآلام والنبل سائره
ويسمى الى الموتور بالثأر واتره (١)
وأصبح عاتي الطير عفأ مناسره
وراجع تياه القضاء بصائره
بشرى على أهل الزمان دوائره

١٠ - الدنيا وحقائق الكون في شعره

قريضك تيار الحياة أية
ويت يحج العقل في كل ساعة
طويت به الدنيا فضاقت ولم يضق

يموج به منها على الدهر زاخره
اليه نبيل نُسكه ومشاعره
فيمت شطر الغيب تجل سرائره (٢)

(١) قال :

أ يكون رضع للشرور فيلتمى

(٢) قال :

ان لم يكن في ساء فوقنا بشر
وقال: يجوز أن تطفأ الشمس التي وفدت
فان خبت في طوال الدهر حرمتها

فاو ويقع بالنبات الضيفم

فليس في الأرض أو ماتحتها ملك
من عهد عاد واذكى نارها الملك
فلا محالة من أن يقضى الفلك

- فلم يترك برأ ولا قاع لجة
ولو كان مابعد النجوم مسافر
لما أعيت عليه مسافره
فما اضطربت في خاطر سائحية
من الفكر الا في قريضك ساحره
ولا قذفت كف القرائح معجبا
وما في حشا الاحقاب منحى يروده
من العلم الا في لزومك سافره
خيال ولم تهتك لديك ستائره

(١) قال في سقط الزند :

بخرق يطيل المنع فيه سجوده
ولو نشدت نشأ هناك بناته
وللأرض زي الزاهب المتعد
ولم تسمع له صوت منشد
وتسكنم فيه الماصفات نفوسها
ظرو صفت بالثبت لم يتأود

(٢) قال في بقاء المادة وأن لا فنا في السكون :

جسد ثوى إن تفرق اجزاؤه
ولرب أجساد جذيرات الثرى
لم ينأ عن فلك عليه مدار
بالصون طادت في طلاء جدار
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا
لقلت قول زهير أية سلكوا
منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا ؟

(٣) قال في أن الاجسام ليس في طوقها الخروج من الفلك :

ولو طار جبريل بقية همره
وقال في وحدة مادة العالم :

وبعض ذا العالم من بعضه
وقال في ان السكون والظلمة سابقان الحركة والنور في الوجود :

سكون خلت أقدم من حراك
والنور في حكم الخواطر محدث
فكيف بقولا حدث السكون
والأولي هو الزمان المظلم

(٤) لم يمرض الباحثون عن ناحية في عظيم إعراسهم عن الخيال في شعر أبي العلاء ونثره ،
ولا اتفادت الطبيعة لخيال شاعر في قديم ولا حديث ، عربي أو غير عربي اتقيادها لخيال أبي العلاء
الجبار وإن من البلا أن يذهل الباحثون في شأنه عن هذه الناحية فيه على كثرتها واستفاضتها في
شعره بل نثره . قال في سقط الزند :

وكم بين ريف الشام والكرخ منهل
كأن الصبا فيه ترائب كامن
موارده ممزوجة بسهامه
يثور إليها من خلال إكامه
ير به راد الضعى متسكراً
نهاراً كان البدر قاسى مجبره
مخافة ان يقتاله بقتامه
فعداد بلون شاحب من سهامه —

فان نهلت منه العقول وأنهلت
فما في سوى العرباء شعر على الثرى
وأخصب ماضي الشعر منه وحاضره
أوائله طوع لمن أواخره

١١ - شعره دهقان العقول وعلم اقوة

وشعرك دهقان العقول وأنها
يشير بها كبراً ويمت نخوة
تذوب به الشكوى وينفي به الكرى
جبانك من صافي اللظى حاكها على
سرايل أعيت كف داود فأنبرى
صواعق تنتاب الطفاة وتتوي
وما فتئت جياشة مزبنة
يعاقرها خمر النهي وتماقره
عن الهون وثاباً بها لاتهاوره
ويصحو الهوى من بعد ما اشتد جائره
بريق الدراري أحوذني تياسره
لها هبرزي لاتجارى خواطره
الى سدة الجبار جبراً تتاوره
على الظالم المزهو سطواً تناقره (١)

١٢ - سقط الزند

وسقطك مياس الماطف حالياً
ترق حواشي الليل منه وتفتني
تجلجل في سمع الزمان أساوره
برود الدجى شفافة لاتساره (٢)

بلاد يضل النجم فيها سيله
حادس فتشي الموت لولا انجياها
رجا الليل فيها ان يدوم شبابه
وفي القزوم :

ودل هجير في زمانك انه
(١) قال :

فتأني ملوكهم عزف وتزف
وم زعيمم التهاب مال
وقال : يسوسون الأمور بنير لب
فأف للحياة واف مني
(٢) قال :

وليل طلى قادراً بقار وأسكه
إذا نشأت فيه الغامة خلها
وقال يصف البرق :-

إذا ما احتاج احمر مستطيراً
حسبت الليل زنجياً جريحاً -

أغار على الأفلاك لم ينس شارقاً
تعاثقه النقاء شوقاً وتقي
إذا مرّ طيار العنان تلفتت
مشى بالقرون القهقري فتساقبت
وناسم عصر الجاهلية فانبثرت
كأن ربي نجد غذته ولاحه
إذا قنع الشيب الجديدين وارتدى م
ولا آفلا لم تنتظمه مغاوره (١)
معارجه أنى ترامت مطافره
بحجوم وعزى عائر البرق زاجره
خطاها إلى حيث استقرت مصادره
يجاذبها أطواقها وتخاصره
هجير الصحارى مائجات ظهائره
السها هرماً بحت شائناً مهاصره

١٣ - العروبة

ملأت خياشيم العروبة نعمة
وسعت في احشائها الوجد للذي
على أنها العرباء ما كانت ضارعا
إذا هز من عطفه زهواً تلفتت
وانسل سيفاً في على العرب أسرعت
لممرك ما العرباء الا بقية
وذروة صرح من اباء ونهلة
تنوخية يزهي بها من تخامره
يرد لها عرباءها لا تناظره
أخوها ولا لانت لغمز مكاسره
إليه طلى الاقدار طوعاً وتؤامره
إليه المنايا باسمات تباصره
من المجد طاح الذوائب غابره
من الغز لا يستطيعه من يكابره

— وقال: فكأنني ما فلت والليل طفل
يلقي هذه عروس من الزنـج عليها فلاند من جمان
وقال: ومنهل زرد الجوزاء غمرته
ورده ونجوم الليل وانية
وشباب الظلاء في عنفوان
إذا السها كان شطر المغرب اعترضا
تذكرو إلى الصبح أن لم تعلم الغضا
(١) قال:

وسيل كرجة الحب في اللو
منقيد كأنه الفارس المـلـم يبدو معارض الفرسان
قدماء وداؤه وهو في المجد كساع ليست له قدمان
يرجع الملح في احمرار كما تسرع في الملح مقلة الغضبان
ضرجة دماً سيوف الأحادي نيكنت رحمة له الشريان

م (٨)

١٤ - وفاء الشام للعروبة

ليهنك أن الشام يقظى مساعره
حفي بما يرضي العروبة ناهض
منيع النرى الآلى على من يؤاصره
يكفكف من طفو الطغاة فان عتوا
يعير نفوس العرب في كل مريض
وكانت له في دولة الشعر دولة
تلاقت على عربائها فهي "ززع"
وهب به من عبد شمس وهاشم
شرى مائج باليعربية لم تلذ
قضى حقها طلق الخطى جاهلية
ولم ينس للانجيل حقاً ورّجت

وفي بهد الضاد رّيا أواصره (١)
بأجاده باديه عفواً وحاضره
ويأسوه في لأوائه ويؤازره
نزا فاستقلت بالطغاة مقابره
اباء ويمروري المهالك حاسره
حمي سرحها في الشرق والغرب شاعره (٢)
الى عزها امصاره وعشائره
وغسان ارث واقداث مشاعره
بغير حماها منذ سكّانت معاشره
وعزّت بآي الذكر منها منائره
بتوراتها عطفاً عليه حظائره

١٥ ترفعه عن اللحن

أنفت لذات الضاد لحناً وركّة
فجنبته والمرء ماشاء هاجره (٣)

(١) قال :

إذا الشرى البانية استنارت
فلشام الوفاء وإن سواء
فجعد للآمية الودادا
توافى منطقاً غدر اعتقادا

(٢) المراد الشعراء الثلاثة : أبو تمام والبحري والمتني الشامي بجملة وثقافته وأدبه وجيائه
إلا مولده في الكوفة فكل واحد من هؤلاء كان شاعر صره :

(٣) قال :

كلك باللعن أهل اللحن أونهم
إذا كان عبي عند التوم إمرائي

وقال :

أين امرؤ التيس والمذارى
استببط الرب في المواي
إذا مال من تحت النيط
بسدك واشترب النيط

وقال :

نشابه النجر فالرومي منطق
فد الأثر كنه فازكوا الاء
كنطق العرب والطناني مرطان
راب إن الصاحبة اليوم لمن

فهجنت حوك البحتري واحمد وهجت حبيباً لآقيقه معاذره (١)
فلو نهضت قحطان غضبي لفصحها لكنت فتاها الاحوذى تظاهره

١٦ - ثورته على النحاة

تلاعب بالنحو النحاة فصرفت قضاياه في اغراضهم وعناصره
تواصوا بالآل تستباح سرائره وأن يتوارى لبه وجواهره
أقاموا له منهم شداً تحوطه وتسهر في ارهاقه وتباكره
عنت لهم الدنيا ملوكاً وسوقة به وزهت بالنابهين محاضره
وسيقت الى داراتهم مطمئنة زبارج تبر رائثات محاسره
وأصبح نحو العرب في حوز عصبه شعوية أرباحه ومتاجره
فكشفت من احوالهم كل فاضح وأحللت كلاً حيث تبدو مناحره (٢)
وسلطت أقحاح البداء عليهم لدى موقف ينسى به الوزر وازره
وفقهت أقيال الملائك بالذي أنامت حيازيم النحاة محابره (٣)
وبصرتهم بالقول تقدأ وحكمة وفلسفة حتى استمرت مرائره
وأوسعت سكان النعيم مادياً يحقق شعر العرب فيها أكابره (٤)
هززت جنوب النائمين فابصرت عقول وكانت في دجى عز حاسره

١٧ - أنا والنحاة بعده

وأسهرت من جفني عشرين حجة بهم ولهم أحيى الدجى واحاضره
وأظفرتني منهم بما لا تسرني به متع الابريز تزجى غرائره

(١) إشارة الى [ذكرى حبيب] و [عبث الوليد] و [معجز أحمد] ثلاثة كتب
للمعري في النقد على دواوين الشعراء الثلاثة المذكورين أي تمام والبحتري والمتنبي .
(٢) أكثر هذا — غير ما في اللزوميات وما يمكن أن يكون في كتابه [الحقير النافع] —
في رسالتي الغفران والملائكة فما قاله في اللزوم :

أرى ابن أبي اسحق أسحقه الردى وأدرك عمر الدهر نفس أبي عمر
تباها بأمر صبروه مكاسباً فساد عليهم بالحسب من الأمر
بكسوة يرد أو باعطاء بلغة من البش لا جم الطاء ولا غمر
ولم يصنوا شيئاً ولكن تنازهوا أباطيل تضحي مثل هامة الجمر

(٣) في رسالة الملائكة .

(٤) في رسالة الغفران .

فذلكت منه كل أصيد شامس . ودمشته حتى تألف نافرته
وعقلته بمد الجنون كأنني - ولم ابتدع فيه الرجاحة - فاطره
وأعطى يداً بعد الجماح فاذعنت - شواخه واسترجع البشر زأثره
على أنه مازال من أجراءهم - عباديد تخشى ان يجدد دائره
سجية شرٍ بارحي يثيرها - على الضاد تأثر لا توارى فواره

١٨ - الختام

اليك امام القصارين تساوقت - تتجاوز طوق المدعي وتصابره
فلو أبصرت عيناك حالي وقد بدا - سهيل وشاب الليل الا غدائره
أصادي من أسراب القوافي كئائباً - يبادرني أباؤها وأبادره
لايقنت أني قد سريت وخلفت - خول عن الاوج الذي انا سامره
وأن لشعري في الصفا متفجراً - يهب له من راقد الترب ناخره
وما صدقت رب القريض قريحه - تجشمه شم الذرى وتغادره
على أنه والدهر لا تنقضي له - عجائبه قد يكسر الشعر جابره
تناهبت الادواء ذهني فلا تلم - يراعي فقد ندت عليه ضراره
وأخذن طبعاً كان مرتاد قابس - ونجمة مغوار تلطي مخامره
وما كان شيطاني بليداً ولا هوى - الى وطري تنمي عليه معايره
أبح ماوراء الغيب وهمي لعله - يعاود طبعي وقده وبواكره
وحكم بناني بالشموس فرانداً - وبالفلك الدوار ترغو هوادره
فما في قريض الارض أوفي لغاتها - معاذ لمن يوفيك ماهو ناذره
وما أنا الا صوبُ مزنك هامراً - وروض توات بعد عد مواطره (١)
نقعت غليلي من خضمك حقبة - أتت بالربيع الفخم تزهو حبايره
فان جئت سباقاً فشكر زججته - وقدم اعرفنا اكرم الروض شاكره
وعلمتني أن أصحب اليأس راضياً - سميذاً وبمض اليأس ينم ذاخره
يمزق جلد الصبر صبري على الاسى - كأن الاسى في مهجتي شب عاصره
فواهاً لاحرار القريض وحسرة - على الشعر عفا لا تصان مخادره

محمد البرزم

(١) الريد بكسر العين الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع ومثله الدنان غير أن العامة تنطقه على وزن فدان .

المعري في نظر المستشرقين

أيها المحفل الكريم

ان المجمع العلمي العربي قد اكسبني شرفاً عظيماً بدعوته الكريمة لأخاطب هذا الجمع الراقي في دمشق او هذا المجمع العلمي الكبير لان هذه المدينة القديمة هي مجمع العلم العربي حقيقة كما كانت بأيام الشاعر الكبير الذي نحي ذكره اليوم . واذا لم يكن لي أمل في أن أزيد على علم العلماء أو أضيف الى معرفة العارفين فاني أرجو ان يكون باستطاعتي ان أجيء بما يساعد على فهم هذه الشخصية المعقدة .

أبو العلاء بنظر مستشرق

وكان يجوز أن أتناول هذا الموضوع من جهتين أولاً من وجهة نظر المستشرقين كمرجليوث ونيكلسون وفون كريبم وآخرين من الدارسين والباحثين في الغرب . أو نانيا من وجهة نظري الخاص . أما المسلك الأول فالأدباء في الشرق منذ سنين كثيرة قد عرفوا دروس هؤلاء المستشرقين والاستاذ طه حسين تكلم فيها بكتابه المشهور . لذلك أستغني عن ذكرها هنا . اما المسلك الثاني فله فائدة واحدة وواحدة فقط وهي أن تكون هذه الكلمة محاولة مخلصه لتقدير عبقرية أبي العلاء وأهميته لهذا القرن ولا مناص للمستشرق حين يدرس كتب المعري من أن يتعرض للعناء والجهد لبعده عن اسلوب هذا الأديب الغريب وتعمقه الشديد : لأنه رمز الى كل فيون العلم من عادات الجاهلية وأخلاقياتها الى مجادلات الفلاسفة في عصره . ويجب على الباحثين ان يكون لهم علم بالفقه والتوحيد والفرائض والنحو والعروض والتأريخ . فاني بعد ما جتهدت غاية الاجتهاد شعرت بقصورتي الذي أعترز عنه : ومع ذلك فمن حسن الحظ ان كل شاعر كبير لم يكن يقصر شعره على امته وجيله فقط بل كان يكتب شعره لكل الناس بكل الازمان . وإن يكن أبو العلاء شاعراً عربياً فهو شاعر عالمي ايضاً واسمه وصيته

مشهوران في الغرب لذلك رغمًا عن الصعوبات المشار إليها فباستطاعة المستشرق ان يكونَ نظرةً عنه إن لم تكن شاملةً فهي عامة على الأقل وباستطاعته ان يقدرَ عبقريةً وحقه ومكانته بين الشعراء الذين كان شعرهم ورسالتهم الى كل العصور وكل الامم . والمستشرق لا يزعمه جحدُ ابي العلاء لصحة النبوات والديانات عامة لانه يعرف سوء حالة الحياة الدينية والخلقية في عصره . ومن يدرس شعرَ المعري لا يغني له عن الشعور بهيمومه وأحزانه اذا كان يريدُ ان يستفيدَ من فكره العميق ، ويجب ان يتعمقَ هذا الشعورُ بالباحث حتى يصلَ الى شخصية الشاعر ونفسه : فيرى كمن لم يرضَ بدنياه ولم يجدْ عُذراً للتناسل ولا سلوى بديانات عصره . وليس على القاري شقيقاً كان ام مستشرقاً الذي ليس له عطف على عبقرى غارقٍ في بحر الظلمة والشك إلا ان يطوحَ بالزوميات فهي مُضرةٌ له لانافعة . والعالمُ الذي يدرس هذا العبقرى بروح المطف يقوم قائلاً إنَّ هذا الرجل ليس من القرن الرابع للهجرة بل من الرابع عشر . يذكر ذلك العالمُ ان هذا الشاعر لم يرَ ولم يقرأ كتب ادباء زمانه مثل أبي علي بن سينا والبيروني وبديع الزمان الحمداني والثعالبي وابن حزم والباقلاني وآخرين . ولكن على هذا فما أكثر أدبه وما أعلمه فانه بكل حياته ما استغنى عن قاري ولا فاته حفظُ ماسمع ؛ بينما لنا نحن في هذا الزمان كتب ومكاتب ودائراتُ معارف وقواميس . ولكن لا ينبغي أن اطيل الكلامَ بمعنى الشاعر لان زماننا كرم بكاتب (ويبقى الدهر ما كتبت يداه) تكلم من سجن أبي العلاء كلمات تستحق إعجابنا واحترامنا .

اما أبو العلاء فإنَّ احوالَ عصره قد بفضته الحياة . سفكُ الدماء سغبٌ رُعبٌ كانت حوله دائماً . قال الثغري ردي : «عمَّ الوباء والقحطُ بغداد والشام ومصر والدينا وكان الناس يأكلون الميتة (١) ولكن بمد سنين قليلة مات رجل وترك وصيةً على ألف دينار غير المتاع والقماش والجوهر (٢) هذا بما كان سبباً لتشاؤم أبي العلاء ويمكن ان الزلازل التي هدمت ابنية الشام وقتلت سكانها آتت تشاؤمه وقال :

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومن للاقوام تهديسا
ولا تصدق بما البرهان يُبطله فتستفيد من التصديق تكذيبا

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٢١٩

(٢) = ٢٤١٠٦

إن عذب الله قوماً باجترامهم فما يريد لأهل العدل تمديداً
تظهر هذه الايات تمرداً على قدر الله او على الاقل تقدّر تصرفه تعالى في
عالمه . فإن لم يقدر الله تهذيباً للعباد فلماذا ارسل انبياءه ورسله (عليهم السلام)
وإن لم يعذب قوماً باجترامهم فيلزم ان يقال هلكت عاد وثمود بأسباب طبيعية وقد
سلك المري مسلك من نفى ان سبب الألم هو الإثم والمعصية لان العادل يُعذب
مع الظالم بلا فرق . ويكون هنا مشكلة قديمة وجدت بأسفار البابليين اعني لماذا
يعذب العادل في الدنيا ولماذا أفلح الظالم . وتكون هذه المشكلة موضوع كتاب
أيوب باللغة العبرانية ويقول :

« ان الكامل والشرير هو يُفنيها »

وكلاهما راما ان لم يولدا
وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء
وأيضاً
والحال ضاقت عن ضمها جسدي فكيف لي ان يضمه الشجب
ماوسع الموت يستريح به الجسد ثم المعنى وينحفت اللجب
وقال أيوب :

« لم لم أمت من الرحم عندما خرجت من البطن لم لم اسلم الروح . لماذا
اعاقني الركب ولم القدي حتى أضع لاني قد كنت الآن مضطجماً ساكناً .
حينئذ نمت مستريحاً . »

إن روح المري لم تكن روح مؤمن بالنبوات : وروح النبي أيوب لم تكن
روح مؤمن بان الألم تسج عن الخطيئة ضرورة . وبلغ كلاهما غاية واحدة وهي
الله تعالى وتبارك . ولقد قال النبي أيوب بعد الرؤيا « بسمع الأذن قد سمعتُ عنك
والآن رأيتُك عيني . لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد » .
وقال المري : أزول وليس في الخلاق شك .

ولاختصر فلان أسوأ القول الافراط إذ لا يمكنني بمحدث قصير ان أذكر الا
مسائل قليلة من أدب المري وهذه المسائل تتضمن بكلمة واحدة كان المري
محدثاً . وكل عبقر يولد قبل زمانه وما كان المري شاذاً . فيلوح انه كان شاعر
المستقبل باعتبارنا تلميذ العقلي والاخلاقي والسياسي والديني .

العقل

مدح العقل وكرمه بقوله :

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه
فسادُ عقلٍ صحيح هان ماصعباً
ويقول :

نهاني عقلي عن أمور كثيرة
وطبيي إليها بالفريزة جاذبي
ومما أدام الرزء تكذيب صادق
على خبرة منا وتصديق كاذب
وأيضاً :

ولا تطفئوا نور المليك فانه
ومع ذلك ما كان المعري مصلحاً فقد منعه من ذلك عماه فزاد تشاؤمه :
واللب حاول ان يهذب أهله
فاذا البرية مالهها تهذيب
من رام إنقاء الغراب لكي يرى
وضح الجناح أصابه تعذيب

الأخلاق

ان الأحوال الاجتماعية في عصره قد بغضت أبا العلاء في الدنيا ولكن لم تبغضه في الإنسان بل بالعكس زيد رفقه به . اما نفسه فقد كان ألمه ضروريا من طبيعته ورجا مكافأة في الآخرة .

أأخشي عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المذب
واما الناس عامة فله نظران متناقضان في أمرهم أولا أنه أصلح لهم أن لم يولدوا وثانياً أن السعادة في الدنيا ممكنة لهم إن اصلحت أحوال الحياة وترتبت أخلاقهم على اصول العدل واللطف والحقيقة . فعذاب أبي العلاء الضروري بغض اليه عذاب الناس الا ضروري وهجم على كل من أضر الناس على أي وجه من الوجوه . مثلاً هجم على المفتري والواشي والنام والفتان الذين اثاروا عداوة بين الناس بالسنتهم المسمومة .

لسان الفتى يدعى سناناً وتارة
حساماً وكم من لفظه ضربت عنقا
وقال ايضاً :

يقول لك انم مصباحاً متودد
اليك وخير منه أغلب أصبح
فيظهر من البيت التالي أنه لو كان للمعري استطاعة لكان مصلحاً فعلاً لا ناقداً محضاً .

لو كان لي امر يطاوع لم يمش
ظهر الطريق يد الحياة منجم

فوصفه لهذه النسر من خاصية سخريته مع بغضه للخدعة والكذب .
 سألت منجبها عن الطفل الذي في المهد كم هو عائش من دهره
 فلجبها مائة ليأخذ درهماً وآتى الحمام وليدها في شهره
 وسخر من التجار في الاسواق الذين ضايقوا الفقراء واعتذروا عن
 غلاء بضائعهم وقال :

يا تاجر مصر ما انصفت سائمةً كذبتها في حديث منك منسوق
 إن تشك قطع طريقك بالفلاة فكم قطعت من قبل طرق الناس في السوق

السياسة

وما من شك ان أبا العلاء كان ديمقراطياً عصبياً وبيان ذلك بما قال في الملوك
 واولي الامر وهو أن يجلسوا على كراسيهم ليهدي رعيتهم ويحق عليهم إصلاح
 الرعية فليسوا الا نوابها . وليس من المستحيل ان هذه الروح كانت احياء
 الديمقراطية القديمة العربية ولكن على كل حال تجسست هذه الروح بصورة حادثة
 في قوله :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
 واما البيت التالي فلو كان كتب باللغة الانكليزية لقال القاريء هذا من شعر
 شاعرنا ملتون وتاريخه القرن السابع عشر .
 وأرى ملوكاً لا تحوط رعيةً فعلام تؤخذ جزية ومكوس
 أو

اذا ماتينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم لا قوم خادم
 وقد تكلم كثير من الكتاب في حقوق الملك على رعيته وحقوق الرعية على
 ملكها ولا أعرف من يشارك المري في هذه الجزأة . فمن الواضح انه إن يدفع
 القوم اجرةً للملكهم فيمقدورهم ان يحرموه منها ويخلعوه . وهذه ديمقراطية
 محضة . ولكن أبا العلاء ما كان فوضوياً بمعنى انه كان عدو الحكومة ذاتها فذكر
 الناس أن اولي الامر كانوا ناعمين رغماً عن معاليهم .

واخش الملوك ويسرها بطاعتها فالملك للارض مثل الماطر الساني
 ان يظلموا فلهم نفع يعاش به وكم حموك رجل أو بفرسان
 فلمري نظر سليم بالهيئة الاجتماعية وعلم الناس ان الهيئة الاجتماعية يجب

عليها أن تكون جسماً واحداً لأن الجسم مركب من أعضائه المختلفة وإن بعضاً واجب لبعض وإن لم يشعر بتعلقه أو ملازمته المتبادلة والمشاركة وتراه يقول :
والناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وإن لم يشعروا خدماً
وكل عضو لأمراً ما يمارسه لا مشي للكف بل تمشي بك القدم

الدين

كان أبو العلاء محدثاً في فكره. وفأدته وخدمته للحياة الدينية ما بتشديده على التسامح والتعقل فكراً وعلى الإخلاص عملاً. لذلك نظر الفرق بين الفرق والاختلافات بين الديانات نظرة عاقل وإنساني وفي رأيه أن الاختلافات بين المذاهب المختلفة والفرق كالاشاعة والمعتزلة والجبرية والمرجئة تدل على وجوب تردد العاقل في قبول أخبارها، فليست الاختلافات بين الديانات مهمة حذاء الأصول الأساسية وهي الاعتقاد بالله والعمل بالعدل والمعروف. ويظهر أحياناً أنه شك في حقيقة الديانات كلها.

هفت الحنيفة والنصارى ما أهدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
وقبل أن نذمه يجب علينا ذكر ما قاله الإمام الغزالي : الشكوك هي الموصلة
إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال.
ومع ذلك ما بقي المعري في عمى وضلال فقال بنفسه .

ازول وليس في الخلاق شك فلا تبكوا على ولا تبكوا
خذوا سيري فمن لكم صلاح وصلوا في حياتكم وزكوا
ولا تصنفوا إلى أخبار قوم يصدق منها العقل الأرك
ويظهر لي أن المعري كان بموضع كثيرين من المثقفين اليوم بأنه مدح دينه خاصة وفضله على الأديان عامة ومع ذلك اعتبر أن ليس في الدنيا دين بقي على مآثره نبيه. وكل الأديان نمت وتغيرت بتأثير الأخبار والمعادن والنواميس وهي أثارت الحروب والمداوة : وأما الأنبياء فهم أنذروا الناس بها . لذلك المعري هاجم أخبار الأولين من جهتين (أولاً) نفى صحتها تاريخياً وعقلياً (وثانياً) قال بأنها أسباب الحروب بين الأمم يجب عليها احترام بعضها لدين البعض الآخر وأما الأول فقال :

جاءت احاديثُ إن صحت فإنَّ لها
فشاور العقل و اترك غيره هدرًا
شأنًا ولكنَّ فيها ضعفٌ لإسناد
فالعقل خيرٌ مشيرٌ ضمه النادي
وأيضاً .

هل صحَّ قولُ من الحاكي فنقبه
اما المقولُ قالت أنه كذبُ
ام كلُّ ذاك اباطيلُ وأسمارُ
والعقلُ غرسٌ له بالصدق إثمار
واما الثاني فقال :

إن الشرائع ألفت بيننا إحناً
وأورثتنا أفانينَ المداواتِ
وايضاً

غدا اهلُ الشرائع في اختلافٍ
فقد كذبت على عيسى النصارى
تقضى به المضاجعُ والمهودُ
ولم يستحدثِ الأيامُ خلقاً
وما كان نظر المعري في الدين الصحيح ؟ وما كان أمله للمستقبل ؟ وبكلمة
لقد كان رأيه الاعتقاد بالله تعالى هذا الاعتقاد الذي يُظهر بالإنصاف والعدل والمعروف
الدينُ إنصافك الاقوام كلهمُ
وما هذا الا معنى الامام الغزالي بقوله ومن ظن ان سعادةَ الآخرة مُتنال
بمجرد قوله لا اله الا الله دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن ان الطبخ يحلو بقوله
طرحتُ السكرَ فيه دون أن يطرحه . فسخر المعري المتمسك بظاهر الدين
دون حقيقته وقال :

توهمت يا مغرور أنك دين
تسيرُ الى البيت الحرام تنسكاً
على يمين الله مالك دين
ويشكوك جارٌ بالسُّ وخذينُ
وأخيراً تسمعُ اشتياقه لهيئةِ اجتماعيةٍ صالحةٍ مطهرةٍ من الظلم والمداوة .
مضى يقوم امامٌ يستقيدُ لنا
فتعرفُ العدلَ أجيالُ وغيطانُ
وأيضاً .

مرآةُ عقلك إن رأيت بها سوى
أسنى فعالك ما أردتَ بفعله
ما في حجابك أرتبه وهو قبيح
رشدًا وخيرُ كلامك التسبيحُ
فلتكن كلمةُ التسبيح آخر كلمةٍ أقولها والسلام .

الفرير غليوم

ابو الصمد المصري

وآرائه في الإصلاح الاجتماعي

في الحق من الذهب ثلاث خلال ، حسنه ، وثقله ، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير ،
الآن ان الذهب كثير الراغب ، والحق قليل الراغبين .

لقد صدق شيخنا المصري - رحمه الله - فان الحق على حسنه ، ثقیل على النفوس ،
قليل الراغبون فيه من الناس ، لذلك كان المصلحون قليلاً عديدهم ، لأنهم يدعون
الى الحق فتثقل دعوتهم على النفوس ، وينصرف عنهم الناس ، ويكثر الطاعنون فيهم ،
المفتاتون عليهم . فيجب عن قول الحق والدعوة الى الإصلاح ، الامن أوتي الايمان الصدق ،
والمقيدة الحق . وهؤلاء قليل مام ، في كل قرن وعند كل جيل .

والزمن يدور دورته ، ويسير الناس قدما في قافلة الأيام ، لا يملكون لأنفسهم
تفكيراً مستقلاً ، ولا وعياً صحيحاً ، وتغلب عليهم العادات الموروثة ، والتقاليد
الجارية ، على ما فيها من ضرر وسوء ، وعوج وامت ؛ حتى يصبح الناس وكأنهم قطع
الآلة الصماء ، لا يعون ولا يعقلون ينبخ الظلم بكل كلكه على الصدور ، فتستكين له
صابرة ، وتتحكم المادة في العقول ، فيؤمن بها الناس متعبدين ، ويفسد رجال الدين والإمارة
والسياسة ، فيستسلم لهم الجمهور مذعنين ، ويكون للهوى الغلب على العقل ، فيتبع
الناس أهواءهم ، ويتنكرون لمقولهم . وتسير هذه القافلة سيرها الخبيث الى الهوة
السحيقة لا يقفها واقف ، ولا يعترضها معترض .

ومن ذا الذي يجروء في زمن الضعف والخور ، وغلبة الهوى على العقل ، أن
يقف في وجه الظالم المستبد ، أو السياسي المشعوز ، أو المتدين المتلبس ، أو المتمول
المتلاعب ، فيقول له : لا ؟ !

انه ان فعل سحقه الظالم بظلمه ، وغلب عليه المشعوز بشعوزته ، ورماه المتلبس
بالدين ، بالكفر والزندقة ، وملك عليه صاحب المال قوته ، ففزعزمه ، وشل عمله .
وأشق ما يلقاه المصلح في اصلاحه ، ان الأمة التي تحتاج الى المصلحين ،

يقفون دونها وقفة المدافع الجبار ، يثيرون سبيلها ، ويرشدون عقولها ، ليسيروها في الطريق السوي ، تكون هي نفسها حرباً عليهم ، يعملون على حياتها ، فتعمل على القضاء عليهم . تقبل على المضل ، فتستمع له ، وتعرض عن المرشد وتصم أذنها عنه . غير أن المصلح المؤمن ، يمضي في اصلاحه ، ويستمر على دعوته ، لا يدفعه عما وطن عليه نفسه دافع ، ولا تقفه قوة من قوى الظلم والشعوذة والمال . تسمو نفسه فوق ما في هذه الحياة من مغريات ، فيأنف أن يلتفت اليها .

من هذه الطبقة المصلحة كان شيخنا المعري .

ومن الحق ، ان لا تنعرض لمبادئ المعري الإصلاحية ، ولا لآرائه الفلسفية ، قبل أن تلقى نظرة عجيلى على العصر الذي عاش فيه .

عصر أبي العلاء :

أسس العرب ملكهم في الاسلام على العدل : العدل المطلق ، الذي لم تعرفه امة من الأمم عرفها التاريخ في غايه وفي حاضره . وكانت الولاية عملاً دينياً يراد به وجه الله وخدمة الأئمة ، لا الزعامة الدنيوية واختزان الدرهم والدينار . ثم جعلت هذه المبادئ الدينية الاخلاقية تضعف مع الايام ، وزاد في ضعفها ، انتقال الحكم الفعلي من العرب الى غيرهم من الشعوب والجماعات ، التي دخلت في الاسلام ولم يدخل الاسلام في قلبها فتعرف حقيقته وروحه ، معرفة العرب لها .

فلما كان القرن الرابع الهجري ، كان الأمر قد ساء من جملة نواحيه . وغلب على الخلفاء ، الملوك والأمراء والرؤساء ، فاستبدوا بالأمر دونهم ، واكثروا من الظلم والعدوان ، حتى كان منهم من يعمل السيف في الناس فيقتل الألوف الكثيرة ارضاء لنزعة الشر في نفسه . فاذا رفع له رافع المصحف وقال له : اتق الله وارفع السيف عن هؤلاء الذين لادنب لهم ولا جنسية يستحقون بها منازل بهم . كان جزاءه : ان يؤخذ منه المصحف فيضرب به وجهه ، ثم يؤمر به فيذبح .

وقد بلغ الظلم ببعض هؤلاء الامراء ، ان كان يحبط السروج عن الدواب ، ويجعلها على ظهور الناس ، يقادون بالارسان كما تقاد البهائم .

اما انتهاب هؤلاء الملوك والامراء والعمال والرؤساء للاموال ، وانهايتها جماعاتهم وبطاناتهم ، فقد جروا عليها على ما يجري عليه الحاكم الغريب ، في البلد الغريب . أو المتحكم في قومه لادين له ولا وطن .

وكان من جراء الاسراف في الظلم ، والرغبة في كسب المال من أي وجه كان . واستبداد كل قائد أو أمير بالناحية التي هو فيها ، أن تجزأت المملكة فصارت دولاً بمد أن كانت دولة واحدة ، وانتهى الامر بهذه الدويلات الهزيلة أن طمع فيها الاعداء ، فارتدوا إليها ، واستولوا على كثير من أجزائها ومدنها وأمصارها ، جاعلين من هذه الدول المنفصل بعضها عن بعض مستقراً لهم ، وممرّاً منها إلى ماوراءها من البقاع . وهل تجزأ وطن من الاوطان أو تمزق قطر من الاقطار إلا ليكون للاستعمار مرقراً ، وللمستعمر ممرّاً ؟ .. ويصف المسعودي (ضعف الاسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كل رئيس ، وتغلبه على الصقع الذي هو فيه ، كفعل ملوك الطوائف بعد مضي الاسكندر ... ولم يزل الاسلام مستظهِراً إلى هذا الوقت ، فتداعت دعائمه ، ووهى أسسه ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة . . . والله المستعان على ما نحن فيه .)

الوجهة السياسية :

بميد هذه الفترة ، وفي مثل هذه الحال السيئة التي وصفها المسعودي ولد أبو الملاء المعري .

رأى الظلم يحيق بقومه فثار عليه وعلى الظالمين :
وما سرنى اني أصبت معاشراً بظلم واني في النعيم مغلد
ونمي على الظالم ظلمه ، وفضل عليه المظلوم :
خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظليم يرتمي الذُّبُحاً
ورأى الاثرة وجب الاستملاء قد ملكا على الناس نفوسهم فراح يدعو
إلى المساواة الحق . يسوي بين الهاشمي — وهم بيت النبوة ، والخليفة القائم منهم —
وبين الرجل من نسل البربر : الحق واحد ، والناس أمام الحق سواء :
لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

ويؤكد هذه المساواة بان يكشف عن حقيقة الناس ، وانهم خدم بعضهم لبعض ، وان الاعمال موزعة بينهم توزيعاً لا يستغني معه واحد منهم عن أخيه
وهم أعضاء جسم واحد لا يشرف احد منهم احدا .

الناس بالناس من حضر وبادية بعض لبعض وان لم يشعروا خدماً
وكل عضو لأمر ما يمارسه لأمشي للكف بل تمشي بك القدم
ولا يخرج الملك عنده ، عن أن يكون عملاً من جملة الاعمال الموزعة
التي يشير إليها ، ويجعل الملك خادماً للقوم وأجيراً ، لاسيداً وأميراً .
إذا ما تبينا الامور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم
ويمود فيؤكّد هذا مرة أخرى بقوله :

مُلءُ المقامُ فكُم أعاشر أمة امرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
ولا يقف عند هذا ، بل يحاول أن يدخل اليأس في قلوب الملوك ،
ليخفف من هذا الصلف في نفوسهم ، ويضعف من هذا الصيد في رؤسهم :
وكم تزل القِيْل عن منبر فساد إلى عنصر في الثرى
واخرج من ملكه عاريا وخلف مملكة بالمرأ
ويقول فيهم :

أفضل من أفضلهم صخرة لا يظلم الناس ولا يكذب
ويتحداهم بالدهر :

وارى الملوك ذوي المراتب غالبوا أيامهم فانظر بنفسك من غلب
ثم هو يهون ما هم فيه من ملك ، تهوئناً يقيم دعائمه على الآباء المحض فيقول :
لكون خلك في رمس اعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج الاقفاً لتنصره والميت ليس إلى خلق بمحتاج
ويزيد على ذلك في تهوين شأنهم فيساوي بين الملك والحطاب :

ما عاقد الجبل يعني بالضحى عضداً إلا كصاحب ملك عاقد التاج
ويذهب به الغلو في حب المساواة ، حتى يقابل بين الملك والضعف الحشرات
« البرغوث » ويجعلها سواء في حب الحياة ، وطلب العيش :

لا فرق بين الأسك الجون اطلقه وجون كندة امسى يعقد التاج
كلاهما يتوق والحياة له حبيبة ويروم العيش مهتاجا
ويقوم الامم على تهديسهم الملوك ، وهم قد نكبوا الشعب بما نكبوه به من
ظلم وعدوان ، وابتزاز أموال وتمزيق سلطان .

ما أجهل الامم الذين عرفتهم ولعل سالفهم أضل واتبر
يدعون في جماعاتهم بسفاهة لا يمرهم فيكاد يسكي المنبر
ويقول :

ككذب يقال على المنابر دائماً أفلا يمد لما يقال المنبر
ويبيع الشعب عليهم ، بما يتزونه من أمواله في سبيل لهوم وشهواتهم :
فشان ملوكهم عزف ونزف وأصحاب الامور جباة خرج
وينادي بفضل الاخلاق وشرفها على الملك ، وانها خير منه وأبقى على الدهر .
أسر ان كنت محموداً على خلق ولا أسر باني الملك محمود
ما يفعل الراس بالتيجان يعقدها وانما هو بعد الموت جلود
هذا إلى كثير من مثل هذه الآراء التي كشف فيها عن حقيقة أصحاب التيجان ،
وانهم من الشعب لا يختلفون عنه في شيء ، الا في هذا الحكم الذي يتولونه ، ومن
حقه عليهم أن يكونوا لشعوبهم خداماً مخلصين ، فيشرفوا بعملهم ، لابلكتهم .
وهذه الآراء ، قد سبق المعري فيها غيره من رجال القرون المتأخرة وفلاسفتها ،
الذين قاموا بالتورات على العروش العاتية ، فدكوها وأقاموا على انقاضها اسس
الحرية والاخاء والمساواة .

وأبو العلاء في كل ما يقرره من آرائه الفلسفية الإصلاحية ، يبنى قوله فيه
على الحق والعقل والمنطق ، لا على النزعة الصاحبة ، والهوى الجامح .

الوجهة الدينية :

واذا كان أبو العلاء ، يرى في الملوك الذين وصفهم ، هذا الشر المستطير
الذي اذل نفس الامة ، ومزق وحدتها وسلبها مالها وثروتها ، فهو يرى ان
رجال الدين — الاقلهم — قد خرجوا عن الدين السوي المستقيم بما ابتدعوا
من آراء ، وبما احدثوا من مذاهب وطرق ، لاعهد للدين بها ، ولا يرجي
صلاح ولا خير معها ، بل هي فيها كل البلاء والشر .

انما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقون ن لدمع الثناء والحنساء
وهو يرجع أصل الخلافات الدينية ، والانقسامات المذهبية إلى التنافس في الدنيا
وإلى حب الرئاسة :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بارت زخرفه يوهي العيون ولم تثبت له عمدة
وما يزالون في شام وفي يمن يستنبطون قياساً ماله أمد
فذرهم ودنياهم فقد شغلوا بها ويكفيك منها القادر الصمد
ويحذر الناس من المتلبسين بالدين أن يقعوا في شبا كههم :

فلا يفرنك من قرائنا زمر يتلون في الظلم الفرقان والزمر
يقامرون بما أوتوه من حكم وصاحب الظلم مقمور إذا قرأ
ييدي التدين محتالاً ضمائر غير الجميل إذا ما جسمه ضمرا
يشدو مزامير داوود ويفضله في النسك نافخ مزمار له زمرا
وهو يحمل حملة منكرة على من يحمل من دينه تجارة يتكسب بها :

ولا تطيعن قوماً مادياتهم الا احتيال على اخذ الاتاوات
وانما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لاحب التلاوات
ويدعو الناس الى الحرب بدينهم منهم :

فأهرب بديتك من اولئك انهم حربوك واحتربوا على الدنيا به

وبهاجم الذين يخادعون الناس ، يعطونهم مكرراً ورثاء. وينهونهم عما هم أنقسم فاعلوه :

رويدك قد غررت وانت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الذهباء صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتي ماعنه ينهى فمن جهتين لاجهة أساء

ويرى في الدين وسيلة لا غاية ، يراه طريقاً الى تهذيب النفوس ، وتنقية الضمائر ،
ويرى ان العبادة شيء لا يطلب لنفسه ، بل هو ما لاخير فيه اذا لم يرافقه العمل الصالح :

(اذا صمت عن المآثم ، فعند ذلك صم عن الطعام) .

وعنده : (طهارة الخلد - اي القلب - ابلغ من طهارة الجسد) .

(احمج - كف - كلوم جرائمك ، فاذا برئت فاحجج)

ويرى الصوم ، في صون اللسان عن المحال ، وعن التعرض للناس بالأذى .

اذا القوم صاموا فعاثوا الطعام وقالوا المحال فقد افطروا

ويقول :

ان صمت عن مأكل العادي ومشربه فلا تحاول على الاعراض افطاراً
وتارك الصلاة عنده خير ممن يراني فيها :
اذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب
ورأيه في الدين يلخص بقوله :
ما للدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على جسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد
وان :

اخو الدين من عادي القبيح واصبحت له حجة من عفة وإزار
وان :

الدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لآبي الحق ان وجبا
هذا هو الاصلاح الديني الذي دعا اليه أبو العلاء المعري ، بعد ان رأى كثيراً
من رجاله قد فهموا الدين على غير حقيقته ، وجعلوه شركاً يتصيدون به
منافهم في هذه الحياة . رمى به الى تفهيم الجمهور روح الدين وسره ، وان الدين
جوهر يقوم بما يدعوا اليه من خير وصلاح ، لا بما يتلبس به منتحلوه من حلة وشاح .

الوجهة المالية :

ورأى المعري ان الناس قد غالوا في حب المال ، حتى بلغوا من جهم له مبلغ
العبادة . وليس من شك في ان حب المال هو العامل الأكبر الذي قامت عليه الرغبة
في الزعامة والشهرة والمتاجرة في الدين ، واصطناع المذاهب والطرق وخلق الرئاسات
وتحطيم الدولة وتمزيقها ، لذلك أراد أن يكون المال وسيلة أيضاً لا غاية ؛ فدعا
الناس الى الزهد فيه والتخفيف من تعديسه :

وأفضل من عيش النفي عيش فاقة ومن زي ملك رائق زي راهب
وهو يقول لهم :

أغنى الأنام بقي في ذرى جبل يرضى القليل ويأبى العيش والتاجا
وأقر الناس في دفيام ملك يرضى الى اللجب الجرار محتاجا
وفي رأيه :

يكون أخو الدنيا ذليلاً موطناً وان قيل في الدهر الامير المؤيد

ويريد للناس أن يكون كسبهم حلالاً :

إذا فأتك الأثراء من غير وجهه فان قليل الخلل أولى وأبرك
ويزهد في المال فيقول :

إذا كان جسمي من تراب ماله إليه فما حظي بأني مترب
ولا يرى العزة بالمال ، والذلة بالفقر . لذلك ينصح الفقير أن لا يهون لفقره ،
والغني أن لا يتجبر ليسره :

وإذا افتقرت فلا تهين وإذا غنيت فلا تحير

وفضيلة الرجل ، وقيمة آرائه ، أنه إذا دعا الناس الى أمر من أمور الإصلاح ،
بدأ بنفسه أولاً . فهو اذ يدعو الناس الى نبذ المال ، يعيش عيش الكفاف
(ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على
أخيه وأولاده والأئذنين به وعلى الفقراء والقاصدين له من الغرباء) .

قدم عليه الخطيب التبريزي وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وأعطاه صرة فيها
ذهب وقال له : أوتر من الشيخ أن يدفعها الى بعض من يراه ، ليشتري
بها خبزاً ولحماً ، وما تدعو حاجتي اليه ، ويجري ذلك علي في كل يوم ، لا تناوله مدة
مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على الاشتغال ، ويتفرغ لي للاستفادة فلا يكون
لي شغل غير ما أنا بصده .

فأخذ أبو العلاء الصرة منه ، ووضعها عنده ، وأجرى للخطيب ما تدعو اليه
حاجته مدة مقامه بمجرة النعمان ، والخطيب يظن أنه ذهبه الذي دفعه إلى الشيخ
فلما أراد الانصراف دفع اليه أبو العلاء صرته بعينها .

ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع ، وبذل له الوزير الفلاحي
خراج معرة النعمان وكتب له سجلاً بذلك ، فأبى أبو العلاء واستغنى من
ذلك كله .

قلت : يستمد أبو العلاء آراءه الفلسفية من العقل فيجمله المشير الهادي .

عليك العقل وافعل ما رأه جميلاً فهو 'مشتار الشوار'
ويقول فيه :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما أطلعت جالب الرحمة عند المسير والارساء
ويقول :

اذا الانسان فض انقل منه فما فضل الائيس على الهال
ويريد الناس على أن يحكموا في أمورهم عقولهم :
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة اذا لم يؤيد ما أتوك به العقل
ويقول لهم :

لا يدينون بالعقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه
وخلاصة ما يقال في آراء شيخنا المعري ، انه أراد للانسان أن يكون حراً
كل الحر ، لا عبداً ملك ، ولا مال ، حتى ولا الدين ؛ بل عبداً لله وحده :
«كلنا عبيد الله ، فما بال الرجل يقول : عبدي فلان ، والعبودية في عنقه
الزم له من طوق الحماة ؟»
نحن عبيد الله في أرضه وأعوز المستعبد الحر

الانسانية وعمل الخير :

وهو يدعو الى انسانية مخلصه ، وغيرية صادقة ، بعيدة عن الاثرة وحب الذات ،
قائمة على الايثار ، وعمل الخير .
أسمه يقول :

«أطعم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري أجدر ثوبيك ، وامسح دمه
الباكية بارفق كفيك .
ولا يرى الكرم ولا الخير ، في هذه المآذب تقام للأغنياء بطراً وسمعة ، بل يراها
في اطعام الفقير .

«واعلم ان الفقراء بطعامك احق من الأغنياء ،
ويقول :

«انظر بين يديك ، واجمل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل لبيك ،
واذا الجأ عدوك الدهر اليك ، فانس حقوقك الغبرات ،
ويحض الناس على عمل الخير جهدهم :

فانفع أخاك على ضعف تحس به ان النسيم بنفع الروح هباب
ويكرر ذلك فيقول :

فجد بعرف ولو بالنذر محتسباً ان القناطر تحوى بالقراريط
ويريد للانسان أن يفعل الجميل لأنه حسن في نفسه ، لا لأجل ما وراءه
من ثواب . وهذا أسمى ما يكون من فعل الخير .

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها
وان يخفي احسانه :

« الزكاة ، تذهب عن المال الشكاة . فاذا زكيت أموالك فاخفها كل الاخفاء . »
وزيد على هذا فيريد للمحسن أن ينسى احسانه :

إذا ما فعلت الخير فانسَ فعاله فانك ما تنساه احب له ذكرها
واذا كان يريد المحسن على أن ينسى احسانه ، فهو يريد المحسن إليه
أن لا يكون كفوراً ، فيذكر الخير لصاحبه :

عندي خللي اعظام لمتته وانني للذي اوليه محتقر

حضه على العمل :

ويحض الناس على السمي والاحتراف ، ولا يريد لهم الكسل والتوكل
باسم الدين :

تروم رزقاً بان سموك متكلاً وادين الناس من يسمى ويحترف

ترغيه في الفلاحة :

وينكر على الناس أن يترفعوا عن الفلاحة والعمل في الأرض ،
فيؤنبهم بقوله :

اكرهت ان يدعى وليدك حارثاً ياحارث بن الحارث بن الحارث
تلك الصفات لكل من وطئ الحصا ماين موروث وآخر وارث

بل يرفع العامل في الملك ، على العامل في الملك (١) : (حارث الارض عند ربه
اوجه من الحارث الخراب (٢) .)

(١) الملك (بالضم) السلطان (وبالكسر) ما يملكه الانسان .

(٢) هو ملك من ملوك كسندة .

ويحتقر الصناعة واهلها ، ان يجعلوا منها عدة للحرب :
(فما فضيلة الصنعة ، اتخذ قميصاً للحرب ، كبارد الحبيب أو برد الحباب. (١))

تواضعه وأدبه :

ويزين هذا الشيخ في دروس الاصلاح التي يلقها ، هذا التواضع في النفس ، وفي العلم ، يكثر عليه الدليل في شعره وفي نثره . والتواضع الحق صفة من صفات المصلحين . فمنها قوله في ذلك :

« ان معاصي لكثير ، فجاز مولاي بالا حسان رجلاً اعلم في عيب في : اما غيرته ، واما سترته ، او عرفت مكانه فاضمرته . لقد من " علي " ذا كره منة الا ضبط على الرباب ، وقوله :

اذكر فيه بغير ما يجب	من لي ان لا اقيم في بلد
وييني وبينها حجب	يظن لي اليسر والديانة والعلم
قوم فامرهم وعجب	اقررت بالجهل وادعى فهمي
لست نحياً ولا هم نجب	والحق اني وأنهم هدر

ويقول :

او كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت في الحضن حواء
هذه لمحات موجزات عن آراء شيخنا المعري في الاصلاح الاجتماعي من نواحيه السياسية والدينية ، والاقتصادية ، لم يتسع الوقت المضروب ، للاكثار منها ولا التبسط فيها . وهي آراء لاتزال الى يومنا هذا ، على جدتها وطرافتها . ولا تزال نحن في أشد الحاجة اليها والى من يبعثها فينا ويمثل بها صادقا مخلصاً . فيكبح من جماح المستبد ، ويأخذ على يده - فرداً كان هذا المستبد ام جماعة - ويحد من سلطان القوي على الضيف ، ومن تحككه فيه ، ويدفع الضالين المضلين من رجال الدين والسياسة عن ضلالهم وتضليلهم ، ويقف عباد المال من عبادة المال عند حد لا يتجاوزنه ، وينبه الشعوب الى حقوقها والى حرياتنا .

ان آراء المعري حق . والحق - على ما قال - كالذهب حسن ، وثقليل ، ولكنه خالد على الدهر .
حارث التكري

(١) الحب ، طرائق الماء ، الحباب جلد الحية .

الحفلة الثالثة في معرة النعمان

على ضريح أبي العلاء

في اليوم الثالث من اسبوع المهرجان (يوم الاربعاء في ٢٧ ايلول ١٩٤٤) أخذ اعضاء المجمع اهبتهم للسفر الى معرة النعمان ، فبكروا الى فندق (اوريان بالاس) حيث اعد المجمع لهم عشر سيارات . فلما تم عددهم وانتظم أمرهم غادروا دمشق مع اعضاء المهرجان في الساعة العاشرة صباحاً . ومضت قافلة السيارات تصعد جبال (القلعون) ، وتقطع أوديتها ، وتتلوى في معاطفها ، حتى بلغت بلدة (النبك) ، فأحب الركب أن يستريح من عناء السفر ، فجلس المسافرون حول عين الماء في حديقة البلدية ، وشربوا القهوة في ظلال الاشجار . ثم انهم لما أخذوا قسطهم من الراحة غادروا (النبك) وانحدروا الى حمص ، فمروا بها — على نية العودة اليها — ، ووصلوا الى حماة في الساعة الثانية بعد الظهر .

وكان السيد خالد الداغستاني محافظ مدينة حماة قد خرج لاستقبالهم ، فاجتمع بهم عند مدخل المدينة ، ودعاهم الى زيارة دار العلم والتربية ، فساروا اليها على الاقدام بين الجماهير المحتشدة في الشوارع ، واستمعوا هناك كلمة الترحيب التي القاها المحافظ باسم مدينة حماة . ثم عادوا الى فندق ابي الفداء حيث اعدت لهم مدينة حماة مأدبة غداء فاخرة القيت فيها كلمة باسم بلدية حماة ، وتكلم فيها الدكتور طه حسين ، والاستاذ أحمد أمين ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والاستاذ طه الراوي ، والاستاذ اديب وهي ، عن مدينة حماة ومهرجان ابي العلاء والجامعة العربية والصلات الروحية والمادية التي تجمع اقطار العالم العربي بعضها الى بعض .

ولما انتهت مأدبة الغداء غادر اعضاء المهرجان في الاصيل مدينة حماة ، فوصلوا الى معرة النعمان في الساعة السادسة قبيل غروب الشمس . وكان نائب المعرة السيد حكمة الحراكي قد أعد لهم احتفالاً شعبياً رائعاً . فاستراحوا قليلاً في دار السيد طالب الحراكي عند مدخل المدينة . ثم ساروا الى ضريح أبي العلاء مشياً على الإقدام والجماهير تصفق لهم ونحيبهم . وبلغوا القبر في العشية يحيط بهم اهل المدينة

كبارهم وصغارهم في موكب مهيب لم تشهد معرة النعمان مثله ، وترمقهم اعين النساء من شرفات المنازل بنظرات ملؤها الفرح . ثم انهم جلسوا على المقاعد التي اعدت لهم حول الضريح ، وبدئت الحفلة بعشر من القرآن الكريم اوله : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عندنا الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » . ثم القى الدكتور طه حسين كلمة بدأها بتلاوة آيات من قصيدة ابي العلاء الخالدة .

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
واشار فيها الى مذهب ابي العلاء في اعتزال الناس ، وابتغائه الوحدة وحرصه عليها . قال : لقد وجد ابو العلاء ان خير ما يصنعه لنفسه في الحياة عزلة تبعده عن الناس . ولكنه لم يكذب يدا سيرته في الاعتزال حتى اخذ الناس يسمعون اليه ويلتفتون حوله . فشقي في حياته بالناس . وها هو يشقى بهم بعد موته ، ويخفق في طلب العزلة . لقد سجن نفسه في بيته حباً بالزهد واعراضاً عن المجد ، فهل يرضيه ان يجتمع الناس حول قبره ويقيموا له هذه الاحتفالات لا للمعري لو ترك الأمر لأبي العلاء لما اراد شيئاً من هذا .

ولما انتهى الدكتور طه حسين من مناجاة ابي العلاء تلا السيد محمد الشريفي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وعنوانها « شاعر البشر » ، وكان شاعر العراق قد أرسلها الى المجمع ، وقد حال المرض بينه وبين حضور المهرجان لتلاوتها بنفسه . ثم القى الدكتور مهدي البصير كلمة عنوانها : على قبر ابي العلاء . ولما انتهت الحفلة الخطائية دعي اعضاء المهرجان الى مأدبة عشاء أعدها لهم السيد حكمة الحراكي فساروا في العتمة الى بيته وشهدوا عنده من صنوف الكرم العربي ما يعجز القلم عن وصفه . ثم ان اعضاء المهرجان ساروا بعد ذلك الى حلب في ليلة قراء ساكنة ، فوصلوها بعد منتصف الليل . وكان محافظ المدينة لا يزال واقفاً بانتظارهم ، امام فندق (بارون) ، مع لجنة الاستقبال . فاستقبلهم بحفاوة بالغة ، ثم أوى كل واحد منهم بعد فترة قصيرة من الزمان الى الغرفة المدة له في الفندق ، فتوسد الراحة بعد عناء السفر الطويل . وفيما يلي قصيدة الاستاذ معروف الرصافي وكلمة الدكتور مهدي البصير .

جميل صليبا

شاعر البشر

حيّ هل يا أخا مضرٍ ندّكر خير مدّكرٍ
ندّكر شاعر البشرٍ خير من قال وافتكرٍ

حي هل ايها الملا نحى ذكرى ابي الملا
شاعر شعره اجتلى صوراً كلها غرورٍ

فكره يعلّو القضا نفسه صعبة الرضا
دونه كل من مضى دونه كل من غبرٍ

هو بالفكر مدّ سما كان من نوره العمى
طاول الأرض والسما شارف الشمس والقمرٍ

حلّ في ذروة الادبِ آتياً منه بالعجبِ
لا تقل شاعر العربِ انه شاعر البشرِ

جعل الشعر وحيه موقظاً فيه وعيه
ما ورى فيه وريه قبله كل من شعرٍ

حكّم العقل واجتهد وتعالى عن الفند
هو في القول ما اعتمد غير ما ذاق واختبر

شعره شف عن دها ما له فيه منتهى
ذو معان هي النهى وحروف هي الدرر

جعل الصدق ديدنا تاركاً هذه الدني
ان تناعى او ادنى فهو للحق ينتصر

عيشه عيش زاهد نفسه نفس واجد

فكره فكر ناقد مبعد الفكر والنظر
صبر الحق ذوقه باذلاً فيه طوقه
شاعر ليس فوقه شاعر من بني البشر
خطاً سافراً به ابتغى غنية الروح بالرغى
جامعاً افصح اللفى حاوياً اكبر المعر
شاعر الارض والسما هو بالذكر مذ سما
ابصر الحق بالعمى لم يضره عمى البصر
هو بالشعر ان شدا يتجلى لك الهدى
مدركاً أبعد المدى بالمعاني التي ابتكر
جانب الناس واعتزل قائلاً انهم هم
شرم غير محتمل خيرم غير منتظر
ما بهم غير حاسد دائب في المكائد
مبتغى كل واحد منهم الجور ان قدر
ليس للموت عنده من تقاريع بده
ان عرا الحي رده فاقد الحس كالحجر
شعره شعر متقن فيه شك لموقن
فيه كفر لمؤمن فيه ايمان من كفر
نحن اسرى ذواتنا خشية من مماننا
كم وكم في حياتنا مبتدا ما له خبر

معروف الرصافي

على قبر أبي المرء

سيدي حكيم المرة بل حكيم العرب قاطبة .

ألا ليأذن لي السادة المحترمون الذين حملهم الإعجاب بك والاكبار لك على أن يحجوا إلى قبرك في هذا الموكب الحافل بمناسبة مرور الف سنة على ميلادك ، أن أفرغ لمناجاتك ، وأتجرد لمخاطبتك ، وما أظن بأن الدقائق القليلة التي يسمح لي بها حجاج قبرك الكرام والتي أستطيع فيها أن أناجيك وأن أخطبك تكفي الاعراب عما توحيه إلي في هذه الساعة ذكرائك الخالدة ويثيره هذا المشهد الرائع على قبرك في نفسي من شتى الخواطر والافكار وضروب الأحاسيس والانفعالات .

سيدي أبا العلاء

إن العراق الذي تجشمت اليه الأخطار وركبت له متون الأهوال وقضيت في ربوعه زمناً غير قليل وعاشرت علماء وأدباء وشعراء معاشرة طويلة فمرفقهم وعرفوك وأحببتهم وأحبوك رفع لك على لسان هذا العاجز خالص ولائه وصادق إعجابه راجياً جميل صفحك إن كان قد وقع له معك في اثناء زيارتك له ما لا يرضيك عنه أو ما لا يرضيه هو عن نفسه شاكراً

كريم إحساسك ورقيق شعورك نحوه في قولك مودعاً أبناء عاصمته :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفراء ما ينين عن اللذع
وكان مرادي أن أموت لديكم حميداً فما الفيت ذلك في الوسع

وقولك متشوقاً إلى أصدقائك الأوفياء فيه واليه :

سلام هو الاسلام زار بلادكم ففاض على السني والمتشيع
كشمس الضحى أولاه في النور عندكم وأخراه نار في فؤادي واسلمي

يقوح إذا ما الريح هب نسيمها شامية كالغبر المتضوع
نعم حبذا قيظ العراق وإن غدا يؤجج ناراً في مقيل ومضجع
فكم حله من أصمغ القلب آيس يطول ابن أوس فضله وابن أصمعي
أحن لذكره وأحفظ غيه وانهض فعمل الناسك المتخشع
إنه لفخر للعراق يا سيدي الحكيم ما بعده فخر أن يترك هذا الانطباع
الحديد في نفسك وأن يحتل هذه المكانة الرفيعة من قلبك وأن يظفر بهذا
النصيب من ثنائك وتقريظك .

أيها الفيلسوف الكبير

إن الشرق العربي الذي أقت نفسك مصباحاً له تنير أمامه السبيل
وأنت تحترق فجل فضلك وأنكر فلسفتك واتهمك في دينك وطاردك في أيام
حياتك وبعد مماتك ما وجد إلى مطاردتك سيلاً، قد أدرك اليوم خطؤه وتبين إسرافه
على نفسه فاستعاض عن خطئه بصوابه وعن ضلالته بهداه وعن غيه برشده
وهو اليوم يؤمن بمبادئك ويصدق بتعاليمك ويشعر من أعماق نفسه أنك
رسول أمين من رسل المحبة والحنان والرحمة . على أنه إن آمن بمبادئك وصدق
بتعاليمك فأتما يؤمن بما فيه خيره ويصدق بما فيه صلاحه وفلاحه . وقد
يدهشك يا سيدي الحكيم أنه لم يصحح رأيه فيك إلا بعد مرور ألف سنة
وقد تقلقك منه هذه الأناة في تصحيح الأخطاء فأطمئنتك بأن ثقافته قد
تقدمت وأن معارفه قد اتسعت وإنه سيقضي من الآن فصاعداً في تصحيح
الخطأ الواحد أقل من ألف سنة .

أيها الفيلسوف الكبير

إن القرون العديدة التي مرت منذ وفاتك لم تزد مبادئك إلا سمواً
وتعاليمك إلا قوة ورسوخاً ، « فديكارت » لم يزد على أن كرر للعالم مادعوته
إليه مائة مرة من تقديس العقل وتمجيده وتحكيمة في كل صغيرة وكبيرة من
شؤون الدنيا والدين على السواء ، وكلمته الشهيرة (أنا أفكر ، إذن أنا
موجود) ليست إلا تكراراً غير مقصود لكثير من أمثال قولك :

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً وارحل عنهما إمامي سوى عقلي
« وروسو » لم يزد في دعوته إلى الإصلاح السياسي على أن أيد آراءك

وكرر أقوالك ودعا الناس إلى اعتناق تعاليمك ، إذ كل ما دعا إليه في هذا الباب أو جله هو أن يتمتع الناس جميعاً بحرية الفكر والقول والعمل وأن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات وأن يكون الشعب مصدر السلطات جميعاً إليه يرجع الحكم فيما يدبرون من مشؤونه ويصرفون من أموره. لأمره يخضعون وبرأيه يهتدون ، وقد سبقته إلى تقرير هذا كله في لزوم ما لا يلزم. فما أعرف كلمة أبلغ في انكار التحكم في الحريات من قولك :

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين اطلت همسي
ولا اعرف كلمة أبلغ في تقرير المساواة من قولك :

لا يفخرن الهاشمي على امريء من آل برب
فالحق يحلف ما علي عنده إلا كقنبر

ولا أعرف كلمة أبلغ في تحديد علاقة الحاكمين بالمشكومين من بينك الجاري على كل شفة ولسان ألا وهو :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
وسبقك الى ما جاء به ديكارت ورسو يعني انك تمثل ببقرتك التي لا حد لها معوستين هما من اعظم المدارس الادبية في العالم ان لم نقل اعظمها ، هاتان المدرستان هما اللتان تدعيان « الاتباعية والابتداعية » ، وأخيراً أقفل تولستوي في تنازله عن املاكه ومشاركته العمال والفلاحين في حياتهم الخشنة الا ما فعلته في تنازلك عن مال الممرة عندما آل أمرها اليك وانفاقه على الفقراء وذوي الحاجة من أبنائها وانت تقول :

سولت لي نفسي أموراً وهيها ت لقد خاب ذلك التسويل
ويقول الفواة خولك الا ————— كذبتهم لغيري التخويل
ان حباك القدير كالنيل تبرأ فليفضه المطاء والتنويل
لا تعمل على اختزان فما للب ————— در الصفر أثر ميت عويل

أما رأيك في الناس فلا يمر عصر أو جيل — أستغفر الله — بل لا يمر يوم حتى يقوم البرهان ولو البرهان على انه صحيح كل الصحة مصيب كل الإصابة فليس من شك في أنهم اليوم كما كانوا على عهدك وكما كانوا منذ

وجدوا على ظهر هذه البسيطة أهل لما سددت اليهم في سقط الزند ولزوم
 مالا يلزم من سهام نقدك الجارح خلقاء بما وصفتهم به من حرص على المال وتهافت
 على الجاه وتكالب على المطامع والشهوات . لم يمصمهم علمهم من رذيلة ولم يطعمهم على
 فضيلة ، قد كبرت عقولهم وصغرت نفوسهم واتسعت مداركهم وضقت افئدتهم ،
 وحسنت مظاهرهم وساءت سرائرهم ، وقد جرفتهم مطامهم الأشعبية فزجت بهم
 في حرب قضت على جانب كبير من عمران مجتمهم وذبحت بحياة الملايين من رجالهم
 وسببت الشكل واليتيم للملايين كثيرة من نسايتهم واطفالهم وحرمت المجتمع ملايين
 عديدة من الأيدي العاملة وانحنت جسم المدينة بجروح قد لا يشفى منها الا بعد
 عشرات الأعوام . وقد كانوا على عهدك يكتفون بالنشابة سلاحاً وبالحرية اداة
 فتك وبطش ، اما اليوم فهم يترامون بالقذائف المحرقة في اعماق البحار ويتراشقون
 بها في جوف السحاب ، ماذا أقول لك ، بل أنهم يقصفون المدن الآمنة ويضربون
 النساء والشيوخ والأطفال بقنابل زنة الواحد منها اربعة اطنان حيناً وستة اطنان
 حيناً آخر ، اي أن قنبلة واحدة من هذه القنابل لو سقطت على المرة لاسمح الله
 لتركتها أثراً بعد عين .

وما احدثك به عن الناس من بعدك احدثك به عن الحياة وهي على كل حال
 حياتهم وثمره جهادهم ، وتفكيرهم ونتاج أخلاقهم وعاداتهم واعمالهم واحوالهم فما
 عسى أن تكون بعد ذلك ومع كل ذلك ورغم كل ذلك يمكنني أن اروي لك خبراً
 مفرحاً جداً ، خبراً يملأ قلبك سروراً ونفسك حبوراً ، هذا الخبر ياسيدي
 الحكيم هو خبر اجتماع مندوبي الأمم العربية في الأسكندرية للتشاور في اعاده
 تنظيم الوحدة العربية ، وانه لمن بدائع الصدف ومحاسن الاتفاق ان تفتتح هذه
 المفاوضات في نفس الوقت الذي يحتفل فيه العرب بمرور الف سنة على ميلادك
 كأنهم بذلك يقيمون البراهين المختلفة على حيويتهم وفاعليتهم في وقت واحد . أجل
 ياسيدي الحكيم ان العرب الذين ساءك تواكلهم وتخاذلهم والمحلال ملكهم وسطوتهم
 فندبت سوء حفظهم في العراق والشام لملاقته المباشرة بهذين القطرين بقولك :
 ان العراق وان الشام مذ زمن صفران مافيهما للعك سلطان
 قد شمرنا اليوم بدم الحياة يجري في عروقهم مرة اخرى فاتففوا من مراد

الحول ونهضوا من كبوتهم البعيدة المدى وراحوا يملون بكل ماوتو من قوة على
 لم شعئهم ورأب صدعهم واصلاح بلادهم وتنظيم شؤون مجتمهم وهم مقتنمون في
 قرارة نفوسهم بأن توحيد بلادهم بشكل من الاشكال هو الطريق الوحيد لتحقيق
 كل هذه الأغراض وبلوغ كل تلك الغايات لذلك يجتمع مندوبهم ورؤساء
 حكوماتهم اليوم في ارض الكنانة ليعملوا على تحقيق هذه الرغبة الشاملة التي
 مضت عليها الأعوام الكثيرة دون أن تخرج من حيز الأثماني والأحلام . هذا هو
 احسن خبر يمكنني ان اروي به لك عن هذه الدنيا الفانية ، فان شرك واطمأنت اليه
 ففسك وهذا مالا اشك فيه فسل ربك ان يشد ازر القائمين بالدعوة الى الوحدة
 العربية وان يثبت اقدامهم ويكمل جهودهم بالتوفيق الكامل والنجاح التام ، فان في
 ذلك فوائد لا تحصى ومنافع لا تحصر لعشرات الملايين ممن يتكلمون لغة اللزوميات
 ورسالة الغفران .

الا لتمش ذكراك ايها الفيلسوف الأوكبر ، ولتمش الوحدة العربية .

مهدي البصير

الحفلة الرابعة

في حلب

في الساعة العاشرة من يوم الخميس في ٢٨ ايلول ١٩٤٥ زار أعضاء المهرجان قلعة حلب ، ومتحفها ، ومكتبتها الوطنية ، وغير ذلك من الأماكن . ثم زاروا دار الحكومة في الساعة الثانية عشرة ، فحيثهم موسيقى الدرك عند وصولهم ، واستقبلهم محافظ حلب السيد احسان الشريف استقبالاً رسمياً ، ثم عادوا بعد ذلك الى فندق (بارون) ، حيث تناولوا طعام الغداء على الانعام الموسيقية التي عزفتها فرقة دار الايتام . وكانت لجنة المهرجان قد أعدت المدة لاقامة الحفلة الخطابية الرابعة في باحة مدرسة التجهيز . فلما دنا موعد الحفلة ، زار أعضاء المهرجان ضريح المغفور له الزعيم ابراهيم هنانو ، وانتقلوا منه الى مكان الحفلة . وكانت باحة مدرسة التجهيز مزينة بالاعلام السورية ، واعلام الدول العربية ، والانوار الكهربائية على أشكال هندسية مختلفة ، فلما دخلها أعضاء المهرجان استقبلهم المدعوون بالتصفيق ، فجلسوا على المقاعد الخاصة المدة لهم حول منبر الخطابة ، وكانت اللجنة قد نصبت حوله مكبرات الصوت لاداعة الخطب على الجماهير ، وعرضت امامه تمثالاً كبيراً لابي الملاء صنعه احد الفنانين في حلب . وكانت باحة المدرسة غاصة بالمدعوين ، وكلهم من علية القوم ، جلسوا على صفوف دائرية متوازية تلتقي اقطارها في المحل الذي اقيم عليه المنبر . واحاطت الجماهير بمدرسة التجهيز من كل جانب لاستماع الخطب حتى زاد عدد الشهود على ثلاثة آلاف .

وبدئت الحفلة بالنشيد السوري في جو ملؤه الروعة والجلال ، فالتقى محافظ حلب كلمة ترحيبية أشار فيها الى حق مدينة حلب في الاحتفال بذكرى ابي الملاء لقرىها من معرة النعمان ، ولصلة صاحبها صالح بن مرداس بابي الملاء وما كان من شفاعته ابي الملاء عنده . قال : وان الشهباء عاصمة سيف الدولة التي كانت تظل المعرة بظل وارف ، وتكلؤها بعين رؤوم ، لتفخر اليوم بشاعرها الحكيم ، وفيلسوفها العميق ، كما انها ترحب باعلام الفكر الذين وطئت اقدامهم ارضها لمشاركتها في الاحتفال بذكرى شاعرها .

وتتابع الخطباء بعده على الوجه الآتي :

١ - الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني أبو الملاء شاعر انساني

- ٢ - الأستاذ طه الراوي
ممثل وزارة المعارف العراقية
- ٣ - الأستاذ عمر أبو ريشه
الفيلسوف (قصيدة)
- ٤ - الأستاذ سامي الكيالي
الاضطراب السياسي في عصر
أبي العلاء وأثره في ينشئه وشعره
- وطلبت لجنة المهرجان في نهاية الحفلة الى الدكتور طه حسين أن يتكلم فألقى
كلمة بليغة عن فن أبي العلاء أشار فيها الى قدرة أبي العلاء على استعارة المعاني
والاصطلاحات من علماء الشعر والصرف والعروض والفقه والفلسفة ، وحذقه في
قلب هذه الاصطلاحات المستعارة الى تشبيهات شعرية جيدة مع انها في نفسها ابعد
ما تكون من ظرف الشعراء . كقوله :
- مالي غدوت ككاف رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر لها اجراؤها
وقوله : اعللت علة قال وهي قديمة اعياء الاطبة كلهم ابراؤها
- قال : لقد ظلم الناس ابا العلاء في حياته ، وظلمه الأدياء بعد موته ، فمن قائل
انه فيلسوف لاشاعر ، ومن قائل انه شاعر لا فيلسوف ، ومن قائل انه لاشاعر ولا
فيلسوف ، وعندي ان ابا العلاء يسمو على كل هذا لانه جمع من صفات العبقريه ما لم
يتح لغيره ان يجمعه فتعذر بذلك تحليل شعره وورده الى اصول معروفة وقوال موصوفة .
- وتتمثل الحفلة قطعة موسيقية رمزية للاستاذ سامي الشوا استمع اليها الجمهور
بصمت عميق . وكانت حفلة حلب من أجمل الحفلات التي تجل فيها الذوق والشعر
والموسيقى في أجلى مظاهر السحر والجمال .
- ولما انتهت الحفلة الخطابية ، دعي الأعضاء الى حفلة عشاء ، اقامتها لهم مدينة
حلب في فندق (بارون) ، حضرها وجهاء حلب ، وعلمائها ، وأدباؤها . ثم اجتمع
الأعضاء بعد حفلة العشاء على سطح الفندق ، وشهدوا العرض الكشفي الذي اقامته
فرق الكشف في حلب ، بموسيقاها الكشفية ، ومشاعلها النارية ، في نظام حسن
وترتيب مهيب . واحتشدت الجماهير بعد ذلك امام الفندق ، فحلا العرض الكشفي
مهرجان شعبي دل على مشاركة مدينة حلب كلها في مهرجان ابي العلاء ، وفرحها به
وحبها للعلم والأدب ، وميلها الى تكريم رجاله وابناسهم .
- وفيا يلي نص الخطب التي القيت في الحفلة الرابعة .
- جميل صليبا

أبو العلاء شاعر انساني

اصمحوا لي — قبل أن أدخل في الموضوع — أن أتوجه بالشكر الى المجمع العلمي العربي الموقر على تفضله بدعوتي ودعوة نقابة الصحفيين المصرية التي أولتني شرفاً عظيماً بندي لي تمثيلها في هذا المهرجان التاريخي . وكنت لما تلقيت دعوة المجمع الكريمة منذ شهر لا أرى أن الحال تسمح بتليتها ، ثم رأى مجلس النقابة أن ينييني عنه ففاجأني مفاجأة سارة فله مني الشكر على ما أعان ويسر . ولعل مما يسركم أن أبلغكم أن رجال الصحافة المصرية مجتمعون اليوم . وفي هذه الساعة بناديبهم بمصر وان كلتي تتلى عليهم الآن لا لقيمتها بل على سبيل التأكيد لمشاركتهم لكم في الاحتفال بذكرى هذا الشاعر الجليل .

والشكر أولاً وآخرًا . للحكومة سورية الشقيقة على ما الطفتني به وخصنتني من التسهيل والتذليل . وما نفعتني لا مسئولة ولا مكلفة . ولو لا حسن صنيعها لكان الأرجح أن لا أدرك الاحتفال في حينه .

وأرى بعد ذلك واجباً أن أصحح خطأ غير مقصود . مرجعه الى آفة لا بُدَّ لي منها على ما يظهر . فقد كنت كتبت قبل حضوري الى الاستاذ الجليل محمد كرد علي بك رئيس المجمع الموقر أقول له أن عنوان موضوعي هو « أبو العلاء شاعر انساني » والواقع اني كنت الى ذلك الوقت حائرًا لا أهندي . ولا أدري أية ناحية من أبي العلاء يحسن بي أن أتناولها . وزاد حيرتي علمي أن معظم أعلام الادب قد وفدوا على دمشق ليقولوا في المعري . ويقيني انهم لم يتركوا لي باباً أدخل منه أو كوة صغرة أنفلت منها . وكان الوقت قد ضاق . والمراجعة الواجبة طويلة . والمشغل لا هينة ولا قليلة . والعنوان آخر ما أكتب . وهو على كل حال شيء لا أحسنه . ولقد أشرت كتاباً لي في المطبعة سنة كاملة حتى وقفني الله فاهتديت الى اسم له . وأصارحكم اني ما تسنى لي أن أكتب كلتي هذه الا قبل مقدمي يوم

واحد فأنا لهذا أخشى أن يكون عنوان كلتي مضللاً أو اسماً على غير مسمى
ولهذا وجب التنبيه وإبراء الذمة - أما الموضوع الذي سأتلوه فلا أدري ماذا أدعوه
وكل ما أدريه اني أحوم فيه وألوب حول أبي العلاء .

يرجع عهدي بأبي العلاء الى أيام الطلب والتحصيل - أي الى نحو خمسة
وثلاثين عاماً أو تزيد - ولعل الاصح أن أقول الى بداية أيام الطلب فما اعرفها تنتهي
أو تنتهي الحياة نفسها . وما زالت الدنيا مدرسة لا يتخرج فيها المرء ولكن يخرج
منها . وما فتئت أرجع اليه حيناً بعد حين . حتى تقضى من العمر فيه شطراه وأطيهاها .
وأطولها فيها أخشى . فما يتكافأ شطران من عمر تكافؤ شطرى بيت منظوم . ولا
يلتزم ربنا معنا ما يلتزم شمرأؤنا من الوزن والقافية . فلا تنفك أوزاننا تتغير وتتغير
وتتفاوت . ولولا ذلك لضقنا بانفسنا وسئمنا أن تجري حياتنا على استواء . وعسى
أن تكون هذه حجة لمن يضجره استواء البحور العربية .

وأذكر أننا كنا في الفرقة النهائية للتعليم الثانوي . وكنا ذات يوم نمر ب
أبياتاً للمعري في الفخر - ما أقل ما كان يفخر - فدخل علينا المرحوم عاطف بركات
باشا - وكان يومئذ مفتشاً للغة العربية . وكانت فيه صراحة تلتبس بالفاظظة والجفوة -
وقال : « اسمعوا . هذا الشعر يصلح للإعراب ككل شعر آخر . ولكنه من أردأ
ما قال المعري وسأحدثكم عنه حديثاً وجيزاً أوجهكم به اليه . فانه شاعر جليل
القدر . مني في حديثه بذهاب بصره خيل بينه وبين السمي والتصرف وعكف
على الدرس لا يشغله عنه شاغل وتوفر على ما كان في زمانه من علوم وآداب وفنون .
حتى الرياضيات والموسيقى والفلك . فلم يكذب فوته شيء . ولزم بيته وسمى نفسه رهين
المحبسين . محبس الدار التي لا يفارقها . والعمى الذي لا يفارقه . وراح يتفكر ويتدبر .
ويعمل ما يدور في خاطره ويضطرب به فؤاده . فله شأن غير شأن من سبقوه وتلوه
من الشعراء الذين يتكسبون بالشعر ويتخذونه أداة للرزق . وقد جرى غيره
قليلاً في البداية ثم كف وأقصر . وستحتاجون وأنتم تقرأونه الى المعجم فان
الشيخ كان يتكلف الإعراب . على أن المعجم لا غنى عنه لقاري الأدب العربي
وستجدون أبا العلاء فيما عدا ذلك أصفى من الجدول الرقراق »

فكان أن اقتنيت سقط الزند والذروميات وعكفت عليها . وما أظن به الا
أنه قوى في نفسي ميل في أيام الشباب الى التشاؤم . وأعداني بخواطره السود .

ولكنه علمني أن أنظر بعيني . وأفكر بعقلي . وصدني عن التقليد والمحاكاة . وحبب إليّ الخير والرحمة والانصاف . وبغض إليّ الظلم والبغي وأن كان لم يهديني . وله العذر فما كان اهتدى حتى يهتدي سواه .

ولم يتغير رأيي فيه بعد أن زدت خبرة بالحياة وتجربة للدين . واطلاعا على الأدب . فما زال عندي في المحل الأول بين الشعراء . وإن كان لا يعجني بأسه من الخير والصالح . وعزوفه عن الدنيا . ونكوصه عن الضرب في زحمة الحياة . ولكفي أفهم دواعي ذلك وأعذره . ولا شك في أن الزهد والاعتزال ينافيان الطباع حتى في الحيوان . ولكنه لم يكن زاهداً وإنما كان يتزهد . ويشيح بوجهه عامداً . ويروض نفسه على الحرمان . أو كما يقول الميعني فيه « روض نفسه وقنمها على الكفاف فعاد شماسها انقياداً . وألقت اليه مقاداً . » ولا بد أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا » وليس هذا بصحيح كل الصحة أعني أن نفسه لم تلق اليه مقاداً ولم يعد شماسها انقياداً . كما سنرى .

وقد عرف عنه أنه في صباه كان يلهو ويعبث . ويلعب الشطرنج والترد . وهو القائل بعد أن تقضى الشباب :

ألم ترني حميت بنات صدري	فما زوجتهن وقد عنسنه
ولا أبرزتهن الى أنيس	إذا نور الوحوش به أنسنه
وقال الفارسون حليف زهد	واخطأت الظنون بما فرسنه
ورضت صماب آمالي فكانت	خيولاً في مراتها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات الا	لان خيارها عني خُسنه
ولم أر في جلاس الناس خيراً	فمن لي بالنوافر ان كُسنه

فهو كما ترون بخطي* أهل الفراسة الذين يزعمونه حليف زهده . ويقول إنه راض صماب آماله فظلت كالفرس الشموس الذي يمنع الراكب ظهره . وما أعرض عن اللذات الا لأن خيارها تفوته . وهو يشتهي أن يأنس بالناس ولكنهم كالظباء النافرة التي تدخل كتاسها . وكان واسع المطامع ففاته أن يكون بمحيط يحب فنفر وآثر العزلة .

وقد صاح مرة :

أيأتي نبي يجعل الحجر طليقة فتحمل ثقلاً من همومي وأحزائي ؟

ثم أثر الاحتشام والتجمل وكره لنفسه أن يسكر ويخف عقله فقال :
 وهيات لو حلت لما كنت شارباً مخففة في الحلم كفة ميزاني
 وهو كثير التحديث لنفسه بالخر . يأسف مرة على حرمانها فيقول :
 تمنيت أن أخرج حلت لنشوة تجهاني كيف اطمأنت بي الحال
 ونارة يكرر بغير داع أنها لو كانت حللاً لما شربها . فيقول :
 لو كانت أخرج حللاً ما سمحت بها لنفسي الدهر . لا سرّاً ولا علناً
 فليغفر الله . كم تطفئ مآربنا وربنا قد أحل الطليات لنا
 وهو في رسالة الغفران يصف مجالس الخمر والمنادمة عليها ويقول انما لذة
 الشرب فيما يعرض لهم من السكر . ولو لا ذلك لكان غيرها أعذب .
 وهو القائل أيضاً :

ولولا أنها باللب تودي لكنت أذا الندامة والنديم
 وقال في ذمها والتحذير منها :
 البابلية باب كل بليّة فتوفين هجوم ذاك الباب
 جرّت ملاحاة الصديق وهجره وأذى النديم وفرقة الأحاب
 أم الحباب . وان أميت لهيها بمزاجها وافت كأم حباب
 هتكت حجاب المحصنات وجشمت مهن العبيد تهضم الأرباب
 وتوهم الشيب المدالف أنهم لبسوا على كبر برود شباب
 واذا تأملت الحوادث الفيت صهب الدنان أعادى الألباب
 وقال أيضاً في هذا المعنى :

هي الراح . أهلاً لطول الهجاء وان حصها معشر بالمدح
 فلا تمجنك عروس المدام ولا يطرنبك مفن صدح
 ومن يشفق له ساعة فقد بات فيها بمخطب فصح
 قبيح بمن عدّ بمض البحار تفريقه نفسه في قبح
 وقال في الدنيا التي عالج الانصراف عنها

أها الدنيا لحاك الـ له من ربة دل
 ما تسلي خلدي عنـ ك وان ظن الأسلي

وقال أيضاً :

طالب صبري قليل أكرم شبعاً ن وإني لمنطو طيان
أي جائع متعمد للجوع .
وقال يصف مجاهدته نفسه

مهجتي ضد يحاربني أنا مني كيف احترس ؟
وقال :

حبستك أقدار ذوتك عن المنى فضى أصحاب وأنت ثاو جالس
وقال :

وما يترك الانسان دنياه راضياً بمر ولكن مستضماً على قسر
وقال :

والعز في الثروة . والعيش في الـ حبرة . والحرفة في المهبرة
وقال :

تنازعني الى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً . ولا هي
وقال :

أريد ليلان العيش في دار شقوة وتأبى الليالي غير بخل وإيان
ويعجبني شيطان . خفض وصحة ولكن ربب الدهر غير شيباني
وما جبل الريان عندي بطائل ولا أنا من حود الحسان بريان
وفي رسالة الغفران . مجمل ابن الفارح يلتقي باثنين من الحور من الضرب
الذي نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة . فيقبل على كل واحدة
منها يتشرف رضاها فيهيجه ذلك الى ما به ويصيح « ان امرأ القيس لمسكين .
مسكين . تحترق عظامه في السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى وصوب القطر
يعمل به برد أنيابها اذا غرد الطائر المستحضر
ولا يزال المعري في هذه الرسالة يلتفت لى مواضع مهيئة في جسد المرأة ولا
يخلو هذا من دلالة .

وفي « الفصول والغايات » تقرأ له كثيراً من أمثال هذه الكلمات .
« يا أرض ، لا قرض عندك ولا فرض . أودعت المال فرددته سالماً . والخليل

فأكلته راغماً . ليتك أكلت المال ورددت الخليل . انما أنا كرجل يلي بالصدى
(العطش) لا يجد ورداً ولا مورداً . فهو ظآن أبداً
أي لا يجد نصيبه من الماء ولا موضعاً يردّه فيطفيء ظمأه .

وان الله خلقني لأمر حاولت سواه فأفئيت المبهمة بغير انفراج . وفطام ابن
العامين أيسر من فطام ابن الأعوام . وأعيى تأديب الهرم على الأبداء . وقد
صرفت نفسي في الشبية فألفيتها صاحبة جماع . فالآن وقد اسمأت الظلال
(قصرت) ان تركتها أسفت . وان زجرتها فلا انزجار . كأن كلامي سفير
الريح (ماتكنسه من الورق) مالها اليه التفات . وقد سئمت الحياة . وأخاف
أن أنقل فأقدم على ماحزن وساء . وأنا أغفلت الحزم . ملت عن الجدد ومشيت في
الخباء . وقد خلصت من الجباله فكيف عدت . وعلى علم وضعت القدم في النار .
أحلف يانفس . ولك الحلف . لقد ضيعت آخرتك ودينك . ما فوق رجل امن الله
وخشي الناس . اسمى للنفس فيما تكره كأنني لها غاش . أنا وهي شيء لا يناز . نتراد
الملامة كأننا اثنان . تلك محارة في حور . ان جنت علي . أو جنيت كيف يقع
اقتصاص ؟ أفئيت الشبية سوى سواد قد آن له أن يبدل بياض . . الخ

ولا داعي للاكثار من الشواهد . فان أبا العلاء انسان . وليس بانسان من
لا يشتهي الحياة الرضية . والمتعة المرضية . والسلامة من اليأس والمضراء . وأن أبا
العلاء لانسان عريق في الانسانية . يحب الحياة كما يحبها جميعاً . ويفزعه المصير
الذي لامه مني عنه ولا مهرب منه . تأمل قوله :

وكلكم بيدي لدنياه بفضه على أنه يخفي بها كمد الصب

وقوله :

تبني الثراء فتمطاه وتحرمه وكل قلب على حب النقي جبلا
لو أن عشقك للدنيا له شبح ابدعه للملأ السهل والجبلا

وقوله :

اشربت جبك لا ينفيه عن حسدي سوى ثرى لدماء الانس شراب

وقوله :

وصدقت هذا العيش في حيي له واغترني بخداعه وكذا به

وقوله :

شقيناً بدنينا على طول ودنا فدونك مارسها حياتك راشقها
ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضم عشقها
وقوله في « الفصول والغايات » أيها الدنيا البالية . ما أحسن ما حلتك الحالية .
إني أملك الخالية . إن نوبك لمتوالية . والنفس عنك غير سالية .
« كسيت الحدادة فأبليتني . وأعطيت الصحة فمعليتني . ما خلوت من الجرائم ولا
خليتني . قلنتني دنياي فما قليتها . اكثلائتها فما اكثلتني (راقبتها فما أصبت شيئاً)
« اسب نفسي وتسبني . وأريد الخير لا ينجيني . أحب الدنيا كأنها تحبني .
والحرص يوضعني ويخني . والعزيزة عن الرشد تذبني »
« ويحي كل الومح . أحب الدنيا وآلتها ليست في » . وقد يئست من بلوغها
والياس مريح . فالأم التشوف إلى الضلال »

ومن فرط حبه للحياة وتعلقه بها وحرصه عليها وأسفه على ما فاتته فيها وحرمة .
كان جزعه من الموت . واستهواله له . وطول تفكيره فيه وفيما يليه . وحيرته بين
الجبر والاختيار ، وشكه في كل شيء إلا أن الموت حق ومصير محتوم :

إذا ما تباشر أهل الغلام	به فالتباشر معنى هلك
ألم تريا أن سلك الزمان	أفنى السليك وأفنى السلك؟
يمر الحول بعد الحول عني	وتلك مصارع الأقوام حولي
كأنني بالأولى حفروا لجاري	وقد أخذوا المحافروا تحوالي
سيسأل ناس ما قریش ومكة	كما قال ناس ماجديس وما طسم
أرى الوقت يفني أنفسا بفنائنه	فيمحو . فما يبق الحديث ولا الرسم
تبكى على الميت الحديث لأنه	حديث وينسى ميتك المتقادم
لو كان ينطق ميت لسألته	ماذا أحس . وما رأى . لما قدم
إذا الحي ألبس أكفائه	فقد فنى اللبس واللبس
ويبلى الحميا فلا ضاحك	إذا سر دهر . ولا عابس
ويحبس في جدث ضيق	وليس بمطلقه الحابس

فما هو في سلف سائر ولا هو في حنّس قابس
يجاور قوماً أجادوا المظلات وما فيهم أحد نابس
أما اليقين فلا يقين وانما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
ومدّ وقتي مثل القصر . غايته وفي التراب تساوي الدر والبرد

ففي الواتر والموتور . وعند الله علم المذهبين

ولا آخر لقوله - شعراً وثراً - في الموت والفناء . حتى الكواكب لا منجاة لها من هذا المصير .

يجوز أن تطفأ الشمس التي وقّدت من عهد عاد وأدّى نارها الملك
فان خبت في طوال الدهر جهرتها فلا محالة من أن ينقض الفلك
زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريح من حدّثان الدهر مطف . وان علت في اتقاد
والثريا رهينة بافتراق الشمل حتى تعد في الافراد
وقد زعموا الا فلّاك يدركها البلى فان كان حقاً . فالتجاسة كالطهر

وما مصير من يفكر على هذا النحو ؟ مصيره ولا ريب الى اليأس . والى أن يستوي عنده الجهل والعلم . والهدى والضلال . وإلى حيرة مضنية لا يخرج منها . ولهذا تراه لا ينفك يئني ويئبت . ويقول بالرأي وتقيضه .

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
ومن يظفر بأمر يبتغيه فأقضية المهيمن وفقته
ما باختيارى ميلادي ولا هرّمي ولا حياتي . فهل لي بعد تخيير ؟
تتخيرين الأمر كي تحظي به هيئات ليس على الزمان تخير
لو ينطق السيف نادى ليس لي عمل اذا قضى ملك الافلاك أنضاني
وان كهت فأمر الله اكهمني وان مضيت فأمر الله أمضاني
وهو مغلوب على أمره في كل شيء .

من وسخ صاغ الفقى ربه فلا يقولن توسخت
نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبي اليها بالعزيزة جاذب
فضي الله فينا بالذي هو كائن فتم . وضاعت حكمة الحكماء
وهل يأتى الانسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء؟
ولكنه يمود فيقول بالاختيار :

تقلدن المآثم باختيار أوانس بالفريد مقلدات
تخير . فلما وجدة مثل ميتة وأما جليس في الحياة منافق
فما أذنب الدهر الذي أفت لأثم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا
ثم يتردد ويضطرب ويختار فيقول :

تخالفت الاشياخ في عقب الردي وتلك بحار ليس يدرك عبرها
وقيل نفوس الناس تطيع فعلها وقال أناس بل تبين جبرها
ارى شواهد جبر لا احققه كأن كلا الى ما ساء مجرور
قالت معاشر . كل عاجز خرع ما للخلائق . لا بطاء ولا سرع
مدبرون بلا عتب اذا خطئوا على المسي . ولا حمد اذا برعوا
وقد وجدت لهذا القول في زمني شراهداً ونهاني دونه الورع
وحار في الثواب والعقاب . ورأى ان من الظلم عقاب المجبر . ولم يعلمثن الى
الجبر . فطمع في الغفران . وآمن بالمقل وكفر به

جاءت أحاديث ان صحت فان لها شأنا ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرًا فالمقل خير مشير ضمه النادي
والمقل غرس له بالصدق اثمار

ثم يرجع فيقول :

هي الافهام قد صدئت وكلت ولم يظفر لها أحد بصقل
وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يفهم طول أعمالها

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهاؤوا في حندس تتصادم
 سالتوني فأعيتني اجابتكم من ادعى أنه دار فقد كذبا
 انما نحن في ضلال وتعليل فان كنت ذا يقين فهاته
 أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقى
 أنا اعمى فكيف اهدى الى المنة هج والناس كلهم عميان
 فهم الناس كالجهول وما يظا فر الا بالحسرة العلماء

* * *

وحسبنا هذا القدر من الشواهد

وقد قيل ان علة الملل هي عماء . وان هذه الهنة هي التي حملته على التزهّد
 وايتار العزلة . ورياضة النفس على الكفاف . وان آفته هذه هي مفتاح شخصيته .
 فلا سبيل الى فهم المعري على حقيقته الا اذا اردنا كل عمل او قول له الى هذه
 المصيبة التي اصابته في طفولته لغير ذنب جناه .

وغير مردود ولا منكور ان ذهاب البصر محنة . ولا سبيل الى الشك في ان
 المكفوف لا يسمعه الا ان يشعر بما حاق به من المكروه . وما حرم من المزية . والا
 ان يألم ويأسف ويتحسر ويتلهف وان اظهر الجلد وابدى التشدد . ولا يمكن
 ان نخلو خسارة هذه الجارحة النفيسة من اثر عميق في نفس المرء وتفكيره واتجاه
 عقله ونوع احساسه بالحياة والناس .

كل هذا مسلم لا خلاف عليه . فما يستوي ان تكون او لا تكون للانسان
 هذه الجارحة والا كان خلقها عبثا . وزائداً لاداعي له . ولكني لا ارى راي
 القائلين برد كل شيء الى فقدانها . ولا انها هي مفتاح شخصية المعري . فليس من
 الحتم ان يحدث ذهاب البصر هذا الاثر . وقد عمي بشار جنيينا ولم ير ضوء النهار
 وتحسر وتألم . ونقم وسخط . ولكنه لا تزهد ولا اعتزل . بل تزل الى المعترك .
 وخاض الغمار . وضرب في الزحمة وكان حيواناً كبيراً . وروى يترك الأديب
 الانجليزي المشهور في كتابه « الجليل والجميل » أنه يعرف عالماً أعمى كان أستاذاً

لعلم الضوء في الجامعة . وهو قد ولد مكفوفاً . وقرأت منذ شهور كتاباً باسمه « العالم تحت أناملي » لكاتب امريكي حديث اسمه « كارستن اونستاد » ذهب بصره وهو طالب في مدرسة عالية . أي بعد أن أمتع بنعمة البصر نحو عشرين عاماً . فالحساسة افدح . والحرمان أوجع . وقد ترجم في هذا الكتاب حياته . ووصف ما كان من أمره بعد هذه المحنة . وكيف غالبها فغلها . وهو لا يعتمد الا على العصا ولا يحتاج الى من يأخذ بيده ويقوده ولا يرضيه الا أن يعامله الناس كأن ليس بينه وبينهم فرق . فلا هو أعمى ولا هم بصراء دونه . وكيف كان يشارك الطلبة في ألعابهم ومغامراتهم . حتى الز حلقة على الثلج في الجبال .

وعندني أن ذهاب البصر لا يورث صاحبه ما عزوه في المعري اليه . الا اذا اجتمع أمران على الخصوص : حس مرهف دقيق في المكفوف . ومجتمع لا يزال يشعره انه مكفوف كأن يبدي العطف عليه . أو يعيره . أو يتعجب لما يكون منه مما يعد مستعصياً او مستكثراً على مثله . واحسب ان عامل المجتمع اقوى الاثنين فاذا تلقى الناس الكفيف على نحو طبيعي . وعاملوه كأنه مثاهم بلا فرق . وتزهوه عن العطف والتعير والتعجب . فان أثر العمى في نفسه على الرغم من دقة الشعور به ، يمكن أن يخف جداً لأن الجماعة تصبح عوناً له وتشجعه على مغالبة رزئه والتغلب على قيده . وتقيه بسلو كما نحوه من التهويل بمصابه على نفسه .

ومن المحقق على كل حال أن ذهاب البصر ليس هو الذي حمل المعري على اعتزال الناس ورفض الحياة . واثير الوحدة والعزوبة . وكراهة أكل اللحم وذبح الحيوان والطيور . ولو شاء المعري لتولى القضاء في المعرة أو حمص كما تولاه أبوه أبو محمد عبد الله . وعمه أبو بكر محمد . وجدته سليمان . وابن أخيه أبو اليسر ولو شاء لما حرم نفسه طيبات ما أحل الله . بل لو شاء أن ينهز مع الغواة بدلائهم ويسيم سرح الالهو مثلهم لفعل . فما حال العمى أو الصمم أو الكساح بين أحد وبين ما يشتهي من ذلك . فاذا قيل أنه كان حساساً جداً وانه يستنكف ويكره لنفسه أن يراه أحد خفيف الحلم أو على حال تزي به . وان شعوره بكرامته كان يأبى له أن يطالب فيمنع ويشتهي فيحرم . قلنا أن هذا ليس من العمى . بل من دقة احساسه المرهف وفرط شعوره بنفسه .

ودع هذا واسأل ماذا حرمه العمى ؟ انه شاعر أديب وعالم متفلسف .
وقد عرف له أهل زمانه ومن جاء بعدهم من الأجيال غزارة الفضل ووفرة العلم
وحدة الذكاء . وسمة الاحاطة باللغة . والحذق بالنحو . وجودة الشعر . والالام
بكل علم معروف في عصره . وكان تلاميذه يعدون بالمئين . ويزحمون داره .
ولما مات أنشد على قبره المرثي أربعة وثمانون شاعراً . فهو قد فاز في حياته
بالحظ الأجل من الشهرة والتوقير . ولا يزال الى يومنا هذا في المحل الأول
والأرفع بين شعراء العربية . أما فيما عدا ذلك مما هو من الحياة الخاصة الشخصية .
فما حرم شيئاً أو كانت الآلة تعوزه فيه كما يقول وإنما حرم هو نفسه وآثر
لنفسه العزوف وأبى عليها كل متعة . فالأمر مرجعه الى ارادته لا الى عماء .
واذا قلنا ارادته فقد قلنا ما ينزع به اليه مزاجه السوداوي الخاص وما
بني عليه من الطباع . وهذا عندي هو مفتاح شخصيته والذي أرد اليه ما كان
من سيرته . وقد جاءت عوامل أخرى فقوت استعداداه الخاص فقد نشأ في
بيت علم وفضل وتقوى . وكانت لأسرته مكانة عالية ومنزلة ملحوظة في بلده
الصغيرة . وحسبك من شعوره بكرامته وكرامة بيته في هذا البلد أنه وهو
عائد من بغداد بعث الى أهل المعرة بكتاب ينبهم فيه أنه اعترم أن يلزم داره
ويعتزل الناس . كما يفعل الحاكم أو القائد حين يقدم على بلدة فيدع كتابه أو
« منشوره » يسبقه اليها ببلاغ منه . وكان هو إلى ذلك عالماً ضليعاً وأديباً رفيعاً .
فاجتمعت له كرامتان : كرامة علمه وأدبه وفضله . وكرامة بيته وآله . وخلق
حساساً جداً حتى لكأنما يحس الدنيا بأعصاب عارية لا يسترها لحم ولا يقبها
جلد . فهي أبداً مكشوفة معرضة للمؤثرات مباشرة . ولهذا كان يحجل أن يرى
وهو بأكل مخافة أن يرى منه ما يعاب . ومثله يحرص على اجتناب ما يعرضه للمهانة
أو الزرابة أو السخرية . ومن هنا لجأته في تنقص نفسه وقوله إنه كلب لئيم
وإنه جاهل وناقص وإنه أعمى ضال كأنما يريد لفرط شعوره بذاته أن يسبق
الناس إلى ذمه . ولا بدع لهم ما يقولون فيه أو يميونونه به . ومثله ينزع الى
العدل والانصاف . لأن الانصاف سبيل النجاة والأمن لمن كان يفتن فطنته
الى مواطن ضعفه وقصوره ويحس بها احساسه . حتى لقد عرف الدين بأنه

إنصاف الناس . ولا عجب بعد ذلك أن يكون رقيق القلب رحيمه . وإن كانت رحمته مفرطة - حتى ليقشع بدهنه حين يقدمون له فروجاً أوصى له به الطبيب في مرضه . ويقول : « استضعفوك فوصفوك . فهلا وصفوا شبل الأسد ؟ » وقد ثقلت عليه محنة العمى وشقت جداً لأنها ظلم حاق به بغير ذنب . فظل نائراً على هذا الظلم كثورته على كل مظاهره الأخرى في الحياة . ولم تكن ملازمته داره واقتصاره على أكل البقول ونفوره من اللحم . إلا ضرباً من التحامل على النفس وتعذيبها لا يستغرب . فإن تعذيب النفس نوع من إثبات القوة فكأنه لما أنس من نفسه المجز عن أن يكون ذا بأس وصولة بين الناس تحول الى نفسه وحمل عليها وعالج رياضتها لينعم بالشعور بالقوة والاقترار . وكل امرئ ينزع بطبعه الى تعويض النقص الذي يعرفه أو يحسه ولو احساساً غامضاً . وتلك حقيقة لا تحتاج إلى بيان . وأحسب أن مما يجري هذا المجرى شدة تكلفه في اللزوميات وإلزامه نفسه فيها ما لم يلزم أحدًا ، وإكثاره من الغريب فيها وفي ثره . وتحريره الوحشي وغير المأنوس من الألفاظ . حتى كتاب « الفصول والغايات » جعله فصولاً غاياته أحرف مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة . وذلك كله لإثبات القدرة والرسوخ في العلم والاستبحار فيه . بل التفوق والتميز . وهنا موضع سؤال : لماذا أحب المعري أبا الطيب المتنبي كل هذا الحب ؟ وأعجب به وأكبره الى هذا الحد ؟ حتى تعرض للأذى من أجله ؟ وألف فيه كتاباً سماه « معجز أحمد ؟ » لقد كان يتمصب له تعصباً عجيباً وليس هو بالذي يخفى عليه أن هناك شعراء آخرين لا يقلون عنه شأنًا . وإن معاني المتنبي ليست كلها مما ابتكر وإن كثيراً منها يوجد في أشعار غيره . ولقد ألف في أبي تمام كتاباً سماه « ذكرى حبيب » فما هو سر هذا التعصب المفرط ؟

عندي أن السر هو شخصية المتنبي لاشاعريته . فقد كان المتنبي يمثل كل ما ينقص المعري . أو ما يحس المعري أنه ينقصه : الجرأة . والاقترار . والثقة بالنفس . والأطمئنان الى صواب ما يرى . والجزم في الأمور والفحولة التي تخرج المعنى مخرج المثل السائر وتجعل منه عملة . وعلى الخصوص اليقين الجازم . والثقة بالنفس . واثقفاء الحيرة والاقتناع بأن فهمه للناس وللحياة

صحيح لا يرتقي اليه الشك . وكل هذا ينقص المعري . فهو أبداً مضطرب
لا يستقر . وحائر لا يهتدي . لا يطمئن الى رأي . ولا يثق بصواب .
ولا يرضى عن نفسه . ولا يحول عينيه عما يدركه من قصورها وعيوبها .
يحس أن في وسعه أن يجتري ويلقي بنفسه في عباب الحياة ويفرق تياره
الى حيث يتطلع ويرجو أو يراه من حقه .

وأحسب أن كل من قدم يفكر ويتدبر على نحو ما يفعل المعري . لا بد
أن يضطرب اضطرابه . ويضل ضلاله . ويقع في مثل حيرته . فان هذه
أمر أشكال لاسبيل الى الاهتداء فيها الى ما يقنع العقل . وليس المعري
يبدع في هذا فان له لأمداً كثيراً في الشرق والغرب .

ولقد كنت منذ ايام أراجع رواية هملت لشكسبير الشاعر الانجليزي .
فاذا بي أقرأ لهملت وهو واقف مع حفارة القبور . وفي يده حجمة
« أتظن أن الاسكندر كان هذا منظره في الأرض ؟ »

فيقول رفيقه هوراشيو « تماماً »

فيقول هملت « وكانت له هذه الرائحة ؟ أف . »

هوراشيو « كذلك ياسيدي »

هملت « إلى أي درك نصير يا هوراشيو . . لماذا لا يتعقب الخيال رفات
الاسكندر النبيل حتى يجده يسد ثقب برميل ؟ . . مثلاً : مات الاسكندر .
دفن الاسكندر . عاد الاسكندر تراباً . والتراب من الأرض . ومن الأرض
نصنع الصلصال . ومن هذا الصلصال الذي تحول إليه ماذا يمنع أن يصنعوا
منه ما يسد برميل بيرة ؟ »

فأذكرني هذا قول أبي العلاء :

ثم أقفد أوصابي وأمراسي	إذا غدوت بطن الأرض مضطجما
بعد الهمود يوافيني بأغراضي	تيمموا بترابي علّ فملكم
يقضي الطهور فاني شاكر راضي	وان جمعت بحكم الله في خرف
	والبيت الأخير هو الشاهد
	وتأمل صيحة هملت بأوفيليا حبيبته

« إلى الدير .. لماذا تريد أن تكوني أما لآمين ؟ اني أنا نفسي رجل شريف إلى حد ما . ومع ذلك أستطيع أن أتهم نفسي بأشياء يبدو معها انه كان خيراً لو لم تلدني أمي . وأنا رجل متكبر جداً وبني من المغريات بالشر فوق ما يحيط به الفكر ويصوره الخيال أو يتسع لارتكابه الزمن . ماذا يصنع أمثالي وهم يزحفون بين الارض والسماء ؟ اننا جميعاً أوغاد أشرار . فلا تصدقي أحداً منا . »

ثم يقول لها « إذا كان لابد لك من الزواج فتزوجي مغفلاً . فان العقلاء يعرفون كيف تخليتهم وحوشاً شنيعة . إلى الدير . اذهبي بسرعة . »
وأما أكثر ما أبدا المعري وأعاد في هذه المعاني . وما أشبه رأى هملت في المرأة برأي شاعرنا الذي يعد النساء فوارس فتنة وأعلام غي .
وتأمل مناجاة هملت لنفسه « تكون أو لا تكون ؟ هذه هي المسألة . »
وهي مشهورة . يقول فيها أن الموت رقدة تنتهي بها آلام القلب وجراح الجسم وأوجاعه كما يقول المعري « انما الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد » ولكن الموت قد تتخلله الأحلام . فأني أحلام نراها ياتري إذا سلبنا الحياة . كما يتساءل المعري « كيف لي بمخبر . يمتام نقائس ما أحذر عليه . يعلمني بعد الموت كيف أكون ؟ » وكما يقول :
وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتان براء للنفوس واعلال
إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور في التراب وأحوال
وكما يسأل

« سبحانك مؤبد الآباد . هل للعنية نسب الى الرقاد ؟ »
ولا يزال هملت يلهج بمحنة الحياة . وسهام القضاء . وسيط الزمن وظلم الظالمين . وصلف المتكبر . وبطء تحقيق العدل . ووقاحة ذوي الأمر وبنيهم واحناء الظهر تحت أثقال الحياة . واحتمال ذلك الشقاء فزعا مما بعد الحياة ومن بعدها مجاهل لم يعد منها مسافر . وهذا خوف يفل العزم وبغري المرء بالرضى بآلام يعرفها واتقاء ما يجبل — وذلك كله ما كان يلهج به المعري .

ويتكرر مثل هذه الآراء في الناس والحياة ومصائر الخلق في روايات أخرى مثل تيمون الأثيني وماكبث والملك لير وغيرها .
 وتدع شكسبير وما يجريه على السنة أبطاله . وننتقل الى جوتيه الشاعر الألماني وروايته فوست على الخصوص . وهي كما وصفها الشاعر « جولة بين الأرض والسما » وفوست رمز للإنسان الذي ينشد المعرفة ويبني أن يحيط علماً بسر الحياة وقد وجد أن المعرفة الاستفادة من بطون الكتب التي كان يعكف عليها لا تقيدته يقيناً ولا تكشف له عن سر ولا تبيحه مجهولاً أو مضيئاً . وقد بلغ من يأسه أن باع الشيطان نفسه . وعاهده أن يسلمه روحه اذا وسع إبليس أن يفيده الدعة والاطمئنان واليقين فبدأ معاً رحلة طويلة لاداعي لوصف مراحلها فان القصة مغروفة . وقد ذاق في رحلته مرارة الندم وضاق به القضاء الرحيب فالتمس ما وراء ذلك لعل الخيال يغني حيث لم تغن الحقيقة . وقد أعياه على الرغم من مقدرة الخيال أن ينجي الأستار المسدلة . ولم يجده رفع طرفه الى السماء ومحاولته أن يطوف في الأبد ويجوبه . ولم يقنعه أن يتقبل الحياة كما تحيي . وان كانت لا ترضيه . وأشقاه عقله الذي طغى على نفسه ولم يستفد الا الحيرة اللازمة وادراكه مبلغ جهله . ولم يصل الى شيء من ثالوث افلاطون — ثالوث الحق والجمال والخير — واستدان بالشيطان على ضمفه البشري فأب بالندامة والخسار .

وليست هي إلا قصة أبي العلاء في حيرته ونشده الحقيقة واليقين في كل ما يستجليه ويفكر فيه . بل قصة كل مفكر من بني الانسان في هذا العالم . وقد ترجمت منذ ربع قرن وزيادة قصة روسية اسمها « سائين » وقد سميتها ابن الطبيعة . وهي لها ترب شيق . ومن أشخاصها من يدعى يورى يشهد جنازة منتحر فيستهل أنه لم يعد موجوداً . وانه كان شيئاً فأصبح لا شيء . ذهب كالتراب المكنوس ولم تبق منه إلا القبة على النعش . ويفتح الانجيل فيقرأ فيه أن من يهبط الى الأرض لا يصعد أبداً فيقول :

« ما أصدق هذا وأحكمه . حلم فظيع . هذا أنا أعيش ويلج بي الظلم إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسمعي حتى أن أحتج عليه » .

ويناجي القوة الخفية فيقول :

«ماذا جنى الانسان عليك حتى تسخري منه هذا السخر؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن عينه؟ لماذا تجميليني إذا آمنت بك لا أو من بإيماني؟ (كأبي العلاء تماماً) وإذا أجبتني فكيف أعرف أنت الهية أم نفسي؟ وإذا كنت على حق في رغبتني في الحياة وطلبي لها فلماذا تسليبي هذا الحق الذي منحتني إياه؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا نحملها من أجل حبنا لك . ولكننا لانعرف أيها أعظم قيمة : الشجرة أم الانسان . ان الشجرة دائمة الأمل . إذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وأن تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة . أما الانسان فيموت ويزول يرقد فلا ينهض مرة أخرى . ولو أني كنت على يقين من اني سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين . لرضيت أن أنتظر في صبر كل هذه القرون في الظلام . »

وهذه معان تقرأها كلها في المعري ثراً وشعرا فقد مزق قلبه بها طول حياته .

ومما يستحق الذكر أن يطل هذه الرواية « سائين » بيدي رأياً في يورى هذا الذي يعذب نفسه بالتساؤل الذي لا يجدى . فكأنه يديه في المعري وذلك حيث يقول :

« ان الانسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه جزء منها وقد يسخط ولكن مرجع السخط الى نفسه . فهو اما لا يستطيع أو لا يجزؤ أن يأخذ من خيرات الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون . وهناك آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق في الطيران إذ يطلق له والجسم والروح يكونان كلا متجاوبا لا يزعه الا دنو الموت الرهيب . ولكننا نحن نقضي على هذا التلاؤم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية . وصرنا نحس العار والجل منها ونخفيها في صور وضيمة والضماف منا لا يفطنون لهذا بل يقضون حياتهم في الاغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فأولئك الذين تقدم بهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذاً . وان الجسم ينشد السرور واللذة . وانه يتعذب

من جراء عجزه وقصوره . فهو لاء . وأمثالهم حياتهم صراع دائم . وشك مستمر
يتعلقون بكل ما يقدر أن يعينهم وبفضي بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد .
ولا يزالون كذلك حتى يعودوا وهم يخافون أن يعيشوا وبحسوا .
هذه حال المعري وصفها أديب روسي على لسان شخص متخيل أصدق
وصف . أراد أن يخلق فوق الحياة فعجز . لأن ذلك مستحيل لا يستطيعه
إنسان . وتهيب الحياة ففر من ميدانها . وخاف نفسه فألجمها وألزمها القيد
فانتقمته منه وتأثرت لنفسها القوى التي حبسها وسد عليها كل فج . فتعذب وراح
يتساءل لم ولماذا ؟ ويبحث عن الحق والخير والعدل . ويحاول أن ينفذ ببصيرته
من أستار غيب الله المسدلة وهي كثيفة فما اهتدى إلى شيء يستريح إليه
العقل وتطمئن به النفس . وصار كما يقول بطل هذه القصة يخاف حتى أن
يعيش ويحس . . لأنه يتألم . ولأنه يجهل المصير .

وبعد فإن مجال الكلام ذو سعة . ولكنني لست الوحيد الذي قال أو يقول
في أبي الغلاء . وليس من حق ولا في مقدوري أن أحاول الإحاطة بكل
جانب وأن ألم بكل ناحية . فحسبي ما قلت على القصور فيه والعجز . واني
لشاكر لكم صبركم وسعة صدركم . ومعتذر إليكم من التقصير . والسلام عليكم .

ابراهيم عبد القادر المازني

سر الخلود في شعر أبي العلاء

أيها الحفل الكريم:

حياكم الله بالحسنى . أرجو أن تسمحوا لي قبل الافاضة في الموضوع أن احيي حاضرة بني حمدان ذات التاريخ الالامع ، والمز الراسخ الشامخ ، أيكة أبي الطيب التي اكثرت فيها التفريد وأطال فيها التشيد ، وروضة الحارث بن سعيد التي صدح فيها بالمفاخر وغنى بالجليل من المآثر . وان احيي البهاليل من غطارقها الصيد الذي وصلوا طارف مجدهم بالتليد .

أما بعد فاني كنت شديد الرغبة في أن اتحدث اليكم عن « أبي العلاء في بغداد » ، لاني احب أبا العلاء واحب بغداد واحب أن اجمع بينها ، ولكن سبق لي أن تحدثت بهذا الحديث في عاصمة فيصل الثاني ايده الله وحاطه برعايته وقديماً قيل : المعاد معاد وعلى هذا وقع الاختيار على « سر الخلود في شعر أبي العلاء » . ودكنت اؤثر أن اتبسط في هذا الموضوع واشبعه تحقيقاً وتمحيصاً ولكن حديثاً لايزيد عمره على نصف الساعة لايمكن أن يتسع للتحقيق والتمحيص واستخلاص النتائج من المقدمات ولهذا اجدني مضطراً ان اقتصر على شيء وأترك اشياء فأقول :

مضى على الناس زهاء الف عام وهم يتناقلون شعر أبي العلاء ويتدارسونه ويحرصون على اقتنائه وهم في ذلك فريقان : فريق يرفعه الى اسمى مراتب التظيم والتكريم ، مؤمن بما يدعو اليه مكبراً لكل ما يثني عليه ، وفريق آخر يمتقد أن هذا الشعر خليط من حق وباطل وشك ويقين وأن الكثير منه يدعو الى الانحراف عن الصراط السوي صراط الله العزيز الحميد . وكلا الفريقين يجمع على ان هذا الشعر وليد المبقرية الفذة وتاج العقيلة الجبارة وكلاهما حريص على اقتنائه واستظهاره وجعله موضوعاً للنقاش والاستشهاد

في مجالس المسامرة والمذاكرة وفي المساجلات والمطارحات . فما هو السر ياترى في كل هذه العناية والرعاية مع تباين الانظار فيه وتضارب الأفكار حوله ؟ ... يمكن الجواب على هذا السؤال بكلمة واحدة فيقال : ان السر في ذلك « جودته » تمشياً مع قانون بقاء الأسلمح . ولله اخو خزاعة حيث يقول :

يموت رديء الشعر من قبل اهله وجيده يبق وإن مات قائله

ولكن هذا الجواب لا يقنع السائل وله أن يسأل ماسر الجودة في الشعر ؟ أفي الفاظه ؟ أم في معانيه ؟ أم في اغراضه ؟ أم في اوزانه وقوافيه ؟ ... والجواب على هذا أن شعر أبي العلاء يتحلّى بكل هذه المزايا ، فهو جيد في الفاظه جيد في معانيه جيد في اغراضه . فان سمة اطلاع أبي العلاء على اسرار العربية مكنته من ترصيع شعره بالبارع من الألفاظ الناصع منها . وانا زعيم بأنه لو جمع جامع ما جاء في شعر أبي العلاء من فرائد الألفاظ ونوابغ الكلم لاجتمع له معجم طريف في بابه ينفي الناظر فيه عن الكثير من معاجم اللغة . أما المعاني التي طرقتها أبو العلاء فهي غاية في الدقة والطرافة والابداع والاختراع مع الكثرة في التنوع والتفرع والتوليد والتجديد . وأما الأغراض فقد نهج فيها منهجاً اختطه لنفسه وابتدعه ابتداءً خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده .

وهنا يمكن أن نقسم شعر شاعرنا الى قسمين : القسم الأول شعره في الشطر الأول من حياته والثاني شعره في الشطر الثاني منها .

أما القسم الأول فهو فيه متبع أكثر منه مبتدعاً فقد رمى فيه الى الأغراض التي كان يرمي اليها شعراء زمانه ومن سبقهم على انه تنكب بعض الأغراض التي تصم الشعر وتحط من كرامة الشاعر ، مثل الجورن والهجاء وغزل المذكر والأعائيت التي كان يتعاطاها الخلفاء من الشعراء ، على أن الناقد البصير ليجد في شعره الأول نفحة تنم عن اتجاهه الفلسفي

فإننا نجد عندنا يطلق لنفسه السير على سجيته تندفع به في مسالك عميقة من الفلسفة قل أن سمعنا بمثلاً من شعراء زمانه . خذ مثلاً على ذلك ما جاء في صدر مراثيته لأبيه وصدر مراثيته لصديقه الفقيه وهما من أوالي شعره في الأولى يقول :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي	يراد بنا والعلم لله ذي المن
إذا غيب المرء استسر حديثه	ولم تخبر الأفكار عنه بما يعني
طلبت يقيناً من جبينه عنهم	ولن تخبريني يا جبين سوى الظن
فان تعذبني لا أزال مسائلاً	فاني لم اعط الصحيح فاستغني
وإن لم يكن للفضل ثم مزية	على النقص فالويل الطويل من العن

وفي الثانية يقول :

صاح هذي قبورنا تملأ الر	حب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما اظن اديم الأ	رض إلا من هذه الأجساد
خلق الناس للبقاء فضلت	امة يحسبونهم للفساد
انما ينقلون من دار اعما	ل الى دار شقوة أو رشاد
ضجعة الموت رقدة يستريح	الجسم فيها والعيش مثل السهاد

وهذا يترجم عن نفس أقلقها الشك في أمور واطمأنت الى اليقين في أمور ، فهي في الحالة الأولى تلج في التسأل وفي الحالة الثانية تطمئن الى برد اليقين . أما القسم الثاني من شعر شاعرنا فقد سلك فيه مسلكاً خاصاً ابتدعه لنفسه ابتداءً تنكب فيه جميع الافتراض التي كان ينظم فيها المتقدمون من الشعراء والمتأخرون واتجه الى درس أمور لا عهد للشعراء بدراساتها واتخذ في ذلك من عقله اماماً مرشداً ومناراً هادياً يعرض عليه جميع ما يعن له من شؤون الملكوت في السموات والأرض فيقر ما يقره وينفي ما منفيه ويقف موقف الشك فيما يعجز العقل عن البت فيه :

يرتجي الناس أن يقوم إمام	ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل	مشيراً في صبحه والمساء

فاذا ما أطعمته جلب الرحمة عند المسير والارساء

نهاني عقلي عن أمور كثيرة وطبي اليها بالفريزة جاذب

والعقل يسمى لنفسي في مصالحها فما لطبع الى الآفات جذاب

تركت مصباح عقل ما هتديت به والله أعطاك من نور الحجى قبسا

فشاور العقل واترك غيره هدرًا فالعقل غير مشير ضمه النادي

وصرف جل جهوده في دراسة أحوال الانسان لخال غرائزه وطباعه
كما حلل أخلاقه وعاداته ، وأنعم النظر طويلاً في أديانه ومعتقداته كما أنعم النظر
في حياته ومماته وأولية أمره وآخرفته . وإذا كان لا بد لنا من ضرب الأمثلة
في هذا الباب فهاك طرفاً منها :

انتهت به دراساته للغرائز البشرية الى أن هذا المخلوق المسمى بالانسان
مطبوع على الشر مجبول على العدوان وإذا صدر منه الخير فأنما يكون ذلك لعله :

شر اشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا
حملت بيضاً وأغربة وأتت بالقوم أجناسا
كلهم ضمت جوانحه مارداً في الصدر خناسا

أتعبتم الساج في لجه ورعتم في الجودات الجناح
هذا وأتم غرض للردى فكيف لو خلدتم يا قباح

ما أنتم بالنبات الحميد دولا بالنخيل ولا بالعُشُر
ولكن قتاد عديم الجناة كثير الاذاة أبى غير شر

ما فيهم بر ولا ناسك إلا الى نفع له يجذب
أفضل من أفضالهم صخرة لاتظم الناس ولا تكذب

أما المعتقدات فقد طاف بها طواف خير بصير فأنتهى به المطاف الى
الاعتقاد بوجود خالق حكيم متصف بجميع صفات الكمال منزّه عن جميع
صفات النقص :

اثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر نفاة

عجبي للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد
اخاف من الله العقوبة آجلاً وازعم أن الأمر في يد واحد

الله حق وابن آدم جاهل من شأنه التفريط والتكذيب
واللب حاول أن يهذب اهله فاذا البرية مالها تهذيب
أما النبوات واليوم الآخر فانه كان يدور فيها في ليل من الشك
فتارة يقف على مطمئن من الاثبات وتارة يندفع الى شفا الانكار فيينا
نسمعه يقول :

دعاكم الى خير الامور محمد فليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تمجيد من خلق الضحى وشبه الدجى من طالعات وآفل
فصلى عليه الله ماذر شارق وما فت مسكاً ذكره في المحافل

ويقول :

أحسن بهذا الشرع من ملة يثبت لا ينسخ فيما نسخ

ويقول :

وجدنا اتباع الشرع حزماً لذي النهى ومن جرب الأيام لم ينكر النسخا
ومن يعف عن ذنب ويسخ بنائل نفالقنا اعنى وراحته اسخى

ويقول :

وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر خلحق ولا بعث لأموات
ولا تطيعن قوماً ما دياتهم إلا احتيال على أخذ الاتاوات

ويقول :

ما اقدر الله أن تدعى بريته من تربهم فيعودوا كالذي كانوا
قديمكن البعث ان نادى المليك به وليس منا لدفع الشر امكان

ويقول :

وان طال الرقاد من البرايا فان الراقين لهم مهب
فينا هو كذلك اذ نسمعه يقول : إن الديانات الفت بيننا احنا
وعلمتنا افانين المداوات

ويقول :

إن يصحب الروح عقلى بعد مظنها للموت عني فأجدر أن ترى عجباً
وإن مضت في الهواء الطلق هالكة هلاك جسمي في تربي فوا شجبا

ويقول :

واوصال جسم للتراب مآلها ولم يدرك دار اين تذهب روحها
ويقول :

قلعت ظفري تارات وما جسدي الا كذاك متى ما فارق الروحا
ويقول :

ايرجوت ان اعود اليهم لا ترجوا فاني لا اعود
ولجسمي الى التراب هبوط ولروحي الى الهواء صعود

ويقول :

وروح الفتى اشبهت طائراً اطير فما عاد لما نقر

ويقول :

وجبر وكسر له في الزمان وبكسر يوماً فلا ينجبر

ويقول :

سنؤوب في عقبى الحياة مساكننا لاعلم لي بالامر بعد ما بها

ويقول :

لو جاء من اهل البلى مخبر سألت عن قوم وأرخت
هل فاز بالجنة عمالها وهل ثوى في النار نوبخت

ويقول :

لا حس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس اذا بانث عن الجسد

ويقول :

أرى قبساً في الجسم يطفئه الردى ومبا دمت حياً فهو ذا يتلهب
وفي هذا ما فيه من الحيرة الحائرة التي تهجد العقل وتكده ثم تتركه
يدور في متاهات المجهولات وآخر ما قرأت له في هذا الباب قوله :
اقم خمسي وصوم الدهر ألفه وأدمن الذكر ابكاراً بأصال
عيدين افطر في عامي اذا حضرا عيد الأضحى يقفو عيد شوال
واعبد الله لا ارجو مثوبته لكن عبادة اكرام واجلال
اصون ديني عن جعل اؤمله اذا تعبد اقوام بأجمال
على انه كبير الثقة بأن الدين بمجموعه إنما هو وسيلة تهذيب النفوس
وصقلها وتصفية الأرواح من ادراك الشرور والسمو بالاخلاق الى اوج
الكمال :

صم ثم صلّ وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعا فلست بناسك
جهل الديانة من اذا عرضت له اطاعه لم يلف بالتماسك

ما الخير سوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غلٍ ومن حسدٍ

توهمت يا مغرور انك دين عليّ عين الله مالك دين
تسير الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جار بالئس وخدين

لعل اناساً في المحاريب خوفوا بأي كناس في المشارب اطربوا
اذا رام كيداً في الصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله اقرب

والدين انصافك الاقوام كلهم واي دين لأبي الحق إن وجبا
ونظر في الحياة فرأي انها صلة بين روح وجسد وانها عبء ثقيل وانها

مجموعة من التكاليف المضنية وان التخلّص منها ربح وفوز مبين :
وما العيش الا علة برؤّها الردى نخل سبيلي انصرف لطياتي
ويقول :

كأس المنية اولى بي واروح لي من أن اكابد اثراء واحواجا
ويقول :

العيش افقر منا كل ذات غنى والموت اغنى بحق كل محتاج
اذا حياة علينا للأذى فتحت باباً من الشر لاقاه بارتاج
ويقول :

رب روح كطائر القفص المسجون ن ترجو بموتها التسريحا
ويقول :

مق الق من بعد المنية اسرتي اخبرم أني خلصت من الأسر
ويقول :

صمت حياتي الى مماتي لعل يوم الحمام عيد
ويقول :

ان السيوف تراح في اغمارها وتظل في تعب اذا لم تقمدا
ويقول :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد
ويقول :

تعب كلها الحياة فما اء جب إلا من راغب في ازدياد
ويقول :

إن يقرب الموت مني فلست اكره قربه
من يلقيه لا يراقب خطباً ولا يخش كربه
ويقول :

ايا جسد المرء ماذا دهاك وقد كنت من عنصر طيب
تصير طهوراً اذا ما رجعت الى الاصل كالطير الصيب

ويقول :

إذا افترقت اجزاؤنا حط ثقلنا ونحمل عباً حين يلتئم الشعب
ونظر في موقف الانسان تجاه سائر انواع الحيوان فحكم على الانسان
بأنه معتدٍ أئيم لا يشبعه الكثير منها كثر ولا يقف في وجه مطامعه واقف
مهما قوئي يفترس الوداع من الحيوان ويمتدي على دره ويضنه وسائر متاجه
واعلن أن عمله هذا ظلم مشين واعلن أكثر من هذا فخرض الغراب على
مقابلة الاعتداء بالاعتداء قائلاً :

جريا غراب وأفسد لا ترى احداً الا مسيئاً واي الخلق لم يجبر
نخذ من الزرع ما يكفيك عن عرضٍ وحاول الرزق في الأعلى من الشجر
لو كنت حارس اثمار لهم ينعت ثم اقتربت لما اخلك من حجر
بل اعلن المطف والرقه على الحشرات المؤذية فهذا هو يقول :
تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
لا فرق بين الأسك الجون تطلقه وجون كندة امسى يعقد التاجا

ولسنا نريد استقصاء آراء ابي العلاء في الانسان وما يحيط به من
الموارض وانما نريد أن نشير الى أنه نهج في شعره نهجاً مبتكراً واتخذ
له موضوعات حية باقية بخفاء شعره جامعا بين الابتكار في الموضوع وبين
العمق في التفكير والصراحة في التعبير والبراعة في التصوير وان شعره
يجمع بين هذه العناصر الحية لجدير بالبقاء ما بقيت اغراضه وموضوعاته حية
ماثلة وما بقي الفن الذي ابرزه حياً ماثلاً ، وليس غرضي أن اقصر الخلود
على شعر شاعرنا الفيلسوف وانما اريد أن اقول ان كل شعر يجمع بين
العناصر التي جمعها شعر ابي العلاء من حيوية الموضوع وعمق التفكير
وصراحة التعبير وبراعة التصوير فانه خلّيق بالعيش الطويل .

سلك ابو العلاء هذا الوادي من الشعر وترك الشعراء في اوديتهم
يهيمون بحبرون قصائد الثناء استدراراً لا كف اهل الثراء ويطيلون الهجاء
لمن يمنهم المطاء ويرثون من لا يعرفون ويتهاقون في البعث والمجون تركهم

في ذلك وانصرف الى درس احوال الانسان وما يحيط به من خير وشر فأخذ يقرر ويصور ويخترع ويبدع ، فمات الكثير من شعر اولئك الشعراء المنظوي على الثناء الزائف والهجاء الباطل والرثاء الكاذب بموت اولئك المدوحين والمهجوين ، وبقي شعر شاعرنا حياً يطاول ويصاول ويجاهد ويمجالد ، فان رأينا بعض شعر المديح والهجاء والرثاء والمجون يعيش فاعلمنا ذلك لما يحمل معه من نادر الصفات الفنية وطريف المعاني الأدييه أو لما يتخلله من الموضوعات الخالدة الباقية فاني ازعم أن قصيدة المتنبي التي هجا بها ابن كيخلغ :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت اني اسلم
لم تتداولها الا لسن إلا لما انظرت عليه من بارع الحكم ذات الموضوع
الحى الباقي وما عليك إلا أن تنظر في قصيدة ابي الملاء نفسه التي مطلعها :
غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي
فانك تجدد جبهة المتأدين يحفظون صدرها ولا يعرفون من سائرها
إلا الزر اليسير وما ذاك إلا لأن صدرها حيوي الموضوع خالد الاثر
على الزمن واما باقيا فانه كسائر شعر الرثاء يزيد عليه أو يساويه .
واني لا ازعم أن الكثير من شعر أبي الملاء لم تنكشف مخبات معانيه
لمعاصريه لبعدهما بين عقليته وعقليتهم وفرق ما بين نظراته ونظرتهم خذ مثلاً
على ذلك قوله في ساسة زمانه :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
فان كلمته هذه مع صراحتها لم يتوضح معناها جلياً الا في هذه المصور
التأخرة عندما ذر قرن الديمقراطية في الغرب ثم في الشرق مع أن
رجال النهضة الاسلامية الاول كانوا يدركونها ويعملون بقتضاها ولكن
تتابع القرون وتتابع الكوارث طمست معالمها حيناً من الدهر . وسيتبقى
كثير من شعر أبي الملاء كامن المعاني الى أن تفسره اعمال الاجيال المقبلة
واحوالها لأن الرجل كان ينظر الى الحقائق بعجبر متقن الصنع فيرى

الكثير مما يخفى على غيره ولا يظن ظاناً أننا عندما نكبر في أبي العلاء عقله الجبار وعبقريته الفذة ندعو الى اعتناق مذاهبه كلها لاننا اذا اكبرنا فيه اكباره للعقل وشغفه بالخير ودعوته الى الحرية على اختلاف ضروبها والعدالة والمساواة بأدق مقاييسها والى التحلي بكل خلق كريم والتخلي عن كل عمل رذيل . واذا اكبرنا فيه اتساع معارفه في علوم الكون والشرائع وفنون الآداب فاننا لا ندعو الى اعتناق مذاهبه في الحياة المتكشفة الجافة وهجر جميع متع الحياة البريئة والدعوة الى الزهد في زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق والتبرم بالحياة واستئصال اعنائها فان الأحوال التي اكتنفت حياته جعلته جزوعاً كثير الضجر عديم الامل رزوي المنى وهذه كلها من خوصصات نفسه لا يجمل بأبناء هذا العصر ولا سيما الناشئة منهم أن ينحدروا معه ويتخذوا منه قدوة فيها فان الله جل وعلا خلق لهم مافي الأرض جميعاً ليتمتعوا بالحلال الطيب وينعموا بالعيش الرافه الهنيء . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ..

طه الراوى

الفيلسوف

ملعب الدهر لو ملكنا هدايا بلغنا من الحياة مُنا
 سبقتنا إليك احنحة الشوق وشقت لنا سبيل خطانا
 وتلقيننا بسمه إشفاق وطوّقتنا رضى وحنانا
 ودرجنا مع الشروق نغنيك ونسقي سمع الدُّنى ألحانا
 وحنين المجهول ، أخيلة تُثبت من كل صخرة ريحانا
 أي زاد سوى الظنون حملنا ؟ وتركنا الى هواها العنانا
 كلما اوغلت ركايبنا ضاق على زحمة الدروب مدانا
 واحتوانا من كل صوب ضباب يرجع الطرف خاشعاً حرانا
 أنريد الوجودَ منهتك السّتر يربنا اسراره عريانا
 ويفض القدم عن قلبه السمح ويجريه للمطاش دنانا
 لو بلغنا ما نشتهي لرأينا الله في نشوة الشعور عيانا
 نحن نسج الثرى فما لأمانينا على كل كوكب تتفانى
 تلك اقدامنا تمثر بالاء شباب حيناً وبالخصى احياناً
 وظلال الغروب ، دون مدى الطرف ، الى رهبة اللقاتداني
 نشطت قبلنا مواكب شتى وزامت خضية خذلانا
 وبقايا اشباحها من رؤى الموموم اوهي تماسكاً واقترانا
 تغمز الهاجس الرهيف فما يبدل صدى منها ولا بهتاناً
 وخفي الوجود ما انفك لا يذ بفض قلباً ولا يرف لساناً
 طلبته عين انطبال ولما لهته تكسرت أجفانا

ملعب الدهر إن رجح حنين من اقاصيك اوهف الآذانا
 واستغفر الاجيال من حجرة الف ييب فهت تمزق الاكفانا

وتهادت ثقل موكب فكر يسحب الشهب خلفه اردانا
 قام عنه ابو العلاء ، وقام الموت مستنزف الالباء جيانا
 قد طواه الزمان حتى اذا الخلد اجتباه أطل بطوي الزمانا
 ذاك تجواله كأف انطلاق الروح فيه لم يستطب ميدانا
 بين شك مروع ويقين مطمئن ما يأتلي حيرانا
 وهو في حالتيه قيثارة زهراء تروي نشيدها الفتانا
 وقف الشرق بعدلاني لتذكا رصدها مرشحاً نشوانا

يا أبا الحكمة السنية هل نلت على سدة الخلود أمانا
 كيف ألفت عالماً لم يفتح مرود النور جفنه الوستانا ؟
 هل محاسبة الكآبة عن فيك واردي في صدرك الاحزاننا
 وهدي خاطراً ، وزان لساناً وسبي مقلة ، وارضى جناننا
 كم تهاوت من دونه روحك الحرى وسالت جراحها الحاننا !
 عالم الوم نحن صفنا رؤاه واردناه ان يكون فكاننا !
 لست تستطيع ان تكون إلاها فاذا اسطمت فلتكن إنسانا

لمن الارض إن سلاها بنوها وتناسوا سخاءها الهتاننا
 وهبتنا من قلبها خفقة القلب وشدت بساعديها قواننا
 واباحت لنا جناها واعطت فوق ما افق حلمنا اعطاننا
 فهي مرآتنا ، ومرآة مسرانا ومرآة سخطنا ورضاننا
 ما بكينا نغارها إنما العجز على صرخة الحنين ، بكانا
 اي قلب حملته بين جنبيك ووالاك طيماً اسواننا
 طالته الحياة مشبوبة الانفاس تذكي دماءه اشجاننا
 مر من وهجها الملح فما هد هد شوقاً ولا شقى حرماننا
 كنت في حبك المجرد لا تحبس عن كل معنف احساننا

أمنَ الحبَّ انْ تدار عليك الكأسُ ملائى وتثني ظمنا
 ما العزاء الذي نَحرتَ له العـمـرَ وقدمتهُ له قربانا ؟
 أنصبك موردٌ من وراء الغيبِ تشفى نعيمه جذلانا
 كنتَ تدري انْ الهناءةَ طيرٌ لاحَ في دوحةِ الحياة وبانا
 يالزهو الصبا نظرتُ بمينيه الى العيشِ مورقاً ريانا
 ما عرفتُ ارتعاشة الكفِّ بالكأسِ اذا كانتِ المني ندمانا
 هيكلِي الرحب كل اهواء نفسي في ذراه اقمها أوثانا
 سوف امضي كما مضيتَ ونَدري في حمى الروح اينَا اشقانا

يا أبا الحكمة السنية هلْ منك التفاتٌ الى صدى نجوانا
 سلسلتها على الخناجرِ ذكرا كَ وقرتْ في كلِّ سمعِ بيانا
 منك اشراقها ، ولولا الجذور الخضرُ ماهزتِ الصبا اغصانا
 اتخافُ الاصفاء انْ يجرَحَ الهداةُ او انْ يصوغها اشجانا
 قدْ يحنُّ الطريدُ للربيعِ مها سامهُ الربيعُ شقوةً وهوانا
 هذه الدارُ كم سئمتُ بها الميـشَ وكَم ذقت مرّها ألوانا
 سرحتُ في ضلوعها شيعُ النسـلِ فنزتُ ضلوعها ادرانا
 وتمالتُ صيحاتك الحمرُ تهدي لو أصابتُ اصداؤها آذانا
 وتلقيتها اسىً قتلقتُ اسداً في قيوده غضباناً
 فتواريت عنْ عيونِ مراضٍ خلتَ الحاظها عليك سنانا
 وطويتَ الايامَ في عزلة الرهبانِ لم تحتسبْ لها حسابنا
 قدْ تجفُّ الحياةُ ، إلا وريداً ويضيقُ الوجودُ الا مكانا

كيف تفتُر عنْ رضى وليالـيك اقامتْ عليك حرباً عوانا
 وعجافُ الرجال ارفعُ قدرا منك في غيهم وابنه شاناً ؟
 طالما كنتَ مبصراً في دياجـيك وكانوا في نورهم عيماناً

اسرجوا مهوة المذلة واتقصوا على مشخن الجراح طمانا
 واستباحوا مال الضيف عتوا واهانوا حرماته طفيانا
 وأزاحوا عن المنابر احرارا فهزئت اعوادها عبدانا
 وتمشوا لدى الاعاجم حملان وسابوا في قومهم ذؤبانا
 هذه الزمرة التي في حماها وقف الملك مطرقا خزينا
 ما ظن العصور مرت عليها فتلقت اما تراها الآنا !!!

يا فؤادا من المراحم نبضات ومن جامد السنا شريانا
 مرجل الحقد لم تلامسه كف الحب الا ادمى لظاه البنانا
 لم يزل شرب النجيع سكارى يتبارون حوله عدوانا
 طرفوا مقلة السماء وأدموا كبد الارض عثيرا ودخانا
 ما ألانت قلوبهم ادمع الایـــــتام او هزتم انين الحزاني
 فضحاياهم تمور على الرمل المدمى وتمتلي صلبانا
 كلهم في وليمة البني يخشى أن يرى جوف غيره ملانا
 والحجى بينهم شراع على الدماء لا يرتجي له شطانا
 قل لتلك الحمام البيض طيري فالخطايا تدفقت طوفانا !!!

أناجيك يا نجي الداراي وأغنيك أغنياي الحسانا
 إن آفاقك البعيدة لا تطلق للخاطر الحبس عنانا
 حسبك المجد ان ترى كل يوم لاغانيك عنده مهرجانا !!

عمر ابو ريشة



الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء

وأثره في بيئته وشعره

عاش شاعرنا الفيلسوف في فترات الانهيار السياسي — في تلك الفترات السود التي تصدعت فيها السيادة العربية على مذهب الشهوات التي كانت تضطرم في صدور المتغلبين من الديلم ومن إليهم من الأعاجم المتسلطين . نعم ، عاش شاعرنا في نهاية هذه الفترات والبلاد العربية تمصف بها الزعازع وتهزها الاغصير . فكان الحكم في بغداد غيره في مصر ، وفي بلاد الشام غيره في القطرين المتناذين ، وهو في أقصى المغرب ، في الاندلس ، وفي شمال افريقية غيره في الاقطار العربية الثلاثة — كل شيء قد تمرّض للميوعة والتفكك ، ففسدت الحياة السياسية ، وفسدت الحياة الاجتماعية حتى أصبحت الدنيا العربية وكأنها على بركان . . دول مختلفات المنازع والاهداف قد انتشرت في الرقعة الاسلامية الكبرى ، نزعات فردية في إهاب من المطامع الصارخة تجيش في كل صدر ، جمعيات سرية تستهدف غايات مربية ، مذاهب جديدة هدّامة ترمي إلى نزعات سياسية خطيرة — كل شيء قد فسد واضطرب ، وأبو العلاء ينظر إلى هذه التيارات الجارفة نظرة الفيلسوف الانساني المتألم وقد أشفق — وهو الحكيم البعيد النظر — ان تنهار هذه الامبراطورية الكبرى في الفترة التي وصلت فيها الحياة العقلية إلى الذروة ، وأن يكون لبيئته النصيب الأوفر من مأساة هذا الانهيار . .

ولعل من أدق الأمور التي تستدعي انتباه الباحثين أن تجري أحداث الحياة منذ فجر التاريخ الاسلامي في الاقطار العربية الثلاثة — مصر والشام والعراق — على غرار واحد من الانشاء أو التهديم ، من النظام أو الفوضى فما يجري اليوم مثلاً من تجاوب بليغ للنهوض والتحرر والتطور والتاسك كان يجري بالامس ، في تلك الفترة ، وفي نفس هذه الاقطار بالصد ،

من تنافس وتناحر وتنازع وتحاذل وثورات وفتن أدت إلى انهيار سحيق ذاق العربُ مرارته طويلاً عبرَ القرون .

هذا التنازع الذي كان طابع الحكومات الاسلامية في عصر آبي العلاء هو الذي قضى على ما كان للخلافة من السلطان السياسي — ذلك السلطان الذي تجاذبته مصر وبغداد مدةً غير قصيرة .

كانت بغداد خاضعةً للديلم أو للأسرة البويهية التي حكمت العراقَ وفارسَ حكماً اوتوقراطياً فيه هذا التكالبُ على السلطةِ والمال ، وهذا التزام على المجد والسلطان ، وهذا الصراعُ الدامي بين أبناء العمومة وحتى بين الأخ وأخيه . وإذ كان للخلافة هذا السلطان الداوي في الرقعة الاسلامية الكبرى ، وكانت النفوس تتطلع إلى بريق سلطانها كقوةٍ من القوى الروحية والزمنية معاً ، كان من البدهة بمكان ، وقد تقلص ظلها في بغداد ، أن يطمح إليها الفاطميون بعد أن ملكوا مصر .

وللفاطميين هذه الدعوى التي تربطهم بآل البيت . فقد ادّعوا هذه الوشائج القوية بين نسبهم ونسبِ فاطمة بنتِ الرسول ، ورغم ما قامت به بغدادُ من الاحتجاج الصارخ على هذه الدعوى الباطلة ، وما تبع ذلك من احتجاج بعض المنتسبين إلى آل البيت في القاهرة نفسها وطلبهم الحجة الساطعة على هذا البرهان فقد أثبتوا هذه الدعوى بقوةِ السيف وبريق الذهب ، وكلمة المعز لدين الله يذكرها كلُّ من قرأ تاريخ الفواطم : أريدون البرهان على نسي ؟ هاكم فاقراؤه :

سلّ نصف سيفه من غمده وقال لهم : هذا نسي !

ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال : هذا حسي ! ..

ماذا كان موقفُ المعارضين من هذين البرهانيين القاطمين ؟

كان جواب الجميع : السمع والطاعة !

وانتهت ذيول هذه الحركة عند هذا الحد ، وأصبحت الخلافة في مصرَ أقوى منها في بغداد ، وأخذت الدعوة العباسية تنكش في حدود ضيقة بعد أن أصبح الخليفة الشرعي في بغداد ، العبوة في أيدي الامراء البويهيين المتسلطين . والشام — وأريد بيئة المعري — ماذا كان شأنها في جوف هذه الاحداث ؟

كانت مسرحاً لفتن وحروب متعاقبة لعلّ أقربها إلى عهده تلك الحروب والغزوات التي أثارها الأمير سيف الدولة توطيداً لكيان العربي وصوناً لثغور الشام من الغزو البيزنطي . . وإذا كانت الايام لم تسعد المعري ان يرى المجد الشاخ الذي شادّه الأمير الحمداني في السياسة القومية والحياة العقابية ، فقد شاهد ، وهذا مازاد في محنته ، لونا من ضعف السياسة وفساد الرأي في ابنه سعد الدولة ، وفي حفيده أبي الفضائل ، وإذا تركنا الكلام عن ابن سيف الدولة لأن ملكه لم يطل ولم يميز بالاحداث الخطيرة فرجو أن يطول حديثنا قليلاً عن حفيده أبي الفضائل ، فقد انتهت حكم الدولة الحمدانية والدنيا العربية على ماوصفنا ، ولم يكن أبو الفضائل كجده بل كانت مطالعته منحصرة بالملك دون أن يعطي للمملكة حقها من التضحية والبذل ، أي كان يريد أن يحتفظ بصولجان الملك رخيصاً ، وكانت أهدافه تختلف كل الاختلاف عن أهداف جده ، هذا يفكر بمجد امته وبلاده ، وذلك بمجده الشخصي ، والفرق جدٌ بعيد بين الاتجاهين . . وإذا كانت بلاد الشام تتمتع بالحكم الذاتي على أيدي امراء مختلفي المنازع والاهواء فقد فكر الفاطميون بضمها إلى مصر لاسيما بعد أن تضاعف سلطان بغداد الروحي كما تضاعف سلطانها السياسي . . وقد عزّز هذه الفكرة الرغبات التي أثارها بعض زعماء حلب الناقين على حكم أبي الفضائل من جهة واغراء الوزير المغربي للخليفة الفاطمي بوجوب الاستيلاء على حلب واطرافها من جهة اخرى ، ونزلت هذه الرغبات من نفس عزيز مصر منزلة طيبة فجهز حملة كبرى إلى بلاد الشام لضمها إلى المملكة الفاطمية . وناط أمر هذه الحملة بأحد غلمانه الاتراك الذي استطاع أن يخضع البلاد الشامية كلها دون حلب التي امتنعت على مصر للخطة المزرية التي انتهجها أميرها . . ماذا ؟ استغاث أبو الفضائل بياسيل الثاني امبراطور الروم لمحاربة الفاطميين . . وبذلك فقد اقترف أكبر غلطة سياسية بهذه الصلات التي خلقها مع أعداء البلاد الطبيعيين ، فهدم الحفيد يديه الاثنتين مابناه الجد . أي هدم هذا ؟ لقد مدّ يده إلى الاجنبي — تحقيقاً للزوات الشخصية الهاشمية والانانية السوداء — وقال له :

إن البلاد مفتوحة الصدر لكم . فيها ادخلوها مطمئنين . بل أن يزيلي
ملك مصر الفاطمي عن عرش آبائي وأجدادي . . .
وتتالت الاحداث والحروب مدة أربع سنوات كاملة بين البيزنطيين والفاطمين
كتب فيها النصر للفاطمين أولاً ثم للبيزنطيين الذين بسطوا سلطانهم على
بلاد الشام بفضل هذه المعاهدة أو بفضل هذا الخضوع المزري لاعداء الدين
واللغة والمادات والوشائج والدم . ولم يقف الفاطميون موقف المتفرج من
هذه الاحداث بعد أن مست سلطتهم بل جهزوا حملة ثانية لدفع البيزنطيين
عن بلاد الشام فنجحوا وسقطت حلب في أيدي الفاطمين الذين قضوا على
السياسة الخرقاء التي انتهجها أبو الفضائل الذي اعتمد ، مع وزيره لؤلؤ ،
على الاجنبي في توسيع شقة الخلاف بين مصر والشام .
وهكذا ، فقد مثلت في تلك الفترة ، وفي بيئة المعري ، رواية من
أفجع مآسي التاريخ ، هي نتيجة هذا الاضطراب السياسي الذي ساد البلاد
العربية كلها . فقد كانت الاطماع تهدد بلاد الشام من الشمال ومن الجنوب ،
أما اطماع الجنوب ، فمها قيل عنها ، فهي في اعتقادي ، هينة يسيرة ، هي
اطماع الفاطمين الذين يحكمون مصر ، وهم يمتنون إلى العروبة بنسب عريق . .
أما اطماع الشمال فهي السيفُ يحزُّ العنق — اطماع الاعداء الطبيعيين لهذه
الايوطان التي حماها سيف الدولة فترة غير قليلة من مطامعهم نجاء أبو الرذائل
— أريدُ حفيده المسمى أبا الفضائل — يفتح صدره لهم ، ويمهد الاسباب
لدخول أعظم ثغور المملكة الاسلامية .
وكتب التاريخ لتقص لنا هذه الفترات بما يدمي القلب ويدمع العين .
وليس كالاديب رجل تعاف نفسه شروخ السياسة وشروخ الحروب والقتال . .
وقد فكر في بقعة تكون في معزل عن هذه الشرور ، فرأى بغداد أهدأ
حالا من الشام ، وهي إلى هذا كعبة العلم والادب ، فشد إليها الرحال ،
ومكث فيها سنة . وبعض سنة فما الذي أفاده من هذه الرحلة التي تركت
في نفسه أجمل الذكريات ؟ لقد خرج بفكرة لاغموض فيها ، وهي ان الانسان
بالرغم مما لقيه من كرم البغداديين وحسن وفادتهم — هو هو في جبلته وطبيعته

وان الحكماء هم في كل مصر ووطن . وانتهى إلى الرأي الذي يتلاقى وروح
فلسفته الحزينة التي تقوم على الشك واليأس :

إن العراق وإن الشام مذمّن صفراً ما بها للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة* في كل مصر من الوالين شيطان
وعاد إلى وطنه ، وإذا التنافس على أشده ، وحلب تشهد من جديد
هذا الصراع الدامي في أرضها ، وشهد أبو العلاء هذا الصراع بين أحفاد الحمدانيين
أو غلمانهم والمتغلبين من أعراب الشام وعلى رأسهم صالح بن مرداس ، ثم بين
المرداسيين والفاطميين ، وأخيراً بين المرادسيين وغلمانهم الذين ثلثت في نفوسهم
شهوة الحكم أيضاً بما لايسمح المجال لأن تقصّ تفاصيله بأسهاب . . نعم ،
شهد فيلسوفنا الحكيم هذا الصراع الدامي المتعاقب ، وبديهي أن تؤله
هذه الاحداث وان يكون لعواملها الاثر الكبير في فلسفته وأدبه .

فأبو العلاء أديب حساس ، وشاعر عميق التفكير ، وفيلسوف حر ذو
نظرة نافذة ، رأى وطنه نهياً للاهواء والشهوات ، ورأى البلاد العربية
وقد انتهت إلى ما انتهت إليه من الضعف والاضطراب والفوضى ، وبديهي
أن يؤثر ذلك في أدبه ، وأن تشيع روح السخرية في هذا الادب ، وان
يقسو قسوة مرة على من يظهرون بصور من ملائكة الرحمن بينما هم ابالسة
في إهاب انسان .

لقد آلمته هذه الاحداث العاتية التي هزت البلاد العربية من أقصاها
إلى أقصاها . . ولعله فكر بالزوح عن وطنه . . ولكن إلى أين والدنيا العربية
في لهيب محترق من الفوضى . لقد فكر بالهجرة إلى الحجاز . . ولكن :

أما الحجاز فما يرجى المقام به لانه بالحرار الخمس محتجز
والشام فيه وقود الحرب مشتعل يشبه القوم شدت منهم الحجز
وبالعراق وميض يستهل دماً وراعد بقاء الشر يرتجز
إلى أين يذهب ؟

كل البلاد ذميم لامقام به وإن حلت ديار الويل والرم
ان الحجاز عن الخيرات محتجز وما تهامة الا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ويترب الآن تريب على الفهم

كان يفكر فيلسوفنا بالمهجرة الى اية بقعة عربية قد خلت من فساد عصره
ومخازيه وقد ودَّ أكثرَ من مرةٍ الخلاص من هذا المأزق .
كيف التخلص والسيطة لجةُ والجوِّ غيمٌ بالنوائب يسجم
فسد الزمان فلا رشاد ناجم بين الإنانم ولا ضلال منجم
إلى أين يذهب وكل أرض قد ملئت بالمفاسد والشرور ؟ قبع في بيته ،
في سجنه الضيق ، وأخذ يرسل صيحاته الصادقة في تصوير طباع البشر
— طباع اولئك المسيطرين على دفعة السياسة ، المترعين على دست الحكم وقد
نسوا أمنيات شعبهم ، ونسوا اولى واجباتهم كخدام للمصلحة العامة ، فكانوا
مطية الاهواء ومطية الشهوات دون أن يفكروا بالمسئولية الكبرى الملقاة على
عاتقهم وهي خدمة الشعب وانهم اجراؤه لا أسياده .

‘مل’ المقام فكم أعاشر امة امرت بغير صلاحها امرأها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
وليس كالمعري أديب شاعر عرف سجايا النفس البشرية وطواياها فوصفها
أبلغ وصف ، كما وصف هذه الشهوات التي كانت لا تعرف غير التهب والاستلاب
فكان رغم عزله ، ذا اتصال مباشر بهذه القضايا التي تشغل الشعب سواء
من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخلقية .
في الواقع ، ان ابا العلاء قد اعتزل البشر ، ولكن هل كان هذا الشيخ
الوقور الذي يعتبرُ حكيماً العصر وفيلسوفه بحق ، بعيداً عما يمثّل على مسرح
البشرية ؟ . . أبداً . ان عزله لم تحصنه عن شكاوى الافراد والجماعات ، وكانت
شخصيته الفذة تجتذب الناس على اختلاف طبقاتهم إلى سجنه المتواضع ،
يحلُّ قضاياهم ومعضلاتهم ، ويتوسط لدى أولي الأمر برفع ظلاماتهم ، وقصة
عصيان أهالي المعرة على سياسة أمير حلب صالح بن مرداس ، والقائه القبض
على سبعين شخصاً من زعمائها ، وتجهيز حملة للقضاء على مثيري تلك الفتنة ،
ولجوء كبار القوم الى أبي العلاء ليشفع لهم لدى صالح وقبول ابن مرداس شفاعته
ان هذه القصة تدلّ دلالة بالغة على انه كان على اتصال بما يجري على مسرح
السياسة ، وان القوم لم يتركوه يتمتع بعزله ، وهذا ما كان له اكبر الأثر

في ادبه ، ولو اعتزل البشر حقاً كالرهبان المتبتلين أو الصوفيين المتجربين لكان لون أدبه يختلف كل الاختلاف عن هذا اللون المغموس بأعماق النفس البشرية . وفي اللزوميات وفي رسائله نقرأ الكثير من هذه المميزات التي تصف اضطراب السياسة ، وسوء الإدارة ، وفساد الحكم .

فالسياسة التي تسير على الأهواء والنزوات ، ولا تستند على الفكر الرجيح المتزن - هي في نظره - سياسة خرقاء . .

واذا الرئاسة لم تكن سياسة عقلية خطيء الصواب السائسُ
يسوسون الأمور بغير عقلٍ فينفذُ أمرهم ويقالُ ساسه
فأفَّ من الحياة وأفَّ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسه
هذه السياسة المضطربة التي غمرت يثته وكلُّ بقعة من الأرض العربية
هي التي كانت تستثيره ليصف هذه الأهواء الجالحة . كان يشير إلى روح الطفيلان في نفوس المتسلطين الذين يريدون أن تخضع الرعية لأهوائهم رغم ما يقومون به من مظالم .

يسود الناس زيدٌ بعد عمرو كذاك تقلب الدولات دوله
ومن شر البرية ربُّ ملك يريد رعية أن يسجدوا له
لقد تساءل أكثر من مرة كيف لا يثور الشعب ضدَّ تلك السياسة الفاشحة ؟
كيف يدفع الأفراد الضرائب والمكوس وهم يشاهدون ملوكهم وقد أصبحوا عبيد الشهوات والذادات . .

واری ملوکاً لاتحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس ؟
وجدتُ الناس في هرج ومرج غواة بين معتزل ومرجی
فشأن ملوکهم عزفٌ ونزفٌ واصحاب الامور جباهُ خرج
أتمجب من ملوک الأرض امسوا للذات النفوس عبيد قن

فيالذالك المصّر الذي عاش في صميمه ، لاهمَّ الملوك وزعمائه الا لذاتهم واهواؤهم ، والا مصادرة اموال الناس وإشاعة الفوضى في البلاد ، والزيف في قرارة النفوس - هذا المصّر المضطرب الذي عاش في اعاصيره وأهوائه قد جعله ،

ونفسه اميل الى التشاؤم ، ان ينظر الى الدنيا هذه النظرة السوداء ، وان يراها على حقيقتها ، اي ان يرى شرورها أغلب . .

عرفتُ سجايا الدهر اما شروره فنقدتُ ، واما خيره فوعد
اذا كانت الدنيا ، كذلك غفلها ولو ان كل الطالبات مُسمود
رقدنا ، ولم نملك رقاداً عن الاذى وقامت بما خفنا ونحن قعود

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا . . مافي البرية جيد
فأميرهم نال الامارة بالحنى وتقيم بصلاته متصيد
لقد سئمت نفسه هذه المخازي - هذا التنازع على إماراتٍ كاذبة ، هذه المذاهب الاجتماعية والسياسية التي شاعت في عصره والتي كانت في مظهرها ذات رواء جميل . . ولكن من هم رجالها ؟ ممن لا تطمئن اليهم النفوس . . من صميم الشعوبيين . . كان يرى في هذه المذاهب الشائنة التي سادت عصره وسيلة للسيطرة والحكم . . فما كان اصحابها ليقصدوا المثل العليا في مذاهبهم التي ابتدعوها ودعوا اليها سواء منهم القرامطة او غيرهم .

انما هذه المذاهب اسبا بُلجذب الدنيا الى الرؤساء
اولئك الرؤساء الذين عرف خبيثة طواياهم فازدراهم شرّاً ازدراء - هم الذين كانوا يثيرون الفتن والحروب في سبيل مطاعمهم الدنية واجادهم الكاذبة .
كانت هذه الفتن وما تجره وراءها من ارهاق تستثيره وتستفز ضميره . فما كان شعوره المرهف يتحمل اية مظلمة ، وهو الذي عاش في افق واسع من فرديته الحرة رغم سجنونه الثلاثة - هذا التأثير الحر الذي انتصب يدافع عن كرامة العقل وعن حرية الفرد وحرية الجماعة قد اهاب بالانسان ان يثور على المظالم . وطلب الى المفكرين الذين يساهمون في سياسية الدولة ان يتحرروا هم ايضاً من الرياء الاجتماعي ، وان لا يكونوا آلات مسخرة في ايدي الغتاة ، يملون مع الهوى دون أن يستجيبيوا لنداء الضمير . لقد غمز الادباء والشعراء والخطباء - الخطباء الذين يصفون الامير بالتقوى ايام الجمع بينا هو آية في الهوى والضلال . .

ما أجمل الأمم الذين عرفتهم ولعلّ سالفهم أضلّ وأتبر
يدعون في جماعتهم بسفاهةٍ لأُميرهم ، فيكاد يبكي المنبرُ
نعم ، يكاد يبكي المنبر من ضلالات ذلك الخطيب المرائي الذي يخدع
الجماعات ويصور لها الحالة على غير حقيقتها لا في الشؤون السياسية بل في
الشؤون الاجتماعية فيصفه بقوله :

طلب الخسائسَ وارتنق في منبر يصف الحساب لامة ليهولها
ويكون غير مصدقٍ بقيامةٍ أمسى يمثل في النفوس ذهولها
والادباء والشعراء . . هل يؤدون رسالتهم السامية في هذا المصطرع الصاحب
كما يؤديها هو ؟ ان رسالة الادب رسالة مقدسة لا يجوز التهاون بها . .
وكما غمز الخطباء المشعوذين فقد غمز الشعراء المداحين الذين يتخذون الشعر
آلة لتشويه الحقائق الساطعة .

بني الآداب غرتكم قديماً زخارفُ مثلُ زمزمة الذباب
وما شعراؤكم الا ذئاب تلصصُ في المدائح والسباب
لقد اضطرب كل شيء في نظره — اضطربت مقاييس الحياة ، واختلّ
النظام ، ولم يعد ينظر إلى الحياة الا هذه النظرة السوداء البغيضة التي تنطوي
فيها خيوطُ فلسفته التشاؤمية .

قد اختلّ الانامُ بغير شكٍ فجدا في الزمان أو العبوة
نعم ، كل شيء عنده يدعو إلى اليأس ، فالحياة رواية من الروايات
الكاذبة ، والانسان يخادع أخاه الانسان ، اليوم يرتفع به إلى السماء ،
وغداً ، يشك بنزاهة قصده فيهبط به إلى مواطنٍ الاقدام . .

وكم أدنى امانته إليها امينٌ خونته وسرقته
وقائم امّة زكته عصراً فلما أن تمكّن فسقته
هذه هي أهواء الجماعات لانتكاد بالرجل الذي احبته حق تهبط
به الأرض ، لانتكاد تؤلمه وتعتبره رمزاً للامانة حق تنكّر له وتعتبره
رمزاً للخيانة !

وبعد فقد كدنا ننتقل من تصوير عصره إلى آرائه في الحياة .. ولكن هل هذه الآراء الا صورة ذلك العصر المليء بالخلاقي والمواقف ، مخاخي السياسة الرعناء التي كان لها أبلغ أثر في انهيار الامة العربية — ذلك الانهيار الذي ذقت مرارته العصور الطوال . . نعم ، - كدنا ننتقل من تصوير الاضطراب في عصره السياسي إلى آرائه في الحياة — تلك الحياة التي سئم أوضاعها وأضاليلها فنظر إليها هذه النظرة الفاسفية المتعالية . . كيف يمتثل هذه المخاخي ؟ كيف يدفع هذا الطفيان ؟ لاحيلة له إلا الشعر — هذا الينبوع الثر الذي يبرد غليل الموتورين المتشائمين .

قد فاضت الدنيا بادناسها على براياها واحناسها
والشر في العالم حتى التي مكسبها من فضل عرناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها
وبعد فنتساءل : وقد عاش شاعرنا الحكيم في سجون هذا اليأس الحزين
يهدم وينقد ويهاجم هل كانت له رسالة في الحياة ؟ مالون هذه الرسالة ؟
كيف كان يريد أن يكون العالم ؟ لقد أراد له الخير المحض ، وأراد له
العدالة الاجتماعية المطلقة ، وأراد الهناءة المثلى للبشرية فهل تحققت رسالته ؟
ابداً . . فقد اصطدمت هذه الميول الطيبة بغيرزة الانسان وتزعته الشريرة —
فترأت له الدنيا ، في مرآة تشاؤمه ، وعلى ضوء الاحداث التي واجهت عصره
— صورة من المآثم والشرور ، فيئس ، وجره هذا اليأس الحزين إلى العزلة —
تلك العزلة التي انتجت للادب الحي ثروة خالدة ترمز إلى جبروت العقل
العربي الذي لا يقل في خياله وابداعه عن أسمى العقول التي عرقها
آداب البشرية .

فاذا أضفنا إلى عزلته هذه الحياة الجافة القاسية الملولة التي عاشها في سجنه
الضيق خمسين عاماً ، بعيداً عن المباحج والاضواء واللاذات ، والشرور
التي أصابت عصره وما كان لها من أثر سيء في بيئته ، ثم تلك الهنة التي
بلي بها وهو في الرابعة من عمره ، ومزاجه السوداوي الكئيب ، وشكوكه
الفلسفية القلقة — علمنا ما كان لهذه الحياة من أثر في أدبه — هذا الادب

العلائي الذي يعتبر نسيج وحده بين آداب الأمم الحية ، والذي يرى فيه الباحثون الكثير من الآراء والفكرات والصور التي تتلاقى مع أصدق ماخلده أكابر أدباء العالم في مختلف العصور . نعم ، اننا نجد مثلاً في حدائق أبي العلاء العابسة الكثيفة تشاؤم شوبنهاور وسخرية اناتول فرانس والكثير من هذه المذاهب والفكرات الشائعة في عصرنا هذا ، ففلسفته لم تقف عند واحات الزهد والعزلة بل تعدتها إلى الاخلاق والسياسة والاجتماع والدين والانسان والخالق فأبدى رأيه صريحاً في جميع ظواهر الحياة ، مظهر منها وما استتر ، حتى الاشتراكية التي عرفتها مذاهب القرن العشرين — فكان شاعراً فيلسوفاً يعكس في شعره كل النزعات التي يحبسها الفكر الحر الذي سما بنزعاته فوق كل القيود التي فرضتها عليه مواضعات عصره ، وهكذا ، فقد كان لنا من لزومياته ، والموبته ، وفصوله وغاياته والكثير من رسائله هذه الثروة الضخمة التي تشغل في رحاب الفكر الانساني مكاناً رفيعاً .

* * *

أيها السادة

ان مجد الامم يقوم على ما يتركه ادباؤها ومفكروها من تراث ثمين ، وقد ترك المعري لامتة أضخم تراث أدبي ، فاذا احتفت الدنيا العربية بذكرى مولده الالفي فانها تحتفي بتراتها الذي خلد على الاجيال — بذكرى رجل اقتعد مكائته السامقة إلى جانب عباقرة الادباء العالميين الذين قام مجدهم على الصدق لا على الشموذة ، وعلى جمال الفكرة ونبيل الشعور ، أحسن فتألم فأمل ، حتى هذه الأبيات المتفرقة التي وصف بها لوثات عصره — كافية الدلالة على ما كان يحيش به صدره من ميول صادقة ونزعات سامية في سبيل الخير والحق والجمال — الخير الذي كان يصدمه الشر ، والحق الذي كان يغلبه الباطل ، والجمال الذي كانت تلتطخه البشاعة — بشاعة الفرائز الدنية التي تدفع الانسان إلى تشويه الحقائق في سبيل الانانية الحقةاء — تلك الانانية التي كانت من أقوى العوامل في انهيار السلطان العربي الذي واجهه عصر أبي العلاء .

سامي الكبيالي

الحفلة الخامسة

في المرفئية

في الساعة التاسعة من يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر ايلول ١٩٤٤ غادر أعضاء المهرجان مدينة حلب متوجين الى اللاذقية ، فضت سياراتهم صوب الغرب تقطع سهول حلب الخصبه ومسافاتها ، حتى بلغت بلدة (ادلب) ، فوقفوا عند مدخل البلدة ، حيث احتشد أعيان المدينة ، وموظفو الحكومة ، وطلاب المدارس وطالباتها لاستقبالهم . فدوت الانغام الموسيقية ، وأشد الطلاب بعض الأناشيد الوطنية ، وقدم الطالبات طاقات الزهر الى ضيوفهن . ثم اجتاز الركب صفوف المستقبلين بين الهتاف والحفاة والمطف ، وانحدرت السيارات الى وادي العاصي حتى بلغت بلدة (جسر الشغور) . ثم تسمنت جبلاً عالية مخضرة ، وما زالت في صعود وهبوط حتى وقفت عند (قسطل العجوز) . وعدلت بعد ذلك عن الطريق العام قاصدة أحراج البائر حيث أعدت بلدية اللاذقية لأعضاء المهرجان مأدبة غداء . فصعدت في جبال صعبة المرتقى فيها من المضايق والتلال والمعاطف والأحراج الكثيفة ما بيعت في قلب المسافر شعوراً عميقاً بالخشية والجلال (١) . فكان الركب لا يبلغ قمة جبل حتى ينحدر الى فجاجة وبطون أوديته . وكلما سعد في جبل ظن أنه سيطل منه على البحر . وما زالت الجبال تتلو الجبال ، حتى صعد الركب في سفح جبل شاهق مطل على واد عميق . فلما شارفت السيارات قمة الجبل ، احترقت احداها ، وهي سيارة أرسلها محافظ اللاذقية لارشاد الركب الى مكان المأدبة . فأوعث الاعضاء ، وأوجسوا خيفة من الطريق ، حتى ظنوا أنهم سيمضيعون في

(١) تبلغ مساحة الاحراج في سورية ٢٥٠٠٠ هكتار ، ومأدبة أحراج البائر والبسيط نحو ٢٠٠٠ هكتار ، معظم اشجارها من الصنوبر وأنواع البلوط كالسديان والمول . وفيها حرجات كثيرة من الارز والدنوب والزيتون البري والبطم واشجار متفرقة من الآس والدردار والفار والعبهر وغيرها . وحراج البائر والبسيط تشبه حراج اودبة الفيا .

مضايق الجبال بين اشجار الصنوبر. وبينام في هذه الحالة اذ وقفت السيارات في واد يقال له فروا^١قى على حدود لواء الاسكندرونة فيه عين ماء وأشجار عالية باسقة تحيط بساحة مستوية على شكل دائرة أعدت فيها موائد الطعام على هيئة بديعة من الترتيب . فلما دنوا منها رأوا محافظ اللاذقية الأمير مصطفى الشهابي ، ورئيس بلديتها السيد عدنان الأزهرى، على رأس وفد كبير من أعيان اللاذقية ، خرجوا لاستقبالهم . فزلوا من السيارات ، وسرى عنهم ما كان اصابهم من التعب ، وسروا بما رأوا من سحر الطبيعة وجمالها . ثم أنهم جلسوا الى مائدة جمعت حسن الحضارة الى جمال الطبيعة ، فتناولوا الطعام على الانغام الموسيقية التي غناها بعض القرويين من رجال التركان بمزاميرهم وطبولهم . وسمعوا كلمة الترحيب التي القاها السيد عدنان الأزهرى باسم مدينة اللاذقية ، فأنسوا بما سمعوا ونسوا وعورة الطريق ووعثاء السفر . ولما انتهت مأدبة الغداء سار الركب الى مدينة اللاذقية على طريق انطاكية فبسط في سفوح الجبال المظلة على البحر ، حتى انتهى الى سهول اللاذقية الخصبية ، وبلغ المدينة قبيل غروب الشمس .

وكانت مدينة اللاذقية قد أعدت المدة لاقامة الحفلة الخطائية في فندق السياحة والاصطياف المشرف على البحر. فلما استراح الاعضاء قليلاً في الفندق ، نزلوا الى مكان الحفلة ، وهو في الناحية الجنوبية من الفندق متصل بأمواج البحر . وغصّ فناء الفندق بالمدعوين وامتلاّت شرفاته بالمدعوات ، وأحاطت الجماهير به من جهاته الثلاث ، بعضهم في الطرق المؤدية الى الفندق ، وبعضهم الآخر في الحديقة العامة المتصلة بساحل البحر .

وكانت الحفلة الخطائية من أروع الحفلات التي اختلفت فيها انغام الموسيقى وأمواج البحر ، وانسجم هتاف الجماهير مع كلام الخطباء ، حتى خيل الى السامعين انهم في أرض يفيض منها السحر والايمان والروعة والشعر .

وألقى الامير مصطفى الشهابي في أول الحفلة كلمة ترحيب عرف فيها الضيوف بمحافظة اللاذقية ، قال ان سكانها قرابة نصف مليون نسمة منهم ٦٢. / . علويون و ٢٠. / . سنيون و ١٨. / . مسيحيون معظمهم من الروم الارثوذكس . وقال ان أم غلاتها التبغ والزيتون والقطن . وفيها معدن من القار (الاسفلت) .

و ٨٠. / من التبغ الذي يدخن في سورية ولبنان يزرع في هذه المحافظة، ويشحن قسم كبير منه الى امريكا. ثم ذكر نبذة عن مدارس المحافظة، وطرقها، وبلدانها، ومصايفها، وحراجها، وآثارها الرومانية والعربية والصليبية كقلعة صهيون والمرقب والحصن، وشيئاً عن عادات السكان ودلائل على أن معظمهم عرب أقحاح ولا سيما العلويين والنصارى.

ثم تتابع الخطباء بعده على المنبر على الوجه الآتي :

١ - الاستاذ عبد الحميد العبادي الناحية التاريخية في أدب المعري
عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الاول

٢ - الدكتور جميل صليبا
عضو المجمع العلمي العربي
فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء

٣ - الاستاذ بدوي الجبل
الدهر ملك العبقريّة (قصيدة)

٤ - الاستاذ محمد الشريفي
أسلوب المعري

٥ - الاستاذ أنيس المقدسي
ممثل الجامعة الامبركية في بيروت
الروح العلائية في أدبنا الحديث

ثم كانت مأدبة العشاء بعد ذلك في دار الامير مصطفى الشهابي، دعى إليها وجهاء المدينة، وموظفوها، وأساتذتها، وتحللها حفلة سمر ألقى فيها بعض المغنين قطعاً من الزجل الشعبي، وأوى الاعضاء بعد ذلك إلى فندق السياحة والاصطياف فنعموا بالراحة بعد التعب، وناموا على أصوات الامواج الرتيبة. وفيما يلي نص الخطب التي القيت في هذه الحفلة :

جميل صليبا

ناحية التاريخ

من ادب أبي العلاء المعري

سيدي الرئيس ، سيداتي ، سادتي .

يقول أبو العلاء في بعض لزومياته :

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من اخبارهم طرف
فهو يدعي أنه ما من امة وجدت في هذه الدنيا الا وقد آلم بطرف من أخبارها
وعرف شيئاً من تصاريف احوالها . والحق ان أبا العلاء لم يصطنع المبالغة . ولم
يركب متن الشطط عند ما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من اول أمره أن
العاهة الجثمانية التي لحقته منذ طفولته لاشك مانعته من معرفة الطبيعة الانسانية من
طريق البيان والملاحظة غير أنه فطن الى أن في وسعه أن يتدارك ما تفوته عليه
هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضي الانسانية المسطور في تاريخها .
فالتبيعة الانسانية واحدة لا تختلف ، والناس هم الناس بعد العهد بهم ام قرب .
ذلك اصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم نجده يزداد به ولماً عند رجوعه من بغداد
الى بلده ، واعتزاه لزوم ثاني محبسه . فان أبا العلاء لم يرد باعتزاله الناس أن يضرب
بينه وبينهم حجاباً كثيفاً لا يراهم من دونه ولا يرونه ، وانما اراد بالعزلة أن
يكون بنجوة من مخالطتهم وملابستهم وأن تتاح له حرية درس احوالهم ونظلمهم
ومصاير امورهم دون أن تمتد اليه ايديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل
الخطاير وهم القلب وفتنة النفس فكانه اراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية
ليصلها بهم من ناحية أخرى هي ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والفايرين
أي من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه اذا كانت الضرورة هي التي قصت على
أبي العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حجب هذا العلم الى عقل شاعرنا

الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون الذالعلوم واشدها امتاعاً متى ورد الانسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكي وقلب سليم . هو موكب الائم ومعرض الحياة الانسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة وفيه تظهر اسباب عظمة الشعوب واسرار اضمحلها . فيه حكمة الحياة واضحة لالبس فيها ولا ابهام . فاذا كان أبو العلاء قد اقبل على التاريخ يتلو صحائفه ويستخرج عبره فان ذلك انما كان عن ضرورة اول الامر ثم عن حب له وشغف به احيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بمحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ماوصلت اليه في ايامه أي في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الاول من القرن الخامس الهجري . فمذا كانت حدود هذه الرواية ؟ لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية في القرن الاول الهجري ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً في القرون الثلاثة التالية . فدونت اخبار العرب قبل الاسلام واخبار الائم التي كان للعرب اتصال بها كالفرس والروم والهنود والمصريين والاحباش وكل ذلك كالمدخل الى التاريخ الاسلامي ثم دوت سيرة الرسول عليه السلام واخبار المغازي والفتوح واخبار الدولتين الاموية والعباسية، وما تفرع عن الاخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالطاهرية والسامانية والغزنوية والبيهيية والمحمدانية وبعضها في الغرب كالطولونية والاششيية والادريسية والفاطمية وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر اكثرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذي عقده للاخباريين خاصة . وقد سلم لنا من هذه التأليف شي غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن اسحق بتلخيص ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتبية والدينوري والبلاذري واليعقوبي وتواريخ الطبري والصولي والمسمودي وأبي الفرج الاصفهاني ومسكويه . لاشك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب ان لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد ولا ادل على سعة علمه بالتاريخ العام واخبار العرب قبل الاسلام والتاريخ الاسلامي من كثرة استشهاده بالحوادث التاريخية كثرة رائعة في ثره وشجره . في الرسالة التي يعزي

فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة باخيه نجده يسرد أسماء الانبياء من لدن آدم الى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد أسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة ويبان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن الى الموت والفناء ونجده في «رسالة الغفران» يخبر في القصيدة السينية التي قالها على لسان الجنى «أبي هدرش» كيف استغوى هذا الجنى في جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة الى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فأمن به وصدقه واشترك معه هو وقبيله من الجن في غزوات بدر واحد والخندق كما اشترك بعد في وقائع اليرموك والجل وصفين والنهروان . وكثيراً ما يورد أبو العلاء في «رسالة الغفران» تليحات وأشارات الى الفرق والنحل الاسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئة كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار بن أبي عبيد والمنصور البغلي والحلاج . ومن الطريف انه ساق في آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنانير والعملة الاسلامية فيه تفصيلات لانجدها في كتب التاريخ التي بأيدينا . وتفويض «اللزوميات» بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الاسلامية وملوكها من نحو محمود ومسعود الغزنويين والاكشيد وابيه طغج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآلك (= أيلك)

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ العام الاسلامي وغير الاسلامي مادة انتفع بها الى ابعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنشور والمنظوم فقد وجد في حوادث عصره أو في التاريخ المعاصر له مادة غزيرة اكسبت شعره وثره حيوية عجبية وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه في السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع ان نقول ان شعر صباه وصدر كهولته الوارد في ديوانه «سقط الزند» يتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفي وسع من يقرأ «سقط الزند» «واللزوميات» ان يتبين صورة لا بأس بها لحوادث الشام خاصة في زمن أبي العلاء .

كانت معرة النعمان معدودة من الاقليم المعروف «بالعواصم» والواقع على تخوم الدولة الاسلامية مما يلي مملكة الروم وقد أصبحت حلب اذ ذاك قاعدة ذلك

الأقليم ، وكانت متنازعة بين متأخري امراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أمرهم ويستولي الفاطميون على حلب ولكن سرعان ما انبرت لفاطمين اسرة عربية بدوية هي الاسرة المرداسية فقتلوا على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلبي . وقد تبعت المعرة حلب فيما اختلف عليها من الاحوال لذلك نجد أبا الغلاء يمدح امراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية . فيمدح الامير سعيد الدولة الحمداني بالقصائد الاولى من « سقط الزند » كالقصيدة الالامية الاولى ومطلعها :

اعن وخذ القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا
كما يمدح ولاية الفاطميين على حلب في قصائد أخرى منها السينية التي مطلعها :
لولا تحية بعض الأربع الدرس ما هاب حد لساني حادث الحبس
ثم ان أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التي أهانها خمار نصراني فذهبت الى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالخمارة واتهبوا حاوته وهدموها والى هذا الحادث يشير ابو الغلاء بقوله في اللزوميات :
انت جامع يوم العروبة جامعا تقص على الشهاد بالمصر امرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها خلعت سماء الله تمطر جرها
فهدوا بناء كان بأوي فناء فواجر القت للفواحش خمرها
واستفحل الخطب عندما أشار على صالح وزيره النصراني « تادرس » (وكان حنقاً على أهل المعرة) بقبض سبعين رجلاً منهم وسار صالح الى المعرة فأخرج اليه اهل المعرة ابا الغلاء شفيماً فشفعه صالح واطلق له الاسارى السبعين سنة ٤١٨ والى ذلك يشير ابو الغلاء بقوله في اللزوميات :

تفيت في منزلي برهة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الاقل وحم لروحي فراق الجسد
بعت شفيماً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام واسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد
وباضمحلال نفوذ الفواطم في الشام اصبحت الشام نهياً لقبائل العرب

المتبدية من لدن الجزيرة الى حدود مصر وخاصة قبائل كلاب وطيء وعامر
والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله :

أرى حلباً حازها صالح	وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طيء	يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار	قتاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستضام	فأصبح بالدم قد خلقا
وما ينفع الكاعب المستبا	ة هام على غضب فلقا
وظل قتيل فلم يذكر	وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت أهلاً وحده	وكم غادرت مثيراً مملقا
يسائل في الحى عن ماله	وما القول في طائر حلقا

واذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام في أواخر
القرن الرابع وأوائل الخامس فانها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية
أبي العلاء ، ناحية وطنية وجبه لبلده ومشره وحزنه لما يصيبه واستعداده
لأن يخدمه بنفوذه الأدبي عند الاقتضاء ، وهي أشعار تأتلف وشعره الذي
قاله وهو في بغداد يتشوق بلده المعرة .

على أن لوطنية أبي العلاء مظهر آخر . لقد كان للشام في زمنه عدو اجنبي
يرقب الفرص للانقضاض عليه . ذلك العدو هو الروم وكان الروم بعد زمان
سيف الدولة والتيات الأمر بالشام قد استولوا على انطاكية سنة ٣٥٨
واستولوا بعد على اللاذقية وذلك في أيام امبراطورهم تقفور قوقاس . ثم أخذوا
يمدون أعينهم الى حلب . وكان سعيد الدولة الحمداني ولاة الفاطميين يدافعونهم
جهدهم . وهنا تجد ابا العلاء يسخر فنه لخدمة وطنه فحسب ولكن لخدمة
العالم الاسلامي كله ، فهو في مدائحه لعمال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ،
فيخاطب الأمير سعيد الدولة الحمداني (٣٨١ - ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توات	سحائب تحمل النوب الثقالا
وقيت عيالهم اذ كل عين	تمد سواد ناظرها عيالا
بوقت لا يطيق الليث فيه	مساورة ولا السيد احتالا

ويقول :

الى حارم قاد العتاق سواهما لها من نشاط بالكاة زمال
بني الغدر هل القيمت الحرب مرة وهل كف طعن عنكم وفضال
وهل اظلمت سحج الايالي عايكم وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصي عواليها رجال ترائى خلفهن رجال
فان تساموا من سورة الحرب مرة وتعضكم شم الانوف طوال
ففي كل يوم غارة مشمعة وفي كل عام غزوة وزال
الى أن يقول في الخليل :

يردن دماء الروم وهي غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومي انك حتفه على أن بعض الموقنين يحال
وكان الشيخ ابو الحسين بن سنان احد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب
اليه أبو العلاء ينهاء عن الحج في عامه ويريه ان الروم لطلب بالمرصاد فمن ذلك قوله:
« وسفر مولاي الى الحج في هذا العام حرام بسلكا حرم صوم عيد الفطر وحظر
على المحرم تضيخ بعطر وهو ادام الله تمكينه امين من امناء
المسلمين يرهف الشوكه ويستجيد الامة ويحصن ماوهي من سور أو شرفات
ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر واجراء السعد لحفظها والقدر ،
وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يقتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ولا يلبث
ان يزول بانقضاء الهدنة ، وعودة الجامع كلمة الروم الى كرسية من بزنتيه »

فقصائد أبي العلاء الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بمدح امراء حلب
المناضلين للروم تجري مجرى قصائد المتنبي المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات
لأبي فراس الحمداني وهي حلقة من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية . على
ان أبا العلاء كما يخيل الينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه ان روح الجهاد قد فتر
عند المسلمين وعند قومه خاصة وانهم امام استعلاء الروم وكلهم عليهم قد التزموا
خطة الدفاع دون الهجوم . وقد احب ان يعبر عن هذا الاعتقاد الذي استقر في
نفسه من طريق الكناية والرمز ، فنظم تلك المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة

« بالدرعيات » والوارد في آخر « سقط الزند » فالدرع اداة وقاية لاسلح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا في تعليل إنشائه هذه القصائد فان يكن ظننا صادقا فقد أبدع أبو العلاء الرمز واجاد الكناية .

ويستعرض أبو العلاء جملة احوال العالم الاسلامي لعهده فيرى حالا لاتسره من ظلم واضطراب وفقر وطغيان ويجهد في أن يطب لتلك الحال فيذهب الى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا انهم في حقيقة الامر خدام رعاياهم واجراؤها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستعمده :

مل المقام فكم اعاشر أمة امرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها
ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس باداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :
واحسب الناس لو اعطوا زكاتهم لما رأيت بني الاعداء شاكينا
ياقوت ما انت يا قوت ولا ذهب فكيف تمجز اقواما مساكينا
ويرى ان الارض لله لا يصح تملكها :

الارض لله ما استحميا الحلول بها أن يدعوها وهم في الدار اضياف
تنازعوا في عواري فيبينهم نبل حطام وارماح واسياف
ويرى ان في امكان الناس ان يصلوا الى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو
الجماعة السياسية المثالية اذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :
ان اكلتم فضلاً وأنفقتم فضلاً فلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أموركم ايدي الناس س اذا ردت الأمور اليكم

✱✱

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غدت فيه الأدبي وأعانت على صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأسر والأمم وما يختلف على الناس من احوال فوجد كل ذلك لا محالة منتهياً الى العدم والفناء ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسابية مركبة نتيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم ير في سعي الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنفك غادية على الأنام بإلباس وتلبيس
الوت بكسرى ولم تترك مرازيه وبالمناذر أودت والقوا بيس
زارت حسيناً وحست بالردى حسناً وواجهت آل عباس بتعبيس
والليل والنهار عنده شفا مقراض يأتیان على كل شيء :

الصبح أصبَحُ والظلام م كما تراه احم حالك
يتباريان ويسلكا
أسدان يفترسان من مرا به فأبه لذلك
حملا المالك عن ردى قاض الى خان وآلك

والشرء لا الخير هو الغالب على الناس :

والارض موطن شره وضغائن ما أسمحت بسرور يوم فارد
هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه . هو تفسير رجل . تشائم
لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء
والعدم ويمتنع من الزواج الذي هو وسيلة النسل وبقاء النوع :
تواصل جبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامي باء
وهو سيء الظن بالناس زاهد فيهم .

وزهدني في الناس معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هباء

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر أقاربك الإلاداني واحذري
وان انا قلت لا تحمل جرازا فهز أخا السقاسق واضربي

الى أي شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل ان مزاج أبي العلاء المتأثر بحياته التي اخذ نفسه بها بعد عودته
من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لاعلة
لتلك الحال . فهو انما اخذ نفسه بحياة الزهد والتقصيف البالغ بعد أن بلغ الاربعين
وبعد أن استكمل خبرته بالناس والاشياء اذاً خبرته بالناس والاشياء في القديم وفي
زمنه هي علة تشاؤمه . هي علمه بالتاريخ كما وصل اليه وكما عرفه .

لقد كان علم قسماة المؤرخين من الاغريق والرومان بالانسان وحياته قاصرا
قصورا بينا . لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الاسرة أو القبيلة أو

المدينة أو طبقة بعينها ، ومن شأن التاريخ اذا بني على هذا الاساس ان يكون قائم اللون مليئاً باخبار الفتن والثورات وظلم الانسان للانسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض فلما اطلع فلاسفة الاغريق والرومان على هذا التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في ذلك نظريات افلاطون والرواقيين والايقوريين وصنيق ومارك اوريل . فمنهم من رأى ان العالم ينتقل في دورات زمنية تفتتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لايزال يتبدل ويضعف حتى تختتم الدورة بحال فوضى واضمحلال ثم تفتتح دورة أخرى وهلم جرا . ومنهم من رأى الانسان محدود القدرة مضروراً بينه وبين قوى لا حد لقدرتها هي الآلهة بنطاق لاسلطان له عليه ففهمة فلاسفة الاغريق . والرومان نفعة حزن وبأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام . ثم جاءت العصور الوسطى الاوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون ان هذه الدنيا دار بلاغ وان الآخرة هي دار القرار وان السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وان الحياة الآخرة هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضيقاً بالحياة واصبح شعارهم الزهد فيها وتبني الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لا تختلف في خصائصها العامة عن الرواية الغربية والمجتمع الشرقي القديم لم يكن يختلف اختلافا جوهرياً عن المجتمع الاغريقي الروماني القديم ومن ثم كانت نظرة حكمائهم الى الحياة هي نفس نظرة حكماء الغرب نظرة يأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الادوار التي تحدثنا عنها عند مفكري الاغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتتح بمجيء نبي أو رسول وتنتهي بقيام آخر والايمان بحياة م. تقبلية ينعم فيها المؤمن ويخالد هي خير ما يتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا

لم يلحظ القدماء على العموم ان الانسان ابتداء ضعيفاً ثم صار بمقله واجتهاده وقوة ارادته يرق شيئاً فشيئاً ولكنهم خصوا بعنائهم ضعفه امام عوامل لاسلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى . وبعد فابو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشاركة والمغاربة على السواء لأن العلة واحدة في الحالين . على أن تشاؤمه وبأسه ينطوي على حب حقيقي للانسان والانسانية واذا كان أبو العلاء شديد الرفق بالحيوان فلا شك في انه كان في اعماق نفسه اشد رفقاً بالانسان .

عبد الحميد الباري

فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء

ليس غرضي في الكلام عن فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء أن أحيط بفلسفته الخلقية كلها ، فإن أمراً كهذا يحتاج الى وقت واسع وبحث طويل . وإنما أريد أن أبين ماهو المثل الأعلى للخير في نظر أبي العلاء ، وماهي القواعد الخلقية اللازمة عنه .

والبحث في فكرة الخير هام جداً ، لأن أبا العلاء لم يكن فيلسوفاً مدرسياً ، ولا صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا . وإنما كان فيلسوفاً خلقياً قبل كل شيء . ومن البحث في فكرة الخير يستطيع الناظر أن يطلع على الفلسفة الخلقية كلها .

لم يكن أبو العلاء حسن الرأي في الدنيا والناس . ومن الاطلاة أن نستدل على ذلك الآن بشعره وشره . فقد ذم الدنيا كما ذمها ابو العتاهية ، واتهم الانسان بالظلم كما اتهمه به المتنبي ، ونقض يده من اصلاح الانسان فلم يرج له شفاء من أدوائه ، ولا نجاة من أوصابه وآلامه ، بل زعم أن جبلته فاسدة وان الشر في طبعه وانه غادر يعيل الى الظلم .

وجيلة الناس الفساد فضل من يسمو بحكمته الى تهذيبها

من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت
وأكثر الذين بحثوا في فلسفة ابي العلاء الخلقية لم يدرسوا إلا هذه الناحية السوداء من مبادئه . فأشاروا الى تشاؤمه ، وريبه ، وسخريته ، ونقده للحياة الاجتماعية والدينية ، وشكه في إصلاح الانسان ، وأهملوا ايمانه بالخير ، وألحقوه بالفلاسفة المتشائمين كشوبنهاور وغيره . وأريد الآن أن أبين أن تشاؤم أبي العلاء إنما هو تشاؤم نسبي لا ينافي بالإيمان بالخير . وفي اللزومات والفصول والغايات أدلة كثيرة على تطلع أبي العلاء الى مثل أعلى شبيه بالمثل العليا الخلقية التي تطلع اليها أصحاب الأحلام من الشعراء والفلاسفة والمصلحين . فما هو الخير في نظر ابي العلاء ؟ -

من الصعب لا بل من العبث ان نبحث عن تعريف علمي واضح للخير في شعر أبي العلاء . لان الزوميات ليست كتاباً فلسفياً مشتملاً على تعريفات علمية واضحة . وليس من شأن الشعراء ان يضعوا التعريفات وان يبنوا عليها المبادي والغايات. على أن أبا العلاء قد ذكر لنا الخير في كثير من أشعاره ، فلم يكتب بالتلميح به بل اثبتته وعدد لنا كثيراً من صفاته. ولندكر الآن بعض هذه الصفات :

١ — لنبين أولاً ان الخير محب الى النفس . فكل عاقل يطلبه ويريد الحصول

عليه ، لانه يجد فيه لذته وسعاده . نعم ان الانسان قد يعجز عن الخير لصعوبة الطريق المؤدية اليه فطريق النسي واسمة ، وطريق الخير كما يقول ابو العلاء ضيقة كسم الخياط . والعدل صعب والمرء يميله قود النفس للخير ، مع انه « يقود العسكر اللجب » . وقد يعجز الانسان عن الخير لكسله الطبيعي وفساد جبلته ، وغش طبيعته ، ولكنه اذا ما تجرد عن غرائزه ، وابتمد عن هواه استسهل فعل الخير ، ورغب فيه واحبه .

والخير محبوب ولكنه يعجز عنه الحي أو يكسل

٢ — على أن اللذة التي يجدها الانسان في الخير ليست غاية الفعل ، ولا هي مبدأ من مبادئها لانها تنقلب الى الم . فقد تولد لذة ساعة واحدة شقاء حياة طويلة ، وقد تولد المرض والفضيحة والعار . والذين يرسلون نفوسهم في اللذات لا يعرفون الراحة والهناء انهم كالانعام ، لا بل اضل سبيلاً . لان اللذة كما يقول أبو العلاء لا تخلد صلو كاً ولا ملكاً . ولا تدوم على حال واحدة ، بل سرعان ما تنقلب الى ضجر وملل .

اذا فرعنا فان الامن غايتنا وان امنا فما نخلو من الفزع
وشيمة الانس ممزوج بها ملل فما ندوم على صبر ولا جزع
فلا خير اذن في لذة تقيجتها الملل ، ولا قيمة لمرة نصيبها الزوال ، ولا فائدة في امن لا يخلو من الفزع .

جاءت لك لذة ساعة فأخذتها بالعار لم نخفل سواد العار
ان يرسل النفس في اللذات صاحبها فما يخلد صلو كاً ولا ملكاً .

٣ — وكما ان اللذة ليست غاية الفعل ، فكذلك المنفعة ليست غاية الخير ، بل الفضيلة اسمى من ان تنحل الى تجارة رابحة . فيذني للعاقل ان ينزه الخير عن نتائجها ، وان لا يؤمل الربح منه كأنه تاجر . نعم قد يجرب الينا الخير نفعاً ، فنضله كما يقول أبو العلاء لأن له ثمرة لذت في الماطم ، وتضوعت لمن تنسم ، وحسنت في المنظر والمتوسم ، وجاوزت الحد في العظم ، وفعله لحسنه في المسامع ، ونفعه لنكسب به ثواباً عند الله .

فافعل الخير وأمل غبه فهو الذخر اذا الله حشر
ولكن المنفعة والخير امران مختلفان تماماً . وانك لتجد المنفعة في هذه الدنيا قد وفرت للاشرار اكثر مما وفرت لاولى الفضل ، بل اولو الفضل كما يقول أبو العلاء غرباء في اوطانهم ، غرباء في بني جنسهم . وكثيراً ما تولدت المنفعة من الشر .
ولا لون للماء فيما يقال ولكن تولنه بالواني
وفي كل شر دعت الخلوب شواسع منفعة أو دواني
وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام
فلو كان معنى الخير مطابقاً لمعنى المنفعة لما ولد الخير الا نفعاً ، ولما ولد الشر الا مضرة . فالخير ليس اذن في اللذة ولا هو في المنفعة بل هو مستقل عنها معاً .

٤ — لذلك صرح أبو العلاء بان الخير يجب ان يطلب لذاته لالنفعة . فالاحلاق في نظره ليست في مداراة الناس ، ولا هي في طاب المنافع والذات ، بل هي ذاتية مثالية . والعاقل انما يفعل الخير لانه خير وجميل ، لا لأنه يرجو عليه ثواباً عند الله والناس ، أو يخشى من مخالفته عقاباً . « قد تقول لك النفس انها في اذى وقذى ، فاذا كنت محباً للخير قلت لها يانفس صبراً وتسليماً ، ان ماتفعلينه هو الواجب » . فابو العلاء لم يكتف بتزيه الخير عن اللذة والمنفعة حتى نزله عن المقاب والثواب ، وجعله خالصاً لربه ، وزجر السنة الناس عن مديحه . وفي ذلك يقول :

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الامام على ان لا يدينوك
فلتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لالاجل ثوابها
توخي جيلاً وتعمله لحسنه ولا تحسكي أن المليك به يحزري
فنزله جيلاً جثته من جزاية تؤمل او ربح كانك تاجر

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم أصبح هالكا
فالخير جميل ، والظلم قبيح ، وأبو الملاء يفضل عذاب النار مع الخير ، على نعيم
الخلد مع الظلم :

وما سرنى انى اصبت معاشرأ بظلم . واني في النعيم مخلد
ومثل هذه المعاني كثير في اللزوميات والفصول والغايات لم نشأ ان نطيل في
الاستدلال بها . وهي كلها تدل على أن أبا الملاء قد آمن بالخير وطلبه لذاته لالتفعه .
• — ومن اعظم صفات الخير قيمة صفته العقلية ، لأن العقل في نظر أبي
الملاء هو معيار كل معرفة صحيحة ، وميزان كل منهج قويم . فالخير لا يكون
خيراً حقيقياً الا اذا كان خاضعاً لحكم العقل . ومنهج الاخلاق لا يكون واضحاً
الا اذا اضيء بنور الروية والفكر . لم نوصف العقل باحسن مما وصفه ، أبو الملاء
في لزومياته وفصرله وغاياته . فقد جعله اماماً ومشيراً وهادياً الى الرشاد ونبياً . قال
في الفصول والغايات : « العقل نبيء ، والخطر خبيء ، والنظر بريء ، ونور الله
لهذه الثلاثة معين » . وقال في اللزوميات :

يرتجي الناس ان يقوم امام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقـ ل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطمته جلب الرحـ مة عند المسير والارساء

وقال :

وينفر عقلي مفضباً ان تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا

وقال :

فشاور العقل واترك غيره هدرأ فالعقل خير مشير ضمه النادي
وهذا يدل على ان الخير كل الخير هو في اتباع العقل لان العقل مشير امين .
فاذا ما اطاعه الانسان جلب الى نفسه الرحمة وابتعد عن القسوة ، وتحرر من
سيطرة التقاليد العمياء والعادات المظلمة وحكم النظر في الاخبار والروايات .
فان الغائص كما يقول أبو الملاء لا يتناول درة الحق الا بالروية والفكر .
واذا قوي عقل المرء استطاع ان يهوى الدنيا ولا تهويه ، اما اذا قل عقله فان
الدنيا تقويه وتغريه بزخارفها واكاذيبها . فليأخذ الانسان اذن في سبيل العقل
ليهدى بهديه . انه اذا فعل ذلك ادرك ان هناك عادات قبيحة ومعاملات سيئة ،

وقوانين وشرائع بالية تحتاج الى اصلاح وتبديل . ولو اتبع الانسان عقله في هذه الدنيا لما لقي فيها الا الخير .

وها هنا مسألة لابد من الاشارة اليها ، وهي ان أبا العلاء لم يكتف ببيان أثر العقل في الخير ، بل اشار ايضاً الى ان الادراك العقلي ضروري للمسؤولية الخلقية والشعور بالالم . فما قاله في الفصول والغايات : « ان الله ، وله علو المكان ، قد جعل الشر غريزة في الحيوان ، فابعدهم من الشرور اقل خطأ من المعقول ، الا ترى الحجر مر به العائر فادعى الابهام . لاذنب للحجر ، ولكن للواضع والمائرين » وقال ايضاً : « داء المسرة العقل ، وداء الحزن الجهل » وهذا يدل على ان ازدياد القوة المدركة عند الحيوان يقربه من الشر ، ويزيد شعوره بالالم . فالعقل يولد الحزن والالم والشقاء ، والجهل يولد القناعة والرضى . و ابو العلاء يعتقد كشوبنهاور ان للشعور بالالم درجات : فالجماد لا يحس بالالم ، والنبات يكاد يكون عديم الحس . اما الحيوان فان درجات شعوره بالالم متفاوتة . فكلما كان ارق كان شعوره بالالم اشد . وكلما كان ادنى كان شعوره بالالم اخف . واما الانسان فهو اكثر الحيوانات شعوراً بالالم لغو مداركه العقلية . ولو فرضنا ان هناك عالماً آخر فوق عالم الانسان له نصيب من المعقول ، ونعطه في الوجود شبيه بالنمط الذي نحن فيه ، لكان شعوره بالالم اشد من شعور الانسان به . فكأن العقل عن النعيم صاد ، وللسعادة مضاد . وكأن العلم سبب من اسباب الشقاء .

اذا علمي الاشياء جر مضرة الي فان الجهل أن اطلب العلم
فاذا كان العلم يشقينا ، فخير لنا ان لانعلم . ولنحن حقيقون بأن ننم في الجهل ،
وأن نفضل الظلمات على النور .

فهم الناس كالجبول وما يظفر إلا بالحسرة الفهاء
اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فانحسر للمعلماء
فالجهل مع الفضيلة خير من العلم مع الرذيلة . والذي يقيم الصلاة ويروم
بها كيداً أبعد عن الله كما يقول ابو العلاء من تاركها عمداً .
فأنت ترى أن أبا العلاء قد جعل العقل من جهة ميزان الخير ، وجعله من
جهة نانية علة الشقاء والضير . وليس في هاتين الجهتين أي تناقض ، لأن العقل

لا يكون علة الشر إلا إذا كان ناقصاً ، فيكون له في هذه الحالة جهتان إحداها جهة الملو ، وهي جهة الشعور بالكمال ، والأخرى جهة السفلى ، وهي جهة الشعور بالنقص . وكلما غلبت الجهة الثانية الجهة الأولى كان الشعور بالألم أشد وأقوى . فإذا استطاع الإنسان أن يتغلب على غريزته ، وأن ينزه عقله من العاطفة والهوى لم يشعر إلا بالكمال ، ولم يدرك إلا الخير . وإذا غلب هواه قواه ، وطغت غريزته على عقله عاش في عذاب دائم وضلال مبین .

ولو كان عقل النفس في الجسم كاملاً لما أضمرت فيما يلي به غماً والنفس لا تشعر بهذا الشقاء إلا لوجودها في الجسم . فقد كانت قبل اتصالها بالجسم سعيدة هادئة . فلما هبطت إليه أدركها العذاب ، كما يقول أفلاطون وابن سينا ، ونحن لا نعلم لماذا هبطت الروح إلى الجسم ، ولماذا أراد الله لها هذا الشقاء ، ولماذا أمرها أن تكسب الخير عن طريق العقل . فما هي إرادة الله ، وما هي عنايته ، وما هي صفاته ، إن العقل لا يستطيع أن يحيط بذلك كله ، فهو لا يعرف حقيقة الله ، ولا قدم العالم ، لأن نطاقه في أمور ما بعد الطبيعة محدود . دع عنك أن قيود الجسم والغريزة تصده عن إدراك الحق ، فلا بد له إذن من الاستعانة بنور الله .

٦ — وإذا استقل العقل عن الغريزة ، وتجرد من العواطف والأهواء ، أدرك المثل الأعلى وتطلع إلى الحياة الروحية المثالية . فالماقل لا يطلب الخير لنفسه فقط ، بل يطلبه لنفسه ولبنى جنسه أيضاً . وأبو العلاء لا يريد أن ينفرد وحده بالخير ، بل يريد أن يعم الخير جميع الناس . ولو كانت له جنة الخلد لما أحب بها انفراداً . وفي ذلك يقول :

ولو أني حببت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلاداً

ولا فرق في نظره بين حر وعبد ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين عربي وأعجمي ، ولا بين هاشمي وغير هاشمي ، بل الناس كلهم سواء لأنهم متساوون في أصلهم ، متساوون في حقوقهم وواجباتهم لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالتقوى .

فأنت الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرعات
 ٧ — فأنت ترى أن مذهب أبي العلاء في الخير قريب من مذهب الرواقيين ،
 لأنه قد مدح الجهد والمشقة ، ودعا إلى اتباع العقل ، وهجر اللذات ، ونادى
 بالعدل والمساواة والرحمة . وهو قريب أيضاً من مذهب شوبنهاور ، لأن الرحمة
 عنده هي الحب ، لا بل هي مبدأ الاحسان والعطف على الانسان والحيوان .
 وربما كان شعوره بالرحمة أحد مظاهر تشاؤمه ، لأنه كما قدمنا قد حكم على
 الناس بالفساد ، وذهمهم لتخطيهم في دياجير الظلام ، ولكنه في الوقت نفسه حنا
 عليهم حنو الأم على رضيعها ، فأراد إنقاذهم مما هم فيه من الجهل والظلم والشقاء .
 وإنك لتجد وراء نقده الاجتماعي ووراء هزئه وسخريته شعوراً عميقاً بالحب
 والحنان . وتجد قسوته على نفسه أشد من شعوره بالعطف على غيره . ولكم
 تمنى أن يشعر الانسان بالرحمة التي يشعر بها هو نفسه ، وأن يسود العدل بين
 الناس ، وأن لا يقابل الشر بالشر . ومن أجل هذا الشعور بالرحمة رام الدفاع
 عن الحيوان ، وأراد حماية الضعفاء والمرضى والمساكين والشيوخ والأطفال .
 فهو إذ ذاك رسول الإخاء وعدو الظلم وبطل المساواة والعدل . ألا ترى إليه
 كيف يطلب الى المسلم والصابي والهادي أن يرحموا المسكين ، وأن يصيدوا
 الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . إن الأثماء لا يسوسون الرعية بالعقل ،
 بل يمتدون على الأفراد ويسومونهم أنواع العذاب ، ويحدثون الفوضى في
 سبيل مطامعهم . والقضاة والعلماء ليسوا أحسن حالاً من الأثماء ، لأنهم
 يستخفون بقضايا الناس ، ويستجيزون الجور والفهر ، ويقبلون شهادة الزور
 والرشوة . فهم أشبه بالتجار الظالمين منهم بالعلماء العاملين . لا يصلح الناس إلا
 سياسة عقلية مبنية على الرحمة والعدل والمساواة . ولو صلح الحكام لما احتدمت
 نار الحرب بينهم ؛ ولوفروا على الناس كثيراً من البؤس والشقاء . فأبو العلاء
 يكره الحرب ، ويرجو أن يسود السلام في العالم ، وأن يحل الوثام محل
 الخصام ، والحب محل البغضاء ، وأن لا يشهر رجل على رجل سيفاً .
 وفي ذلك يقول :

فلا تشهرون سيفاً لتطلب دولة فأفضل ما نلت اليسير المروج

ويقول :

فان ترشدوا لاتخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الأميال سبر الجرائم
ويقول : « يارب العب ، ان عبادك لفي تعب ، الام الاسنة على الرماح والاعنة
في اعناق الخيل ورحائلها فوق الاثايح » .

فالانسان في نظره اخو الانسان احب ام كره . ومن الظلم ان يسلم الناس
امرهم للغريزة وان تلعب بهم المقادير ، وان يسوقهم الدهر الى هذا الشقاء .

٨ — وهذه الاخلاق التي نادى بها أبو العلاء ليست سلبية ، لانه لم يكتف
بالامتناع عن الشر ، بل دعا الى فعل الخير دعوة ايجابية بدون قيد ولا شرط .
فهو من جهة يقول : لاتؤذ بلسانك بشراً ، ولا تحن من خائفك ، ولا تضرب الجار اذا
لم تنفعه ، ولا تهزأ بأحد ، ولا تؤازر الظالم ، ولا تجالس المقتاب ، ويقول من جهة
ثانية : صد افعال الخير ، وان استطعت ظالماً فاردعه ، واكرم صاحبك ولا تتخذه ،
واطم سائلك اطيب طعاميك ، واكس العاري اجد ثوبيك ، وامسح دموع
الباكية بارفق كفيك ، وافعل الخير ببذل ، وكن دون المحارم اخا عذاب .
ويقول ايضاً :

لانسدين قبيحاً ان هممت به وافعل جميلاً فان الخير يقتنم

فان قدرت فلافعل سوى حسن بين الانام وجانب كل ما قبحا

٩ — وهذا يدل على ان فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء مفعمة بالشعور
الديني ، ولا غرو في ذلك فابو العلاء قد نشأ في بيئة دينية ، فكانت حياته مثلاً اعلى
يقتدى به في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي لزومياته ابيات كثيرة يدعو
بها الى الصيام والصلاة والزكاة . فالعقل عنده ، وان كان نبياً ، خاضع للنور
الالهي . ولولا غريزته الوحشية ، ومغالاته في التوحيد ، ورغبته في التوحيد ،
وضعف جسمه وققد بصره لما انتقد الحج ولا ذم المرأة ولا اعرض عن الزواج
والنسل . ان ارادة النسل عنده شبيهة بارادة الحياة التي اشار اليها شونهاور .
انها لاتنافي غريزته الوحشية فحسب ، بل تؤدي الى زيادة كمية الشر والالم في
العالم . ومهما يكن من امر فان الخير في نظر أبي العلاء عقلي وديني معاً . ولا فرق
عنده بين الدين والاخلاق .

م (١٤)

الدين إنصافك الأقوام كلهم واي دين لآبي الحق إن وجبا
١٠ - ويظهر أن للخير في فلسفة أبي العلاء درجات ومراتب ، كالخير
الخاص بالحيوان ، والخير الخاص بالإنسان ، والخير الخاص بالملائكة ، والخير
الأعلى هو الله ، فإذا فعل الإنسان خيراً ارتفع إلى عالم الملائكة ، وإذا فعل شراً
هبط إلى درجة الحيوان .

ثلاث مراتب ملك رفيع وإنسان وجبل غير أنس
فإن فعل الفتي خيراً تعالى إلى قنس الملائك خير قنس
وإن خفضته همته تهاوى إلى جنس البهائم شر جنس

والشر لا ينسب إلى الله أبداً ، بل ينسب إلى الدهر والمادة .
كذب الذي نسب القبيح إلى الذي خلق الأنام وخط في رسامه

لا أزعم الصفو مازجاً كدرًا بل مزعمي أن كله كدر
كأن الدهر بحر نحن فيه على خطر كركاب السفين
أعجم قد بين الرزايا وجعل الشر ترجمانه

فالإله خير وكمال ، والعالم شر ونقص . ولولا تيار الزمان الذي عكر
صفو الوجود لما تولد الشر ، ولا خوف على مصير الإنسان لأنه يستطيع أن
يتغلب على الشر باتباعه العقل وإيمانه بالله وثقته ببدله وكأله . والدهر لا عقل
له ، أما الله فهو كما قالت الفلاسفة عقل محض ، ومن اتبع عقله فقد تشبه بالله .
١١ - تلك هي صفات الخير في فلسفة أبي العلاء . فما هي القواعد الخلقية
التي تلزم عنه ؟

لا أريد الآن أن أذكر جميع القواعد التي اشتملت عليها فلسفة أبي العلاء
الخلقية ، وإنما أريد أن أنبه إلى أن مثله الأعلى الخلق قد جره إلى العزلة
والتقشف والمحبة والرحمة والتسامح والسلام .

فالتقشف يقضي باتباع العقل وإمالة الشهوات ، والاعراض عن الذات ،
والقسوة على النفس ، ومجاهدتها ، وقطع عقباتها الغريزية ، والتزهد عن أخلاقها
المذمومة وصفاتها الخبيثة ، وكفها عن الهوى .

والعزلة تقضي بقطع القلب عن الدنيا ، والتجافي عن دار الغرور ،
والاعراض عن الجاه والمال والزواج والنسل ، والهرب من الشواغل والعلائق .
والرحمة تقضي بالتسامح والحب والسلام والعطف على الانسان والحيوان .

١٢ — فهذه الاخلاق كما ترى ، شبيهة باخلاق الرواقيين ، لا بل باخلاق
الزهاد والمتصوفين فهي تدل على ان تشاؤم أبي الملاء لم يكن تشاؤماً مطلقاً ، بل
كان تشاؤماً نسبياً لا ينافي الايمان بالخير ولو كان تشاؤمه مطلقاً لما عزى نفسه
بالايمان ، ولا تمسك باهداب العقل ، ولا تطلع الى المثل الاعلى . واصحاب التشاؤم
المطلق يعتقدون ان حقيقة الوجود شر ، وان الوجود خير من الوجود ، اما
اصحاب التشاؤم النسبي ، فيعتقدون ان الخير موجود في الدنيا مع الشر ، وانه في
وسع الانسان ان يتغلب بارادته العاقلة على الظلمات . فأبو الملاء لا يرى ان حقيقة
الوجود شر مطلق . ولو اعتقد ذلك لنسب الشر الى الله ، ولما آمن بالله حكيم
قادر ، خير عادل ، يحزي المحسن ويجازي المسيء . ولما اثبت الخير في الدنيا الى
جانب الشر . وهو يقول في ذلك :

جهلنا ولكن للخلاق صانع اقربه فسل من القوم او شهم
ويعلم كل ان للخير موضعاً فضلاً على انباته اجمع الدم
ويقول : « غفرانك ربنا القديم ، خلقت الخير الى جنب الضير » .

ويقول :

خير وشر وليل بعده وضع والناس في الدهر مثل الدهر قسبان
ويقول :

والشر مشتهر المكان معرف والخير يلوح من وراء خمار
فوجود الله المسيطر على الدهر ، والنور المحيط بالظلمات ، والعقل الهادي
إلى الرشاد ، كل ذلك يدعونا إلى الاعتقاد ان الله سينقذ الانسان من برائن
الدهر ، وسيرفقه إلى المثل الاعلى . فأبو الملاء متشائم في الدنيا متفائل في
الآخرة . وإذا كان قد بكى لبكاء الناس ، وحنأ على الحيوان ورثى لحال البائس
المسكين ، فما ذلك إلا لأنه تطلع إلى المثل الاعلى ، ورغب في حياة مثالية

لا يشوبها نقص، ولا يعكر صفوها ألم. ومن الخطأ تشبيهه بشوئهاور، لأن الارادة في نظر شوئهاور إما هي عمياء هوجاء. سيان عندها الخير والشر. أما الله في نظر المعري، فلا يصدر عنه إلا الخير، ولا يريد لعباده إلا الرحمة والعدل. وهذا الايمان بالله هو كما يقول أبو العلاء خير الذخر في كل شدة «والخير عند ربنا لا يضيع، فليرد الإنسان إليه أمره، وليطهر مهجته بخوفه، وهذا يدل على أن أبا العلاء لا يختلف عن غيره من أصحاب الأحلام، كأفلاطون والفارابي وغيرهما، الذين حلموا بمدينة فاضلة لا تنبت أرضها إلا الرحمة والعدل، فهو بهذا المعنى شاعر المثل الأعلى، ورسول الكمال والخير.

جميل صليبا



الدهر ملك المبقرية

حلي الندي كرامة للراح
لك في السرائر بدعة مرموقة
مجد كآفاق السماء اذا انتهت
الدهر ملك المبقرية وحدها
والكون في أسرارهِ وكنوزه
ذرت السنون الفاتحين كأنهم
لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها
مرح على كيد الحياة وأهلها
خير العقائد في هواي عقيدة
تبني الحياة على هدى إيمانها
سكرى من الحق المدل وربما
سكر العقيدة أين من آفاقه
ملك الحياة غلف كل ثنية
شرف العقيدة أن تكون جريحة
واحمل بكفك الحياة تحدياً
العمر من غيب القضاء خبيثة
لا تشك من قصر الحياة فربما
سفر الحياة اذا اكتفيت بمتنه
واختر لنفسك ميتة مرموقة
للموت في اللجج العنيفة رهبة
حوطت بالله العقيدة من أذى
سكرت على كرم الندي وعربدت

عجياً اتسكرنا وأنت الصاحي
أنس المقيم وجفوة التراح
منه نواح بادت بنواح
لا ملك جبار ولا سفاح
للفكر لا لوغى ولا لسلاح
رمل تناوله مهب رياح
الا بفكر كالضياء صراح
يلقى شذائدها بأزهر ضاح
شماء ذات ثوب وجراح
والعقل مثبت غيرها والمآحي
لقي الخوف فحاد عنها الصاحي
سكر الميول وأين سكر الراح
للأس يكن منه الف طلاح
فبدار قسطك من أذى وجراح
منها لأول معتد بالساح
فابسط مصون كنوزه بالراح
أغنت اشارتها عن الايضاح
أغناك موجزه عن الشراح
بين النجوم على الاديم الصاحي
شمخت بسؤدها على الضحضاح
خرقاء فاجرة البين وقاح
فالآن لا خمرى ولا أقداحي

فيم المقام على قراي وفاتها
ومن البلية لا بلية قلبها
لهو العيون—ولا أقول قذاتها—
مترنخ العذابين من خيلائه
الله يعلم ما أردت شماعة
تأبى الشماعة في الضعيف شمائي
وانا الذي وسع الموم حنانه
أشقى لمن حملوا الشقاء كأنما
غسل الاسى قلبي وحسبك بالاسى
ووددت حين هوى جناح حمامة
حب قد انتظم الوجود بأسره
اعمى تلفت العصور فما رأيت
نفذت بصيرته لا سرار الدجى
من راح يحمل في جوانحه الضحى
أمصور الدنيا جحياً فأراً
البغي عند الأقوياء سجية
هون عليك في النفوس بقية
خلف المهجير وعنفه ولهيه

* * *

ضجت ملائكة السماء لساخر
السخر فيه اذ سقاك حتوفه
نكب العقائد والطباع فيالها
وعدا على حرم السماء فياله
عرى السرائر والنفوس ممزقاً
وجلامصون من الضمائر فانتهمى
ان يقس في نقد الطباع فلم تكن

مر الدعابة شاتم مداح
كالسخر حين تراه في النصح
فتكات حتف كالقضاء متاح
فتحا أطل به على الفتاح
عنهن كل غلالة ووشاح
همس النفوس لضجة وصياح
ترجى لرحمتها يد الجراح

* * *

ايه رهين الحبسين ألم يثن
ظفرت برحمتك الحياة وصنّتها
أنضيق بالانثى وحبك لم يضق
يا ظالم التفاح في وجناتها
عطر أحب من المني وغلالة
هي صورة لله جل جلاله
منحت بقدرته النعم ولونت

* * *

ليت الهموم العبقريّة هدهدت
لو انها زلت على نعمي الهوى
حرم على عسر الزمان ويسره
ما حوج العقل الحكيم وهمه
ولمن تدلله وتسكّر روحه
انثى اذا ضاقت سريرة نفسه
تسقي الهموم اذا وردن حنانها
وتردهن عرائساً مجلوة
للعبقريّة قسوة لولا الهوى
رعناء ان ترك الجمال عنانها
ماللشرع على العواصف حيلة

* * *

ايه حكيم الدهر اي مليحة
اسكنتها القلب الرحيم فراها
جرحت اباك والحياء فاقفلا
لو انصفت لسقتك خمرة ريقها
ولأسحفتك على الهوى - بمعطر
لاتخف حبك بالضغينة والاذى
واطل هجاءك ما ردت غلفه

* * *

العبقريّة والجمال تحدر
من نبرة وتسلسلا من راح

اخوان ماطلع الضحى لولاهما
 الظلمان المالكان ونعمة
 ان التي حرمتك نعمة حبها
 لو كان في يدي الزمان وسره
 لاعدتها بعد الردى مجلوة
 في مشهد تكسو الوفود رحابه
 فتزعت فتنتها وسحر جفونها
 ونثرت جوهر ثغرها من عقده
 ورددت للسبعين ريق عمرها
 وجلوت مرآتي فندت صرخة
 حتى إذا أتممت ذلك كله
 فتأرت من ظلم الجمال وربما
 واذا رأيتك ضقت فيه- تنكرت
 * * * هذي العروبة في حماك مدلة
 * * * الازرق الرجراج حن لرملة
 وأرى الكنانة ان تاجد ماجدت
 الوحدة الكبرى تهلل فجرها
 «شكري» الذي لقي السيوف بصدرة
 * * * سمعاً حكيم الدهر فهي قصيدة
 * * * عصماء ان شهد الندي خطيها
 بدعت شواردها العدى بكتيبة
 هل في ثراك على المعرة موضع
 حنت النفوس عليه تسكب حبها
 ما للجياد الأعوجية حسرا
 فاعذر اذا لم أوف بمجذك حقه
 * * * وأيمك بدع مفرد صداح
 تركت فصاح القوم غير فصاح
 خضراء تلعب بالحديد رداح
 بين الميون لدمني السحاح
 فحلت براح البيد غير براح
 صرعى المهجير على المدى الفياح
 لحج الخضم طفت على السباح

بروي الجبل

أسلوب المعري

ومنهاجه

سيداتي وسادتي :

باسم تراثنا الادبي وسلسلة الفكر العربي نجتمع الآن في ضوء هذا المهرجان ومن حول مناوره وذرى منابره لنحي ذكرى (أبي العلاء) [أحمد ابن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري] رهن الحبسين . ولنكرم في ذكره ليس شخصاً زائلاً بل عبقرية فذة وفكرة باقية ونفحة عطرة من نفحات الادب العربي تملأت بها العروية والانسانية في القرنين الرابع والخامس للهجرة وما زالت تطوي مراحل الزمن لتعيش بيننا بعد ألف سنة بما نعد ولتعبّر عن حاجتنا الادبية تعبیرها عن حاجات عصرها وزمانها . وإذا كانت الشخصية الادبية هي التي توفق في أي عصر من العصور في التعبير عن الحاجات الادبية لذلك العصر أو لجماعة من جماعته أو فئة من فئاته وكلا ارتفعت في ميزان القيم اتسعت آفاقها وعظم شمولها وجاوزت حدود الحاضر الى المستقبل فان أبا العلاء هو من طراز تلك الشخصيات الادبية التي أوفت على الزمن وشغلته ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ذلك لان أبا العلاء في غالب ما اخرج للناس لم يكن إلا ومضة حق وخير وتعبيراً حرّاً بليغاً عن الكون والحياة وصدى قويا شجيا لخلجات القلب وأمواج النفس .

ومهما اختلف النقاد في هذه الشخصية الادبية النادرة واستبقوا النظر في منهاج أبي العلاء وأسلوبه واكتناه مناحيه فزعموا له الوضوح او الابهام والشك أو اليقين والقوة أو الضعف او اعتبروا لفته وألغازه وجناسه وبجازه دليل تفوق وتمكن او ضرباً من ضروب العبث فان هذا ليس بضائره في شيء بل ان هذا كله للدليل اهتمام بندي خطر لا بد وأن يختلف إليه النظر اختلاف النقاد في مذاهبهم واذواقهم وعقائدهم وثقافتهم .

أما الذي لا ريب فيه وعليه الممول واليه ميل جمهرة النقاد فهو ان أبا العلاء شخصية أدبية فذة طالعت الآداب العربية بأسلوب جديد له خطره وأثره في الشعر والنثر تفنن فيه أبو العلاء لفظاً ومعنى شكلاً وأساساً وتأثر به الادب العربي والآداب الاجنبية الى حد بعيد . ونحن اذا صحبنا أبا العلاء واستمعنا إليه في رفق وأناة واستقصينا آثاره وفنونه وشروحه ومتونه استطعنا أن نرد المهاج الذي اعتمده وركز عليه أسلوبه سواء أفي الشعر أم النثر الى الاصول الآتية :

(أ) في الشعر

١ — الاخذ بمبادئ المدرسة القديمة (مدرسة الخليل بن أحمد) في العروض والقافية مع استقصاء نواقص هذه المدرسة واكملها وقد كان من جراء ذلك ان استحدثت القافية المقيدة المجردة أثبتتها في ديوانه (جامع الاوزان) على ماروى (ياقوت) قال : (وذلك مفقود في الشعر القديم والمحدث يشبه المقصور) .

٢ — اخضاع حروف المعجم بكاملها للقافية الشعرية والنظم على منوال ما فقد أو ندر أو أهمل من ذلك عند المتقدمين وهذا بعض ما قصد إليه في (الزوميات) . وعمل كهذا كان يعتبر من باب الاستقراء الادبي والجهد اللغوي الفني ورياضة الفكر بل حتى الخليل بن أحمد وهو أدنى إلى عصر البساطة والطبع (نظرف) فجمع حروف المعجم في بيت من الشعر .

٣ — لزوم مالا يلزم على مثال ما شرح وأوضح في مقدمة (الزوميات) أيضاً وهو أن يلزم مع كل روي حرفاً ليس بلازم تقوية للقافية في السمع كما في قوله :

وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن في المسالم البشري إلا بائس
والموت باز والنفوس حمائم وهزير عريس ونحن فرائس
فقد التزم في هذين البيتين الهمزة المكسورة مع السين كما هو ظاهر
من كلتي (بائس) و (فرائس) وكان بإمكانه أن يكتبني بالسين لو لم يجدني

ما التزم إيقاعاً أجمل ولفظاً أنبل . ذلك هو منحاه في (لزوم مالا يلزم) وهو شكل من أشكال النظم الدائر في شعر المتقدمين وسمعه وأضاف إليه وتفنن فيه واختصه باغراض شعرية جديدة . وأنشأ عليه أبنية أوراق ديوان (اللزوميات) وأكثر ما ورد منظوماً في رسالة (ملق السبيل) .

٤ — نبذه أسلوب القصيدة العربية التقليدي سواء أبالنسبة لاغراضها أم تنسيقها وذلك أن الشاعر العربي قد ظل محافظاً على أساليب العصر الجاهلي وقوالبه الشعرية يستلهم من حياة البداوة ومنازعتهم وصور البادية وتقاليدها ما يبين طبع الحضارة واحساسها وصورها وحاجاتها ومن أعرض عن ذلك من الشعراء المحدثين ظل فردياً في المجتمع العربي الجديد وفي معزل عن الذاتية القومية إلى حد بعيد إلى أن جاء أبو العلاء بأسلوبه متخذاً من صدق الكلمة والنظر الحر والحياة العامة والمثل العليا دليلاً في الشعر .

(ب) في النثر

١ — استحدثه قوالب جديدة للنثر الفني تجمع بين الروح الشعري والفكر التعليمي الفلسفي مضميناً إلى بعضها (الغاية) أو القافية إلى السجع والتوازن على نمط خاص هو أدنى إلى ما نسميه (الشعر المنشور) في اصطلاح أيامنا ليكون التعبير أحسن جرساً وأوقع في السمع والنفس . وهذا هو أسلوبه في (الفصول والغايات) و (والأيك والفصول) محمولا على مواعظ وتأملات وأحاديث وآراء والتفاتات ذهنية وروحية إلى حقائق أو مظاهر كونية وإنسانية في صيغ متينة حافلة بفوائد وطرائف أدبية ولغوية تستسر غالباً في الوشي الفني والاعراب والتكلف .

أما في (ملق السبيل) وهو نثر وشعر من نوع المواعظ والتذكير بالنهاية فيجبيء بالقطعة النثرية لا تتجاوز سطراً أو أسطواراً على حرف واحد أو عدة حروف من السجع ثم يكرر معناها شعراً مبتدئاً بهذا من الهمزة إلى أن يستوفي حروف المعجم وهو نمط آخر يعتمد حل المعنى وعقده ووصي الالفاظ والاوزان معاً . وهو أدنى إلى أسلوب الوعظ الخطابي القديم عند العرب .

٢ - اصطناع الاسلوب القصصي التعليمي الفكاهة محمولا على الخيال المبدع والسخرية اللاذعة والاستقصاء الادبي الجامع وهو أسلوبه في رسالة الغفران المشهورة وقد كاد ينفرد به .

والمعري لم يكن عابثاً أو متفكهاً في اعتماد هذه الاصول او ابتكار تلك القوالب الادبية التي أودعها حشاشة نفسه وعصارة فكره مهما اختلف النقاد في تقويمها بل كان يريد أن يبلور ما لم يكن مبلوراً من أشكال الصيغ العربية . وأن يتم تقصا أو يسد ثلثة في دواوين الشعراء المتقدمين والمحدثين وأن يأخذ بالاقوى من القافية مصطفيا موسيقى اللفظ وراداً قوة الكلمة في بناء القوافي إلى لزوم ما لا يلزم وإلى توافق الكلمات في السنج (أي أصل بناء الكلمة) لان هذا هو الامتن والاحسن في رأيه ولان العرب كما يقول : كانت تختار أشرف الكلم في السمع متأثراً في الوقت نفسه بما كانت شائعا في عصره والعصور التي تقدمته من افتتان بالصنعة والتوشية والمحسنات اللفظية والمنوية وبما كان للصيغة من أثر سحري يشفع بالاغراب والتكلف ذلك ما جعل أبا العلاء يأخذ بأقصى حد العبارة وهو يرى للالفاظ قوة ايمائية تنقل أكثر من معانيها وتخلق أجواء من عواطف وتصورات .

بيد أن أبا العلاء لم يقصر أسلوبه على هذا المستوى بل كان يراعي فيه مقتضى الحال فالنثر الفني المحمول على التفوق الادبي والمنهج التعليمي هو عنده غير النثر التعليمي المجرد او ما يكتب في المراسلات او يقال في الجماعات ففي الاول يؤثر الصعوبة والمتانة والتمتع اللغوي والسجع ولزوم ما لا يلزم والتفنن اللفظي والمنوي وحشد المعرفة وفي الانواع الاخرى يتوخى مع الجزالة وتوثيق السرد بساطة التعبير وسهولته ومن كلامه في بيان ما ترك من حروف المعجم توخيا للسهولة في ماوضع من خطب منبرية عامة قوله : (تركت الجيم والخاء وما يجري مجراها لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجيحاً سهلاً) . ومن شواهد أسلوبه البسيط السهل (مقدمة الزوميات) و (رسالة الملائكة) والمعري لا يختار الصعوبة

للتعمية كما ظن بمض النقاد بل لان الصعوبة أنفس من السهولة في مذهبه الادبي وما بهمس أو يلحج به أحيانا ليس هو من باب التعمية بل من سوانح الرب الغابر وقد تكون الاشارة أبلغ فيه من العبارة وليس أدل على وضوح أبي العلاء وصراحة طبعه وحرية فكره حتى في الشؤون الدينية والسياسية من آرائه الجريئة وأفكاره المعلنة في تعريف الله ونفيه عنه الصفات واثباته له الزمان والمكان بالمعنى الذي عرفها به ومن قوله بالعلل ورسالة العقل وحرية النظر والخير للخير والمساواة العامة والمغفرة الشاملة ومن حملانه العنيفة على الطفيلان والطفاة والولة وتجار العقائد والماديّ وسائر مساويء عصره ومن نقده المذاهب والشيع والمقالات جميعاً حتى ليصح أن يدعى له مذهب مستقل . ولو أن أبا العلاء كان يؤثر التعمية حقاً في أسلوبه وبيانه لم يُتبع كل مؤلف ممتاز من مؤلفاته الادبية بشرح أو تفسير لكشف مغلفاته — على ما هو ثابت في ثبوت مؤلفاته — بل أن الصعوبة هي مهراز البحث والاستقراء ونزعة تعليمية عند أبي العلاء أوجت أن يلحق بدبوانه (لزوم مالا يلزم) (زجر الناج) و (شرح اللزوم) و (الراحة) و (راحة اللزوم) و (بالفصول والغايات) كتابي (السادن) و (اقبيد الغايات) و (بالأيك والفصول) او (الهمة والردف) (تفسير الهمة والردف) . وهذا كله لان أبا العلاء لم يكتب لنفسه فحسب بل لطلابه وقرائه جميعاً . بل ان النزعة التعليمية العلمية لتلازم أسلوبه حتى في القصص الخيالي الفكه وقد يضحي الوحدة الفنية ووحدة السياق اللازمة في سبيل الاستقصاء العلمي النافع . ومن اثاره هذه النزعة استخدامه مصطلحات وسائل العلوم والفنون الخاصة في اختراع المعاني العامة وتوسيع الطاقة الانوية والبيانية بحذق وعمق سواء أفي الشعر أم النثر مما لم يسبق إليه .

قال في (الفصول والغايات) : [استغفرك ماحي السيئات من قول ليس باسناد . استكثر من السناد . كم أوطي في الذنوب وضمن الحوب بالحوب . وإذا تقويت لفعل الحسنة اقويت ومتى انكفأت إلى الخير أكفأت . فلست ربي فعيوبني أقبح من السناد والاكفاء] .

وقال في (الأيك والغصون) : [لا تعين احداً بأمر فتطأ على مثل الحجر . اصبر على ما حكم ربك واياك وليت السكاذبة ولو الغرارة وعسى الخلفة ولعل الخالبة وابك على خطيئتك ولا تكون كالرجل يبكي العداء . ومنها :

ما ترحم وضع وكلام ضم وجمع جر بالاضافة ونصب على الاغراء [وقال في (لزوم مالا يلزم) :

بعدي من الناس براء من سقامهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد لا ايطاء يدركه ولا سناد ولا في اللفظ إقواء
وأمثله ذلك كثيرة جدا في شعره ونثره .

والمعري الخائر او الساخر او الشائر شخصية مطبوعة لا مصنوعة . بيد أنه كلما أوغل في حروف المعجم أو عالم الالفاظ والكلمات وأغرب أو تفنن في الجناس والالغاز والتوشية مسترساً في بطولة البيان والبديع واللغة اكتنفه الغموض الى أن يفسر نفسه باملائه أو تفسره المعاجم وهو في مثل هذا الايغال قد يضحي الجمال الفني بمعناه الحديث ليشبع نهمه العلمي او التعليمي ارضاء لذوق عصره . والقطعة الفنية من مثل بيانه هذا انما نستفيد منها اليوم بمقدار ما يستفيد علماء الحضارات القديمة من القطع الاثرية والنقائس المتحفية . أما عندما يرتجف قلبه بالالم وتغمر ثورته النفسية معالم الصيفة وتتكاثف عواطفه وأفكاره فينبثق عنها الالهام فأننا لنبصر فيه عندئذ أوضح وجه وآنس روح وأعمق نظر بل الشاعر الحق متصلاً ليس بعصره فحسب بل بجميع العصور الانسانية .

وأبو العلاء عندما يأخذ بالسمت الفلسفي في الشعر أو باختراع المعاني العامة من المسائل والمصطلحات العلمية والفنية الخاصة لا يسخر الشعر للعلم بل العلم لا شعر فهو ليس بالشاعر الفقيه أو اللغوي أو النحوي أو الفلكي بالمعنى المنتقص في الذوق الادبي بل هو الشاعر الملهم ابداً والمشرف بشعلة وجدانه وبيانه على صميم الحياة وأقصى المسالك الانسانية . وقد يهيجنا أن نستمع إليه الآن قليلا لنكون أكثر اتصالاً بروحه الشعري الواضح واسلوبه الحر :

قال من قصيدة في (لزوم ما لا يلزم) يمجّد الله ويندد بما انتهى إليه
مجتمع عصره من انحلال أخلاقي :

للعليك المذكرات عبيد وكذلك المؤنثات اماء
فالهلل المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والمساء
والثريا والشمس والنار والنث رة والارض والضحي والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك في قول ذلك الحكاء
خلي يا أخي استغفر الا ه فلم يبق في إلا الذماء
ويقال الكرام قولاً وما في المص ر إلا الشخوص والاسماء
وأحاديث خبرتها غواة واقترتها للمكسب القدمات

وقال : يحمل على الطغاة والظفيان والقوضى السياسية في عصره :
يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معاً ونحن بعدم في الارض قطان
ان العراق وان الشام من زمن صفران ما بهما للملك سلطان
ساس الانام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ان بات يشرب خمرأ وهو مبطان
تشابه النجر فالرومي منطقته كمنطق العرب والطائي مرطان
أما كلاب فأغنى من ثعالبهم كأن ارماحهم في الحرب أشطان
صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى كأنما كلها للإبل اعطان
وقال : يخاطب الدنيا الغرارة ويقوم مصير الانسان :

يموج بحرك والاهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن إرساء
إذا تعطفت يوماً كنت قاسية وان نظرت بعين فهي شوساء
إنس على الارض تدمي هامها لحن منها إذا دميت للوحش أنساء
فلا تغرنك شم من جبالهم وعزة في زمان الملك قعساء
نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا برغمهم فاذا النماء بأساء

وقال : وكأنه يرى الموت أثبت الحقائق على ما فيه من سر غامض :
أما الصحاب فقد مروا وما عادوا وبيننا بقاء الموت ميعاد
سر قديم وامر غير متضح فهل على كشفنا للحق إسعاد

سيران ضدان من روح ومن جسد هذا هبوط وهذا فيه إصعاد
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة قبيلنا عظة منها وابعاد
توقعوا السيل أوفى عارض وله في العين برق وفي الاسماع إرعاد
وبعد : أوليس في هذا الشعر أعمق وأدق ما يختلج به القلب البشري ؟
أفلا نرى فيه الشاعر الملهم وقد أبرز أفكاره وأحاسيسه في صيغ متينة
متسقة من اللفظ الواضح المأنوس تدخل الآذان من غير استئذان لتحتل
أعماق النفس ؟ ألم نخشع مع الشاعر لعظمة الله بديع السماوات والارض وقد
أبرز الكون عبداً لله بمذكراته ومؤنثاته ؟ ألم يصور لنا حياة عصره
حتى لكأننا نراه ونعيش فيه ؟ ألم يبصرنا بالموت والحياة وقد أشهدنا النهاية
سيلاً جارفاً وابعادها عارضاً تخطف الابصار بروقه وتسم الآذان رعوده ؟
ألا ان هذا هو الشعر بأكمل معانيه وأجمل مبانيه .

أما قصائد (أبي العلاء) المشهورة كمرثيته الخالدة (غير مجد في ملتي
واعقادي) وقصيدة (علاني فان ييض الاماني) وأشباهاها فقد كاد يجمع
أهل البصر في الشعر أنه ابتنى منها هيكل جمال ففي ما زال يخشع له
الخيال والفكر .

وأبو العلاء إذا لم يستطع أن يطالعنا بالمسرات والمباهج في (الزوميات)
لأنها نظر حزين في نقص النواميس وورثاء حار للانسانية الضعيفة الفانية
ومعالجة جريئة لمجتمع مريض وحيرة متجهمه متهمجة فلقد طالعنا بما يروح
عنا في رسالة الغفران وبرز أسلوبه القصصي التعليمي غنياً بالخيال والصور
الفكاهية محمولة على السخرية اللاذعة مما هو معروف مشهور ولا مجال
الآن لتحليله وتفصيله . والسخرية في اسلوب أبي العلاء مردها إلى النقد
الضمني كأن يظاهر خرافة او صورة على المبالغة ليثير من حولها الضحك .
والقبهة التي يثيرها حول بعض الاساطير والعقائد تكون معول هدمها
وآية نسخها .

ومما تفنن فيه اسلوباً وبياناً انطاقه الطير والحیوان بما ينفع الانسان

ويبهج البيان . أتف في هذا الباب — على ما نقل الرواة ومؤرخو الآداب العربية ولم يصل إلينا — (سجع الحائم) يتكلم فيه على السنة حاتم أربع و (أدب المصفورين) و (الصاهل والشاحج) و (خطب الخيل) يتكلم على ألسنتها (والقائف) على مثال (كلبية ودمثة) بل هو كما يقول الكلاعي صاحب (احكام صنعة الكلام) أكثر ورقاً وأفسح طلقاً وأكثر شميماً وعبقاً . وله مما يعد من الاشكال الادبية الخاصة كتاب (المواعظ الست) في خطاب (رجل ، اثنين ، جماعة) ، (امرأة ، امرأتين ، نسوة) . ومما تحسن الاشارة إليه تفننه في اختيار العناوين الطريفة المبتكرة لآثاره ومؤلفاته الادبية سواء أفي الشعر أم النثر وهي زعة الادب الحديث محمولة على الذوق الفني والدقة والاناقة . ولقد تأثر أبو العلاء في أسلوبه إلى حد كبير بما حدد لنفسه من معنى الادب وغاية الشعر إذ كان المتقدمون يرون الشعر باباً من ابواب الباطل فاذا بالمعري يخرج به عن هذا فيدنيه على القيم أي على الحق والخير والجمال بعد أن ظل الشعر أمداً طويلاً مسخراً للعماثات وأهواء الرئاسات والمدائح والاهاجي والاغراض الخاصة المحدودة .

ومما صرح به في مقدمة (اللزوميات) أنه قد رفض الشعر بمفهومه السابق إلى أسلوب جديد هو أسلوب الصادقة معتزلاً عما قد يبدو من ضعف فنه الشعري بسبب هذا المنحى فيقول : (من سلك في هذا الاسلوب فقد ضعف ما ينطق به من النظام لانه يتوخى الصادقة) إلى أن يقول : (و يروى عن الاصمعي كلام معناه أن الشعر باب من ابواب الباطل فاذا أريد به غير وجهه ضعف) .

يبد أن توخي الصادقة لم يكن باعث ضعف في شعر أبي العلاء بل قوة وهذا الاسلوب الجديد بفكرته وغايته هو الذي نفحه بالخلود وأبرز منه شاعر القيم بل المفرد العلام الذي حمل الكون والانسان على أثلة اللسان ومنطوق البيان واختار للحكمة أفقاً شعرياً تشرف منه على العالم ،

وفي الحق أن أبا العلاء في اختياره مذهب الصادقة قد جعل من الشعر

تعبيراً تاماً عن نفسه . والفن تعبير كما يقال والشاعر كلما كان أصدق تعبيراً عن نفسه كان أبلغ شعراً وأعظم أسراً . نعم . قد يجاوز المعري أحياناً حدود الروح الشعري في استمداده المبني من الصيغ الصعبة ولكنه ليظل في استمداده المعنى من ثورته الروحية الملهمة وشعوره الاصيل مثال الشاعر الجبار .

وإذا كان قد انفصل في أسلوبه الجديد عن مذهب (الفن للفن) وهو في أصله مذهب أرسطو ثم الأصمعي إلى مذهب (الفن للفائدة) وهو في أصله مذهب أفلاطون معتبراً غاية الشعر التهذيب والحقيقة والمثل الاخلاقية العليا مجاوزاً في هذا ما أخذ به الأصمعي من الفصل بين الاخلاق والشعر فإنه في الواقع لم يأخذ بهذا السمت إلا لأن الانسانية في نظره قد تستطيع أن تستغني عن باطل الفن ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الاخلاق .

ونحن إذا أخذنا برأي من يذهب إلى أن (الادب نقد الحياة) ولا حظنا القوة الناقدة الزاخرة بالحيوية الذهنية والمعارف الشاملة والحس المرهف في أسلوب أبي العلاء أمكننا أن نضمه في الذروة بين عباقرة الادب وأن نحمل تفوقه الادبي على مواهبه الممتازة وثقافته الواسعة وفهمه الحياة والعالم فهماً عميقاً شاملاً أمداً أبداً قوته المبدعة بالأضواء والظلال والجمال والجلال .

ولعلنا نختلف أحياناً مع أبي العلاء في آرائه ومقاييسه وفي تفسيره الحياة والكون والمعاني الآلهية ولكن الذي يستهويننا منه أبداً هي حرية فكره وطهارة نفسه وأن يصدر في كل ما يكتب أو يقول عن إيمان صادق وغيره عامة وفكر رصين وشعور عميق . وفي الحق إذا كان أسلوب الكاتب أو الشاعر شديد التأثير بمزاجه وخصائصه النفسية والفكرية فإن أسلوب أبي العلاء ليس بمطبوع على هذا فحسب بل هو ذات أبي العلاء يطالعنا بصرامته ورقته وغموضه ووضوحه وقلقه واطمئنانه وبما يواكب عواصف نفسه وآهاته وواهاته من تشاؤم مكفهر ونظر حائر وتناقض أحياناً .

لا جرم أن المفاجئات الروحية في حنادس الكون والحياة ومعارج (اللانهاية) لا بد وأن تهز الانسان هزاً وأن تجاوب في نفسه أمواجها ومفارقاتها .

وأني لأبني الملاء وقد أعجزه سر القيوب ووقف في ليل عاصف يتشوف على
خضم المجهول أن لا تطالع الحيرة أو التناقض كلما أمعن في السرى ولما يطلع الفجر:
أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا
سألتوني فأعيتني لإجابتيكم من لدنا أنه دار فقد كذبا
وبصير الاقوام مثلي أعمى فہلموا في حندس تصادم
بيد أن أبا الملاء قد أفاد من الحيرة على خضم المجهول أن ازداد إيماناً
بمظمة الله وصغر شأن الانسان ووجوب النظر الحر وانهى إلى تنزيه الخالق
مع التسليم للكوته والثقة المطلقة بمدله ورحمته لان الانسان على حد تعبيره
أقل في ملك الله من أن يناله غضبه أو رضاه .

قال في (لزوم ما لا يلزم) :

ليفعل الدهر ما يهيم به إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تياس النفس من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه
وقال : وما أنا يائس من فضل ربي على ما كان من عمد وسهو

وقال في (الفصول والغايات) :

كن حراً وانزل حيث شئت ولو بحرة النار فان رعاية الله شاملة للأحرار .
ولقد تأثر أسلوبه بنظره هذا واغتفى بالصيغ المبكرة والتعابير الجميلة
الرصينة في مناجاة الله وتحميده وتسبيحه وتمجيده . بيد أنه من جهة أخرى
قد ظل مأخوذاً بفلسفة التشاؤم لدوام ريبه في العلة الغائية وهو ما يبرح يرى
للحد يصير لحداً مراراً وقد أضحك تراحم الأضداد.

وفي الحق ان التشاؤم وهو طابع الريب والالتم محمولاً على المزاج لذو أثر
بليغ في أسلوب أبي الملاء بل هو (علامته الفارقة) لما حمله في (الزوميات)
(الفصول والغايات) من أفكار وألوان قائمة حتى أسرف بعض النقاد فاعتبره
في لون أسلوبه هذا (سلبياً هداماً) واقتصد آخرون فزعموه إيجابياً بقدر
معلوم واني لأميل الى الاخذ بالرأي الثاني بل الى القول بأن التشاؤم في ذاته

ليس هدماً للحياة بل هو لون من ألوانها ولحن من ألحانها بل ميزان من موازينها ومعرض للكثير من صورها ورسومها . نعم . وأي خير في أن يطالعنا أبو العلاء بالألوان القائمة من الحياة البشرية محمولاً على مزاجه وحيرته وعوامل ينشئه وخصائصه النفسية والفكرية .

أولست الحياة دماً وابتساماً وعرفاً ونكراً وخيراً وشرّاً وقبحاً وجمالاً . أولست غاية الفن ان يرسم الطمر كما يرسم البرد . بل ان الجمال الانساني لا يقوم بغير المفارقات بل من منالم يشعر في بعض أيامه بحزن مجهول قد اكتنف روحه وقلبه وحملها اليأس والجزع .

ولقد تأثرت آداب الاُمم جميعاً بهذه الظاهرة الروحية وانتهى التشاؤم بالطرب اليوناني الى فلسفة اغتنام وهي الفلسفة العابثة التي عب فيها شعراء شريقون عديدون أيضاً وفي مقدمتهم الشاعر الفارسي المشهور (عمر الخيام) . لاجرم ان المعري قد أحب الحياة والانسانية حباً جماً فخرج يطوف الآفاق وبوده لو أن يطول السهمى براحتيه حتى اذا اكتوى بنار التجربة وزاده فقد أمه مدبرة أمره وهو المستطيع بغيره حزناً وألماً انقلب الى ذويه متوحداً متقللاً لا فراراً من المجتمع لذاته بل عزوفاً عن مخزيانه وازوى في مدرسته المتواضعة في (معرة النعمان) منقطعاً الى التأليف والتعليم ورياضة النفس والجسد مؤمناً بعد أن حلب الدهر أشطره ان النفس البشرية المجبولة على غير الخير لا تحصل عليه الا بما استن لنفسه وبما توجه اليه من فلسفة صارمة :

فأكره على الخير مجبولة على غيره في علان وسر

فلم يجعل التبر حلي الفتاة حتى أهين وحق كسر

أجل . في هذه الفلسفة الصارمة الحازمة وجد أخيراً أبو العلاء اطمئنان نفسه وراحة ضميره ومستقر طموحه وكأني به وقد ابتدأ ايجابياً جداً ايجابياً يرتد به الطموح الى (السلبية — الايجابية) لا توكيداً بكيئوته فحسب بل ليعبر عنها ايضاً بأسلوب جديد يطالع العالم بالملح آثاره وأروع أشعاره .

وفي الحق اذا كان الأدب العالمي مديناً الى كرامة الخيام المتوددة المفردة

تفحه بالرباعيات فهو مدين الى مدرسة المعري المتوحدة المتهجدة تفحه بالزوميات والفصول والغايات وغيرها من الآيات البيّنات .
ولقد أفاد أسلوب أبي العلاء من مدرسته الجديدة وزعتها الفلسفية الصارمة فكانت هي هو بكل ما اليها من ألوان وأجواء وظلال وأضواء .

* * *

وبعدُ . فليس المعري في تشاؤمه (السليبي — الايجابي) الا علماً من أعلام النقد نقد الحياة وهدم الطفلة بأبلغ ما تستوعب الصيغ وهو بأسلوبه الحائر او الساخر أو الثائر المنبثق عن ثورة وجدانه محمولاً على بيانه ليهز الضمير الانساني هذا . ولا غرو بعد ذلك ان يتأثر بأسلوبه أدب المشرق والمغرب .
فقد أصبح معلوماً لدى الباحثين في الأدب المقارن ان الشاعر الفارسي (عمر الخيام) الذي أبهج التشاؤم بالاغتنام والحب والمداوم قد أفاد في رباعياته من أسلوب المعري واقتبس كثيراً من معانيه الشعرية الفلسفية على ما بين الشعارين من فارق في الوسيلة هذا الى مدام وذاك الى صيام .

ومثل هذا يصح أن يقال عن تأثر (دانتي) الشاعر اللاتيني في (جحيمة) بأسلوب رسالة الغفران أيضاً مما اجتري بالاشارة اليه .

ويبدو أن عرب الأندلس خاصة كانوا من المهتمين بأسلوب المعري وفي النسخ على منواله كما يستدل من معارضاتهم للمقي السبيل . وبغيرها من آثار أبي العلاء فقد عارض هذه الرسالة ممن علمنا الحافظ الربيع الكلاعي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٤ هـ والكاتب الشهير (أبو عبد الله) محمد بن أبي الخصال وزير يوسف بن تاشفين سلطات المرابطين .

ولا حاجة بعد ذلك الى التنويه بما كان لعرب المشرق من اهتمام أوفى بآثار المعري وآرائه فقد سارت بحديث ذلك الركبان وعلمه الناس من قاص ودان .

* *

إلى هنا . وأنهى حديثي عن أسلوب شاعرنا وناثرنا العظيم لا عرض على

حضرانكم صورة تذكارية ناطقة من صور شيخوخته الغانية وقد وقف كالشمس
الغاربة ملوحاً للماضي البعيد من شاطيء النهاية محملاً على هذه الأبيات :

سقياً لأيام الشباب	وما حسرت مطيئياً
أيام آمل أن أمس	الفرقدين براحتياً
وأفيض إحساني على	جاري ثم وجارتي
فالآن تعجز همتي	عما ينال بخطوتياً
أوصى ابنتيه ليبد الماضي	ولا أوصي ابنتياً
لست المفاخر في الرجال	بمـمـي وخالتي
لكن أقر بأنني	ضرع أمارس دارتي
والله يرحمني إذا	أودعت أضيق ساحتي
لا تجعلن حالي إذا	غيت أبأس حالتي

محمد الشريف



الروح المعاصرة

وأثرها في أدبنا الحديث

كان الشعر القديم عموماً يدور حول نفس الشاعر أو من يتصل بهم من عطاء الناس ، إليهم يتزلف ، وبوقائهم يهتم ، ولاتمام رغائبهم يسرع . أما الشعب ورغائبه والمجتمع وحاجاته والحياة ومشكلاتها والطبيعة ومعانيها فقلما كانت تهمة أو تسترعي انتباهه . وإن كان شيء من ذلك فعرضاً في مقدمات قصائده أو خطرة خاطفة في بعض خواطره — وبعبارة أخرى كان الشاعر موضوع شعره ، فالمدح أو الرثاء لمن يستعظمه أو يستوهبه ، والغزل أو العتاب لمن يحبه أو يلازمه ، والفخر بنفسه أو بمشيرته . وقد نسج أكثر الشعراء على هذا المنوال لم يشذ عنهم في ذلك غير النادر ومن هذا النادر شاعر المعرة . بل هو عند التحقيق نسيج وحده بين القدماء وسابق لأوانه دون سائر الشعراء . انفراد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحر إلى الكون والمجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد العام والمعتقدات الشائعة . وقد مرّت قرون قبل أن يمشي روجه ثانية تحرك في أدبنا الحديث روح التأمل العميق والنظر الواسع . هذا البعث هو الذي نحاول أن ندرسه في حياتنا الأدبية لنبين ولو بإيجاز كلي مدى أثره فيها .

كانت حياتنا الروحية حتى أواخر القرن الماضي لا تزان جارية على سنة القرون الوسطى ، وطيفاً جداً كان تأثرنا بالنضال المحتدم يومئذ في أوربة بين آراء الطبيعيين وتعاليم الإلهيين ، فظلت رهبة الدين مستولية على المجتمع العربي . وظلّ الإيمان بالله وبالأخرة راسخاً في نفوسهم . الله أكبر بيده نواميس الكون وآليه مصير الانسان ، وما السماء والجحيم والخلود والتنزيل والنبوة إلا بديهيات لا تقبل مناقشة ولا تحتاج إلى برهان . وإلى ذلك يرجع

كل أدبٍ روحي في الأقطار العربية قبل الانقلاب الفكري الذي عم الغرب لبروز نظرية التطور الطبيعي واهتمام العلماء والفلاسفة بها . فلما انتشر كتاب دارون في أصول الأنواع وأخذ أرباب العلم والنظر يبحثون في نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبق بنجوة من هذه الموجة الفكرية العامة ، فنشأ فيه كما نشأ في الغرب قبله فئة من مريدي التحقيق العلمي كان لها أثر كبير في إثارة الشكوك وتنشيط البحث الحر ورفض ما لا يجاري السنن الطبيعية مما أدى إلى كثير من الجدل والمناظرة (١) . وكان لذلك نتيجتان ، الأولى تطرّف البعض في رفض النصوص الدينية المخالفة للعلم — وهو مذهب الدكتور شبلي شميل ومدرسته — والثانية الأخذ بتأويل تلك النصوص للجمع بين العلم والإيمان وهو مذهب كثيرين ومنهم جمال الدين الأفغاني (٢) والشيخ محمد عبده (٣) وقد توسع في ذلك محمد فريد وجدي حتى جعل التأويل قاعدة الأصول الإسلامية وأوجب تأويل نص الكتاب إن أوم ظاهر ألفاظه مخالفة للعقل والعلم (راجع مقالة الاسلام والعلم الحديث في عدد الهلال الممتاز « العرب والاسلام في العصر الحديث » سنة ١٩٣٩) .

وقد ظل هذا النزاع بين الطبيعيين والالهيّين محتدماً حتى مطلع القرن العشرين ، ولعله لا يزال في بعض الأنحاء إلى الآن . على أن النزعة الفكرية في أدب هذا القرن ، هي نزعة التجديد ، تجديد المعتقدات وتحريرها من قيود التقاليد والخرافات . فالأدب القديم المحافظ يتراجع اليوم أمام أدب يناادي بالحرية الفكرية والتساهل الديني لا من طريق الاتحاد كما قد يتبادر إلى ذهن البعض « فلا شيء » — كما يقول الدكتور صرّوف — افسد من هذا الوم ولا أبق منه تهمة على العلم لأن العلم والكفر مستقلان كل الاستقلال ، فكم عالم من أشد الناس تديناً وكم كافر يجهل مبادئ العلم (٤) .

(١) من رام الاطلاع على ما كان يدور من خصومة في هذا الباب فليراجع المختطف

مج ٨ ص ٢١٢ — ٢١٩

(٢) راجع خاطرات الأفغاني للمخزومي ١٦١ و ١٨٥

(٣) راجع مقال الدين والفلسفة المختطف مج ١٠٥ (٢) المختطف ٧ — ٥٦٥

هذا الأدب الجديد أدبٌ فكري ومن مزاياه الشك في كل ما يناقض العلم أو يغفل العقل عن التقدم . ولا أقول إنه صدى لشعر المعري ولكني أقول إنه يستقي من نفس المنبع ، منبع التفكير الحر المنبثق من اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية . فكيف تسقى لشاعر اللزوميات في القرن الخامس الهجري ما يتسنى لمفكري القرن العشرين ؟ وهل كان في بيئته ما يدفعه إلى ورود هذا المنبع الفكري ؟ سؤال لا بد في الإجابة عنه من الرجوع إلى عهد الشاعر وإلقاء نظرة على أثره في نفسه .

« بيئة المعري الفكرية » : عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس للهجرة — أي في إبان الحضارة الفكرية العربية . في ذلك العصر كان قد تم نقل العلوم اليونانية وسواها إلى العربية ونبغ في الشرق العربي كثيرون من العلماء والمفكرين . فكانت بغداد وعدد من المدن الشرقية الأخرى مراكز علمية احتكت فيها « الروحانية » السامية التي حملت إلى الناس الإيمان بالتوحيد والمعاد بالعقلية اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات الفلسفية . وكان من جراء هذا الاحتكاك تعدد المنازع الفكرية والكلامية مما أحدث في العقول ميلاً إلى النظر النقدي . فتسرب الشك إلى عقول الكثيرين واستولى على البعض منهم روح الإنكار أو اللأدرية ، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن . ومن هؤلاء المعري فقد نشأ في هذا الجو الفكري المضطرب تواءماً إلى المعرفة وبلوغ الحقائق المشبعة للعقل ، وفي نفسه الحساسية كان اصطدام التقاليد بالتفكير الحر اصطداماً عنيفاً . حقاً لا نعرف بالضبط متى كان ابتداءه ولكننا نعلم أن أثره لم يبرز إلا بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه على العلم في المروة . وفي كلامه على نفسه في كتابه الفصول والغايات (١) ما يدل على نزعتة منذ الثلاثين إلى التأمل العقلي يقول مخاطباً النفس : « قد أخلقت الجسد فما تريدن ، اظنني عنه لا يحمدك في الحامدين . ما زلت أمل الخير وأرقبه حتى نضوت كلاً ثلاثين . . . فلما تقضت الثلاثون وأنا كواضع مرجه على نار الجاحب علمت أن الخير مني غير قريب . الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين ،

وتبرّع بما لا يجب عليه وكره الحنث وكفر عن اليمين . ومن قرأ هذا الفصل كله كما ورد في الكتاب يستشف ما استشفه الدكتور طه حسين من نزعة المعري إلى التأمل في النفس وتبعها وفي الشر وأنه غريزة في الحيوان وفي طلبه التزهد والتعالي عن سفساف الحياة (١) .

وقد نرى نزعة التأمل العقلي قبل ذلك فيه في رثائه لوالده وهو في شبابه ، إذ يقول عن مصير الأموات :

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم وإن تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائلاً فاني لم أعط الصحيح فأستغني
ولكن نفسيته على ما يظهر لم تنضج إلا دور العزلة — دور اللزوميات ،
وفيه يظهر طابعه الروحي الخاص .

« طابعه الروحي » : ليست اللزوميات عند التحقيق إلا انعكاساً لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية . ويظهر فيها مطبوعاً بطابع خاص يميزه عن سائر الشعراء والكتاب وهو يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي : الحيرة والتشاؤم والاخلاص .

١ — الحيرة : وهي وليدة التفكير في ما لا يحده العقل المحدود . أهنأك حياة ثانية أم لا حياة ؟ هل الله كما تصوّره النصوص الدينية أو هو شيء آخر ؟ أيتفق العقل والإيمان أم لا يتفقان ؟ . مثل هذه الأسئلة كانت تضطرب في نفس المعري وكان لديها كالتقارب تتقاذفه اللجج . فبينما تراه يقينياً يهاجم الجاحدين والمعتلين في مثل قوله :

إذا كنت من فرط السفاه معطلاً فيا جاحد أشهد أنني غير جاحد
وقوله :

وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى
فنحن وهم في مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس أكذبنا زعماً
وقوله :

لا ريب أن الله حق فلتعبد باللوم أنفسكم على مراتبها

تراه يتابع الا أدريين فيقف من الغيبات موقف المشكك بل موقف المناقض نفسه إذ يقول :

دفنهم في الأرض دفن تيقن ولا علم بالأرواح غير ظنون
وروم الفقى ما قد طوى الله علمه يعد جنوناً أو شبهه جنون

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية أن يبكوا
يحطمنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
خذ المرأة واستخبر نجوماً تمر بمطعم الأري المشور
تدل على الحمام بلا ارتياب ولكن لا تدل على النشور
والآراء في تفسير حيرة الشاعر وتناقضه مختلفة . ومهما تكن فما لا شك
فيه أنه لم يصل إلى درجة الاتحاد فهو يقول بآله حكيم متعال عن البشر .
ولكن صورة الله في نفسه ليست الصورة ذاتها التي يتخيلها المؤمن العادي .
ولعلنا من دراسة أقواله ومقابلتها نخلص إلى الحكم بأن نظره إلى العالم الثاني
لم يكن إلا نظر لا أدري متأثر بالاسلام أو مسلم متأثر باللاأدرية .
٢ - تشاؤمه : وهو ظاهر في كثر شعره - كقوله في الإنسان والطبيعة البشرية
قد فاضت الدنيا بأدناسها على براياها وأجناسها
وكل حي فوقها ظالم وما بها أظلم من ناسها
وقوله :

قالوا فلان جيد لصديقه لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الإمارة بالحناء وقيمهم بصلاته متصيد
وجبلت الناس الفساد وضل من يسمو بحكمته إلى تهذيبها
ولو تابعناه في آرائه ووقفنا عند ظاهر أقواله لقلنا حتماً بالجبرية المطلقة
ولما رأينا من حاجة إلى معاهد تربوية أو علمية ولا إلى شرائع دينية .
فباطلة كل وسائل الثقافة أو الإصلاح . أليس الانسان ولد فليسدأ وسيتيق
كذلك إلى أن يزول ؟ ولكن هل كان المعري جبرياً وإلى أي حد ؟ وللجواب
عن هذا السؤال يجب هنا أن نفرق بين الجبرية الفلسفية والجبرية الشعرية .

فالاولى تفكير منظم ينتهي فملاً إلى القول بأن الانسان غير مكلف وأنه لا سبيل إلى خروجه عما رسم له منذ الازل ، وهي فكرة تهدم كل ما يحاوله الانسان من ترقية نفسه كفرد أو كجموع ، وتجعل الشرائع الدينية والاجتماعية قيوداً لا معنى لها في الحياة . أما الجبرية الشعرية فهي شعور فقط بضعف الانسان إزاء المجهول . فيينا ترى الشاعر من جهة يقول بالقدر ويصف فعله وأثره في الناس . كقوله :

وللحي " رزق ما أناه بسميه وعقل ولكن ليس ينفعه العقل

قضى الله فينا بالذي هو كأن قم وضاعت حكمة الحكاء

كتب الشقاء على الفتى في عيشه وليبلغن " قضاءه المكتوبا

ما حركت قدم ولا بسطت يد إلا لها سبب من المقدار

قضاء بوافي من جميع جهاته كما هو عن أيماننا والاياسر

ولولم يرد جور البزاة على القطا مكوها ما صاغها بمناسر

وهل ألوم غيباً في غباوته وبالقضاء أته قلة الفطن

وما دفعت حكاء الرجال حنفاً بحكمة بقراطها

ولكن يحمي قضاء يريك أذا غيها مثل سقراطها

تراه من جهة أخرى يدعو الناس إلى مثل عايا ينشدونها ويحضمهم على فضائل يعيشون بموجبها . وهو في هذه الدعوة جاداً فيما يقول ، ويحملنا ضمناً على الاعتقاد بأنه مؤمن بقدرة الانسان على الخير . وإلا فما معنى طلبه الإصلاح الديني والاجتماعي وما معنى تقده حياة الافراد والجماعات ، ولماذا يدعوننا إلى اتباع العقل والبعد عن الكذب والرياء والتنويه والادعاء حاضاً على العمل الصالح وضبط النفس عن الشهوات وغير ذلك من الفضائل . إن الميري جبري إذ يرى ضعف الانسان أمام الكون وحوادث الايام أمام نظام الحياة والموت . ولكنه غير جبري في الدعوة إلى البر والتقوى والحض على الحياة الفاضلة .

نعم إنه على ما يظهر يائس من تهذيب الطبع البشري :
 فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطاع
 ولكن يأسه لا يمنعه عن تبيان ما يجب عليهم أن يفعلوه لينالوا التهذيب
 الحقيقي . فكأنه يترك للانسان شيئاً من الحرية ، ولهذا تسمعه يعارض الجبرية
 بقوله : إن كان من فعل الكبار مجبراً فمقابله ظلم على ما يفعل
 ٣ - الاخلاص : وهو من أبرز صفاته . فهو مخلص إلى العقل الهادي
 الوحيد في الحياة :

كذب الظن لإمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
 جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنًا ولكن فيها ضعف اسناد
 فشاور العقل واترك غيره هدرًا فالعقل خير مشير ضمه النادي
 ولا يعني ذلك أن المعري كان معتزلاً في آرائه ونظرياته إذ كان يهاجم
 بنقده جميع الفرق ، ولكنه كان كالمعتزلة في تعظيمه شأن العقل . ويظهر
 إخلاصه أيضاً في نظره إلى الدين . وهو عنده على وجهين . الاول : وضي
 أي نظام بشري قائم على مراسيم وفرائض ، وهذا باب للاختلاف بين الناس
 ولنشوء الحزب والتنافر بينهم بل التباغض وسفك الدماء ، وفي ذلك يقول :
 إن الشرائع ألفت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين المداوات
 والثاني : روحي عملي وهو رياضة النفس على عمل الخير والتمسك بأهداب
 الفضيلة والتعالي عن الاطماع الضارة والشهوات الفاسدة :
 وقد يكون في الوجه الوضي من الدين فائدة لمن فهم حقيقته وعرف
 كيف يستخدمه لتقوية الروح الدينية الحقيقية في النفس . ولكن المعري
 قلما يرى ذلك فهو صريح في مهاجمته النظم الخارجية زاعماً أن أربابها إنما
 يحرصون عليها لما يرجونه من فائدة مادية :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

أفيقوا أفيقوا يا غواة فاعما دياناتكم مكر من القدماء
 أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبلدوا وماتت سنة اللؤماء

هكذا ينظر إلى النظم الدينية . بل كثيراً ما نراه يسرف في تهجمه على رؤساء الدين وينعتهم عموماً بما قد يصدق فقط على بعض الافراد ، فيقول مثلاً :

رويدك قد غرت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصباء صباحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتي ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء
ومن إسرافه في ذلك قوله :

كم قائم بغطاته متفقه في الدين يوجد حين يكشف عاهرا
ومع تفضيله الاسلام على سواء يدمج أهله مع أهل سائر المذاهب
والفرق فيقول :

وكلنا قوم بسوء لا أخص به بعض الانام ولكن أجمع الفرقا
دين وكفر وأنباء تقص وفر قات ينص وتوراة وإحليل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل
هفت الحنيفة والنصارى ما هتدت ويهود حارت والمجوس مضلّله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له
وأقواله في ذلك أكثر من أن يحصرها هذا المقام . ومهما يكن من
إسرافه وتعميمه فهو لا شك حرب على الرياء في الدين والانصراف إلى
الاولضاع الخارجية . وإنما الامر عند الجوهر لا المرض — الروح لا المسوح —
فلا عجب أن نراه يخاطب الدين الذي لا يأمن الناس بوائقه بقوله :
توهمت يا مغرور أنك دين عليّ يمين الله مالك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكا ويشكوك جار بائس وخدين
والذي يستسلم إلى أطاعه وشهواته :

سبح وصل وطف بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له اطاعه لم يلف بالمتاسك

فالدين الحقيقي عنده هو الانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه :
الدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لآبي الحق إن وجبا
وكما أن إخلاصه للحقيقة يدفعه إلى تلمس الدين في قلب الانسان وتصرفاته
لا في فروضه ووسائل عباداته ، كذلك هو يدفعه إلى التصريح برأيه في
موقف الحكومة من الشعب . فالحكومة عنده إنما هي خادمة للشعب مستأجرة
بماله لاجل مصالحه ، لاسيدة مستبدة به تسومه العذاب وتمتع بما يجنيه
من مال . فيؤله أن يرى الحكام في أيامه :

يسوسون الامور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة
ويصورهم بأقبح الصور فيقول :

ساس الانام شياطين مسطرة في كل مصر من الوالين شيطان
وقد يحمل المعري لإخلاصه أيضاً إلى مهاجمة العلماء ذاهباً إلى أن علمهم
ليس بشيء بل هو الجهل :

وما العلماء والجهال إلا قريب حين تنظر من قريب

ولا يستثني نفسه بل يصرح بكل تواضع أنه جاهل :
الله يشهد أنني جاهل ورع فليحضر القوم إقرارى وإشهادى
أعمى البصيرة لا يهديه ناظره إذ كل أعمى لديه من عصا هادي

أقررت بالجهل وأدعى فهمي قوم فأمرى وأمرهم عجب
والحق أنني وأنهم هنر لست نجيباً ولا مُم نجب

علمي بأنى جاهل متمكن عندي وإن ضيقت حق العالم

لقد علم الله رب الكمال بقلة عقلي وديني ومالي

دعيت أبا العلماء وذاك مين ولكن الصحيح أبو النزول

ومن ظواهر صراحته ذهابه إلى أن الكون سائر على نظام أزلي ثابت ،
فاذا حبس المطر أو فاض فان الصلاة إلى الله مثلاً لا تحمله على تغيير طبيعة الجو :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم يقلّ حياه أو يزيد به السّجم
فقولكم رب اسقنا غير ممطر ولكن بهذا دانت العرب والمجم
ومهما يحاول الانسان أن يغالب هذا النظام المحتوم فانه لا يرجع إلا
بالخيبة ولا بلاقي غير العناء :

والطبع أحكمه المليك فلن ترى حجراً يقول ولا هزبراً يغم
وإذا غدوت على القضاء مغالباً فأذاك تستمري وأنفك ترغم
وإذا كان الامر كذلك فعبث تعلقنا بلخوارق واتكالنا على التدجيل
والتنجيم والسحر وما إلى ذلك من ضروب الاباطيل ، ومن البعث أن نقول
إن بركات الطبيعة متعلقة بأعمال الانسان :

لم يسقكم ربكم عن حسن فعلكم ولا حماكم غماماً سوء أفعال
ولإنما هي أقدارُ مرتبة ما علقت بإساءات وإجمال

فالمرعي مخلص للحقيقة ينفر من الرياء والاستبداد والادعاء وبطلب الصراحة
والابتعاد عن الغرور وبند كل مالا يوافق العقل ، فلا بدع أن نرى الكثيرين في
عهده وبعد عهده بعيدين عن إدراك كنهه نفسه يرمونه بالكفر أو يتقوّنون عليه
ما عليه عليهم الجهل وسوء الظن .

كان المري في القرن الخامس الهجري يعيش في جوّ قرننا الحاضر بل
نستطيع أن نعدّه من حكماء هذا القرن ومن رواد التفكير الروحي الحديث . ومن
يقرأ أدبنا التأملّي اليوم ولا يراه مشبعاً بالروح الملائية — روح الخيرة والتشاؤم
والاخلاص للحقيقة — تلك الروح التي تفيض من قلب الشاعر متأثرة بمساويء
الحياة . كان الشعراء قبله وهم مبصرون لا يرون في الحياة إلاّ أنفسهم ولا يرون في
الأدب إلا ما يوصلهم إلى اغراضهم ، لكن المري وهو الاعمى قد أتى على الحياة
نظرة أوسع من نظراتهم وتطلع إلى آفاق أبعد من آفاقهم ، فانهكست نظراته عن
بيئة قائمة كأنما هي أشمة تنفذ إلينا من وراء زجاجة سوداء ، وهي نفس الروح أو
النظرات التي نراها في أدبنا الحديث . ولا أعني أن هذا صدى أو تقليد لشعر المري
بل أعيد القول أن شاعر المرة وشاعر القرن العشرين يستقيان من نبع واحد .
والغريب أننا لا نرى في هذه القرون العشرة التي تفصلنا عن أبي الملاء

عهداً شملته هذه النزعة الفكرية التي نراها اليوم . ولماذا ؟ لأن هذه القرون شهدت انحطاط الحركة العالمية الحرّة وسيطرة التقاليد القديمة ، فاتجه العقل فيها نحو الجمع الأدبي والتصنيف الديني والتفسير اللغوي والبياني وغرق في تيار الرجعية فلم تنهياً له بيئة تساعد على النظر الحر كما تنهيات له في الآونة الأخيرة ، وإذا قلت الآونة الأخيرة ، فاني أعني ما أقول ، إذ هي لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ، بل لعلها لا تتجاوز المدى القائم بين الحرب العالمية الأولى وهذه الحرب . ففي هذه الفترة نرى الشعر العربي يخرج عما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر ، يخرج عن الموضوعات القديمة التي عرفت في كل الاجيال إلى آفاق جديدة يطل منها على المدنية الحاضرة ويرى ما فيها من قبح أو جمال .

« ظواهر الاتفاق والاختلاف بين أدب المعري وأدب القرن العشرين » :
إن أدبنا الفكري إزاء الروح الملائية بين عاملي جذب ودفع . الاول يقوده إلى نفس المنهل الذي نهل منه المعري والثاني يدفعه عنه إلى منهل آخر . فلو راجعنا الشعر العربي الحديث لوجدنا فيه ما نجد في اللزوميات من نظر إلى الحياة وما وراء الحياة . خذ مثلاً هذين البيتين :

خبرت دنياي وأبناءها مذ نشأتني خبرة مستقري*

فلم أشاهد غير ما حالة أرتني السوء بكل امري*

هذا صوت يرتفع من العراق على لسان الدجيلي وهو شبيه في تشاؤمه بصوت الرصافي إذ يقول ضارباً على هذا الوتر :

أرى الخير في الاحياء ومض سحابة بدا خلّباً والشر ضربة لازم

إذا ما رأينا واحداً قام بايأ هناك رأينا خلفه ألف هادم

وما جاء فيهم عادل يستميلهم إلى الخير إلاّ صده ألف ظالم

جهلت بكهل الناس حكمة خالق على الخلق طرّاً بالتماسة حاكم

ألا يمسك لنا هذا الكلام روح أبي العلاء المتبرمة بالانام ؟ وأمثال هذه الابيات كثيرة في هذا العصر . وكما لام المعري والده على الاتيان به

إلى هذا العالم المملوء بالشقاء هكذا يفعل الشاعر المصري محمود أبو الوفا إذ يصبح بمرارة اليأس :

أبي ! وفي النار مثنوى كل والدةٍ ووالدٍ أنجبا للبؤس أمثالي
خلفتني فوضعت الجبل في عنقي يشده لف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالي
وهو ذا العقاد وهو الأديب القائل بوجوب الانضواء إلى كنف الثقافة
الحديثة ، والمعنى في كتاباته بإصلاح المجتمع . تجيئه أحياناً ساعات يقع فيها
تحت تأثير أبي العلاء فيقول :

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة فعدت ومالي في الحياة رجاء
وكنت إخال الناس إلا أقلهم كراماً إذا هم كلهم لؤماء
وهذا شاعر مصري آخر ، هو أحمد رامي ، وهو من ناظمي الاغاني
المرحة تحمل به أحياناً الروح الملائية فيصبح متظلماً من الحياة وأبنائها :
كثر اللؤم في بني الانسان وقسا قلوبهم من الاضغان
وبعد أن يمدد مساوي الحياة من غدر وظلم وقسوة وسلب يدعو الطبيعة
إلى البكاء على الانسان وعلى طريقة المعري يصرّح أن لا خير إلا في إخماء
هذه الدنيا من صفحة الاكوان :

إن دنيا تضج باللؤم أولى بانمحاء من صفحة الاكوان
وإنك لتحس بهذه الروح المتبرمة في كل الاقطار العربية - حتى في المهاجر
الاميركية ولعلماء بين اللبنانيين والسوريين هناك أشد لاصطدام خياليتهم
الشرقية بالمادية الغربية .

فجران مثلاً لا يرى بين الناس ما نسميه خيراً أو عدلاً أو ديناً . وفي
مواكبه يصرح قائلاً :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا
والعدل في الارض يبكي الجن لو سمعوا به ويستضحك الاموات لو بصروا
والدين في الناس حقل ليس يزرعه إلى الاهل لهم من زرعه وطر
وهو يزعم أن هذه المثل العليا لا توجد على حقيقتها إلا في الطبيعة

بعيدة عن صخب المدن وتكالب سكانها — ففي الطبيعة لا تعدي ولا حسد ولا ظلم ولا أوهام بل كل شيء يجري على مقتضى ما خلق له . ومثله فوزي المألوف في قصيدته على بساط الروح وأخوه شفيق في عبقر ورشيد الخوري في قروياته وأعاصيره ورهط غيرهم من أدباء المهاجر .

وقد تجاوزت هذه الروح الملائية الحديثة مصر وسورية ولبنان والعراق إلى سائر الأقطار العربية فدخلت الحجاز وتونس وسواها وتغلغلت في نفوس النشء الجديد . وكما تنبث روح أبي الملاء في عصرنا بالتشاؤم تنبث في الحيرة أو النزعة اللاأدرية . ويكفي للتمثيل هنا أن أنوّه بقصيدة أبي ماضي « الطلاس » وقصيدة الرصافي « من أين من أين يا ابتدائي » والزهاوي « حول الحقيقة » . ويمثل ذلك قول الزركلي من قصيدة « في سر الوجود أو الحياة » :

لجة مزبدة أم نهر معتكر أم هو سميل

ما أمامي ؟ حيرة لا تنتهي ما دام هذا الليل

وقد فصل هذه اللاأدرية في الصافي النجفي حدود الانكار في قصيدته الخلود الزائف وسواها . فهو يقف هناك موقف المهكم من اليمينيين الذين ينظرون إلى ما بعد الموت نظرهم إلى امر واقعي .

وفي أدبنا الجديد نزعة علائية شديدة إلى محاربة التعصب الديني والتقاليد البالية والدعوة إلى التمسك بجوهر الدين دون العرض ، بالعمل دون العقيدة . ولا أبالغ إذا قلت إن هذي هي النزعة العامة في الشعر المصري في كل الأقطار العربية ، وهي أوضح من أن أمثل لها في هذا المقام . وقد دعت إليها دواحي المدنية الحديثة المبنية على روح العلم والنظر الحر إلى الحياة . وأوقدها في الأدب حدثان هامان — الأول إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . والثاني الدعوة إلى الملك العربي أيام المغفور له فيصل . فهذان الحدثان كانا مبعثاً لتموجات أدبية مندقفة من قلوب تؤمن بالإخاء والوئام . وتختلف عن دعوة المعري بأنها أكثر اتصالاً بالمحافظة القومية . فالمعري لم يعن بهذه الناجية الخاصة ولم يكن في يثته ما يدفعه إلى غير النظر الروحي أو الاجتماعي البحت . لذا الأدب الحديث فيجعل الدعوة إلى جوهر الدين والتعاليم عن القشور

الفارغة والانظمة المفرقة وسيلة لتقوية الرابطة القومية بين مختلف العناصر ، وهنا تشبكت السياسة بالدين او الدعوة إلى القومية بالدعوة إلى شجب المنعناات الطائفية الحائلة دون الاتحاد القومي . وقد قاد ذلك بعضهم إلى التهجم على رؤساء الدين — كما فعل المعري — وعزوا كثير من السيئات إليهم — وكما أسرف شاعر المعرة أسرفوا هم أيضاً وأطلقوا لاقلامهم العنان دون رادع في هذا الميدان . ومن أمثلة هذا الاسراف ما جاء للريحاني من خطبة له موضوعها :

« الثورة الادبية » قال : (١)

« وأما الكهان يسادتي فهم أول من عاثوا في الارض فساداً . هم أول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدها ، هم أول من تاجروا بالخداع والتغدير . هم أول من استولوا على الامراء والملوك وأيدوا سلطانهم بأبناء من السماء كاذبة . والكهان اليوم أو رؤساء الاديان كلها هم أعداء الحرية الروحية الادبية . إلى أن يقول : « على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة . وصب أشعيا نار غضبه في أورشليم على الكهان ومذابحهم وتزاويهم وأصنامهم ، وانقضت صواعق حزقيال في إسرائيل ، وزمزت رعود دانيال في بابل . على تغريبات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في وتنبورغ ونوكس في إنكلترة ، وغيرهم في البلاد كثيرون . »

وكما كان الادب الملائني ينزع إلى العقل ويؤمن بالنظام الارلي وينفر من التدجيل والارهام هكذا نرى أدبنا الآن . على أن في الادب الحديث رغم ما يشمله من ظلام التشاؤم والخيرة مسحة من التفاؤل أو الرضى بالواقع والايامن بمقدرة الانسان على التقدم . وقد مرّ معنا أن المعري لم يكن جبرياً مطلق الجبرية وأن في شعره ما يسمح للانسان بشيء من حرية الارادة في التصرف . ولكن ذلك لم يبلغ فيه درجة الرضى والايامن بمقدرة الانسان كما نراه في الادب الحديث . إن المعري يكاد يقف أمام القدر موقف

الوهن والتردد :

(١) راجعها في الريانيات ٢ - ٤٣

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
أما الشاعر الحديث فيتزع إلى المناضلة والجهاد . المعري لم يكن يرى
في الحياة ما يستحق السعي لاجله ، أما شاعر اليوم فالحياة عنده برغم
قوامها ذات قيمة ولكن قيمتها لن تبلغ إلا بإرهاف العزم واطّراح الخوف
والإقدام على المصائب . وعلى ذلك قول الشاعر المصري عبد الرحمن شكري :
انضُ عنك الحذار من حادث الدهر فليس الحذار ينفي فتىلا
إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلاً
ويقول :

هو العيش كالحسناء تبغض محجماً جباناً ويحظى بالوصال جسور
بدا لي أن لا أسعد إلا تصبّر تقرّبه في التائبات صدور
وعزم وإيمان وطبع وحكمة ورأي بآلاء الحياة خير
فالكّد والجراة والصبر هي مفاتيح الحياة المثلى ، وإذا صح ذلك فالحياة
التي هذه مفاتيحها حياة ثمينة جديرة بالاهتمام والجهاد . وهذا الجهاد كثيراً
ما يعني التمرد على القديم . ولا ينكر أن المعري كان متمرداً يدعو إلى اطّراح
كل ما لا يقبله العقل السليم ، ولكن تمرده مقيد بالاستسلام للقضاء ، وبهذا
يختلف عن الشاعر الحديث الذي يعني بالتمرد للتخلص المطلق من كل ما يقيد
النفس البشرية ويقف في سبيل تقدمها المطرّد . ويتمثل لنا ذلك في جبران
ومدرسته . فالتمرد عنده ليس هدماً فحسب بل هو الخطوة الأولى في سبيل
البناء الاثبات وهو التخلص من العوائق التي تموقنا عن النمو إلى ما هو
أفضل (١) . وفي هذا الجهاد والسمي نحو الأفضل تنكشف لنا معاني الحياة
الحقيقية . فالأدوية الحديثة مع اعترافها بجهد الإنسان للحقيقة ترى لزماً
عليه ابتناءها أو الطموح إليها إذ على هذا الابتناء والطموح تقوم دعائم
ال عمران والتقدم .

ويكثر في أقوال المحدثين القول بأن السعادة حالة وجدانية نفسية لا أمر
موضعي تحصل عليه من الخارج . فالبعض يلتصقها في القناعة والبعض في

(١) راجع مقالة البنفسجة الطموحة في العواصف .

بساطة العيش والبعض في الالتجاء إلى حمى الطبيعة والبعد عن عناء المدنية والبعض يراها في السعي المستمر والاختبار المتجدد كقول أحدهم (١) : « لذاتنا في الشوق لا في الوصال » ولا ينكر أن فكرة القناعة والبساطة فكرة قديمة وهي بارزة في حياة المعري وأقواله . أما فكرة السعي المستمر والاختبار المتجدد ففكرة حديثة مستمدة من الأدب الغربي ، ولعل غوته في روايته فوست هو أعظم من أثار هذه الفكرة في نفوس المحدثين . (٢) ومهما يكن من علاقة بين أدبنا الحديث والروح العلائية فما لا شك فيه أن العصر الحاضر متأثر بهذه الروح وأن شاعر المعرة لا يزال حياً في نفوس المفكرين . ولا أعلم شاعراً قديماً بلغ تأثيره الروحي في أدبنا ما بلغه تأثير هذا الشاعر العظيم — شاعر واحد فقط يقاربه هو أبو الطيب المتنبّي ولكن من سبيل آخر . فهذا يثير فينا روح الفخر القومي أو الفردي . ويرفعنا إلى ذروات الاختبار الحي ولكننا لا نقف معه كما نقف مع المعري متسائلين عن الحياة والانسان ، عن الشرائع والعمران ، عن الاكوان وما وراء الاكوان . ليس المعري أشعر شعراء العرب فقد نرى كثيرين ممن يفوقونه في نواح مختلفة من الفن الشعري ، ولكنك قلما تجد فيهم من يضاهيه في تأثيره الروحي على الاجيال . ولماذا ؟ أليس لانه يطعم شعره بطابع الصراحة والاخلاص ، ولانه ينظر إلى الحياة نظرة المترفع الحقيقي لا المقلد للمترفعين أو المرتزق بادعاء الورع والدين :

فلتفعل النفس الجميل لانه خير وأحسن لا لاجل نواها

إن المعري أسمى تراث روحي وصل إلينا من الاجيال الغابرة وقد زالت منذ أيامه إلى الآن دول وتيجان ، وبادت أمم وبلدان ، ولكن روحه لا تزال حية لانها روح النابغة الذي يعيش لكل زمان .

أنيس المقدسي

(١) يوسف غصوب في القمص المجهز ١٢٩

(٢) وقد توسع الاستاذ أحمد أمين بك في شرح هذه الفكرة (راجع كلامه في كتابا

فيض الحاضر ٣ - ٩٢ فهو حري بالمطالعة .)

الفصل السادسة

في دمشق

لما أصبح الاعضاء (يوم السبت في ٣٠ ايلول ١٩٤٤) ساروا في مدينة اللاذقية إلى الشارع الذي أطلق عليه اسم أبي العلاء ، بين دري الموسيقى وهتاف الشعب ، فزاروا دار الكتب الوطنية التي شيدها المحافظ ، وافتتحوا شارع أبي العلاء وساروا فيه .

ثم غادر الركب مدينة اللاذقية في الساعة العاشرة وسار إلى الجنوب مع ساحل البحر . فمرّ ببلدة بانياس وقلعة المرقب وبلدة طرطوس حيث وقف قليلا ، ثم تابع سيره صوب الجنوب حتى بلغ حدود لبنان ، وعطف إلى الشرق ، فصعد في الجبال وبلغ بلدة تل كلخ . ثم أشرف على بحيرة حمص وحدائقها وسهولها .

وكان رئيس بلدية حمص السيد فيضي الاناسي ومحافظها السيد فؤاد الحلبي قد خرجا على رأس وفد من أعيان المدينة لاستقبال الركب . فساروا جميعاً في موكب عظيم وبلغوا مدينة حمص في الساعة الثانية بعد الظهر .

ولما دخلوا المدينة زاروا نخلة السيد هاشم الاناسي رئيس الجمهورية السابق فاستقبلهم في داره أحسن استقبال وآنسهم ألطف إنسان ، ثم خرجوا بعد ذلك معه إلى حديقة البلدية المعروفة باسم الروضة حيث أعدت لهم مدينة حمص مأدبة غداء فاخرة جلسوا في ظلال الاشجار وتجادبوا أطراف الحديث على مأدبة الطعام .

وتكلم على المائدة السيد فيضي الاناسي مرحباً بالاعضاء ، وتلاه الاستاذ عارف النكدي شاكرًا . ثم تكلم الدكتور عبد الوهاب عزام باسم الوفد المصري فقال : « عملاً نفسي إعجاباً وروعة ونفارا ، أن أقف على مقربة

من أعظم تمثل لبطولة المجاهدة المخلصة الطيبة . ضريح خالد بن الوليد رضي الله عنه . . . يا قومنا إن الفرصة قد سحبت ، والزمان ضنين بفرسه ، والفرص سريع مرورها ، فاحذروا أن تناموا والخطوب يقظي ، أو تبطلوا والزمان يسرع ، أو تقفوا والنك يدور ، أو تهزلوا والزمان يجد ، ألا إن تكاليف المجد شاقة ومطالبه صعبة ، وغاياته بعيدة . ولكن في ضمان الغزائم المجتمعة ، وفي كفلة النفوس الاثنية نذيل الشاق ، وتيسير الصعب ، وتقريب البعيد ، فاجمعوا أمركم ، واجمعوا كلمتكم ، وتقدموا إلى العمل بقلوب ملؤها الرجاء والامل ، ورؤوس ملؤها الحكمة والروية ، وأيد ملؤها النشاط والقوة . . الخ الخ .

ولما انتهت مأدبة الغداء في الساعة الرابعة بعد الظهر رحل الكعب مدينة حمص عائداً إلى دمشق فمر ثمانية ببلدة التنبك واستراح قليلا في حديقة البلدية ، ثم غادرها قبيل غروب الشمس فبلغ دمشق في العشاء .

وكان الدكتور طه حسين قد دعا أعضاء المهرجان والوزراء وأدباء دمشق وأساقفتها إلى مأدبة عشاء في فندق (اوريان بالاس) ، فألقى الاستاذ مهدي الجواهري أبحاثاً في مدح الوفد المصري دعا فيها الدكتور طه حسين وأخوانه إلى زيارة العراق . ثم أخذ الأعضاء بأطراف الحديث عن رحلتهم وما نخلها من سرور ومشقة وإكرام وحفاوة واخذوا بعد ذلك إلى الراحة في غرفهم .

وفي الساعة العاشرة من صباح الاحد الاول من شهر تشرين الاول عام ١٩٤٤ سار الكعب إلى مصيف بلودان لتناول طعام الغداء على مأدبة المجمع العلمي العربي في الفندق الكبير ، ثم عاد منها في الساعة الثالثة بعد الظهر لحضور الحفلة الخطابية السادسة .

وبدئت الحفلة الخطابية في الساعة الخامسة بعد الظهر في بهو الجامعة السورية ، وهي ختام حفلات المهرجان تتابع فيها الخطباء على الوجه الآتي :

- ١ - الدكتور عبد الوهاب عزام لزوم ما لا يلزم :
عضو المجمع العلمي العربي
- مق نظم ، وكيف نظم وترتب

- ٢ - الشيخ عبد القادر المغربي
نائب رئيس المجمع العلمي العربي
شيخ المعرة والشيخ الدرا
- ٣ - الاستاذ سليم الجندي
عضو المجمع العلمي العربي
دين أبي العلاء
- ٤ - الاستاذ هنري لاووست
عضو المجمع العلمي العربي
اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء
- ٥ - الاستاذ شفيق جبري
عضو المجمع العلمي العربي
ذكرى أبي العلاء (قصيدة)
- وتكلم في هذه الحفلة بعض الخطباء ممن لم ترد أسماؤهم في البرنامج
كالاستاذ فؤاد افرام البستاني ، والاستاذ عزمي النشاشيبي ، والدكتور عارف
العارف ، والآنسة جهان الموصلي ، وسنثبت كلماتهم في الملحق :
وتخلل الحفلة دور موسيقى غنت فيه فرقة الاذاعة بدمشق أبياتاً من
شعر أبي العلاء وهي :

ومن لي بأني في جناح غمامة تشبهها في الجناح أم رثال
تهاداني الارواح حتى تحطفي على يد ريح بالفرات شمال
فيا برق ليس الكرخ داري وانما رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
أخواننا بين الفرات وجلق يد الله لا خبرتكم بحال
أنبشكم أني على العهد سالم ووجهي لما يتبدل بسوآل

ولما انتهت الحفلة الخطابية في الساعة التاسعة مساء سار الاعضاء إلى
قصر رئيس الجمهورية اجابة لدعوة غفامته فتناولوا طعام العشاء على مأدته .
وتكلم على المائدة الشيخ بهجة البيطار فدعا إلى اتباع السلف الصالح في
التشريع المدني الحديث ، ثم تلاه الاستاذ أحمد أمين فقال : « أبو العلاء
شخصية من أعجب العجائب . فهو يطمعنا وبجوع ، ويجمعنا ويمتزل ، ويرمينا

بالحجارة وزميه بالازهار ، وتسطم علينا روحه في هذا العصر متألفة بالحياة الجديدة . لقد كان في حياته يصف بؤس الناس ، ولا يريد أن ينغمس في شؤونهم . أما حياتنا الحديثة فتقضي أن نصف البؤس وأن نعمل لازالته . ولعل هذه الروح هي التي ترفرف علينا الآن .

« نحن لانريد أن نعتزل كما اعتزل ، وان نصور ولا نتدخل في الحوادث ، ولكن نريد أن نتصور الحوادث ونعمل على اصلاحها وازالة شرورها . اننا نشعر أننا في عالم لا تنفع فيه الا الارادة القوية . في عالم لا تكفي فيه الاماني الطبية . وانما يحتاج الى العمل الطيب » .

ثم قال : « وأحب ان اقرر ان الشريعة الاسلامية سمحة لا تمنجر علينا ان نفهم العالم وان تكون نظراتنا الى الفروع نظرات مرنة . فالعالم تقدم في كل فرع من فروع الحياة ، والتشريع يجب ان يتمشى مع العصر » .

ثم تكلم الدكتور طه حسين فقال : « اما انا فلم اقف لا يتحدث في هذه الموضوعات الخطيرة التي تحدث فيها الزلاء ، وانما لا أودي عنا جميعاً واجباً لاشك انه احب شيء الينا . وهو ان نشكر لفخامة الرئيس الاول ماتفضل به من رعاية مهرجان ابي العلاء . ولا خلاف في ان مالقيه ابو العلاء في حياته من عطف الحكام أو غضبهم كثير ، ولكن الشيء المحقق ان حظ أبي العلاء بعد موته من الاضطهاد والاعراض عنه اكثر من العطف عليه والميل اليه . فاذا قلت ان حضرة صاحب الفخامة الرئيس هو اول زعيم عربي في العصر الحديث عطف على شيخ المعرفة فشمّل الاحتفال برعايته الكريمة ثم افتتح المهرجان واختتم اجتماعاته ، ثم دعا الوفود الى قصره ليكرمها ، فانما أعبر عن شعور كل واحد منا » ثم اختتم كلمته بشكر الوزراء لما تقضوا به من مشاركة اعضاء المهرجان في الاحتفال بأبي العلاء .

وارتجل فخامة رئيس الجمهورية كلمة شكر بها لاعضاء المهرجان جهودهم الطيبة في احياء ذكرى أبي العلاء وتوثيق اواصر المودة بين اقطار البلاد العربية فقال : « ان في مدينة معاوية ومدينة خالد بن الوليد ، ومدينة أبي الغداء ، ومدينة الحمدانيين وغيرها من المدن والقرى والساكن التي زرعناها لفكرة واحدة متغلطة في

قرارات النفوس ، وهي ان هذه الاقطار لا تجب سوى الحرية ولا تفكر الا في العروبة والكرامة . وستبقى ذكرى المهرجان على مر الأيام منقوشة في الصدور لالاتها ذكرى أبي العلاء فحسب ، بل لانها ذكرى قدومكم الى ربوع الشام للحفاوة بالشاعر النابغة والفيلسوف العبقرى أبي العلاء المعري . واذا عدتم ايها الاخوان الى بلادكم فاذكروا ان هذه البلاد التي عانت من صروف الدهر وجور الزمان ما تمعجز الامم عن حمله تريد الآن أن تحيا سيدة عزيزة حاكمة نفسها بنفسها فخورة بماضيها وأمجادها ، وانها تريد أن تبقى حرة مستقلة . ونحن اليوم على وشك تحقيق فكرة يلذ لنا ترديدها ، لانها هدفنا ، وغايتنا التي نسعى اليها جميعاً . وهي انه لاحياة لبلادنا الا اذا اتحدت الامة العربية بآمالها وآلامها واهدافها . وكما انها ذات تاريخ واحد وتقاليد واحدة فكذلك تريد أن تكون ذات ثقافة واحدة وسياسة واحدة . ولقد ادركنا في اجتماعكم هذه الوحدة الثقافية كما بلغنا في الماضي الوحدة الادبية . وستتحد سياستنا بحول الله في اجتماعات الاسكندرية . فلکم منا اجمل الشكر وللذين يجتمعون لأن في الاسكندرية التحيات الطيبات وخالص الاماني . والله نسأل ان يأخذ بآيدينا لنصل الى ما نصبو اليه نفوسنا من آمال ورغبات .

وكان ختام مهرجان ابي العلاء في منتصف الليل من اليوم الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٤ .

صهيل صليبا



لزوم ماله يلزم

متى نُظِم وكيف نُظِم ورتب

عنيت بأبي العلاء المعري ناشئاً ، وكتبت في أخباره وأشعاره تليداً . وما زلت
معنياً به حافظاً لأخباره وأشعاره . واللزوميات أعظم آثار الرجل ، وهي سجل
عقائده وآرائه ، ولها النصيب الأوفر من أحاديث من يتحدثون عن المعري ، وكتابة
من يكتبون في فلسفته .

وكثيراً ما سألت الأدباء وسألت نفسي : متى نظمت اللزوميات وكيف
رُتبت ؟ أخط الشاعر خطئها ثم نظمها ولاءً على ترتيب حروف الهجاء ، فأراؤه
فيها متوالية على هذا الترتيب ؛ ما تضمنه أبيات على رويّ الهمزة مقدم زماناً على
ما يذكر في أبيات على رويّ الباء وهلم جرّاً ؟ أم نظم الرجل ما نظم ثم رتبته على
حروف الهجاء ، فقدم متأخراً وآخر متقدماً ، مسaire للترتيب الهجائي ؛ فما يعرف
المتقدم والمتأخر من شعر الرجل إلا ما دلت عليه حوادث مذكورة فيه ، ولا
يستطاع تتبع أفكاره ورعاية تطورها على الزمان ؟ وكنت أقول إنه لا بد للمؤرخ
أبي العلاء من أن يفصل في هذه القضية ، فيجزم بأن اللزوميات مرتبة على الزمان
أو غير مرتبة .

فلما دعاني المجمع العلمي العربي إلى شهود الاحتفال بذكرى أبي العلاء بعد
مرور ألف عام على مولده ، وسألني عن الموضوع الذي أوتر الكلام فيه في هذا
الاحتفال ، اخترت أن أتكلّم في تاريخ اللزوميات وترتيبها . فأعدتُ قراءتها
مستوعباً ، متقصياً الأبيات التي تذكر فيها حوادث معروفة أو رجال معروفون ،
والتي تذكر فيها سنّ أبي العلاء أو حاله من الشباب والكهولة والشيخوخة .
وراجعت مآثره التاريخ من أخبار الرجل ، وذكر كتبه . فاتهيت إلى القضايا التي
أسجلها فيما يأتي :

المبحث الأول

متى نظمت اللزوميات

- ١ -

جمهرة شعر أبي الملاء في مجموعتين : الأولى تتضمن شعر الصبا والشباب ، وهي التي سماها سقط الزند . وقد جرى في هذا الشعر مجرى الشعراء الآخرين ، فمدح وهجا وتغزل ورثى ووصف الخ .

وقد قال أبو الملاء في مقدمة سقط الزند :

« وقد كنت في ربان الحداثة ، وجن النشاط ، ماثلا في صفو القريض ، أعتدّه بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البلوغ . ثم رفضته رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته ؛ رغبة عن أدب معظم جيله كذب ، ورديته ينة ص ويحبذب . » وقال مستملى أبي الملاء الذي كتب ثبت كتبه كما رواه ياقوت في معجم الادباء : « من غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب سقط الزند وهو ثلاثة آلاف بيت » ،

وفي سقط الزند قصائد قالها في بغداد ، وأخرى أرسلها إلى بغداد بعد رجوعه إلى المعرة سنة أربع مائة . وأبيات قيلت بعد سنين كثيرة من اعتكافه في المعرة كالبيتين اللذين مدح بهما القاضي ابن نصر المالكي ، ومرثية جعفر بن علي بن المهذب . والمجموعة الثانية هي التي سماها « لزوم ما لا يلزم » .

- ٢ -

هذه المجموعة الثانية من أشعار أبي الملاء قد نظمت بعد رجوعه من بغداد . وقد خط خطها ، وتكلف لها ما تكلف من لزوم ما لا يلزم ، ومن استيعاب الحروف الهجائية على الحركات الثلاث والسكون . قال في مقدمتها :

« كان من سوائف الإقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة ، وزهتها عن الكذب والميط . ولا أزعمها كالسمط المتخذ ، وأرجو ألا تحسب من السميطة . فمنها ماهو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد . . . الخ » .

وقال في المقدمة كذلك :

« وقد تكلفت في هذا الكتاب ثلاث كلف :
 الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها .
 والثانية : أن يحجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك .
 والثالثة : أنه لزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من
 الحروف » .

فهذا شعر حدد موضوعه واختير له نظام في القوافي ، وترتيب على الحروف
 وحركاتها . وكأنه كتاب من كتب العلوم اتصل تأليفه حتى كمل . وهي خطة
 تسلي بها في عزلته . فينبغي أن يكون تاريخه متصلاً ونظمه متوالياً .
 وأنا ادعي أن ماتضمن هذا الكتاب من الآراء هو فلسفة أبي العلاء في عزله
 بعد سنة أربعمئة ، وإن هذا الكتاب كله ، إلا أن تشذ أبيات قليلة ، نظم بعد هذه
 السنة .

يدل على هذا أن أبا العلاء قال في مقدمة السقط : إنه رفض الشعر . وقال
 في مقدمة اللزوميات : « وقد كنت قلت في كلام لي قديم إنني رفضت الشعر .
 رفض السقب غرسه ، والرأل تريكنه . والغرض ما استُجيز فيه الكذب ،
 واستمين على نظامه بالشبهات . فأما الكائن عظة للسامع ، وإيقاظاً للمعتوسن ،
 وأمرراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جبالوا على انغش والمكر ، فهو
 إن شاء الله مما يُلتمس به الثواب » .

فهذا النظم الذي توخى فيه العظة والإيقاظ كان بعد النظم الذي جرى فيه
 مع الشعراء ثم رفضه رفض السقب غرسه ، والرأل تريكنه .
 ودليل آخر أنه ذكر سنه في كثير من أبيات اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ،
 ولم يذكر ما دون الأربعين ، وهو قد بلغ الأربعين سنة ثلاث وأربعمئة ،
 إلا بيتاً واحداً في هذه القطعة :

إذا هبت جنوب أو شمال فأنت لكل مُقتاد جنيب
 ورويدك إن ثلاثون استقلت ولم يُنب الفقى فقى ينيب
 وانخطاب في هذا البيت إما أن يكون لغير الشاعر وإما أن يكون بعض
 اللزوميات قد نظم حين جاوز الثلاثين قبل سفره إلى بغداد ، وإما أن تكون

هذه القطعة نظمت كذلك بعد رجوعه من بغداد واعتزامه الاعتزال ، وكانت سنه حينئذ سبعاً وثلاثين سنة ، فقد مضت الثلاثون ولم يبلغ الأربعين ؛ فليس بعيداً أن يذكر مرور الثلاثين . ومهما يكن فجمهرة الكتاب نظمت بعد سنة أربعمئة كما أسلفت .

ودليل آخر على أن أبا العلاء شرع بنظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد بقليل ، أنه يذكر في اللزوميات — كما فعل في سقط الزند — رحلته إلى العراق أسفاً على الرحيل وعلى الأوبة . وهذا ، في غالب الظن ، لا يقال بعد مضي سنين كثيرة على هذه الرحلة :

وما بيَ طرقٍ للعسير ولا السُرى لا تني ضرير لا تضيء لي الطُرق
أغربانك السحماً استقلت مع الضحى سوانح أم مرّت حمائمك الورق
رحلتُ فلا ديناً ولا دين نلت وما أوبقي إلا السفاهة والخرق

يا لهف نفسي على أُنّي رجعت إلى هذى الديار ولم أهلك ببغداد
إذا رأيت أموراً لا توافقني قلت الإياب إلى الاوطان أدّى ذا

شئمت يا همة عادت شامية من بعد ما أوطنت عصراً ببغداد

وأزيد على هذه الأدلة أن أبا العلاء ذكر سنّ الأربعين في اللزوميات ، وقد بلغها بعد رجوعه بسنين ثلاث .

— ٣ —

إن كان المعري شرع ينظم لزوم ما لا يلزم حين رجع من بغداد أو بعد رجوعه بقليل فكيف استمرّ ينظمها ، ومتى انتهى من نظمها وجمعها ورتبها وكتب لها المقدمة التي كتب ؟
يمكن أن نجيب هذا السؤال بوسيلتين ؛ الأولى تتبع الحادثات التي ذكرها والرجال الذين أورد أسماءهم في شعره . والثانية استقراء الإبيات التي ذكر فيها سنه .

(١) الحوادث والرجال :

١ - أولا : بنو عامر وطبي :

يذكر أبو العلاء قتنا وخطوباً أثارها بنو عامر وطبي في الشام وما حولها ، ويسمي بمض رجالهم في مواضع كثيرة ، منها :

لماذا عامر تبعت صالحا وزجت بنو قرة الحردبا
وأردف حسان في مأنج متى هبطوا مُخصباً أجديا
وإن قرعوا جبلا شاعخا فليس يُمنف إن يجديا
رأيت نظير الدبا كثرة قديرهم كميون الدبا

ومنها :

ألم تر طيئاً وبني كلاب سمو بالبلاد غزة والعريش
ولو قدروا على الطير الفوادي لما نهضت إلى وكر بريش
ويذكر طيئاً وزعيمها حسان في قوله :

قد أشرعت سنبس ذوابلها وأرهفت مُبحتر معايلها
لفتنة لا تزال باعشة راحها في الوغى ونايلها
حسان في الملك لا يحس لها تزجي إلى موتها قنابلها

ويقول :

أرى حلبا حازها صالح وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طبي يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار ثغما على هامهم معلقا
رمت جامع الرملة المستضام فأصبح بالدم قد مُخلقا
وقد رثى للرملة كثيراً وحزن لما ناب أهلها ؟ يقول :
والرملة البيضاء غودر أهلها بعد الرفاغة يأكلون قفارا

عتروا الفوارس بالصوارم والقنا والملك في مصر يمتزقها (١)

(١) الملك في مصر كان للفاطميين حينئذ وكان الخليفة منهم الظاهر (١١١ - ١٢٢) فهو يعلم الفاطميين على أن تركوا هذه القبائل تبت في الأرض وهم لاهون بتعتبر فارات المسك يطيبون بها لا بعقر الفوارس . والعتر الذبيح .

جعلوا الشفار هوديا لتنوفة مرهاء تكحل بالدجى أشفارها
تكتبو زناد القادحين وعامر بالشام تقدح مرخها وعفارها
ويقول :

أيا قيل إن النار صال بحرها مقيم صلاة والمهند وارس
وبالرملة الشعثاء شيب وولدة أصابهم مما جنيت الدهارس
وقد ظهرت أملاك مصر عليهم قبل مارست من ظلمها ماتمارس
وأحسن منكم في الرعية سيرة طفج بن جف حين قام وبارس
وقد ذكر المعري هذه الحادثات في سقط الزند كذلك ، إذ قال في القصيدة
التائية التي بعث بها الى علي التنوخي بعد رجوعه من العراق :

يبي وبينك من قيس وإخوتها فوارس تذر المكثار سكينتا
ويقول في القصيدة الطائية التي أرسلها إلى خازن دار العلم ي بغداد وهو محتجب
بعمره النعمان :

وما أذهلتني عن ودادك روعة وكيف وفي أمثالها يجب الغبط
ولا فتنة طائية عامرية يحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقد طرحت حول الفرات جرائها إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو
فوارس طعمانون ما زال للقنا مع الشيب يوماني عوارضهم وخط
وكل جواد شفه الركض فيهم وج يتخفى أن فارسه سقط
ونباله من مجتر لو تعمدا بليل أناسي النواظر لم يخطوا
فما هذه الفتن التي ذكرها أبو العلاء ومتى كانت ؟

كانت أمور الشام ولا سيما البلاد الشمالية في أواخر القرن الرابع وأوائل
القرن الخامس مضطربة بين سلطان الفاطميين والامراء المتغلبين من بني حمدان
ومواليهم ومن رؤساء القبائل العربية . وقد استولى صالح بن مرداس الكلاي
صاحب الرحبة على حلب في هذا الاضطراب سنة ٤٠٢ . ثم وقعت خطوب
ودت حاباً إلى سلطان الفاطميين حيناً . فلما قتل نائب الفاطميين عزيز
الدولة سنة ٤١٢ ، وتولى من قبلهم ابن شعبان طمع صالح بن مرداس في
التغلب على نواب الفاطميين فخالف اثنين من رؤوس العرب هما حسان الطائي

وسنان بن عليان الكلبي واتفقوا على أن يقتسموا الشام من حلب إلى حدود مصر ، فصارت حلب وما يليها لصالح ، ودمشق لسنان ، والرملة وما يليها إلى مصر لحسان . وذلك سنة ٤١٤ . وقد تقدمت أبيات المعري التي تذكر هذا التقسيم .

هذه حوادث وقع بعضها في العقد الاول من القرن الخامس ومعظمها في العقد الثاني . فهذه الابيات قد نظمت كذلك في هذين العقدين ولا سيما الثاني منهما .

ثانياً — يُذكر صالح بن مرداس في اللزوميات مرات آخر لحادث آخر كان له في نفس المعري أثر باق .

نقل ياقوت عن أبي غالب بن مذهب المعري في حوادث سنة ٤١٧ من تاريخه : « صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يقتصبها نفسها . فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه . وكان أسد الدولة (صالح) في نواحي صيدا فوصل الأمير أسد الدولة فاعتقل من أعيانها سبعين رجلا . وذلك برأي وزيره تادرس بن الحسن الاستاذ . وأوهمه أن في ذلك إقامة للهيبة — قال ولقد بلغني أنه دعي لهؤلاء المعتقين بآمد وميّا فارقين على المنابر — وقطع تادرس عليهم ألف دينار . وخرج الشيخ أبو العلاء المعري إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة وقال له : مولانا السيد الاجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها كالنهار المانع اشتد مجيره وطاب برده ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حداه . خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قُطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه . »

ونقل ياقوت أيضاً عن القفطي أنه وجد على ظهر ديوان الاعشى في مدينة قنط سنة ٥٨٥ ما يأتي : « حكي أن صالح بن مرداس صاحب حاب نزل على معرة النعمان محاصراً لها ونصب عليها المجانيق واشتد في الحصار لاهائها . فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبي العلاء لعجزهم عن مقاومته لانه جاءهم بما

لا قبل لهم به وسألوا أبا العلاء تلافي الأمر بالخروج إليه بنفسه وتدير الأمر برأيه إما بأموال يبدلونها أو طاعة يعطونها ، فخرج ويده في يد قائده وفتح الناس له باباً من أبواب معرة النعمان ، وخرج منه شيخ قصير يقوده رجل . فقال صالح هو أبو العلاء فحيثوني به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ثم قال : الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع الخ .

وهذه الحادثة ذكرها المعري في موضعين من اللزوميات في حرف الدال المكسورة واللام المكسورة . يقول :

تقيت في منزلي برهة	ستير العيوب فقيد الجسد
فلما مضى العمر إلا الأقل	ومحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيماً إلى صالح	وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام	وأسمع منه زئير الاسد
فلا يعجنني هذا النفاق	فكم نفقت محنة ما كسد

ويقول :

آليت أرغب في قيص مموه	فأكون شارب حنظل من حنضل
نجى المعاشر من برائن صالح	رب يفرج كل أمر مُعضل
ماكان لي فيها جناح بعوضة	والله ألبهم جناح تفضل

فباتان القطعتان نظمتان في حادث وقع سنة سبع عشرة وأربعمائة . والظن أن نظمه لم يتأخر عن هذا التاريخ كثيراً .

مثلاً — يذكر الشاعر « محموداً » في مواضع كثيرة يقول :

يسلك محمود وأمثاله طريق خافان وكنداج

أسر إن كنت محموداً على خاق	ولا أسر بأني الملك محمود
ما صنع الرأس بالتيجان يمهدها	وإنما هو بعد الموت جلود

لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

سيموت محمود ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق

من محمود الذي كرر المعري ذكره وجمله مثلاً في الملوك وقال إنه لا يسره أن يكون في منزله ، وإن الدهر سيبتش به كما ببتش بالضعفاء ؟
في تعليقات الطبعة المصرية أنه أمير المعرة إذ ذاك . ولا نعرف من تولى في تلك النواحي ذلك العصر إلا محموداً حفيد صالح بن مرداس . ومحمود هذا تولى الإمارة سنة ٤٥٢ ، وخلع في السنة التالية ، ثم تأمر مرة أخرى سنة ٤٥٤ ، فدامت له الإمارة حتى سنة ٤٦٨ . فقد تولى بعد وفاة المعري .

ولا أدري لماذا أثبت الشيخ الميعني البيت الاول : « يسلك محمود . . . الخ » اول فصل من كتابه عن المعري عنوانه : « هو ووزير محمود بن نصر بن صالح » . نقل في هذا الفصل ما يقال عن تدبير محمود هذا لقتل المعري وخلص المعري بالدعاء . وهي خرافة مروية نفاها الشيخ الميعني وقال إن محموداً تولى بعد وفاة المعري كما قلت . فهل الميعني ، مع نفيه هذه الخرافة ، يظن أن محموداً الذي في البيت هو حفيد صالح ذكره المعري قبل توليه الملك ؟ لأدري لماذا أثبت هذا البيت في فاتحة هذا الفصل .

والذي أراه أن محموداً الذي أكثر المعري ذكره هو سلطان ذاع صيته في ذلك العصر وضرب المثل بقدرته وغناه ، هو يعين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين فاتح الهند . ولهذا قرنه المعري بالخليفة في البيت : لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

والسلطان محمود تولى الملك من سنة ٣٨٧ إلى سنة ٤٢١ . فهذه الايات التي تضمنت اسمه نظمت قبل سنة ٤٢١ ولا ريب لان المعري يذكره ذكر الاحياء ، ويقول : « سيموت محمود . . . الخ » . ويزيد هذا وضوحاً أن الشاعر يقول في اللزوميات أيضاً :

محمودنا الله والمسمود خائفه فعدّ عن ذكر محمود ومسمود
ملكنا لو أنني خيرت ملكهما وعود صلب أشار العقول بالعود
ومسمود هو ابن السلطان محمود استقر له الملك سنة ٤٢١ بعد أن ظفر

بأخيه محمد . وبقى له السلطان حتى سنة ٤٣٢ . وأما السلطان محمود السلجوقي وأخوه مسعود فقد ملكا في القرن السادس الهجري .

رابعاً — كان أبو القاسم المغربي الوزير ممن أقام بالمرّة وكان يواد الميري ويراسله ، وكان الميري يحفظ له ولأبيه من قبل أيّديه . فلما توفي رثاه بأبيات مثبتة في اللزوميات . ولا أعرف فيها رثاء لغيره أو مدحاً صريحاً :

ليس يبق الضرب الطويل على الدهر ولا ذو العبالة المرحاه
يا أبا القاسم الوزير ترحل ت وخلفتني ثقال رحاه
وتركت المكتب الثمينه لنا س وما رحت عنهم بسحاه
ليتني كنت قبل أن تشرب الموتي أصيلاً شربته بضحاه
إن نحتك المنون قبلي فاني منتحاهها ولأنها منتحاه
أم دفر تقول بمدك للذا ثق لا طعم لي فأين فحاه
إن يخط الذنب اليسير حفيظا ك فكم من فضيلة محاه
وهذا الوزير توفي سنة ٤١٨ . فهذه القطعة نظمت في هذه السنة .
خامساً — يقول الميري :

ألم ترني وجميع الانام في دولة الكذب الذائل
مضى قيل مصر إلى ربه وخلى السياسة للخالل
وقالوا يعود ققلنا يجوز بقدره خالقنا الآئل
اذا هب زيد الى طيء وقام كليب الى وائل
أظن أن قيل مصر المعني في هذا البيت هو الحاكم بأمر الله الفاطمي ،
فهو الذي انتظر بعض الناس عودته . والحاكم هلك سنة ٤١١ . فالظاهر
أن هذه الايات نظمت قريباً من هذا التاريخ .

(ب) سن الميري في اللزوميات :

يذكر الميري سنه في اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ؛ تارة يقول بلغت كذا أو جاوزت كذا ، وتارة يقول : إذا بلغ الانسان كذا آن له أن يرعوي أو حان له أن يهلك . وقد عبرت اللزوميات مستقصباً الايات التي يذكر فيها سنه ؛ فاذا هو يذكر الاربعين مراراً ويذكر الخمسين كثيراً

ولا يذكر مادون الاربعين إلا مرة واحدة قدمت الكلام فيها ، ويذكر
السبعين مرة سأبثتها من بعد .

يقول في الهزبة التي افتتح بها اللزوميات :
إذا ما خبت نار الشبية ساءني ولو نص لي بين النجوم خباء
أراييك في الود الذي قد بذلته فأضعف إن أجدى لديك رباء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا ولا بعد مر الاربعين صباء

* * *

ويقول :
خير الحياة شرورها وسرورها من عاش مدة أول المتقارب
وافى بذلك أربعين فإله عذر إذا أسمى قليل تجارب

* * *

ومنى سرى عن أربعين حليفها فالشخص يصغر والحوادث تكبر

* * *

ورميت أعوامي ورأيت مثل ما رمت المطي مهامه السفار
وركبت منها أربعين مطية لم تخل من عنت وسوء نفار

* * *

شربت سفي الاربعين تجرعا فإمقرأ ما شربه في ناجع

* * *

ويجوز أن تدل هذه القطعة أنه باغ ثمانيا وأربعين :
عش يا ابن آدم عدة الوزن الذي يدعى الطويل ولا تجاوز ذلكا
فاذا بلغت وأربعين ثمانيا فحياة مهلك أن يوسد هالكا
وأما ذكر الخمسين فأكثر وأصرح :

حياتي بعد الاربعين منية ووجدان حلف الاربعين فقود
فإني وقد أدركت خمسة أعقد أييني وبين الحادثات عقود ؟

* * *

إذا كنت قد جاوزت خمسين حجة ولم ألق خسرًا فالنية لي ستر
وما أتوق ، والخطوب كثيرة ، من الدهر إلا أن تحل بي الهتر

إذا طلع الشيب المسلم فحيه ولا ترض للمين الشباب المزوروا
لقد غاب عن فرديك خمسين حجة فأهلا به لما دنا وتسورا

وما العيش إلا لجة باطلية ومن بلغ الخمسين جاوز غمرها

أخمين قد أفنيتهما ليس نافعي بتأخير يوم أن أعرض على خمس

لاخير من بعد خمسين انقضت كملا في أن تمارس أمراضا وأرعاشا

خسون قد عشتها فلا تمش والنمش لفظ من قولك انتمش

علقت بجبل العمر خمسين حجة فقد رث حق كاد ينصرم الجبل

كأنك بعد خمسين استقلت لولدك ، البناء دنا ليهوى
وقد ذكرت الخمسون في ثلاث قطع أخرى ، في حرف الطاء والكاف
والميم . ولم تذكر الستون في اللزوميات قط . وجاء ذكر السبعين في قوله :
من عاش سبعين فهو في نصب وليس في العيش بعدها خيره
رجحنا أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد كما
قلت آنفا . وقد عرفنا أنه ذكر سن الاربعين والخمسين كثيرا ولم يذكر
الستين قط على برمه بالحياة وتمجده الموت — ولو بلغها وهو ينظم اللزوميات
لاكثر ذكرها — فساغ أن نقول إن الرجل نظم اللزوميات من سن الاربعين
إلى أن يتف على الخمسين . وأما السبعون فأغلب الظن أنه لم يعن بها نفسه .

وإن قدرنا أنه المعني بها فقطعة أو قطع قليلة نظمت بعد وألحقت بهذه المجموعة التي نظمت كلها أو جلها في السن التي قدّرت .
ويؤيد هذا أن الحوادث التي ذكرها وقعت كما بينت في أوائل القرن الخامس ولم تتأخر عن سنة ٤٢٠ وكذلك الرجال الذين ذكرهم أحياء كصالح بن مرداس ومحمود بن سبكتكين ماتوا قريباً من هذا التاريخ .
وقد رثى الوزير المغربي الذي توفي سنة ٤١٨ . وأشار إلى وفاة الحاكم بأمر الله وقد توفي سنة ٤١١ . فكل حادثة مؤرخة نجدها في اللزوميات تقع في العشرين الأولى من القرن الخامس . وكل رجل ذكره الشاعر ذكر الأحياء هلك حول هذا التاريخ : صالح مات سنة ٤٢٠ ، ومحمود مات سنة ٤٢١ .

وأما مسعود بن محمود الذي تولى سنة ٤٢١ فقد ذكره مرة مع أبيه ولم يعد إلى ذكره . فهو لم ينظم في أيام مسعود بعد هلاك محمود ، أو لم ينظم إلا نادراً .

وأعزّز بأمر يستأنس به مضموماً إلى الأدلة السابقة ، أن أبا العلاء ذكر في مواضع من الكتاب أنه لم يشب ، وزعم أنه كان جديراً بأن يشيب ، وأنه لا يبره بقاء شعره أسود . يقول :

ويحمل الهم قلبي معنياً جسدي رأسي أحمر وظهري غير منأطر

* * *

غرك سود الشعرات التي في الوجه مني وأنا الدالف
كلفتني شيمة عصر ضي هيات منك العصر السالف

* * *

يا مفرقي هلا ايضضت على المدى فما سرتني أن بت أسود حالكا
قبيح بفود الشيخ تشبيه لونه بفود النقي والله يعلم ذلكا

* * *

تأخر الشيب عني مثل مقدمه على سواي ووقت الشيب ما حضرا

* * *

ثم ذكر في مواضع كثيرة لا تقل عن عشرة ، شيب رأسه وبياض شعره ،
مثل قوله :

نمنا على الشيب فهل زارنا طيف لأصل الشرخ منتاب

* * *

كانت مفارقُ جِون كأنها ريش غِربه
ثم انجلت فمجبنا للقدار بُدَل صِربه

* * *

أذهب فيكم أيام شبي كما أذهبت أيام الشباب

* * *

قد شاب رأسي ومن نبت الأثرى جسدي فالنبت آخر ما يقتو به الزهر

* * *

أيها الشيب لا يريك من كفي مقص ولا يواريك خطر

إن نهيت النفس اللجوج عن الإثم وطابت فإنما أنت عطر

فقد نظمت اللزوميات وشعره أسود ، ثم استمر النظم حتى شاب .
وهذا يلائم السن التي ذكرتها والتاريخ الذي حددته . ولو أنه نظمها قبل
الاربعين لما ذكر الشيب ، ولما استبطأه . ولو نظمها بعد الخمسين لما ذكر
المفرق الحالك والشعرات السود . ولا يجوز أن يدعى أنه نظم قبل الشيب
واستمر ينظم حتى مات ، وسن الشيب متصلة بالموت . فقد دلت الأدلة الأخرى
على أنه لم يستمر في النظم طول عمره .

ويمكن أن يقال : إن كان أبو الملاء فرغ من نظم اللزوميات أو كاد
حين بلغ الخمسين فكيف ذكر الكبر متبرما ، وطول الثواء متمملا ، وذكر
دنو الاجل وقرب الرحيل ، وسقوط الاسنان ، في مثل قوله :

طال الثواء وقد أتى لمفاصلي أن تسقبد بضمها صحراؤها

* * *

وما زال البقاء يرث جبلي إلى أن حان للعرس انقطاع

* * *

أعلل مهجتي ويصيح دهري ألا تغدو فقد ذهب الرفاق

تخلفت بعد الطاعنين كأنهم رأوك أخا وهن فما حملوكا

أيتها النفس لاتهالي شرخي قد مر واكتهالي
لم يبق إلا شفا يسير 'قرب من موردي ينهالي

ففي أخذت منه الليالي وإنني لاشرب منه في إناء مثلم

رب متى أرحل عن هذه الد نيا فاني أطلت المقام
هذه الايات وأشباها تصدر عن الشيخ هم ، بلغ أرذل العمر ، وذهب
جيله وبقي وحده . ولكن المعري له شأن آخر ، فهو يبرم بالحياة في
عنفوانها ويقول :

شربت سني الاربعين تجرعا فيا مقراً ما شربه في ناجع
وبرى ان الحياة بعد الاربعين موت ، والوجدان فقد .
حياتي بعد الاربعين منية ووجدان حلف الاربعين فقوم
فشكوى أبي العلاء من الضعف ، وهتافه بالموت ، وبرمه بالحياة لا يدل
كل حين على الشيخوخة أو الهرم .
وأما قوله :

ففي أخذت منه الليالي وإنني لاشرب منه في إناء مثلم
فسقوط الأسنان كثيراً ما يعرض في السن التي قد رت أنه نظم فيها الكتاب .
وقد ذكر سقوط أسنانه في رسالته إلى أبي الحسن بن سنان ، وقد تقدم
إليه باختصار كلية ودمنة بأمر عزيز الدولة . وعزيز الدولة قتل سنة ٤١٢ ،
ولما يبلغ أبو العلاء الخمسين .

المبحث الثاني

ترتيب اللزوميات

- ١ -

وضع أبو العلاء خطة هذه المنظومة متكلفاً فيها ثلاث كلف كما قال في المقدمة :
أن يلتزم في قوافيه حرفاً لا يلزم ، وأن ينتظم حروف المعجم كلها ، أن
يستوفي في كل حرف الحركات الثلاث والوقف .

وقد تبين من تاريخ الحوادث التي ذكرت في هذا النظم و من تاريخ
الرجال الذين ذكرهم ومن الأسمان المختلفة التي ذكرها أن الترتيب الهجائي
لا يسير الترتيب الزمني . أنظر إلى روي الأبيات التي أثبتتها فيما تقدم ، وإلى
تاريخ الحوادث التي تتضمنها والأسمان التي تذكر فيها تر هذا واضحاً . فلا
يسوغ أن نظن أن قطعة على روي الباء مثلاً ينبغي أن يتقدم تاريخها على قطعة
في حرف الميم ، وينبغي ألا ينظر إلى الترتيب الهجائي في تتبع آراء أبي العلاء
في لزومياته .

- ٢ -

ودليل آخر : أن كثيراً من القطع المتوالية تتفق في الموضوع أو تتفق
في الوزن والقافية بل تتفق في كلمات القافية أحياناً . فلو أنه نظمها ولاء لم
يكن للفصل بينها وجه ، وكان يلزم أن تكون قطعة واحدة ، ولو نظمها
قطعة متوالية لم يُعجز لنفسه أن يكرر فيها القوافي والمعاني ، فليس الفصل
بينها إذاً إلا بأنها نظمت في أحيان مختلفة ثم جمعت .

أنظر إلى هاتين القطعتين ، وهما متواليتان على الميم المضمومة :

العقل يجبر أنني في لجة من باطل وكذاك هذا العالم
مثل الحجارة في المعطات قلوبنا أو كالديد فليتها لا تالم
ويليها :

لم تلتق في الأيام إلا صاحباً تأذى به طول الحياة وتالم
وئيد كونك في الزمان بلية فاصبر لها فكذاك هذا العالم
ويقول من قطعة في حرف الفاف :

مرازبُ كسرى ماوقت مهجة له وقصر لم يمنع رداه الطارق
وفي قطعة تليها :

وهل أفلت الأيام كسرى وحوله مرازبه أو قصر وبطارقه
فلو أن القطعتين نظامتا ولاء ماكرر هذا المعنى .

وأما القطع المتوالية المتفقة في الوزن والقافية ، وبروي وحركته أو
سكونه فكثيرة لا تحوج الى التمثيل هنا . والامر كله أئين من أن يطل
فيه الكلام .

— ٣ —

وهنا نسأل : إن كان أبو الملاء لم ينظم على ترتيب الحروف والحركات
فكيف ضمن الوفاء بما التزم من استيعاب الحروف وحركاتها ؟ إن كان قد
نظم على الروي والحركة اللتين تعنان له دون أن ينتقل من حرف إلى ما يليه
ومن حركة إلى ما بعدها فكيف استوعب الحروف والحركات ؟
لنا أحد فرضين : إما أن الرجل كان يأمر كاتبه أن يكتب كل حرف
في فصل على حدة ، وكان يستعيده قوافي هذا الفصل فيكمل نقصه حتى
كملت الحروف والحركات . وإما أنه جعل الكتاب كله مجموعة واحدة على
غير تفصيل ، وكان يقصد إلى تغيير الحروف كل حين على غير ترتيب .
فلما اجتمع له مقدار كبير من المنظوم رتبته وأكمل نقصه . وبهذا يشعر
قوله في المقدمة : وهذا حين أبدأ بترتيب النظم .

ونحن نجد في الكتاب قطعاً نظن أنها لم تنظم إلا لضرورة هذا الاستيعاب
فائشاء المفتوحة ، والذال الساكنة ، والضاد المضمومة ، والطاء الساكنة ،
والهاء الساكنة ، لم ينظم في كل منها إلا بيتين اثنين وهما أقل ما ينظم
لإيقاظ خطته . وقد قال هو هذا في آخر المقدمة .

— ٤ —

نظم أبو الملاء ملتزماً ما لا يلزم ، ومستوفياً الحروف وحركاتها ، ورتب
كتابه على الحروف وعلى حركات كل حرف ، وقال في آخر المقدمة :
« وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلاً ؛ لكل

حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الالف وحدها فلها فصل واحد ، لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق .

وقد أدركت أنا بالتأمل في فصول اللزوميات ، ترتيباً آخر لم ينبه إليه المرعي . وهو يسر على الباحث عن الآليات في الكتاب ، زيادة على التيسير بترتيب الحروف والحركات . ذلك أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبجدر عند العروضيين .

ف نجد البحر الطويل في الفصل مقدماً على غيره ، والمتقارب مؤخراً عن غيره ، والأبجدر بينها على ترتيبها . وليس معنى هذا أنه استوفى في كل فصل الأبجدر الخمسة عشر ، بل المعنى أن ما يوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

فالذي يبحث عن قطعة أو بيت على الراء المفتوحة — مثلاً — لا يلزمه ، إذا عرف الوزن ، أن يبحث في أبيات الراء المفتوحة كلها ، بل يطلب البحر الذي فيه وزن القطعة أو البيت في موضعه من الراء المفتوحة . وذلك يسير إذا عرف ترتيب الأبجدر في العروض وهو أمر أمم .

* * *

هذا ما بدالي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بداله ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليفضل مشكوراً بالأدلاء برأيه والإبانة عن حجته . وكنت همت أن أتبع هذا البحث بنظرة شاملة في موضوع اللزوميات وترتيب أمهات الآراء فيها سلسلة ، ولكن عداني عن هذا طول البحث وتجاوزه الحد الذي يحده ضيق الوقت وكثرة المتكلمين في حفلات أبي العلاء . ولعلي أضمه إلى هذا البحث من بعد ليكونا بحثاً بجمعاً جامعاً مستوعباً اللزوميات : تاريخها وترتيبها وموضوعها . وبالله التوفيق .

عبد الوهاب عزام

شَيْخُ الْمَمْرَةِ وَالشَّيْخُ الدَّرَا

موضوع كلتي أيها السادة لا يتعلق بأبي العلاء نفسه . وإنما يتعلق بوصف كتاب مخطوط دمشقي له علاقة بآثاره . وتفسير أشعاره . وهو موضوع على قلة شأنه بالنسبة إلى موضوعات الأفاضل الذين تكلموا في هذا المهرجان الألفي — فيه جدّة تسوّغه . ونسبة دمشقية تروّجّه . وشيء من مفاجأة يشفع به .

على أن موائد العلم كموائد الطعام . لا تستطاب ما لم تعدد ألوانها . وتبائن طعومها . ويجد كل من الآكلين ما يلذ له منها .

وإن كان شاعر بني عبس شكّا شعراء زمانه الذين لم يفادروا له متردماً برّقه فإن المتكلمين من خطباء وشعراء في هذا المهرجان تركوا لي — من فضلهم وعن غير اختيار منهم — متردماً رتقته . وشتاتنا لمته . وخبراً من أخبار أبي العلاء . جئكم به أمشي على استحياء .

* *

إذا وازنا بين ما تركه لنا أبو العلاء من ثروة في أدبنا العربي وبين ما تركه غيره من أدبائنا الأقدمين وجدنا بطل مهرجاننا قد تقدمهم . وأبرّ عليهم . وكان له السبق خاصة في ثلاث خصال :

(١) أخطأته المبتكرة في المعاني .

(٢) أسلوبه القصصي^(١) في إيراد أبحاثه اللغوية والادبية .

(١) هنا موضع التساؤل أو التعجب من أبي العلاء في وضعه طائفة من مصنفاته في شكل حوار خيالي بين عدة أشخاص أو بين الطير والحیوان والملائكة أحياناً : فن تصفح اسماء الكتب التي صنفها علماء حاشوا في زمن أبي العلاء وقبل زمنه وبعد زمنه لم يجد فيها ما يجده في مصنفاته هو من هذا الأسلوب الخيالي : فبين مصنفاته [أدب الدهفودين] [مُخطب الخيل] [رسالة الضمير] [رسالة على لسان ملك الموت] [جمع الحمام] [الصاهل والشاحج] [كتاب القائب] قالوا إنه على مثال كتاب كلية ودمنة [رسالة النفران] [رسالة الملائكة] -

(٣) نقده الجري للظلم الاجتماعية الفاشية في زمانه .
على أن آثار أبي العلاء ليست كلها سواء في حسن السياقة . ولا في قرب تناول . ولا في الفائدة والامتناع : فسقط الزند شعر ولا كاللزوميات . والفصول والغايات ثر ولا كرسالة الغفران . حتى أن أبا العلاء نفسه كان يأنف من نسبة أشعار (سقط الزند) إليه . أو أن تقرا عليه . أو أن يتمثل بها لديه . وكان يسمى سقط الزند (ديوان الصبي) بينما كان يسمى شرحه على اللزوميات (راحة اللزوم) .
ومن بين هاتين التسميتين يمكننا أن نستخرج اعتراف أبي العلاء نفسه ببداعة لزومياته . وتختلف ما عداها .

— وهي على شكل رسالة الغفران غير أن رسالة الغفران أوسع منها خيالاً . وأتمم امتناناً . وله كتاب باسم [نظم السور] وهذه التسمية تشير بأن سور القرآن تتشاكى وتنظم من بعض النظم . كل هذه المصنفات مما وضعه أبو العلاء . وهي تدل على أن له ميلاً خاصاً أو ذوقاً خاصاً في فن القصة لم نهد في غيره من عبارة المؤلفين الذين عاشوا في زمانه ومثل بيئته فمن ورث هذا الميل يا ترى ؟ وكيف تسرب الى نفسه ؟
نعم ان شروط فن القصة في آثاره الخيالية هذه لم تتوفر بتمامها فيها لكن نواتها قد وجدت فيها مستوحاة من طبع أبي العلاء وغريزته البقرية .
يخطر لي أن هذا الميل في أبي العلاء ان لم يكن تسرب الى طبعه من القرآن الكريم فقد تسرب اليه من الفرس فقد كان له « كما يظهر من ترجمته ومجموع أخباره » زوار وخلاط . وثلايد منهم : أشهرهم الخطيب التبريزي وكان تلميذاً له ويظهر أن المعرة كانت إلى عهد قريب منزلاً للعجاج والزوار الإيرانيين يقصدونها لموقعها من طريقهم ولاثر في جامعها منسوب الى سيدنا الحسين . ومن أشهر من زار المعرة في زمن أبي العلاء من الفرس « ناصر خسرو » الرحالة الفارسي العظيم وقد وصفها ووصف أبا العلاء في رحلته التي سماها [سفرنامه] فلا جرم أن يكون أبو العلاء — وهو الذكي الأملح الترف اللذيق — عرف من هؤلاء الطرقات الفارسيين شيئاً ولو قليلاً من أدب الفرس وتخييلات شعرائهم وأسلوبهم القصصي في مصنفاتهم . وما نفس لا نفس [كلبلة ودمنة] و [شهنامة الفردوس] . ومن كان في ذكاء أبي العلاء لا يعوزه لاجل التأثر والمحاكاة أكثر من هذا القليل حتى تقيض قريحته بالكثير مما كان على نمطه ومضروباً على غرار . ويمكن أن تعدد مقامات البديع الهذلي من جملة الآثار الخيالية التي تأثر بعضا منها أبو العلاء : فهي — وان كانت عربية في مولدها — فارسية في محتدها . إذ أن البديع فارسي العرق : كان يقيم بهرات ومات فيها . وكان ماضراً لأبي العلاء : جميعها وبديع الشباب وعاش المرمرى بعده أكثر من نصف قرن .

إذن يصح القول بأن أبا العلاء ليس سوى لزومياته : فهي التي لم يفر فيها قريحته أحد . ولم يُلهم في عمق تفكيرها إلهامه أحد . بل هي التي سجلت له حق الخلود من جهة . وكشفت لنا عن أسرار مجتمع زمانه من جهة أخرى . وقد نبهنا هو نفسه إلى صنيعه هذا مذ قال :

(ومن تأمل أقوالي رأى جملاً يظل فيهن سرُّ الناس مشروحاً)
وهل يريد بسر الناس إلا ما نزيده بقولنا : (أسرار المجتمع) (أسرار الوجود) (نواميس الاجتماع) (طبائع العمران) .

* *

ومن مواضع العجب أن أحداً من فحول العلماء لم يتصدَّ للزوميات فيشرحها كلها (١) شرحاً يستوعب فيه جميع ما دفن فيها من كنوز . واستتر تحت ذيلها من رموز .

ولو تصدى متصدٍ إلى شرحها على النحو الذي وصفنا لمذبحنا من واسع علمه (دائرة معارف) تحيط بثقافتنا العربية الاسلامية من جميع جهاتها . ولكن هذه الاحاطة تحتاج إلى عيلم (انسكلوبيدي) عام في مناحي علمه . شامل لكل فن ومطلب في اتساع ذرعه . وعمق تفكيره . ولا ندري ان كان أمثال هؤلاء العيالم تركوا شرح اللزوميات تهيئاً للعمل ؟ أو تأثماً من العمل ؟ لا جرم أن في اللزوميات ما يتفعل منه الورع المتزمت . ويقطب عند سماعه المسلم المتشدد . أما ديوان (سقط الزند) فلا يكاد يوجد فيه والحمد لله ما يحول بين المرء وقلبه . أو يلقنه الشك في ربه . ولذا كثر شراح السقط . وقل أو فقد من شرح اللزوميات .

* *

(١) بلقنا أخيراً أن قد شرح بعضها أبو عبد الله الطليوسي . ويوجد من شرحه هذا بعض أوراق في المكتبة التيمورية بالقاهرة . وبعض قصائد من الشرح المذكور في مكتبة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب في تونس .

وعلى قاعدة (ازهد الناس في العالم وأهله وجيرانه) زهد الجيران والاقارب في وضع شرح على السقط : أولئك الجيران والاقارب الذين عناهم أبو العلاء بقوله في (سقط الزند) :

(أإخواننا بين الفرات وجلّلى يدَ الله لا خبرتكم بمحال)

وقام الابعاد يشرحونه . ويتفننون في التعليق عليه . وإيضاح ما خفي منه : فشرحه التبريزي والرازي والخوانساري^(١) والايوردي والواحدي والاشيكتي والخوانزمي^(٢) وهؤلاء كلهم مشارقه . وربما كانوا أعاجم أيضاً . وشرحه من المغاربة الاندلسيين القادسي والبطلوسي^(٣) ،

ونسأل الجيران عن سبب زهدهم في شرح ديوان جارهم . فيجيبنا الاستاذ عباس الغزاوي البغدادي عضو مجمعنا العلمي بأن لديه شرحاً للسقط ألقمه سنة ١٢٧٧ هـ أحد أدباء العراق : وهو ابراهيم فصيح الحيدري البغدادي وسماه (نفح الرند) وقد قرظ هذا الشرح أمين أفندي الجندي مفتي دمشق الشام . وأسرة الحيدري أسرة علم في بغداد كانت . أما اليوم فمن أبرز شخصياتها السياسيين معالي (داود الحيدري) وزير العراق المفوض في لندن .

وأنتم يا علماء القطر الشامي ؟

يجيبنا صاحب كشف الظنون بأن ابن الرازي الحموي (المتوفى سنة ٧٣٧ هـ) له شرح على سقط الزند .

وأنتم يا أقرب الجيران : يا علماء دمشق الماضين الذين قال أبو العلاء في بلدكم : (دمشق عروس الشام المومقة . وواسطة عقدها المرموقة) ها أنتم أولاء ترون مبلغ عناية أحفادكم دماشقة اليوم بتكريم أبي العلاء في مهرجانه الالفي . أما لكم فيه أثر ؟ أولديكم عنه خبر ؟

فيجيبنا شيخان دمشقيان متعاصران ومتقاربان في الوفاة : (يوسف البديبي)

(١) وشرحه يسمى (التنوير) وهو مطبوع في الهند سنة ١٢٧٦ هـ ثم طبع في مصر سنة ١٢٨٦ هـ .

(٢) وشرحه يسمى (ضرام السقط) وهو مطبوع على هامش طبعة التنوير الهندية .

(٣) قال بروكلمان أن شرح البطلوسي قد طبع أيضا .

و (محمد بن نور الدين (١) الدرر) . يقول لنا الاول : إنه ألف في أخبار أبي العلاء كتاباً سماه (أوج التحري) (وهو الذي طبعه المعهد الافرنسي بدمشق . ووزعت نسخته خلال أيام مهرجانه الأثني) فنقول للبديهي لا يزيد هذا وإنما يزيد شرحاً لسقط الزند . فيهمهم إذ ذاك الشيخ الدرا وسعنا صوته المهيّب . من وراء برازخ الاموات قائلاً : انني وضعت شرحاً على ديوان سقط لزند الذي نظمته عروس مهرجانكم في مجلد تزيد صفحاته على خمسمائة صفحة . وفرغت من تأليفه سنة أربع وستين بعد الألف للهجرة . فيكون قد مر على ولادته إلى يومكم هذا ثلاثمائة سنة كاملة وبذلك أستحق أن يقام له مهرجان صغير بجانب المهرجان الأثني الكبير . وافتتحت مقدمته بقولي : (نحمدك يا من شرح صدر من بصّره بنور الهداية . فارتسم في ديوان حضرة الولاء . وطمس على بصيرة من حذره غرور الغواية . فأخذ إلى الارض وأبي العلاء) . إلى أن قلت في سبب وضمي للشرح المذكور ما خلاصته : إنني كنت مولعاً بدوياتي (ابن الفارض) و (أبي الطيب) كما كنت حريصاً على أن أنقهم معاني اشعار (أبي العلاء) في ديوانه (سقط الزند) . وقد صعب عليّ تفسير طائفة كبيرة منها . حتى علقت في الكف نسخة من الديوان عليها هوامش . فاستعنت بها في وضع شرحي هذا . معاً أنا فيه من الغربة في مدينة مُجدة حاجباً . وكتبي اللغوية بعضها في بلدي دمشق . وبعضها الآخر في الديار المصرية . وقد ترددت أولاً في الشروع حتى رأيت في المنام مولانا الشريف (زيد) ابن محسن (٢) وكان من سعادة تلك الرؤيا تقبيلي لراحته . فألهمت أن أخدم خزانة كتبه بهذا الشرح . ففعلت . وقدمت بين يدي خدمتي قصيدة مدحته بها . وجملت عدتها أربعة وستين بيتاً بعدد ما زاد على الألف من تاريخ نظمها الذي كان سنة أربع وستين بعد الألف ومطلعها :

(خذ عيني الحلي فم بدور طلعت في دجا الشعور مُتّير)
(كل بدر يُقله غصن بانٍ مشعر بالدلال لدن نصير)
(فقدت قلبها المناطق فيه فهي حيرى على الخصور تدور)

(١) وفاة الشيخ الدرا كانت بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ . وفاة الشيخ البديهي بلاد الروم

سنة ١٠٧٣ هـ .

(٢) راجع ترجمته في تاريخ الهي الدمشقي جز ٢ ص ١٧٦ .

قال : وكنت سميت شرحي (سقط العقبان والحلى لعروس ديوان أبي العلاء) .
ثم رأيت في المنام أنني أستقبح زندياً . واستصبح منه كذنباً . فعبثت
ذلك بأن أسميه (ضوء الفند^(١)) من سقط الزند) .

قال : وقد خطر لي أن أرتب قصائد الديوان على حروف المعجم بعد
أن أدمج فيها الدرغيات وأجعلها ديواناً واحداً — خلافاً لترتيب نسخه المتداولة
في أيدي الناس — ثم شرعت في العمل فقلت : قال أبو العلاء احمد بن عبد الله بن
سليمان المعري نسبة إلى المعرة وهي قرية من قرى دمشق الشام) إلى آخر ما قال المؤلف .
اقول : جعل المؤلف (معرة أبي العلاء أو معرة النعمان) من قرى
دمشق أمر مشكك : ويمكن تأويله بأن المعرة كانت في زمن المؤلف من
ملحقات حماة . وحماة من أعمال دمشق فتكون المعرة من قرى دمشق .
أو أن الناسخ أخطأ : أراد أن يكتب (حلب) فكتب (دمشق) . وهو
الاقرب . ومن المستبعد جداً أن يكون (الشيخ الدرا) أراد بمعرة أبي العلاء
معرة صيدنايا التي هي من قرى دمشق . نستبعد هذا لانه جهل مطبق .
لا يتفق مع فضل المؤلف المحقق .

هذه أنها السادة خلاصة ما قاله الشيخ الدرا في مقدمة شرحه . ثم ذكر
في خاتمته أنه أتمه في خلال تسعة أشهر . وأنه بيض منه أربعة كراريس
ورجع إلى وطنه دمشق . فتوفي في السنة التي بعدها (أي سنة خمس
وستين بعد الألف) ودفن في جبانة باب الصغير . وبقيت مسودات الشرح
مهمة مدة ثلاثين سنة . حتى قام ابن أخت المؤلف (عبد الحق بن علي الدرا)
فبيض المسودات بياضاً كاملاً . وذلك سنة خمس وتسعين بعد الألف .

والهجي في تاريخه^(٢) (خلاصة الاثر) ترجم للشيخ الدرا ترجمة حسنة وأثنى
عليه . وقال إنه كان من أببل أبناء وقته فاضلاً شاعراً ممتع المحاضرة قرأ

(١) الفند معناه الشمع الذي يستضاء به وهو لفظ لا تترفه العرب بهذا المعنى وربما كان
سريانيا . وقد كتبت فيه مقالا مسهباً نشرته مجلة الجمع العلمي العربي (مجلد ١٧ ص ٥٧)

(٢) جزء ٢ ص ٢٤٩ .

المريسة على النجم الغزي وحضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي فتفوق وشاع فضله ورحل إلى القاهرة مراراً . وأخذ عن الشيخ سلطان ومن عاصره من العلماء . ومدح من ساداتها الشيخ محمد البكري الصديقي بقصيدتين :
مطلع الأولى :

(خليلي خطا بالكاتب من مصر سقاها وحياها المريع من القطر)
ومطلع الثانية :

(من لقلب من الهوى لا يُفبق وعيون إنساُهن غريق)
ويظهر أن مخطوطة مكتبتنا هي التي كتبها عبد الحق ابن أخت المؤلف . وربما كانت وحيدة لا ثاني لها : فقد سألت عنها كبير آل الدرا في دمشق فقال إنهم يسمعون بها ولم يرو لها أثراً . وراجعت فهارس دار الكتب الظاهرية . ودار الكتب المصرية فلم أظفر بذكر لها . وقد كتبت على ظهر المخطوطة هذه الجملة : (إن هذا الشرح أحسن شروح الديوان) أما كيف وصلت هذه المخطوطة إلينا في طرابلس الشام فيمكن استنتاجه مما يلي :
يوجد في الصفحة الأربعين من المخطوطة هامشة نحوية بخط أديب كبير من أدباء دمشق هو أحمد بن الياس الكردي . وقد وقع عليها وأرخ بجانب التوقيع سنة كتابتها بمائة وثلاث وتسعين بعد الألف .
وأحمد الكردي هذا من عيون شعراء الشام في القرن الثاني عشر . ترجم له المرادي في تاريخه (١) وقال : إنه كان يلقب بالارّجاني (٢) الصغير وبالقاموس الماثني . وهو الذي وصف السفينة وصفاً أبدع فيه كل الإبداع وذلك يوم ركبها إلى مصر القاهرة بمدح واليها محمد باشا الشهير بالراغب ومطلعها

(١) سلك الدرر جزء ١ ص ٨٢ .

(٢) تشبهاً له بالارّجاني الكبير وهو لقب القاضي ناصح الدين أبي بكر أحمد المتوفى سنة ٥٥٤ هـ وربما كان السبب في أنهم شهبوه به إبداعه في وصف السفينة كما أبدع الارّجاني في وصف الشمة في قصيدته التي مطلعها :

(نمت بأمرار إيل كاد يحضيا وأطاعت قلبها قناس من فيها)

ثم سرد أوصافها إلى أن قال :

(صفر غلائها . حر عمامها سود ذواشها بيض لياشها)

(هذي 'مناي' بلغت لاوانها فالحمد للافلاك في دورانها)
ومنها :

(النيل أيتها السفين فليس لي في فارس أرب ولا أرجلها)
(فتر شني من ثغر 'دمياط' المني لا ظل ذاك الشنب من بوانها)
قال المرادي : ونزل أحمد الكردي طرابلس الشام وتزوج بها وحصل له بعض وظائف . ثم غادرها إلى حلب موافياً صديقه الوزير راغب باشا المذكور حينما جاء والياً . فمات فيها سنة تسع وتسعين ومائة بمد الألف للهجرة . أما كتبه فيظهر أنها بيعت في طرابلس . ومن جملتها مخطوطة الدرا التي قلنا إن عليها هامشة بخط أحمد الكردي فوقعت إلينا منذ ذلك التاريخ . وخط هذه النسخة جيد واضح . والأبيات وحدها مكتوبة بالهجرة . غير أن فيها طائفة من الأغلاط . لأن ناسخها على ما يظهر لم يكن متمكناً من العربية وآدابها .

وقد عارضت النسخة بشرحي (الخوي) و (الخوارزمي) فإذا فيها آثار كثيرة من شرح الخوي المسمى بالتنوير : مما يدل على أن النسخة التي ظفر بها المؤلف الدرا في جدة كانت هوامشها مستقاة من شرح (الخوي) .

وللشيخ الدرا استظهارات أو نقول آراء شخصية لم يجدها لغيره من الشراح مثال ذلك ما قاله في شرح بيت المعري :

(ورأني أمامُ والامام وراء إذا أنا لم تكبرني الكبراء)

فهو بعد أن أطال في المعنى المراد من قوله : (ورأني أمام والامام وراء) ونقل جميع ما قاله غيره من الشراح قال : (وثم معنى آخر يحتمله التركيب : وهو أنه أطلق وراء والامام وأراد بها مظلوف فيها : الموت والحياة . مجازاً مرسلًا : إذ أن أمل الانسان جهة أمامه واجله من خلفه . وحقيقة المعنى حينئذ : إذا لم تعرف قدري الظماء فموتي حياة وحياتي موت . قال وهذا الاحتمال أنسب بمواقع كلام أبي الملاء كقوله (فيا موت زر إن الحياة ذميمة) .

وقال بعد أن شرح قول أبى العلاء :

(يود أن ظلام الليل دام له . وزيد فيه سواد القلب والبصر)
مانصه : (وإذا تأملت فحوى هذا البيت رأيت كالهادم لاركان البيت
السابق ما لم يتكلف له) . والبيت السابق هو قوله :

(ماسرت إلا وطيف منك يصحبني سرى أمامي وتأويأ على أنري)
وهكذا نرى للمؤلف استظهارات أو مبادهاات من رأيه الخاص لم نرها لغيره .
وإذا رأى الشيخ الدرا شيئاً لم يعجبه من شعر شيخ المعرفة لا يبالي أن
يلززه وينال منه . ففى قول أبى العلاء :

(حلباً يملأ الجفان سديفاً يَرعب الفاليات بالترعيب)
شرح الشيخ الدرا معنى هذا البيت ثم قال : (قعاقع ماتحتها طائل)
وبعد أن شرح قوله :

(مستقي الكف من قلب زجاج بغروب اليراع ماء مداد)
قال : ولعمري إن الذوق لينبو عن هذه الاستعارات .

ولقد لحنا من خلال شرح الشيخ الدرا أنه من الشيوخ الذين يسيئون
الظن بشيخ المعرفة خلافاً للبديعي مؤلف (أوج التحري) فإنه كان يحسن الظن
به . ولعل المعاصرة بين ابني البلد الواحد الدرا والبديعي هي التي أدت إلى
اختلاف وجهة النظر في أبى العلاء ثم انتهت بهما إلى وضع تأليفهما . على أن
الشيخ الدرا ما كان يشير إلى رأيه السي في أبى العلاء إلا في الندرى :
مثال ذلك أنه بعد أن شرح قوله :

(وإني وإن كنت الاخير زمانه لآت بما لم تستطه الاوائل)
قال : (وقد أحفم بحرف واحد ورد الله يده في فيه) يشير بقوله :
(أحفم بحرف واحد) إلى قصة الغلام الذي اعترض أبى العلاء قائلاً : أنت
الذي قلت : (وإني وإن كنت الخ . . .) قال نعم . قال إن الاوائل وضعوا للهجاء
تسعة وعشرين حرفاً فزد أنت عليها حرفاً واحداً إن قدرت . فسكت مفجأ .

وأقام الشيخ الدرا التكبير على شيخ المعرة مذقال في رثاء الفقيه الحنفي أبي حمزة :
(واحبُّوا الاكفان من ورق المصحف كبراً عن أنفاس الابرار)
فتأنف الشيخ الدرا من هذا الغلو وودف صاحبه بما لا يرضي أنصاره
وربما حكم عليه بأشد مما وصف .

✽

حقاً إن عقول المفكرين من البشر لم تقف في الحكم على أحد من البشر
موقفها من شيخ المعرة : حتى كانوا فيه طوائف ثلاثاً : طائفة جعلته من أصحاب
اليمين . وطائفة جماعته من أصحاب المشأمة . أما الطائفة الثالثة فهم الحارون
في أمره . المتوقفون عن تقرير مصيره . ويوشك أن يكون أبو العلاء عني
نفسه وهذا الفريق الثالث عندما قال :

(والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد)
فهو هو الانسان الذي استحدثه خالقه من جماد . وجمع فيه مائشت
من ذكاء العباد . وأودعه ماشاء من النقائص والاضداد .

✽

وقد قلت :

أبو الملا لغز غدا حله	معضلة عجي بها العالمون
كم بات في أمر الوري حاراً	والناس في حيرته (١) حارون
فقال : حيرته عن هدى	وقائل حيرته عن فتون
وقائل : خبل عن خلوة	لا طعم فيها غير بلس وتين
وقائل : شكك راهب	فكان في الشك زوال اليقين
وقائل : ضل فلم يهتد	لرشد : فهو من الاخسرين
لكنما الجنة مفتاحها	في يد ربي لا يد القائلين

المعري

(١) وأشهر قول له دل به على حيرته — هذا البيت :

(وينزي النفس إنكار ومعرفة) وكل معنى له نقي وإيجاب

دين أبي العلاء

إذا حاول الإنسان أن يتكلم في أبي العلاء وجد مجالاً واسعاً للقول لأن في شعره أبياتاً رائعة في كل غرض من أغراض الشعر وفي نثره آيات بارعة لا تقل عن شعره في الجودة ولكن الناس نسوا أو تناسوا ذلك ولم يذكروا له إلا السيئات حتى في هذا اليوم الذي أعد للاحتفاء به . ولقد بدا لي أن تكون كلمتي هذه في تشاؤمه الذي فرض عليه فرضاً فرأيت ذلك يجر إلى سخط القائلين به فصرفت نفسي عنه . ثم حسن عندي أن أئين عطفه على المرأة لأن بعض الناس يعتقد أنه أعدى عدوها ولكنني عدلت عنه لأنه يحتاج إلى تطويل لا يتسع له هذا المقام . وبعد اللتيا والتي . تخيرت القول في دين أبي العلاء أو مذهبه أو معتقده .

ما هو السبب في تكفيره

افتن المتقدمون والمتأخرون في تكفير هذا الرجل ووصفوه بالالحاد والزندقة والمروق وما أشبه ذلك من النموت ولا بكل حادث في هذا الكون من سبب يوجب علة تقتضيه والمعمن في البحث يجد أسباباً كثيرة لذلك من أشدها الحسد من أعدائه والتنطع والتشدد في الدين من خصومه والطموح إلى الظهور على أكتافه . والولوع بالآغراب على حسابه .

الحسر

أما سبب الحسد فإن أبا العلاء أوتي من المواهب الفطرية ما لم يؤته كثير من الناس ونال حظوة عند الملوك والأمراء والكبراء قلما نالها شاعر أو عالم ورزق من طيرورة النهرة ما لم يتح لكثير من النوابع . فقد بذل له المستنصر العلوي ما في بيت المال في المعرة . وكتب داعي الدعاة إلى تاج الأمراء أن يجري له ما ندعو إليه حاجته في جميع مهامه .

وكلف الوزير الفلاحي عزيز الملك أن يحمله إلى مصر لينفي له دار علم . وسمح له بخراج المعرة مدة حياته فأبى ذلك كله وكان عفائه هذا يزيده حرمة في أعين الملوك فمن دونهم ولم يمرّ بالمعرة وزير مذكور أو فاضل مشهور إلا وقصده واستفاد منه أو طلب شيئاً من تصنيفه أو كتب عنه .
فهذه الحظوات وتلك المواهب أوقدت في قلوب حساده ناراً .

التنطع والتشمر

وأما سبب التنطع فإن أبا العلاء انتقد كثيراً من المزاعم التي كان يعتقد أنها بعض الناس في زمانه .
فأنكر أن يكون حام اسودّ من أجل ذنب أحدثه . وأن يكون الخضر حياً . وأن الشيب لم يعرفه الناس قبل إبراهيم وأن الاثمي كان إذا عطس لفظ أنفساً . وأن الشمس تضرب وتهان إذا حانت الشروق وأن عجوزاً تحلب القمر وأن . وأن . .

وأنكر تأثير الاحراز التي تكتب لدفع العين أو الجن كما أنكر المشي على الماء والطيران في الهواء وأن يعود ملك مصر إلى الدنيا وأن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء إلى كثير من مثل هذه المزاعم وكان جريئاً في نقده وإبداء آرائه فتناول رؤساء المذاهب والنحل والملوك والعلماء والخطباء والشعراء والتجار وقلماسم منه صنف من الناس ولم يتخير لذلك قولاً ليناً ولا أسلوباً لطيفاً وإنما واجه هؤلاء بكلمات أشد من الصواعق . وفي اضعاف كلامه كثير مما لا يرضيه المتشددون في الدين وإن لم يوجب تكفيره .

وأما الطموح إلى الظهور

فقد رأينا فيمن انتقد أبا العلاء كثيراً ممن لم يستطع إدراك ما يريد أبو العلاء من كلامه على وجه صحيح وربما جاء بالبيت على أنه حجة له وهو حجة عليه ولكنه انتقده ليقال إنه انتقد أبا العلاء ؟

وأما الولوع بالوعراب

فإن فريقاً من الناس يجد في البحث عن زلة لأبي العلاء ويتسقط هفواته حتى إذا ظفر بشيء ولو بشبهة ضعيفة ابتهج وتنفع كأنما أحدث فتحاً جديداً في الاسلام وفيهم كثير ممن عثر فيما قال عثرة لا تقال .

فتألب عليه حساده وأوائك المنطمون والطامحون والمولعون وأرادوا أن يسقطوه من أعين الناس فالتمسوا مغمزاً في علمه وأدبه وعقافه فلما أعيام ذلك لجؤا إلى الدين فاتخذوا منه سلاحاً لاطعن فيه ومالاً لهم على ذلك فريق ممن يتابع على غير بصيرة فهذه هي أكثر الأسباب ، تأثيراً في تألب الناس عليه .

ماذا كانوا يفعلون

اتفقت كلمة حساد أبي العلاء وأعدائه على تكفيره ولكنهم اختلفوا في الطرق التي توصله إلى ذلك فمنهم من كفره بما لا يوجب التكفير ومنهم من نسب إليه آياتاً هو بريء منها ومنهم من حرف أقواله عما يوجب الايمان إلى ما يوجب الكفر ومنهم من جره إلى الكفر بغير سبب ولا مناسبة ومنهم . ومن هؤلاء ياقوت فقد جملة ملحداً وروى له هذين البيتين :

اللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح

هذا يعالج دلبة والشيخ من حق يصيح

ولم يروها غير ياقوت ولا هما في ديوانه ولا يظهر فيها أثر للحاد وتأليفها الركيك يشهد بأن المعري بريء منها . ولقد كانت العامة أبرع من ياقوت في التكفير فانهم لم يروا فيها ما يوجب الحاد فزادوا بيتاً ثالثاً وهو :

كل يعظم دينه يا ليت شعري ما الصحيح

وأورد أبو العلاء في رسالة الغفران آياتاً لسمير بن أدكن مطلعها :

يصول أبو حفص عابنا بدرة رويدك ان الحق يطفو ويرسب

فقال ياقوت هذا يشبه أن يكون شعر المعري قد نحلله هذا اليهودي .

كأنه أنكر أو أكبر أن يكون شعر فيه كفر أو لحاد لغير أبي العلاء .

وزعم ابن الجوزي والباخرزي ولذهبي ان أبا الملاء عارض السور والآيات بكتاب الفصول والغايات . وربما كان فيهم من لم يطلع عليه . ولم يبين واحد منهم ما يريد بالمعارضة فان ارادوا المعارضة بالمعاني والاغراض والمقاصد فهذا باطل لأن اغراض القرآن الكريم كثيرة ومقاصده مختلفة منها شرع الاحكام وبيان بعض الشرائع التي كانت قبل الاسلام وقص الاخبار وما اشبه ذلك والفصول والغايات اغراضه قليلة ومقاصده محدودة لانكاد تخرج عن تعجيد الله وعن العظمت وقد تصدى فيه الى القول في الموسيقى والعروض والنحو ونحو ذلك مما ليس له أثر في القرآن الكريم .

وإن أرادوا المعارضة بالألفاظ فهذا باطل أيضاً لأن أبا الملاء التزم في كتابه هذا أن يكون آخر كل غاية على حرف من جروف الهجاء وأكثر من السجع واستعمال الغريب واستشهد بأقوال الشعراء والحكماء والأمثال ونحوها والقرآن الكريم خال من ذلك كله .

والذي أعتقده أن أبا الملاء كانت له ثروة في اللغة وباح طويل في الحكم واطلاع واسع على العلوم المختلفة فوضع هذا الكتاب على هذا النمط ليعين فيه قدرته في كل ما تقدم وبما ذكرناه يتبين أن بين القرآن الكريم وكتاب الفصول والغايات فروقاً متعددة في الألفاظ والمعاني .

وروى أبو الفداء في تاريخه هذين البيتين على هذا الوجه :

أن عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا لا نبي بعد هذا فضل القوم بين غد وأمس
والصواب روايتهما كما وردا في ديوانه لزوم ما لا يلزم :

دعا موسى فزال وقام عيسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يحجي دين غير هذا وأودى الناس بين غد وأمس
والزخخري أورد في الكشف بيت أبي الملاء في وصف النار :

حمرء ساطعة الذوائب في الدجي ترمي بكل شرارة كطراف

ثم قل وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولقد عمي جمع الله له عمى الدارين إلى آخر قوله . وهذا البيت يصف فيه المعري نار القرى وهو من قصيدة رثي بها الشريف الموسوي وهو ببغداد . وليس فيه ولا

في القصيدة كلها ما يدل على ما قاله الزمخشري . ولعل هذا البيت أجمل بيت قالته العرب في وصف النار .

ونسب ابن السبكي في الطبقات إلى أبي العلاء البيتين المشهورين وأولهما :
كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
ثم قال : قبحه الله ما أجرأه على الله . . . وهذان البيتان لابن الراوندي .
ونسب أبو الحسين الجزار هذا الشطر لابي العلاء وهو :
حديث خرافة يا ام عمرو

وهو لبعض مشركي العرب .
وهناك كثير من مثل هذه الاقوال المحرفة ألصقت بأبي العلاء ظلماً وزوراً .
وإذا كان مثل هؤلاء الأئمة لا يتثبت في الرواية ولا يتورع عن التحريف والتقول ويكفر بغير موجب فما نقول فيمن هو أدنى منهم منزلة في العلم والشهرة .
وفي الناس كثير ممن يكفر أبا العلاء وإذا سألته عن السبب قال لك
إني لم أر شيئاً من كلامه ولكني رأيت فلاناً من العلماء يكفروه فقلدته في ذلك ومن قلده علماً لقي الله سالماً .

ومثل هؤلاء مثل رجل مر بالسوق فرأى فريقاً من الناس يضربون رجلاً مسكيناً فجاء إليه وأوسعهم ضرباً وشتماً وسباً ف قيل له من هذا الذي ضربته وما السبب الذي حملك على ضربه وسبه فقال إني والله ما عرفته قبل اليوم ولا عرفت له ذنباً ولكني رأيت الناس يضربونه فضربته وهذا سبيل كثير من الناس مع أبي العلاء استضعفوه فنتفوه حياً وميتاً .

كيف وزع المعري على الملل والنحل

لم تتفق كلمة المتقدمين والمتأخرين على جعل أبي العلاء يدين بدين واحد وإنما جعلوه نهياً مقسماً بين الملل والنحل والحقه كل واحد بما شاء وشاء له الهوى . فجعلوه برهياً ومزدكياً وزنديقاً وملحداً وكافراً ومعتلاً ودهرياً وقرمطياً وشيعياً ودرزياً وثقياً وزعم فريق أنه عارض القرآن ومن عطف عليه جعله في حيرة او صاحب تقية او مجماً للمتناقضات ومنهم من جعله ساحراً إلى غير ذلك من الاقوال ولكل واحد من هؤلاء متمسك يعول عليه في حكه .

البرهانية

أما من قال أنه برهمي فاستدل على ذلك بأنه لم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . وكلام أبي العلاء يدل على أنه لا يعتقد أن أكل اللحم محرم وإنما تركه اجتهاداً في التعبد ورحمة للمذبح ورغبة بفقران الله . ويعتقد أن العقل لا يقبح ترك أكله وإن كان حلالاً لأن المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق . وإن له في السنة نيفاً وعشرين ديناراً يأخذ خادمه بعضها وما بقي لا يعجب فافتصر على فول وبلسُن وما لا يعذب على الألسن . هذا ما قاله أبو العلاء ولكن الناس يحملونه برهميةً شاء أم أبى وقد روي أن النبي ﷺ أتى بشربة من لبن مشوبة بمسل فقال أما إني لست أحرمه ولكفي تركه تواضعاً لله . والتاريخ طافح بأخبار المتدينين الذين كانوا يتمتعون من تناول الأطعمة المباحة زهادة فيها ورغبة في التقرب إلى الله .

المزدكية

وأما المزدكية فمن أعجب العجب جعل المعري مزدكياً لأن مزدك على ما قال ابن الأثير كان يستحل المحارم والمنكرات ويسوي بين الناس في الأموال والنساء ويأخذ امرأة هذا فيسلمها إلى الآخر . وقد طلب من قباذ أن يسلمه امرأته فاجابه ولكن ابنه انوشروان حال دون ذلك والقصة مشهورة وأبو العلاء كان يأبى زواج الحرائر ويتشدد في منع المرأة من الخروج إلى الحمام والعراف والحج ويحظر دخول الوليد عليها كل ذلك غيرة عليها وقد قال : برئت إلى الخلاق من أهل مذهب يرون من الحق الإباحة للأهل فجعله مزدكياً بعد هذا من الفرائث .

القرمطية

وأما نسبته إلى القرمطية فلا تقل في الغرابة عن نسبته إلى المزدكية لأنه لمن بعضهم وكفرهم في رسالة الغفران ص ١٤٥ وقال فيهم في لزوم ما لا يلزم : يرتجي الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتبية الخرساء

كذب الظن لإمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع السماء والجنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالاحساء
وبعض الناس يقطع قوله : إنما هذه المذاهب أسباب ... ويجمله بيتاً
منفرداً ليصرفه عن الفرامطة ويجمله شاملاً لكل مذهب ليثير الناس عامة على
تكفيره وأما نسبته إلى بقية المذاهب الأخرى فعلى مثل هذا النمط والقياس
كلها قائمة على الشبه والإرادها ثم ردها وإبطالها يحتاج إلى وقت طويل .

التقية

وأما التقية فلملها أغرب ما قيل فيه وذلك أن الانسان إنما يلجأ إليها
عند الخوف من فتنة أو شر أو بطش . وأبو العلاء صرح في مواطن كثيرة
بأمور هي أحق من غيرها بالتقية . فإين التقية ممن يقول في ملوك عصره .
مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ساس البلاد شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسته
بل ابن التقية ممن يقول :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

فما المظلات وإن راعت سوى حيل من ذي مقال على ناس تحوّلها

قالوا فلان جيد فأجبتهم لا يكذبوا ما في البرية جيد
فأميرهم نال الامارة بالحنى وتقيم بصلاته يتصيد

لو غرّب الناس كما يمدمو اسقطاً لما تحصل شيء في الغراييل

وديوانه مكتظ بمثل هذه الصراحة الاذعة ولو كان عنده شيء من التقية للجبأ إليها في مثل هذه المواطن أو استغنى عنها .

رأينا في اعتقاد أبي العلاء

محدثنا التاريخ أن أبا العلاء كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل وأن تلامذته وغيرهم كانوا يعملون الأشعار على أسانه ويضمونها أقوال المأخوذة قصداً لهلاكه وقد حرف اثنتان منهم بيتاً من لزوم ما لا يلزم ليثبتا عليه الكفر فكتب رسالة الضيعين إلى معز الدولة يشكوهما إليه ويبين له أن في حلب نسخاً من الكتاب بريئة من التحريف وإن أبا العلاء ألف كتاباً في الرد على من نسبته إلى معارضة القرآن وفي الجواب عن أبيات أخرجوها من لزوم ما لا يلزم وكفروه بسببها وسماء زجر النابج ثم طعنوا فيه بأبيات آخر فوضع كتاباً آخر سماه نجر الزجر أو بحر الزجر بين فيه التحريف ووجوه الأبيات وممانيتها وإن أعداءه لم يألو جهداً في الافتراء عليه وإن كتبه التي وصلت إلينا مغمورة بالشعور الإسلامي وليس في شيء منها متمسك لخصومه إلا رسالة الغفران ولزوم ما لا يلزم.

رسالة الغفران

أما رسالة الغفران فقد قيل إن فيها تهكماً واستخفافاً وهما من الأمور النفسية التي لا يعملها إلا الله ولا يمكن لبشر أن يعملها إلا إذا أخبره بها صاحبها ولم ينقل عن أبي العلاء شيء من هذا وبناء الحكم على الشبهة أو الاحتمال لا قيمة له عند أهل العلم .

لزوم ما لا يلزم

وأما لزوم ما لا يلزم وهو الذي يعتمد عليه الناقدون والناقدون فقد طبعت نسخة منه في الهند ثم طبع في مصر وهذه النسخة لا نعلم نحن ولا غيرنا يعلم عن أية نسخة نقلت .

ولكننا نعلم يقيناً وفوق اليقين أنها لم تسلم من عبث الطابع والشارح
فقد وردت فيها أبيات فيها كلمات زائدة على الوزن كقوله :
وقد ضننت بشاة وهي فاردة على أزل فقيد المال قوت عسال
فكلمة قوت زائدة . وأبيات فيها نقص كقوله :
يخادع ملك الارض إذا أتت منيته لم تغف عنه مخارقه
ولعل أصل البيت حتى إذا أتت . أو نحوها فقد نقص البيت كلمة .
وأبيات فيها تحريف كقوله :
والنون في حكم الخواطر محدث والاولى هو الزمان المظلم
والصواب والنور في حكم . . وقد فسر الشارح بعض الكلمات تفسيراً
غريباً كقوله :

وجوهكم كلف وأفواهكم عدى . . .

قال الشارح المعدي كل خشبة بين خشبتين . وحجر رقيق يستربه الشيء
فيكون المعنى وأفواهكم خشبة . . أو حجر . وما أغرب هذا التفسير . وربما
اجتمع في البيت الواحد تحريف وتفسير وكل منها يخل بالمعنى كقوله في الديك :
ورثت هدى التذكار من عهد جرهم أو ان ترفت في السماء النعائم
قال في الشرح النعائم النعام ورف الطائر بسط جناحيه وهو غير مستعمل
وانما المستعمل رفرف إلى آخر كلامه .

وصواب البيت أو ان ترفت في السماء النعائم والمراد بالنعائم هنا ثمانية
كواكب وهي من منازل القمر يقال لها النعائم وكقوله من أبيات يذكر
فيها أبو العلاء ما يقتاتة :

لا أفع الام بالرضيع ولا أشرك هذا الفرير بالابن
أقتات من طيب الذبّات وهل يسلم عود الفتى من الابن

قال في الشرح والذبّات الذبّاق [أي الحمار] والاسد والزحار . والزحار
جاء لمعان منها داء يأخذ البعير فيزحر منه حتى ينقلب سرمه ومنها استطلاق
البطن . فقد جعل الشارح أبا العلاء يقتات حمراً أو أسداً أو زحاراً على أحد
معانيه وكل ذلك قوت ممقوت . وصواب البيت أقتات من طيب النبات .

وفي الكتاب مئات من مثل هذه الهنات لم ينبه عليها الشارح لانه لم ينتبه لها وإذا كان لا يفتن إلى ما يخل بالوزن أو المعنى وهو أقل ما يجب على الشارح ويزيد الخرق اتساعاً بالتفسير الذي يمجّه الذوق ويأباه العقل في الأمور البديهية فهل نأمن بعد ذلك من التحريف فيما يتعلق بدين المعري واعتقاده . ولو وقع في كلامه مثل هذه الجملة أنا أو من بالله ولا أشرك به لما استبعدت أن يحذف كلمة لا من الجملة الثانية ويزيدها في الأولى قياساً على ما رأيته في شرحه ولو ساعد المقام لأوردت جملة من هذه المضحكات ومن المعلوم ان لزوم ما لا يلزم لم يكن من كتب العقائد والدين وإنما هو ديوان شعر والشاعر قد يبالغ أو يوجز ويقول ما لا يفعل ويتخيل أمراً غير واقع ويلجأ إلى المجاز كما قال أبو العلاء

لا تقيد على لفظي فاني مثل غيري تكلمي بالمجاز
وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فلا يجوز أن توزن أقواله بما توزن به
النصوص الشرعية وأقوال العلماء في كتب الدين ولا أن يدقق في مفاهيمها
وقيودها ما يدقق في كتب العقائد وإن التشدد في مثل هذا سهل على أعداء
الغزالي أن يطعنوا فيه بقوله ليس في الامكان ابداع مما كان . والعقل يستبعد
من الغزالي أن ينسب العجز إلى الله .

ومن أمعن النظر تبين له أن المعري يحتذي على مثال المعتزلة والحكماء النظريين
فانه جعل العقل أساساً لآرائه . وعلى هذا الأصل ذهب في الفصول والغايات
ولزوم ما لا يلزم إلى أن الله تعالى يقدر على المستحيلات لأن عدم القدرة عجز
وهو صفة نقص فيجب أن ينزه الله عنه . وإن كثيراً من القضايا الشرعية
يقصر العقل عن إدراك حكمة الشارع فيها .

ويظهر لمن تقصى في البحث أن فريقاً من الناس إذا رأى بيتاً للمعري يوم
الحكم عليه بسوء العقيدة تمسك به وإذا رأى مئات من الأبيات الصريحة في
الدلالة على حسن اعتقاده ضرب بها عرض الحائط ولم يلتفت إلى قوة الأدلة
ولا إلى تكافؤها والقاعدة أن الأدلة إذا تمارضت تساقطت فإذا سلمنا أن الأدلة
التي تثبت إيمانه متكافئة مع الأدلة التي تنفيه في القوة والصراحة والسلامة من

الاحتمال حكماً بسقوطها ووجب علينا أن نلتمس سبيلاً آخر لا يوضح هذه الناحية وليس لدينا إلا حياة المعري العمالية وهذا التاريخ يحدثنا أنه كان صواماً قواماً صالحاً تقياً زاهداً طاهر اللسان واليد والذيل .

ولا مشاحة في أن التكفير حكم شرعي ولا بد لكل حكم شرعي من علة توجبه وطريق يثبتها ولا يصح الحكم على إنسان بالكفر إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة وكان هذا الانكار ثابتاً بدليل سالم من الاحتمال لأن الدليل إذا طرقة الاحتمال سقط به الاستدلال .

وقد رأينا فريقاً من العلماء إذا رأى في كلام المعري شبهة توجب تكفيره تمسك بها وإذا رأى ما يوجب إيمانه قال انه تقية . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نكفر كل إنسان حتى في قوله لا إله إلا الله لأننا نجعل قوله لا إله نفيّاً لاله موجباً للكفر . وقوله إلا الله من باب التقية ومثل هذا لا يرضاه العلم ولا العدل .

وبعد كل ما تقدم فإن أعظم المواطن التي أنكرها الناس على أبي العلاء يكاد ينحصر في خمسة أمور :

الأول اعتقاده بالله وقد يمجّد الناظر في كتبه أنه أثبت لله من صفات الكمال كل ما أثبتته أهل السنة ونفى عنه ما نفوا ولم يشذ عنهم في شيء إلا في مسألتَي الزمان والمكان على ما فيها من نظر .

وقد نسبته فريق إلى الجبر وهو بريء منه ويشهد لذلك قوله :

لا تمس مجبراً ولا قدر بآ واجتهد في توسط بيننا
وأصرح منه قوله :

وإن سألوا عن مذهبي فهو خشية من الله لا طوقاً أثبت ولا جبراً
 واحتج لبطلان الجبر بقوله :

إن كان من فعل الكبائر مجبراً فعتابه ظلم على ما يفعل

وما يراه الانسان في بعض أحياته الآخر مما يوهم الجبر فهو من نوع ما يراه في أقوال العلماء عند إثبات الجزء الاختياري أو الارادة الجزئية أو ميل النفس حتى قال بعض المحققين الانسان مجبر في صورة مختار .

وفريق آخر جعل المعري جامعاً للمتناقضات فهو مؤمن كافر وبر فاجر وتقي زنديق ودهري موحد فهو عنده مجموعة غريبة أو جامع لكل غريب . ومنهم . ومنهم .
الثاني والثالث اعتقاده بالكتب والرسل أو النبوات .

أبو العلاء عظم القرآن كثيراً وأنكر جواز النسخ عليه ووصفه في رسالة الغفران في ص ١٥٨ وصفاً بديعاً لا يصدر إلا عن قلب مفعم بالآيمان به .
وقالما رأيته ذكر نبياً إلا وأعقبه بقوله ﷺ إلا إذا ضاق الوزن أو السجع عن ذلك وقد ذكر النبي ﷺ في الجزء المطبوع من الفصول والغايات نحواً من اثنين وعشرين مرة وفي كل مرة يقول ﷺ .
وقد رويت له أبيات في الكتب والنبوات لا يمكن تأويلها تأويلاً حسناً إذا نحت نسبتها إليه منها ما هو في لزوم ما لا يلزم ومنها ما اتفرد بروايته راو واحد كياقوت وأبي الفداء وغيرها .

وإذا سمح لنا أن نجهر بقول الحق امكنا ان نقول إن في بعض هذه الايات حقائق لم يستعد كثير من الامة لقبولها بعد ولا يسامح في البحث فيها فنندعها الآن إلى الزمان حتى لا نكفر على حساب أبي العلاء .

الرابع اعتقاده بالملائكة

لقد أثبت أبو العلاء الملائكة ولم ينف عن قدرة الله أشباح ضياء بغير لحم ودم وذكر كثيراً منهم في كتبه واعتقد وجودهم في السماء والارض والدنيا والآخرة واعتقاده فيهم لا يخالف اعتقاد أهل السنة :

الخامس الحشر

لأبي العلاء في ثره ونظمه كثير من الجمل والابيات تدل دلالة صريحة قطعية على اعتقاده الحشر وفي لزوم ما لا يلزم وحده أكثر من مائة بيت كلها تصرح بآيات الحشر أو ما يكون فيه من جنة ونار وحساب وما أشبه ذلك وقد أعرض عنها بعض الناس وتمسكوا بقوله :

يحطمتنا رب الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
ورواه ياقوت :

يحطمتنا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وسواء أكان الصواب لا يعاد له . أم لا يعاد لنا . فأنهم جعلوا البيت دليلاً على انكاره الحشر . ومن البديهي أنه يريد بهذا البيت أننا ضعاف كالزجاج يسهل تحطيمه ولكن بيننا وبينه فرق وهو أن الزجاج إذا حطم في الدنيا أمكن أن يسبك فيعود إلى ما كان عليه فيها ولا يريد السبك في الآخرة وإذا لم يحمل كلامه على هذا الوجه كان معناه بيننا وبين الزجاج فرق وهو أن الزجاج يعاد سبكه في الآخرة ونحن لا يعاد لنا سبك فيها . وهذا بعيد أن يصدر عن مثل أبي العلاء .

التقييد

إن التاريخ لم يمين لنا الزمن لكل قول من أقوال أبي العلاء حتى نجعل المتأخر منها ناسخاً للمتقدم ونحكم عليه بآخر أقواله .
وإننا نحترم كل رأي كما نحترم صاحبه وإن كان مخالفاً لما نعتقد في أبي العلاء وإننا لا نريد أن نجعل أبا العلاء في مصاف الصديقين والأولياء المقربين ولا نحاول أن نبرئه من كل ما قيل فيه .
وإنما نريد أن نبين أن تكفير الإنسان بما ينسب إليه من قول لا يصح إلا إذا ثبت بدليل قاطع أنه تكلم بذلك القول على الوجه الذي أوجب تكفيره . وأن التكفير على ما خيلت أو على شبه أو أدلة مخوفة بالشكوك أو الاحتمالات لا قيمة له في نظر الدين ولا في نظر العلم .
وإن الجنة ليست في أيدينا حتى نهبطها من نساء ونزاعها بمن نساء .
وأن أبا العلاء قال ما قال ولم يعبأ بما قيل ولا بما يقال ولا بمن قال وسجل اسمه في ديوان الخلود رضي أعداؤه أم لم يرضوا .
وأن رحمة الله التي وسعت كل شيء وجنته التي عرضها السموات والأرض لا تضيقان عن رجل يقول :

أصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى
وإني لأجو منه يوم تجاوز فيأمر بي ذات اليمين إلى اليسرى
وكنت أود أن يتسع الوقت لأورد من كلام أبي العلاء ما يدل على كل ما ذكرته ولكن ما كل ما يتنى المرء يدركه . وعسى أن لا أكون في كلتي هذه كمن حاول أن يتخذ غريقاً ففرق معه .
محمد سليم الجندري

اختلاف الآراء

في فلسفة أبي العلاء المعري

إن شخصية أبي العلاء المعري لهي من تلك الشخصيات العبقريّة الكبرى المتعددة المزايا والصفات التي يصعب على الباحثين عنها — وإن لم يستحل — أن يدركوها إدراكاً كلياً وأن يحدّدوها تحديداً شاملاً . فكذلك فلسفته . إنها متفتنة النواحي متباينة الاطراف ، متناقضة المرامي ، فقلما تردد الناس في مذهب كتردّدهم فيها ، وقلما اختلف العلماء ، على تنوّع طبقاتهم ، في غابر الزمان وفي حاضره ، كاختلافهم فيها .

فاذا تأملنا في أوائك المختلفين من المتقدمين وجدناهم على ثلاثة أقسام تفرّعت إلى فروع . فريق من زندقته أو كفره وفريق من حكم بصحة إيمانه واجتهده في الدفاع عنه إلى حدّ أنه أنكر فيه وجود فلسفة امتاز بها عما سواه وفريق من تحيّر في شأنه وما جرأ على شتمه ولا على تبريره فأمسكوا عنه وفوضوا أمره إلى خالقه .

إن هؤلاء المتحيرين ، لقلة عددهم وخفة أهميتهم ، لا يستحقّون أن نعتني بهم أدنى اعتناء ولكننا أردنا أن نتوسع بعض التوسع في الذين كفّروه ثمّ فيمن برّأه ، وذلك تمهيداً لفهم فلسفته فنذكر اختلاف الناس في تعليلها .

إن أول من هاجمه مهاجمة منظمة كان الشيخ أبا الوفاء بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة في وقته والذي عاصر أبا العلاء بعض المعاصرة . تفقه ابن عقيل على القاضي أبي يعلى صاحب الأحكام السلطانية المشهورة وأخذ الأصول عن الشيخ ابن الوليد إمام المعتزلة في زمانه . إن ابن عقيل على ما يرويه لنا الحفاظ — شبه أبا العلاء بابن الراوندي وأنه قال لناس ، زعموا أن أبا العلاء

أبدى إلحاده لعباً ومجوناً ، ما نصه : « وما الذي أُلْجأه إلى أن يقول في دار الاسلام ما يكفر به الناس ؟ إن المنافقين مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه لانهم حافظوا على قبائهم في الدنيا وستروها وهذا أظهر الذي تسلط عليه به الناس وزندقوه والله إن ظاهره كباطنه . »

ثم اقتدى بابن عقيل الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي الواعظ المتفنن صاحب التصانيف الشهيرة والذي كان معظماً لابن عقيل متابعاً لمعظم آرائه وإن رد عليه في بعض المسائل . ان ابن الجوزي عاب على أبي العلاء مبالغته في معاداة الانبياء ، وهو الذي قال : « زنادقة الاسلام ثلاثة ابن الراوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء وأشدهم على الاسلام أبو حيان لانه يجمع ولم يصرح » .

اقتنى أثر أولئك البغداديين الذين طعنوا في أبي العلاء ، من انتسب بالشام إلى مدرستهم التاريخية وفي طليعتهم الشيخ شمس الدين الذهبي فانه تكلم عن أبي العلاء في كتابين من كتبه الكبار أولاً في تاريخه الكبير الذي لم يُنشر إلى الآن . ثانياً في مختصره المفيد الذي طبع في حيدرآباد لانه في كتابه الأول أطلق على أبي العلاء تسمية الزنديق واشتد في شتمه ولكنه في كتابه الثاني خفف عباراته واقتصر على القول بأنه سيء العقيدة .

ولكن أبا العلاء ، فيما أرى ، مالتى بالشام خصماً أشد طعناً فيه من الشيخ امماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي الذي لازم الحافظ المزني وأخذ عن الامام الشيخ تقي الدين بن تيمية . انه ، في بدايته ، خصص لأبي العلاء ترجمة قيمة كفره فيها ونسبه إلى فلسفة البراهمة ثم انه أبدى سوء ظنه بأبي العلاء أيضاً لما تكلم عن الشاعر المشهور بالعر الضرير وهو الحسن بن محمد بن نجا . كان هذا الشاعر من نصيبين فنشأ بآربل حيث اشتغل بعلوم الاوائل قال عنه ابن كثير ما نصه : « يُنسب إلى الإلحاد وقلة الدين وترك الصلوات له شعر أورد منه الشيخ قطب الدين قطعة في ترجمته وهو شبيه بأبي العلاء المعري قبحهما الله » .

كان لأبي العلاء من جهة أخرى أنصار انتصروا له ودافعوا عنه أشد الدفاع ويجب علينا أن نذكر في طليعتهم الشيخ كمال الدين ابن العديم الحلي الذي توفي بالقاهرة سنة ستين وستمائة وأنه صنف حلب تاريخاً مفيداً وأفرد لأبي العلاء ترجمة طويلة سماها كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري « فقد جزء كبير منها ونشرها لأول مرة الشيخ العلامة المؤرخ المشهور راجب الطباطبائي في كتابه أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، أصبح كتاب الانصاف والتحري العمدة التي اعتمد عليها كل من دافع عن أبي العلاء فيما بعد .

فمن أشهر من حذا حذوه واعتمد على كتابه الشيخ زين الدين بن الوردي . ولد ابن الوردي بالمعرة ونشأ وصنّف في عدة علوم . ترجم أبا العلاء في تاريخه المشهور ترجمة حسنة علينا أن نتوسع فيها بعض التوسع فان عواطف ابن الوردي نحو أبي العلاء مرت بثلاثة أطوار .

كان ابن الوردي في بادئ أمره متعصباً له لكونه من المعرة ولما شاهده في سيرته وشعره من غاية الورع والزهد ثم أنه بعد ذلك وقف على كتاب استغفر واستغفري بفضه وأبعده عنه ثم وقف على الازوميات فزادته بغضاً له ونفرة عنه لا إفراط الشك والتشكيك المتضمن بها . ثم ان ابن الوردي ، في الطور الثالث من تطوره اطلع على كتاب ضوء السقط الذي أملاه أبو العلاء قبل موته بقليل فان هذا الكتاب أرجع ابن الوردي عن سوء ظنه بأبي العلاء إلى الحكم بصحة عقيدته قال : « فكان هذا الكتاب عندي مصححاً لفساده موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده فانه كتاب يحكم بصحة إسلامه » . فعظم هذا الكتاب كل التعظيم لما يحتويه من العواطف الدينية السامية وقال في الختام ما يستحق الذكر . « وهو خاتمة كتبه والأعمال بنحواتها وقد يُعذر من ذمه واستحلّ شتمه فانه عوّل على مبادئ أمره وأواسط شعره ويُعذر من أحبه وحرّم سبّه فانه اطلع على صلاح سرّه وما صار إليه في آخر عمره من الانابة التي كان أهلها والتوبة التي تجب ما قبلها » .

هذا ولقد اختلف أولئك العلماء — وهم القليل من كثير ولكل واحد منهم مقام عالٍ في تاريخ الأدب العربى — اختلافاً كبيراً في فلسفة أبى العلاء وعقيدته فإذا أنعمنا النظر في هذا الاختلاف وجدنا له أسباباً معينة .
 أولاً : إن أولئك المتقدمين كانوا أكثر اهتماماً بدم أبى العلاء أو بمدحه منهم تفهمه أو بالتحري عن حقيقة فكره فهم أقرب إلى المتكلمين منهم إلى المؤرخين وهم في ذلك على خلاف ما نحن عليه الآن فان تطور أساليب النقد والبحث عوداً التمييز بين التبرير المذهبى وبين التعليل التاريخى . وثانياً : نشأ هذا الاختلاف في فلسفة أبى العلاء عن تناقل داخلى يُحسّ به في أبياته نفسها في اللزومات خاصة وفي جميع مؤلفاته عامة فهذا أمر من الأهمية بمكان يجب علينا أن نتوسع فيه بعض التوسع .

* * *

ان أبى العلاء انتقد الديانات كلها في أبيات عديدة مشهورة من اللزومات أنكر النبوات حتى بالتصرّح وهاجم رجال الدين على اختلاف طبقاتهم مهاجمة عنيفة متكررة عاب عليهم بأمرّ التهكم جهلهم ونفاقهم وتناقضهم في أهم مسائل الدين وتنازعهم بمذاهبهم على الدنيا وما فيها فشكّ وشكك في كل ما جاءت به الكتب المنزلة من البعث والثواب والمقاب ومن الأخبار المتعلقة بعالم الغيب وأظهر أيضاً ما كان يظنه مخالفاً للعقل في الشريعة من العبادات والمعاملات انه في كل ذلك تلون، وأي تلون، بأراء الطبيب الفيلسوف أبى زكريا الرازى الذي تعدى الحدود في نقض الديانات والذي كان لكتبه الهدامة أوسع الانتشار بين غلاة الباطنية .

ولكنه مع ذلك ، مهما ساء ظنه بالرسل والانبياء ، أظهر في أبيات عديدة من هذه اللزومات نفسها إخلاصه لربه وتفضيله لنبيه محمد ﷺ على سائر الانبياء وإشاره لدين الاسلام لسائر الأديان . وأبدى في سيرته وفي شعره تقوى لاشك فيها وحث الناس عليها وأما زهده في الدنيا وإحسانه الى الغير فهذا أمر لا مزيد عليه فيه وكذلك لا يزال يذكر الله تعالى ويمجده وهو يقتنع بوجود الله اقتناعاً فطرياً وجدانياً لا يتكلف البراهين على إثباته وأنه في كثير من أبياته وصف الله كما

وصف نفسه وكما وصفه رسوله الى حدّ أن عقيدته مُتشبه أحياناً عقيدة من اتبع طريقة السلف .

ان هذا التناقض الذي لا يظهر في اللزوميات فُسر ولكنه في جميع كتبه عامة كان ، فيما أعتقد ، مقصوداً فلماذا قصده ؟ هذه هي المسألة التي نريد الآن أن نذكر أهم اختلاف الناس فيها .

ذهب بعض العلماء إلى أن علة هذا التناقض توجد في تطور أبي العلاء الفكري . انه كان ، على ما يزعمون ، في أول أمره ملحداً كافراً ثم انه رجع الى الايمان في آخر عمره فتاب وأناب . اتنا فيما يخصنا لانتقد بصحة هذه الفرضية وان جازت عقلاً . فان أبا العلاء أظهر شكه الفلسفي من أول شبابه لما اشتكى في مرثية أبيه جهله لأمور الغيب ولمصير الروح بعد الموت ، كما أنه عبر عن هذه العواطف نفسها من الشك والتشاؤم والادرية في قصائد يوجد فيها ما يدل على أنها من آخر ما نظم . ذهب قوم آخرون الى القول بأن علة هذا التناقض توجد في تقية أبي العلاء وفي كتمانها . قالوا انه كان ملحداً في باطنه ولكنه خشيةً من عقاب الفقهاء تستر وراء تلك العبارات الايمانية والمظاهر الاسلامية . ولكننا أيضاً لانتاق هذه الفرضية باقبول ولا نعتقد بأن أبا العلاء التجأ الى التقية بمعناها الاصطلاحي فان جرأته حينما يتكلم عن الديانات ورجالها تدل على صراحة لا تتوجه الى تقية الغلاة ولكنه في ذلك اضطر ، وهو في ذلك متألم أشد التألم ، الى أن يذهب من مذهب المجاز في ابداء كثير من آرائه لما تخالف مخالفة تامة ما اتفق الناس عليه وربما كان في ذلك كله أكثر خشية من الاضرار بالغير منه بنفسه اذ لا يكون عامة الناس مستعدين لفهم فلسفته حق الفهم . فجاز لنا أن نقول ان المعري في لزومياته قصد معاني أكثر مما ابداه صراحة .

فجاء قوم آخرون زعموا أنهم اكتشفوا سر باطنه واقترحوا لتعليل ذلك التناقض الذي أشرنا اليه علةً أخرى فقالوا : ان أبا العلاء المعري كان مخلصاً في اظهاره لدينه وابدائه لتقواه كما انه كان مخلصاً في حثه الناس على التمسك بدينهم

لما كانت في ذلك لعالمهم من فائدة ومنفعة . ولكنه في الحين ذاته كوّن لنفسه وللخاصة فلسفة إلهية مبينة على الوجدن والعقل أكثر منها على العقل أدى به إليها اجتهدته الخيالي غير اجتهد الأصولي المرتبط بشروطه وهي فلسفة لا تتخالف الديانات ولا تنفوقها ولكنها ترمي إلى جمع أسمى العواطف الدينية التي يشترك فيها البشر .

إن هذه الفلسفة الإلهية تدعو إلى الاعيان الواحد المطابق برب واحد حكيم مدبر للأموار على ما يشاء إيماناً وجدانياً فطرياً يحسّ به كل إنسان في صميم فؤاده فيتساوى فيه جميع المؤمنين ثم إن هذه الفلسفة الإلهية تكون أخلاقية أكثر منها عبادية أنها تفضل على العبادات الشكلية روح التعبّد والدين فتنبحو نحو تهذيب البشر ونحو تحويلهم عن الطمع في الدنيا إلى الزهد فيها وعن الظلم إلى الانصاف وعن التعصب إلى التسامح وعن التفاضل إلى التساوي وعن التباغض إلى التحابّ وعن اختلاف الكلمة إلى توحيدها والاتفاق والتضامن .

* * *

فإذا كانت تلك فلسفة أبي العلاء على ما يقولون فما هي العوامل التي حملته على التفلسف بها وما هي المصادر التي ألفته إلى مثل هذه الآراء الإلهية والاجتماعية؟ عايناه أن نشير الآن بغاية الإيجاز إلى اختلاف الناس في ذلك وأن نذكر أهمّ النظريات التي اعتمدوا عليها ، فهم في ذلك على قسمين : من نسبته إلى الزهد الهندي ومن نسبته إلى مذهب الباطنية .

إن أول من نسبته إلى الزهد الهندي هو أبو الفداء المؤرخ المشهور الذي قال عنه في تاريخه أنه تمذهب بمذهب الهنود فيما يتعلق بنبأتيته . فحذا حذوه اسماعيل بن كثير في بدايته وأضاف إلى ذلك أنه شككه راهب في دينه . وكذلك كثير من المستشرقين ، وفي مقدمتهم Von Kremer فون كرممر ، ظنوا أن فلافة أبي العلاء تولّنت بالفلسفة الهندية خصوصاً فيما يتعلق بالزهد ورحمة الحيوان والنباتية وفلسفة المدم . فرد على هذه النظرية رداً ما الاستاذ العلامة Nicholson نيكلسون والاستاذ البجائي Massignon حينما تساءل عن إمكان وجود علاقات فكرية بين الحلاج وصوفية الهند .

نعم يجوز لنا أن نظن أن أبا العلاء أخذ بعض الآراء الهندية التي كانت شائعة في أيامه ولكنه أخذها متفرقة لا عن مذهب فلسفي معين . ولا غرو في ذلك فإن الصلة بين الهند وبلاد العرب اشتدت في زمانه على يد محمود ابن سبكتكين ، ولكن المسلمين في مختلف الاقطار وإن تعجبوا من عجائب الهند ودهشوا من غريب عوائد سكانها ، فانهم ما كانوا اطلعوا على عقليتهم الفكرية اطلاقاً مكنهم من التفلسف بفلسفتهم ومن التخلق بأخلاقهم . انما اتسعت هذه العلاقات الثقافية فيما بعد القرن السابع للهجرة في هذا الزمان المتأخر نفسه افترئت على أبي العلاء هذه التهمة التي أشرنا إليها وهي تهمة تقليده لفلسفة الهندود .

وأما النظرية الثانية التي أشرنا إليها فهي نظرية من ظن أن أبا العلاء تأثر بمذاهب الباطنية ، إن هذه النظرية قد انتشرت انتشاراً ما منذ عدة سنوات في الشرق وفي الغرب وأول من أيدها هو الاستاذ بندلي جوزي من جامعة باكو في كتابه عن الحركات الفكرية في الاسلام ؟ يذهب الاستاذ بندلي جوزي إلى أن ما نراه في اللزوميات من حرية الفكر والاشتراكية والسلمية والمساواة الاجتماعية قد سببه تأثير مذاهب الباطنية فيها . ثم ان الاستاذ Massignon ما سينيون هو الذي لفت أنظار العلماء بصفة علمية إلى أوجه الشبه بين فلسفة المعري وبين مذاهب الباطنية خصوصاً فيما يتعلق بتشاؤمه وشكه الفلسفي . ثم أن الاستاذ Bernard Lewis الذي كان من جملة من أحس بضرورة دراسة الحركات الباطنية ، ألف كتاباً للتحري عن أصلهم أشار فيه إلى تأثير الاسماعيلية في أبي العلاء وغيره من كبار الشعراء مثل عمر الخيام . ثم أن الاستاذ عمر فروخ في مؤلفه القيم عن حكيم المعري بحث عن العلاقات بين فلسفة أبي العلاء وبين مذهب الحاكمية فإن هذا المذهب ، كما يعلم ، تكون في زمان أبي العلاء وتفرع عن مذهب القرامطة .

ولا غرو في ذلك فإن مذاهب الباطنية ، أيام أبي العلاء قد انتشرت وتوطدت في مختلف أقطار العالم الاسلامي فاحتك أبو العلاء في كثير من دعائمهم واطلع على بعض كتبهم ، وإن لم يمتنع مذهب فرقة من فرقهم .

فانه خصص آياتاً كثيرة من الزوميات لمناظرتهم عاب عليهم فيها أموراً شق تدل على أنه تبرأ منهم فعاب على النصيرية قولهم بالتناسخ وعلى الحاكية عبادتهم للحاكم بأمر الله وعلى القرامطة إباحتهم للمنكرات وطعمهم في الملك .

اننا ، وهذا مما لاشك فيه ولا ريب ، نلاحظ مطابقة غريبة بين بعض أفكاره وبين بعض آراء الباطنية : منها قوله باتباع العقل اباءاً كاد أن يكون مطلقاً وتفضيله إياه على النقل والخبار ، وزهده المتطرف وغير ذلك من الآراء ، كما أنه شاركهم في معرفتهم بالفلسفة اليونانية التي تكثر عناصرها في الزوميات وفي غيرها .

ولكننا بالرغم من ذلك كله ليس في استطاعتنا أن نحكم باتساق أبي العلاء إلى مذاهب الباطنية حكماً قاطعاً ما دامت معظم كتبهم مجهولة أو غير منشورة ومنها بصفة أخص كتب الشيخ المؤيد في الدين داعي دعاة الاسماعيلية في أيام المستنصر والذي راسل أبا العلاء في مسألة الباطنية ، والذي له عدة كتب منها مجالسه التي أبدى فيها آراء تشبه آراء أبي العلاء في الزوميات . ليس في نيتنا أن نعالج هذا الموضوع معالجة مطولة فاكثفينا بالإشارة إلى هذه النظرية لكونها شاهدة من شواهد اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء .

وتقول في الختام : ان أبا العلاء في لزومياته يذكر اختلاف الناس وتنازعهم في شؤون الدين والدنيا استهزأ لاختلاف الفقهاء في التحليل والتحريم وفي الاستحسان والاستنكار كما أنه استهزأ لاختلاف المتكلمين في نظرياتهم فانه لو كان في إمكانه أن يشاهد من عالم الغيب اختلاف الناس في شأنه بعد موته لاضاف آياتاً جديدة إلى لزومياته سخر فيها من هذا الاختلاف الجديد سخرية يمتزج فيها تهكم المرء وشفقته الانسانية وتسامحه الشامل وعواطفه السامية التي تجعله نخراً لجميع البشر فعلمنا أن نقوض سر باطنه إلى الله تعالى وأن نكتفي بالعجاب من نفاذ فكره ومهارة فنه وإخلاص دينه والسلام .

هنري لاوست

ذكرى ابي المصم

هتفوا والحمى تموج جنانه ما ضجيج الحمى وما مهرجانه
 أهشام على السرير وعن السمك يطوي لمع الضحى لمعانه
 أم وفود الحجاج تطري فتاها وابن مروان وارف سلطانه
 أم خيال من آل جفنة كالفجر يغني بطيفه حسنه
 فكان النعمان قد حشد المر ب وكسرى زاه به إيوانه
 مادري الهاتقون أية ذكرى هيجت ربهم فرف حنانه
 تلك ذكرى أبي الملاء وما ذكره إلا الربيع أو ريمانه
 دار والدمر وحيه فتراه فلما ليس ينقضي دورانه

كذب الشعر ما وفى حقه الشمـر ولا أدى فضله انقـانه
 هيكـل من نعومة الحس بال لم يطقه من البلى جـثانه
 واديم مرمر هـده الضعف فكادت تمجـه أردانه
 ذاب حتى تخاله العين وعماً أمن الوهم شفه ذوبانه
 عصب ثائر ولا ثورة النـا ر وفكر لم يتشد هيجانه
 اركبت الخضم في عصفه الريح فما موجه وما طفيـانه
 يطمئن العباب بعد مثار ابن منه على الدجى اطمئنانه
 لو أصابت ملكاً عضوضاً قوافيه لمادت من وقعها أركانـه

انما الشعر ثورة من صميم القلب ، ما لحنه وما أوزانه
 ان لويت الحديد عن مائق الشعب تلوت بسحره قضبانـه
 دول كالأحلام تدرج في الارض وتبقى ندية أفنانه

هدم الدهر مشمخر المباني وسما عن تهديده بنيانه
رب تاج على جوانبه الدر - نصيد ازرت به تيجانه
اين صوب القلوب والفكر الغر - تعالى مثل السماء مكانه
ثورة في اعتساف كل عنيد تنلظى في وجهه نيرانه
وهدى في الانام يلح كالصبوح فتشمي بضوئه عميانه
أي سمع لم ينسبط لاغانيه وقلب ما هزه تخانه
يطرب البلبل المفرد في الروض فتدلى من صوته أغصانه
وبفيض القريض في المحفل الظمآن حتى يروى به ظمآنه
لا يعز الله العزيز رجالا لم يكرم في ظلهم فرسانه

* * *

يا ضريحاً على المعرة ما استو حش منه في ليلة جيرانه
عاف رب الضريح كل نعيم في حواشيه ذله وهوانه
لم يفعج أمماً بما ترضع الام - ففدت رضيعها ألبانه
يمرح الطير في ذراه أميناً ملء عينيه في الفضاء أمانه
حسبه الماء والقفار من الخبز - فهذا نعيمه وليانه
مارفيف القصور، ماترف السلطان، ماتاجه وما صولجانه
رب كوخ أشهى إليه من القصر وان ماج انسه وقيانه
عيشة الفكر لا حياة جماد مات احساسه وطاح كيانه
عيشة الحس والعواطف والفن - ففيها صراعه وطمانه
هكذا المرء فكرة وشعور لا جماد العرا ولا حيوانه

* * *

يفخر الناس بالآلئ من كسب حرام ، وفخره ديوانه
لم يضره فقد النواظر فالقلب بصير تفتحت أجفانه
قد يرى المرء بالفتانة ما ليس تراه على النوى أعيانه
كم بصير أعمى الجنان إذا أمّ - سبيلا ضل السبيل جتانه

* * *

فلسفي التفكير إن رام فكراً
يتهادى على خضم المعاني
وزن الدهر والخلائق والناس
لمس الدنيا باليدين وجالت
فتخطى القلوب حتى وعها
فترى اللؤم أصفر اللون يخفي
وترى الكذب جائلاً في مداه
وترى الخبث ثملاً يتلوّى
ويظل الغبي بالزهو يهذي
صور أملاها الزمان عليه
يهرم الدهر والتصاوير باق

في عنان السماء لان عنانه
لم يفته موج ولا حسبان
س ولم يخطئ شعرة ميزانه
في خبايا رجائها آذنه
فيجلاها مثل الضحى تبيانه
نهشة الموت والاذى ثعبانه
ثم تندو قصيرة أسطوانه
لم يطل مكره ولا روغانه
ما زهو الغبي ، ما هذيانه
فرواها كما رواها زمانه
سرهما لا يمسه حدثانه

* * *

راحة القبر لحنه وأغانيه
ما شفاء كاهها الروح والريحان
ما ثدي كائنها حب رما
ما عيون الغزلان والسحر فيها
فكأن الفناء دفء من البر
أو كأن الهلاك ظلة حر
امل ذاهب ويأس مقيم

فما التذت غيرها ألحانه
في دفن جسمه ريحانه
ن على الصدر، في الثرى رمانه
فأنايا في شعره غزلانه
د وقد طال قرسه وأوانه
يتلاشى في ظلها وهجانه
طال في جانبها خطرانه

* * *

أذعن الناس للسلاسل فاتقا
نار من زخرف السياسة فيهم
كل علج في ظلها عربي
مارأى منها محسناً يسع الامسة
ذهب الصادقون منها على الدهر - فجاشت لفقدهم أحزانه
وتمطى في جنبه كل دجال - توالى على الورى بطلانه

دوا واعيا أصنامهم إذعانه
فتجدى طفاتها شيطانه
من معد يسمو به عدنانه
في ليل ظلمها إحسانه
فجاشت لفقدهم أحزانه
توالى على الورى بطلانه

نهب الشعب واستباح حمى الشعب فنه قصوره وجنانه
ضجّ منه أبو العلاء ومن غفوة شعب ما هاجه عدوانه
صاح: أين الامام في الوطن الحر - تفني بـعدله أوطـانـه
أين أين الامام في أمة يصدق فيها فؤاده ولسانه
لا تراه يذوب في كل لون لم يحل عهده ولا ألوانه
أما الملك خدمة ملؤها الصدق وقلب ما يلتوي إيمانه

* * *

فسد الخلق من قديم الليالي واستوت في فساده أزمانه
فكان الانسان في الغار من أمـس ولم تنخسف به غيرانه
أفلا تشهد الزحام على الارض وهذي جروحه وأنانه
كم بكى الجن والاناسي من هو ل ألحت عليهما أشجانه
لم يبدل غرائز الناس علم يبدل الأرض والسما ميدانه
وعظ الواعظون منا طويلا ما شقى وعظهم ولا برهانه
ليت نوحاً على السفينة والكو ن غريق يعمه طوفانه
فلعمل الايام تأتي بحيل لم تروّع سخاله ذؤبانه

* * *

خفف الهمس ما أظن رفات الشيخ يرضى بضجة لقيانه
عاش في عزلة ومات عليها في هدوء اعتزاله رضوانه
لم نكرم أبا العلاء ولكن كرمته آياته وبيانه
بعثت جلق روائع ماضيه - وهذي آثاره وعيانه
قسماً بالحمى وما نسج الفجر عليه فلا لآت أحضانه
ليس يفنى شعب تفنى بماض ملا الدنيا نعمة عنفوانه
أرأيت والمهرجان صده كيف هبت سهوله ورعانه
بتناجى شبابه في هوى الما ضي ومجوام ضميه وضمانه
فمتى ينظم الحمى علم يحمـل بشرى التفاهم خفقانه

شفيق ميري

تم

م (٢٠)

من ضحايا العقل^(١)

يفتبط لبنان ، وقد قام بقسطه من تكريم أبي العلاء في تمام الذكرى الالفية في شهر آذار الفائت ، بان يشارك اليوم للدول العربية في تشييد هذا الصرح الفخم لحكيم المعرفة، هذا الصرح الذي وضع أساسه المجمع العلمي العربي، وتبارى في رفع بنيانه فنانون المارة في مصر والعراق وفلسطين وشرقي الأردن وسوريا ، فكان للبنان أن يأتي بحجره المتواضع ، مستوحياً من هذه الأبحاث النفيسة المتوالية علينا طول الاسبوع في تحديد أبي العلاء ، سائلاً ، ماهو سر الحيرة في هذه الشخصية العجيبة ؛ وما هي قيمة ذاك المقياس العقلي الذي اتخذته المفكر في قدر الطبيعة وما وراءها ، فاغتر بعصمته ، مؤملاً أن يخرج به من تلك الحيرة . حتى اذا خذله المقياس ، رأيناه وهو المفكر مؤله العقل ، يهوي صريعاً من ضحايا عقله .

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد منذ أن وقف الانسان ذاهلاً أمام مظاهر الطبيعة ، متشوّفاً ، في تفهمها ، الى ما وراء الطبيعة ، دخلت الفاسفة في العالم . وكان محورها ، ولا يزال ، هذا الانسان نفسه ، الحائر في كيانه ومصيره حيرة البرية جمعاء . يتناول بطرفه بسائط الأرض ، ويرق بخياله معارج الافلاك ، ثم ينكفي على عالمه الأصغر ، متأملاً متسائلاً قادراً مركزه من المجتمع ، ومن العالم الأكبر بكامله ، مقابلاً بين تلك القصة الصغيرة ، على قول بسكال ، وهذا الكون الهائل ، بين مسكنة القصة نجاة جبروت الكون ، وصغر هذا الكون نجاة سمو الفكر في تلك القصة . بين اللامتناهي في الصغر

(١) الكلمات التي وردت متأخرة في تذكر في برنامج المحلات ، وألحقت بالحلقة السادسة وألقيت فيها .

والامتناعي في الكبر يقف الانسان وسطاً معتدلاً في هذا النظام الكوني الشامل واذا به المحمول والموضوع في التفكير الفلسفي . بل هو انقائس والمقياس والمقيس . يتدرج من المظاهر الى اسبابها ، ويتقصى الأسباب الى سببها الأول ، فيأتي بالشروح والحلول والتعليقات المتباينة .

ويكون العقل اليوناني ، فينسق ويرتب ، ويطلع بالنظم الفلسفية على بناء متماسك . ويبدأ النقل على عهد الامويين . فتصطدم المدينتان . وينتبه الفكر العربي من طمأنينته ، فيسأل ويقلق ، ويحاول بدوره الحلول والشروح والتعليقات . ويحاول الاتيان بالنظام المتناسق على يد الفارابي ، بعد ان يترس بالمذاهب والبدع والاهواء فمن قدرية يثيرون مشكلة الحرية والاختيار الى جبرية يهولهم الانتقاص . من قدرة الله فيسكنون الى القضاء والقدر ؛ ومن معتزلة يشيدون بذكر العقل مادام العقل يوافق نزعاتهم ، الى اشاعرة بلوذون من المنطق بالمنطق ، الى فلاسفة يحاولون التوفيق بين الحكمة والتريعة فلا يوفقون الا الى وضع الواحدة لزاء الأخرى ، متقابلتين حيناً متدابرتين أحياناً . وناهيك بالديانات المختلفة كاليهودية والنصرانية بطوائفها ومذاهبها من يعقوبي ونسطوري وملكاني وماروني ، والمجسوية بتنوع مظاهرها من زرادشتي ومزدكي ومانوي ، والبوذية وما تنفرع اليه من انواع العبادات والتقشفات .

في هذه البوتقة الجائشة نشأ ابو الملاء . وفي هذا الخضم المتلاطم تاهت فكرته متمسكة مستهدية .

يترك بلدته المعرّة فريسة النزاع السياسي ، ويهبط انطاكية ، فتزعجه اصداء المهادلات البرنظية الشهيرة . فينتقل الى اللاذقية ، فتتلاق عليه سكينته تلك الضجة الصاخبة « بين أحمد والمسيح » . فيخرج على أحبار الرهبان يحاوره ويجادله . ويكون الراهب قد « درس الفلسفة وعلوم الاوائل » ، كما يقول المؤرخون . فتفتتح لأبي الملاء على النصرانية واليهودية ، وعلاقة الدين بالدنيا والطبيعة بما وراؤها ، آفاق يرتادها تنقلاً واتساعاً ، ولا يتوقف على نقطة منها عمقاً وتأملاً . فلا يفيد الا للمألمات كافية لتفذية شكه واستخفافه بالعبادات على السواء .

ويُنْتَقَل به الحظ الى بغداد . وبغداد تحيى المناقشات الدينية والمناظرات الفلسفية ، والمجادلات العلمية ، على حرية تامة في الفكر والقول ، واحترام متبادل بين المتناظرين ، وتساهل نسمع به اليوم - بعد ألف سنة - فنخجل من أنفسنا . وقد وصف لنا الذهبي بعض هذه المجالس الكلامية بما إستعاض منه بالله واسترجع اليه . الا انه أفادنا الفائدة كلها في تاريخ الحركة الفكرية في ذلك العصر . قال في حوادث سنة ٣٧٢ للهجرة (٩٨٢ م) .

« في هذا الزمان كان الأهلواء والبدع فاشية بمثل بغداد من الرفض والاعتزال . فانا لله وانا اليه راجعون . ذكر الحيري في ترجمة ابي عمر احمد بن سعدي الاندلسي الفقيه طامة كبرى ، قال : « سمعت أبا محمد بن أبي زيد الفقيه يسأل أبا عمر بن سعدي عند وصوله الى القيروان من بلاد المشرق فقال : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ قال : نعم ، مرتين ولم أعد اليها . قال : ولم ؟ فقال أما أول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق من السنة ، والبدعة ، والكفار ، واليهود ، والنصارى ، والدةرية ، والمجوس . ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه . فاداء رئيس قاموا كلهم له على أقدامهم حتى يجلس . فاذا تكاملوا ، قال قائل من الكفار : « قد اجتمع للمناظرة ، فلا يحتاج أحد بكتابه ولا بنبيه . فانا لا نصدق بذلك ولا نعتد به وإنما نتناظر بالمقل والقياس » . فيقولون : نعم . ولما سمعت ذلك لم أعد ثم قيل لي : هذا مجلس آخر للكلام . فذهبت اليه . فوجدتهم على مثل سيرة أصحابهم . فقطعت مجالس أهل الكلام » .

وفي بغداد تعرّف الميري الى المجوسية وآرائها ، وإلى البوذية . أو السومانية كما كان يقال ، ومبادئها في تحريم لحم الحيوان ، والميل الى حياة صارمة متقشفة كثيراً ما تفقد إلى النسك الكثيب المتشائم . وفي بغداد كذلك سمع بالتناسخ وباحراق أجساد الموتى ، فأعجبه هذا ، واستنكر ذلك .

وإذا أضفنا إلى هذه المعلومات الدخيلة ما غذي به ، منذ طفولته ، من علوم العربية الأصلية ، وما لقن من شعر القدماء وأحاديثهم وأساطيرهم ، صح لنا أن نبرّر قوله :

ما مرّ في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف هو « الأخذ من كل شيء بطرف » ، وهو تحديد الأدب في نظر القدماء . أو نخطيء ، نحن اليوم ، إذا قلنا بهذه الثقافة العلائية إلى الأدب في سعته وتسطّحه عن العلم في عمقه وتناسقه ؟

كل هذه البذور صادفت تربة خصبة في عقلية أبي اللاء المطربة القلقة ، فنبتت كما شأت تتجاوز ولا تكاد تتعارف ، بل هي في نزاع دائم وصخب مستطيل حتى يمجّ الجدل في دماغ الأعمى ، وقد حجب عنه كل ملهى ، وسدّ عليه كل سبيل للتسلية والترفيه ، وإذا به يحاور عقله ، ويجادل نفسه الليل والنهار ، يسأل ويقارن ، وقد لا ينتظر الجواب ، بل كثيراً ما اكتفى به استفهاماً منكراً ساخراً ، وكأنّ تنبهه إلى مواضع النقص من البشر ، وشدة استحيائه منهم ، وحذره من غمزاتهم عليه وأقوالهم فيه .

يروّعه السرار بكل أمر مخافة أن يكون به السرار دفعته إلى اتخاذ تلك الدرع من الهزء بهم ، والسخر من أعمالهم ، وأكثر ما يكون هذا السخر حاجزاً يلجأ إليه بعض الضعفاء الحيين فيفاجئون الناس بما يخافونه منهم ، وأعمى المعرة كان من هؤلاء فسخر وأسرف في السخر ، حتى لم ينبج منه أحد ، لا من كبار القوم ولا من صغارهم ، لا من رجال الدين ولا من رجال الدنيا ، لا من الأحياء ولا من الموتى ، لا من عامة البشر ولا من الأنبياء ، لا من الملائكة ولا من الجن ، وكان يمزج هذا السخر بشيء من الحسرة ولد تشاؤماً كثيراً وسوء ظن بالناس لم يختص بالنساء وحدهن بل شمل بني آدم أجمعين ، وارتقى أحياناً إلى الخالق نفسه .

وكان من نتائج هذا الغليان الفكري ، ومن أثر تلك الحالات المتناوبة عقلية الشاعر الحساسة القلقة ، شذور أحكام وشق آراء مسكوكة سكّة النقود الملعنة يتداولها الناس فيستنتجون منها المذاهب المتناقضة ، والعقائد الغريبة ، يُزري عليه بعضهم إلحاده الوقح ، ويبرئه غيرهم من « وصحة الكفر الشنعاء » ، ويقيمه فريق آخر زعيماً لأرباب الشك والارتياب ، ويبيّن له غير هؤلاء صرح الفلسفة المادبة عالياً ، ولكل فريق أسانيد صارخة في « اللزوميات » وفي

غير « اللزوميات » ، يشرحونها ويؤولونها ، ويعلقون عليها ، وكل حزب بما
لبيهم فرحون .

بيد أن الخطب أيسر من ذلك في نظرنا ، فليس أبو العلاء بالكافر الملعن ،
ولا بالمومن المستسلم ، ولا بالشاك الحائر شكاً علمياً ، ولا بالفيلسوف المادي . إنما
هو ذكاء حاد ، وعقل معجب بذاته حتى الغرور ؛ وشعور مُرهف بوطأة
مصايبه خاصة ومصايب قومه عامة ؛ وفضول مستيقظ لما يقال في زمانه — وفي
كل زمان — في جور الحكام ، وفساد الأخلاق ، وحيل النساء خاصة ، ورياء
رجال الدين ؛ وبقية إيمان في قرارة النفس تكاد تختفي هذه الموجات الطامية ،
ثم هو ، فوق ذلك ، بلاغة صارخة على هدوئها ، وحجة دامغة ، واستنتاج
جارف لا يقف لدي تحفظ ، ولا يأخذ باحتياط ، ومقارنات مفاجئة كانت
في أصل ذاك السخر الهدام .

ولكان أبو العلاء غير هذه الشخصية المبددة لو أمكنه أن يتعمق في
درس الأصول الدينية فيميز بين الشريعة في روحها ومظاهرها تطبيقها في العالم
ولا يحمل النبؤات نفاق بعض اتباعها ورياء بعض ممثليها . ولو أمكنه ، كذلك
أن يتلقى المبادئ الفلسفية على وجهها الانساني الأصيل ، غير مكثف بفبار
المجادلات وزبد المناظرات ، لما اغترّ بالعقل الحسي المشترك وحده يجعله إمامه
في كل شيء .

هذه خطوط عامة في تصوير شخصية أبي العلاء ، قد تكون متقطعة وقد
تكون واهية ، ولكنها ضرورية في نظرنا ، لتمثل المفكر قبل الولوج إلى فكرته .
أما موضوعات هذه الفكرة أو أهداف الحملة العلائية ، فقد تُردّ إلى أربعة :
١ — العناية الألهمية . وهي ، لو كانت موجودة ، لعنيت بالنظام والعدل
في هذا العالم ، فلم يسيطر فيه الشر ولم تتوال المصايب على أبي العلاء ؛ تلك
المصايب التي لم يجد لها سبباً في أعماله ، ولا في حياته الخاصة المكتنفة
بالمعاف والزهد .

٢ — الحقائق الدينية بمحملتها في جميع الديانات ، والشرائع التي تسمح للناس
بالإساءة إلى الناس .

٣ — مصير النفس بعد الموت ، وكل ما تعلق بذلك من بمت و ثواب وعقاب .
٤ — هذا المجتمع البشري الفاسد الذي لا دواء له إلا قطع النسل . ومن هنا حملته على الزواج ، وبالتالي على المرأة .
وقبل أن نشهد الأعمى في هذا المعترك اليائس ، لننتفضص معداته للقتال ولنتعرف مقياسه ، فنراه أعزل إلا من العقل .

كذب الظن لا إمام سوى العقل — مشيراً في صبحه والمساء

سأتبع مَنْ يدعو إلى الخير جاهداً وأرحلُ عنها ، ما إمامي سوى عقلي
ولكن أي عقل هو ؟ ولأي شيء يصح مقياساً ؟

ينتج من اللزوميات أن المقصود بهذا « العقل » الذي يردد ذكره أبو الملاء في أكثر الصفحات ، فيلوذ به كلما عرضت له مشكلة ، هذا الحس ، أو الإدراك ، أو بادي الرأي المشترك بين الناس يأخذون به في اختبارهم اليومي وأحكامهم الجارية ، هذا الإدراك العامي الذي جعله ديكارت مُشاعاً بين البشر .
هذا العقل الحسي الشائع يصلح مقياساً للمحسوسات ، فهو سيد في منطقته المادية ، أما إذا ارتفعنا به إلى ما فوق فلا يرى إلا الانكار والنفي ؛ حتى في الشؤون الطبيعية التي لا تقع تحت حسه ، كأن ينفي في القرون الوسطى أن تكون الشمس ثابتة والأرض تدور ، وكان من حقه أن ينفي ، لثلاثين سنة خلت ، أن يسمع أهل دمشق مثلاً رجلاً يتكلم في بغداد .

هذا العقل الحسي ، هذا المقياس البسيط ، هو الذي تسليح به أبو الملاء فأقبل على الكون بأجمعه ، يقيس كل شيء ، ويجادل في كل شيء ، تحت راية ذاك العقل ، فلا عجب أن يُشير كثيراً من الغبار ، ويحدث ضجة ، لا تزال أصدائها تتردد حتى اليوم في أنحاء الاعتراضات السطحية والاحتجاجات العامة ، وأي فرق بين هذا الشاعر المفكر والرجل العامي لا يفهم أحكام ما يفوق « عقله » من الشؤون فيزري بها ، سوى تلك اللذعة التهكية ، وذاك التساؤل المغربي بالتشكيك واللاأدرية ، أو لم يقلد المعري في « عقله » كثير من الشعراء ، ففرضوا الاستفهامات عديدة في مجالي الكون ، وتصوروا أنهم أدركوا قمة التفكير الفلسفي إذ أجابوا عن كل ذلك بتعبير واحد : لست أدري !

ذلك أن لكل مقيسٍ مقياساً خاصاً ، ولكل نظامٍ في العالم محكا من وعه ، فلا تنكال الأرض بالصاع ، ولا يثاق الفكر بالقفزان .
ولا نرى أبا العلاء ميز في صلاح مقياسه العقلي بين نظم العالم المدرّجة من الطبيعي المادّي ، إلى الانساني الفكري ، إلى الإلهي فائق الطبيعة ، فكان لا بدّ من فساد النتيجة إذ فسدت المقاييس ، وكان لا بدّ من أن ينفي وجود الملائكة والجنّ كما ينفي وجود فلان من الناس في بيته مثلاً ، والدليل المشترك بين النفيين هو كونه لا يحسّ بها :

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به حساً يحسّ لجنيّ ولا مملوك
أخذ أبو العلاء بهذا المقياس في اختبار المادّي فصحّ مقياساً الأحكام ، وأمكنه أن ينفي وجود الفلان في بيته لأنه لا يحسّ به . فخال المقياس صحيحاً كذلك في الشؤون الفائقة المادّة ، ومنّ من المفكرين لا يميز بين هذين العالمين الفارقين ، فينتقل من الواحد إلى الآخر بالمقياس نفسه ؟ إلا إذا شاء أن يتظرف أو يتأجف فعل أبي نواس ، ولا نزاه بعيداً عن أبي العلاء في استخدامه هذا المقياس :

ما جاءنا أحدٌ يُخبر أنه في جنة مذمات أو في نار !
وينتقل الشاعر بمقياسه من الجنّ والملائكة إلى الله فيقول :
أما الإله فإني لست مدركه
وهو على حقٍّ وإخلاص في قوله ، لأنه لن يدرك الإله عن هذا الطريق .
على أن الطبيعة الإنسانية ، طبيعته التامة ، كانت كثيراً ما تتور على هذه النتائج المنطقية الفاسدة ؛ فيسكن أبو العلاء إلى الإيمان :
أثبت لي خالقاً حكيماً ولست من معشر النفاة

* * *

انفرد اللهُ بسلطانه فقال في كل حالٍ كفاء
ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء
ثم يمود بقله إلى العالم الروحي ، فيزى الديانات المتباينة والعبادات المختلفة ، والشرائع المتناحرة أحياناً ، وكلها تدّعي صحة الدين ، وطهارة الإيمان ، والعمل

على خلاص البشر ، فيضيع مقياسه في ذلك ، ولا يرى أفضل من أن ينكرها جميعاً ،
حاكماً عليها بالضلال لأنها تخالف « العقل » :

هفت الخليفة والنصارى ما اهدت والهود حارت ، والجوس مضلله
اثنان أهل الأرض ، ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له !

* * *

إذا رجع الحضيف إلى حجاجه تهاوت بالمذاهب وازدراها
وهت أديانهم من كل وجه فبل عقل تشد به عُراها !
وذاك ان اختلاف العبادات يظهر جديراً بالازدراء في نظر هذا العقل ، فلو كان
الجوهر واحداً ، لما تباينت الأعراض :

عجت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى : إله يضاف ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود : إله يجب رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من اقاصي البلاد لرمي الجمار ولثم الحجر
فواعجباً من مقالاتهم ! أيعمى عن الحق كل البشر (١)

أجل هذه مفاعيل المقياس المادي الضيق الذي لا يمكنه أن يتجاوز الأعراض
الى الجوهر الروحي لأنه من نظام مادي . ولا مندوحة لنا في قدر هذا الفرق قدره
الصحيح من تذكر ماأشاد به بسكال من تدرج الأنظمة في العالم : النظام المادي وله
مقاييسه ، والنظام العقلي وله مقاييسه كذلك ، والنظام الروحي ، أو نظام المحبة ،
وله مقاييس خاصة . ومن لم يتح له تجاوز النظام الى تاليه فيستعمل لكل نظام
مقياسه الخاص ضد ولم يستصبح بنور . هذا المعري يرى تنوع الديانات في
اعراضها فينكرها جميعاً ويرمي أصحابها بالعمى . وهذا ابن عربي يتحقق التنوع
نفسه ، ولكنه يتجاوز في حكمه نظام المادة الى نظام المحبة فينفذ من الأعراض
المتباينة الى الجوهر الموحد ، فيتحقق ان لامعبود في الواقع الا الله ويصبح :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

(١) سواء اهتمت نسبة هذه الايات أم لا فانها تصور الفكرة العلانية في صميمها .

أدين بدين الحب أى توجهت ركايبه فالحب ديني وإيماني

*
*

ولنعد الى إله آبي العلاء، الذي يعود اليه بعبله ، فلا يمكن أن يتصوره خارجاً عن الزمان والمكان . وقد كان مشكل ازلية العالم لا يزال يحير الأدمغة في ذاك العهد . فاذا كان العالم أزلياً ، كان الزمان - وهو امتداد الحركة - والمكان - وهو امتداد الاقطار - ازليين كذلك :

ولو طار جبريل بقية عمره من الدهر، ما استطاع الخروج من الدهر
فصار الله ضمن الزمان وضمن المكان :

قالوا : لنا خالق قديم قلنا : صدقم ، كذا تقول
زعمتموه بلا زمان ولا مكان ؛ ألا فقولوا :
هذا كلام له خبيء معناه : ليست لنا عقول !
اما الجنس البشري في هذا العالم الأزلي فليس من الضرورة ان يبدأ بآدم
المعروف ، بل قد يرقى في القدم الى الأزل . ولم لا ؟

خالق لا يشك فيه قديم وزمان على الأنام تقادم
جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم !
والديانات ظواهر اجتماعية تأتي وتزول :

أتى عيسى فأبطل دين موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يحییء دين بعد هذا فأودى الناس بين غد وأمس
إذا قلت الحال رفعت صوتي وان قلت اليقين أطلت همسي

ولا تترك بيننا إلا التفرقة والاحن والمداوات :
إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأورثتنا أفاكين العداوات
وهل أبيضت نساء الروم عن عرض للعرب الا باحكام النبوات
ثم يتناول الشرائع وتناقضها الظاهر في نظره :

يد بخمس مئين عسجداً ودبت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا الا السكوت له وأن نموذ بمولانا من النار

وهو فساد قياس أدبي إليه سوء الفهم لروح الشريعة . وقد انتبه له الكثيرون ممن تمقبوا المعري بالنقد والرد والشم والتكفير . قال ياقوت جامعاً كل ذلك « كأن المعري حمار لا يفقه شيئاً . وإلا فالمراد بهذا بين : لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار لكثير سرقة ما دونها طمعاً في النجاة . ولو كانت اليد تودي ربع دينار لكثير من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية عنها . نعوذ بالله من الضلال ؟ »

ومن المشاكل التي اثارت خيال المعري ، وأرهفت حسه ، وأقلقت عقله مشكلة الانسان : كيانه ومصيره .

أولم يكن من الافضل ألا يكون ؟

رب الزمان مفرق الالفين فاحكم الهي بين ذاك وبين
أنهيت عن قتل النفوس تعمداً وبمئت انت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان اغناها عن الحاليين
أما الموت فيتوق إليه المعري على خوفه منه . يتوق إليه لان فيه راحة وغنى
ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها ، والعيش مثل السهاد
تمب كلها الحياة فما أعجب الا من طامع في ازدياد

* * *

أصبح في لحدي على وحدتي لست إلى الدنيا بمحتاج

* * *

فما لي أخاف طريق الردي وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة ومال أضيع ومال ملك
ولكنه يخاف على الرغم من هذه المحاولة في الاقتناع
وخوف الردي آوى الى الكهف أهله وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبه روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده ، جتي عدن
ويقول ، وملء جوانحه الرعب والأسى :

يهال التراب على من ثوى فاه من النبا الهائل

ثم يخص نفسه ، فيتصور انقضاء اجله واهتمام الناس بجفر قبره في تلك الصورة المفزعة :

يكر الحول بعد الحول عني وتلك مصارع الاقوام حولي
كأنني بالاولى حفروا لجاري وقد أخذوا المaul وانتحوا لي
وأما ما وراء الموت ...

أما الجسوم فللتراب مآلها وعييت بالارواح أنى تسلك
ولندعه على عيه بالارواح هنية ، منصرفين الى ما يستخرجه خياله الخصب
من نهاية الجسد وتحوله الى تراب :

تعود إلى الارض أجسامنا وتلتحق بالعنصر الطاهر
ويقضي بنا فرضه ناسك يمرّ اليدين على الظاهر

* * *

تيمموا بترابي علّ فعلكم بعد الهمود يوافيني بأغراضي
وان جعلت بحكم الله في خرف يقضي الطهور ، فاني شاكر راض
فاذا كان الانسان نهايته الى إناء الفخار

فلا عس غفراً من الفخر عائد الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرّةً فيأكل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لارض ومادري فواها له بعد البلى ، يتغرب
وأعجب بتغرب هذه العناصر بعد هلاك المركب الجامع .

وما أقرب فكرة التحول هذا إلى رباعية الخيام ، وقد دخل معمل الخزاف
فتخيل سماع الأرواح ترتفع إليه من خلال الطين المجهول ! قال (في تمريب
وديع البستاني) .

أمس أبصرتُ جارنا الخزافا يحيل الطين كيف شاء اعتسافا
ويكيل المقدار منه جزافا

وكأنني سمعت بين يديه صوت مظلومة تشكي لديه
آه رفقاً ! فأنت طين وماء أيها المرء ، لا تسمني العذابا !
هذا النفع المادي من مآل الأجسام البشرية يتوسع فيه أبو الملاء حتى
التصورات المزعجة . فيذكر أجساداً كانت جذيرة بالصون وقد صارت في
طلاء الجدار ، .

وكم من رجال جُسمهم 'عُفِرُ' تبنى بهم أو عليهم الجُدُرُ
وهذه الصورة ، وهي أروع وأشدّ وقماً لما فيها من التخصيص والتضاد :
لعل مفاصل البناء 'تضحى' طلاءً للسقيفة والجدار
ويلغ به التصور الخيالي أن يرى سطح الأرض كله من تراب الأجسام
فيربأ بالموتى أن يدوسهم الأحياء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأُرض إلا من هذه الأجساد
سِرٌّ إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيلاً على رفات المباد
وقبج بنا وإن قدم المهد هوان الآباء والأجداد
وكيف بهذا التصوّر الفسيح الغنيّ إن علق به الشاعر الفارسي فأشار
إلى عادة الفرس في إراقة القطرات من الكأس قبل شربها :

ماُ جزافاً ما قد أراق السقاة ! لاعمري بل تلکم صدقات

إنما الترب يا ندأى رفات !

فليرقوا فتلكم القطراتُ لكبودٍ تذيبها الحمرات

وليريقوا لعلها مطفئات لوعةً في الثرى تؤجّ التهاها !

* * *

هذا مصير الأجسام . وأما الأرواح ، وهي لا تقع تحت الحس ، فلم يكن
لعقل المعري أن يحجب عن مصيرها بشيء .

فهل تحس إذا بانّت عن الجسد ؟

أم أنها تنتقل من جسد إلى جسد وفقاً لزعم الهنود في التناسخ ؟ وهل
تدخل جسد الحيوان في تنقلاتها ؟ وهل هناك بث ؟ وحشر ؟ ودينونة ؟

أما العقل فيقول :

ولم زبطن الأرض يلقي لظهرها رجلاً كما يلقي الى بطنها الظهر

* *

تعطنا الأيام حتى كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد لنا سبك

وإرفض التناسخ :

يقولون إن الجسم يُنقل روحه إلى غيره حتى يهذه النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
وأما بقية الإيمان فتصيح :

وقدرة الله حق ليس يُعجزها حشر لجسم ولا بعث لأموات

* * *

إذا ما أعظمي كانت هباءً فإن الله لا يعميه جمي
بل هي تناضل عن هذا الإيمان بالبعث ، وتراهن عليه ، قبل الغزالي بنصف
قرن ، وقبل بسكال بسنة قرون :

زعم المنجم والطبيب كلاهما أن لامعاد . فقلت : ذاك إليكما
أن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي ، فالو بال عليكما

* *

وكيف يشيب الله الناس أو يعاقبهم على أفعالهم ، وهم غير مخيرين فيها .
وهل في هذا الكون القديم السائر منذ الازل الى الابد ، مكان لاختيار أو
أثر لحرية ؟ وكيف يؤمن العقل بالحرية والتخير .
والمرء يقدمُ دنياه على خطرٍ بالكره منه ، وينأها على سحقٍ ؟

* *

ما باختياري ميلادي ولا هرمي ولا حياتي ، فهل لي بمدتخير ؟
كان عراك الجبرية والقدرية قد خفَّ في المجتمع الاسلامي . ولكنه لم يخف
ولن يخف في الفكر البشري ، وهو المقابل بين معرفة الله الشاملة وارادته المطلقة
من جهة وعدله بين الناس في توزيع الثواب والعقاب وما يفرضه ذلك من مسؤولية
فردية وبالتالي من حرية اختيار .

أما أبو العلاء فقد كان جازماً في حكمه ، غير متردد في استنتاج كل ما يمكن
من هذا المبدأ . فحمل على القائلين بهلاك من يفعل الكبائر .

ان كان من فعل الكبائر مجبراً فعقابه ظلم على مايفعل
وتجاوز حتى جعل المدح والذم لأمعنى لهما لأن الانسان غير مخير في اكتسابهما.
وقال إن تأليفه الكتب ونظمه الشعر بقضاء وقدر .

وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح الإصلاح لا يرجى في المجتمع ، وظل
الانسان شريراً بطبعه ، كما بقول ، وظل الفساد غريزة فيه ، لا يمتاز أحد عن
الآخر في هذا الأمر :

إن مازت الناس أخلاق يقاس بها فانهم عند سوء الطبع ، أسوأ
أو كان كل بني حواء يشبهني فبئس ما ولدت للناس حواء
وإذا فقد كان طبيعياً أن يفضل المعري الحيوانات على البشر ، بل يفضل
تسريح برغوث على عمل الإحسان :

تسريح كفي برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً !
أما الخلاص من الشر الاصيل في البشر فلا سبيل اليه الا العدم أي قطع النسل :
فليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء
ومن نظريات المعري الحبيبة الى قلبه ان الآباء ينجون على ابنائهم :
على الولد ينجي والد ولوانهم ولادة على أمصارهم خطباء
وهو مايرر تلك الوصية الغريبة التي شاءها ان يكتب على قبره :
هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد !
ولا سبيل الى قطع النسل الا بتحريم الزواج ، فينقطع بذلك الشر في العالم .
وقد سهل له عقله ، وهو الشفيق على البرغوث ، أن لا يتراجع عن وأد البنات :
ودفن ، والحوادث فاجعات لا إحداهن احدى المكرمات
بل ان عقله هذا يقوده الى تصور امور يتسم لها في التساهل بتزويج البنات
شرط أن لا يزوج البنون :

واطلب لبنتك زوجاً كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج
ولا نعلم بما نعتذر عنه في حملته على النساء . وما كانت تلك الحملة مقصودة
لنفسها . الا انه جر اليها في حملته على النسل البشري . ولو لم توجد المرأة لكان
ذلك بدء السعادة . اما وقد وجدت فينبغي .

لرومها البيت مع اهتمامها حتى يجيها الوفد من حمامها
وطبيمي أن يكون تلميم النساء امرأ مفروغاً منه في نظر الميري :
علموهن الفزل والنسج والرد ن وخلوا كتابة وقراءه
فصلاة الفتاة بالحمد والاخلا ص نفني عن يونس وبراءه

* * *

ولا تحمد حسانتك ان توافت بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى بهن من اليراع مقلات
واذا كان لابد لهن من تلاوة شيء من القرآن فلينظر الى عجوز متناهية الكبر
فاقدة الاسنان :

ليأخذن التلاوة عن عجوز من الالائي فغرن مهتمات
يسبحن المليك بكل جنح ويركن الضحى متألمات
فما عيب على الفتيات لحن اذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من شيخ ضير يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يدها ولته من المتشغيات
وكأنه يتصور مطالب النساء الكثيرة ومراميهن البعيدة فيرسم لهن تلك
الصورة المتحركة على مهلها :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة للزوج : إني الى الحمام أحتاج
وهمها في أمور لو يتابعها كسرى عليها، لشين الملك والتاج !

* * *

ولم يفت نظام المجتمع فكر الميري ، وقد كثر فساد الحكم في عصره . فحكم
عقله في السلطة ومبداها ، وطلع علينا برأي كان جديداً في القرون الوسطى
المؤمنة بأن كل سلطة من الله الخالقة حول صاحب الامر هالة من الكرامة
والتبجيل . واذا باعوى المرة يفتح أبصار الناس على أن مصدر السلطة الشعب
وان الامير خادم الرعية :

من المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها ، وم أجراؤها !

ثم يستنكر عقله أن يكون البشر طبقات مميّزة في الشرف والحقوق وهم متساوون في الاصل والجليلة ، فيصيح :

لا يفخرن الهاشمي على امرئ من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

هذه المساواة بين البشر يريدونها كذلك في الممتلكات ، رامية الى شيء من الاشتراكية ، لفظاً على الاقل :

لو كان لي ، أو لغيري قدر أئمة من البسيطة ، خلت الامر مشتركاً

من الاله ؛ الى النبؤات والشرائع ، الى مصير الاجساد والارواح ، الى مظاهر المجتمع . لمحات خاطرة ، ونفذات مشعة ، وأحكام تتفاوت خطأ وصواباً ، وآراء تتباين عمقاً وتسطحاً . هي حجارة من مقالع مختلفة نحتها الشاعر الجاهد فزخرف بعضها ، وصقل البعض الآخر ، وتركها مبثرة معالم على طريق المفكرين دون أن يشيد منها ذاك الصرح الموحد التصميم ، الموحد البنيات في التفكير البشري المتناسق . إلا أنه ، وإن لم يوفق الى السير في سمت الفلسفة الانسانية السوية ، فقد كفاه غفراً أنه بدأ ، منذ ألف سنة ، يحر هذه الاداة العجيبة التي تجعل من الكائن البشري انساناً كاملاً ، ألا وهي العقل !

فؤاد افرايم البستاني
مندوب لبنان

من هو ابو العلاء الممرى

ولم تقام المهرجانات لذ كرى مرور الف عام على ولادته

ما كان ابو العلاء الممرى نبياً جاء بدين يهدي البشر الى الصراط المستقيم ولا خليفة راشداً استن لامة سنناً تهديهم الى سبل الرشاد . ولا ملكاً عزيز الجانب لم تأخذه في الحق لومة لائم . ولا قائداً فاحماً وسع ملك العرب وسلطانهم ، ولا بطلاً ردت عنهم غزاة ببلادهم ، ولا مجتهداً وضع لامة مبادئ قادتهم الى الخير ، ولا مكتشفاً ضم الى بلاد امته بلاداً اخرى ولا مخترعاً اوجد لامته ما هون عليها مشقات العمل .

ولكن الروح الانسانية تواقه بفطرتها الى الافكار والسوانح العلوية التي تعبق من مهبط الكمال في ظلمات اسرار الخليفة فتتير السبل وتدفع البشر الى العلاء .

والذكاء والمعرفة أعلى ميزات الانسان وأجلها ، فاذا اقترنا بالعقل والوجدان كانا كواكب منيرة في ظلمات الخليفة يهتدي بها العاشي في حالك المضلات . وائتية الانسان وحرصه على صيانة ما يخصه من كل جامعة تجعله يقدس من تخلق بالقواعد التي وضعها البشر لهذه الغاية واحترام كل من يدافع عنها بالقوة او باللسان . واذا كان هذا التخلق والدفاع في زمن كثر فيه الاستهتار واشتدت فيه قوة الاستغلال زاد صاحبه اكباراً واجلالاً في نظر أمثاله من بني الانسان .

واذا جاء بأكثر مما كان يطلب منه استجلب الانتظار اليه واختص بتقدير من لم يكن قادراً على مساواته وأصبح بنظر الناس من الأقداد . وابو العلاء الممرى كان خلوقاً جريئاً قوي الروح والارادة زكياً عالماً قادراً على التعبير عما يخالج نفسه من عواطف وأفكار وانتقاد كل ما لم يقبله الخلق الكامل

والعقل السليم بحرية وجرأة وبلغة متينة غير مبال بما تأتي به آراؤه بالنسبة الى عصره من مقت ونكبات .

وقد تغلب فيه جوهر الروح على جوهر الجسد فكبح جماح شهواته المادية وعاش عيشة الزهاد المتقشفين مكتفياً بما يمسك مسكة حوبائه من طعام وشراب وتغذية روحه بالدرس والتفكير والتدريس والنظم والتأليف ، غير ملتفت الى قيود محيطه الذي ساد فيه القلق والاضطراب وضجيت فيه الحرية في سبيل ممارسة خصائص الحكم التي كانت تستلزمها حالة الاجتماع آنئذ .

وهذه الخصائص وهذا الاعتكاف على الدرس والتفكير الذي اتخذ فيه الحياة الانسانية كلها موضوعاً لتفكيره والتأمل بحل معضلاتها جاء بينات أفكاره التي استجلبت اعجاب الادباء والعلماء من سائر بني الانسان .

ان منشأ حبنا وقصورنا ومخاوفنا وآمالنا وحسراتنا ورجائنا هو النفس وليس العقل الذي هو آلة الفكر والمحاكمة ، فالنفس هي ينبوع الفياض لمواطننا ، والمواطن هي الجوهر الاصيل في انسانيتنا والفكر واسطة لتسميتها وتفسيرها واللسان وتر ما يلد في وجداننا من العواطف المنبعثة عن حالاتنا النفسية .

وهناك بعض تجليات نفسية عميقة لا نستطيع التعبير عنها بلغة الكلام تذهب بنا الى فكرة يأس عميق أو سرور ظاهر .

ومن هذا يمكن وجود مسلكين متناقضين من فكرة واحدة أحدهما يشقي الانسان والآخري سمده قليلاً أو كثيراً ، والأول هو التشاؤم والثاني هو التفاؤل ، وإذا ليست مسألة التشاؤم والتفاؤل الا مسألة مزاجية .

فاذا نظر الانسان الى الاكوان الخارجية وصحف حياته نظرة تقدير يحاول بها تعيين القيم فلا ينظر الا من وراء أحواله النفسية فيرى الدنيا جميلة أو قبيحة والحياة سعيدة أو شقية على نسبة انتعاشه المعنوي .

واللذة والألم والسرور والحزن حالتان أصليتان في الحياة الانسانية وكل حالة منهما يتلازم فرعاها مردودين الى شكل عام من أشكال الشعور ينتهي بنا الى القول بأن من لم يتألم لا يتلذذ ومن لم يحزن لا يسر وان الوجدان البشري بحر خضم مجهول الحدود لا ينال غوره تمر به الرياح والعواصف من حين الى

آخر فتشير فيه أمواجاً يعجز العقل عن استيعابها وهي ما نسميه حياً والهاماً وتلك الأمواج هي الحالات النفسية ، والانسان على استعداد عظيم لحمل الكون الجامد الصامت بأسره على لسانه وهذا هو الشعر في اعم وأتم معناه والانسان يمثل هذا الاستعداد انما يأنس الى الاكوان فينطقها ويقبس منها معاني وأفكاراً تصلها به الصلة الثامة فيمد الكون بالمعاني .

وما الشاعر الفذ الا ذلك الذي يمد الكون بالمعاني البليغة ويخترق حجب الحياة والموت ويهز النفس أبدأ لسورة إلهامه ويزن الحياة بالقسطاس المستقيم . وليس من أمر انساني يفوق أهمية أمر تقويم الحياة وتفسيرها بالمعنى الصحيح الا أن الناس لم يختلفوا في أمر قط اختلافهم في حل هذه المعضلة المويصة ، لما يكتنف مزاجهم من مجلى حالي التشاؤم والتفاؤل وما صيغ أفكارهم من صبغة الأمل الباسم أو اليأس الباكي .

وان أروع الشعر واجمل البيان هو ما استطاع أن يكشف العواطف المسترسة المتصلة بقضايا الموت والحياة والسعادة والشقاء التي تتلاطم أمواجها في قفوسنا دائرة على قطبي اليأس والرجاء .

ولمقائد الانسان في المعاد والآخرة اتصال وثيق بانصراف أفكاره وعواطفه الى نظريات التفاؤل والتشاؤم وللايمان وشكوكه أثر بين في تلك العقائد ولتقديره الكون قائماً على الاتقان والنظام وعدم يقينه بذلك دخل كلي في إيمانه وشكوكه فمن لم يؤمن بالعدل المطلق لا يؤمن بالآخرة ، ولهذا المباديء أكبر صلة بالخير والشر فمن يعتبر الخير أصلاً وعلة غائية يظل متفائلاً ومن يعتبر الشر أصلاً في الخلق لا يعيش الا متشائماً .

ومن هذا نستنتج ان الاصل في السعادة هو الاطمئنان النفسي وهذا مبثوث الايمان . والايمان خارج عن اختيار الانسان لانه لا بد فيه من الهام قدسي خاص أي هداية كما قال تعالى : (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وفي التشاؤم الاقرار بأن الشر أصل في الوجود ، وقد كان المعري من عباقرة الشعراء الذاهبين الى الشق الثاني ويرى أن الدهر قائم على الاتلاف والافساد والمجتمع منصوب على القدر والخيانة وأن النظم البشرية التي يسير

عليها المجتمع بعيدة عن تقويم الحياة والقسطاس المستقيم الذي يريده العقل وأن لا شيء قائم على الاتقان والنظام والعدل والمساواة ؛ فأراد أن يفهم الكون بجميع المعلومات الناجمة عن تجارب البشر والاديان وتاريخ الانسان على العموم ، فدار حول دائرة المعارف الانسانية الصغيرة في وسط فضاء الظلام الواسع يدرس ويفكر وهو الشاعر الملهم والحكيم الواعي ، والفيلسوف اذا سار مع ميوله الطبيعية وتذوق بالشبه ولم يكبح جماح خياله وقع بالشك وانتقاد للمؤثرات النفسانية التي تهاجمه من كل صوب وحذب فتطوَّح به للانكار وتزمله بالتشاؤم في كل أقواله وأفكاره .

وعمي المعري في الرابعة من عمره وقساوة محيطه وعيشه وما أوتيته من الاحساس الرقيق دفعه لانتقاد كل ما لم يقبله عقله ووجدانه غير هيَّاب ولا وجل . فصور آراءه في شعره ونثره غير ملتفت إلى قيود محيطه وعقيدته فجاء بما جاء به من انتقاد للمجتمع ولبعض المظاهر الدينية ووقف حائراً يقول :

وبصير الاقوام مثلي أعمى فهايموا في حندس نتصادم
ونظر إلى موت أصحابه الذين سبّوه إلى دار البتاء ، فرأى هناك سرّاً
غامضاً تقف العقول عنده حيرى كليله فقال :

أما الصحاب فقدموا وما عادوا	وبيننا بلقاء الموت ميعاد
سرّ قديم وأمر غير متضح	فهل على كشفنا للحق اسعاد
سيران ضدان من روح ومن جسد	هذا هبوط وهذا فيه اصعاد
أخذ المنايا سوانا وهي تاركة	قيلنا عظة منها وإيعاد
توقموا السيل، أوفى عارض وله	في العين برق وفي الاسماع ارعاد
وتراه تجاه هذا السرّ المبين ينتقل	لجأة إلى تقويم الحياة وبيان ماهية

الوجود فيقول :

كل ذكر من بعده نسيان	وتنيب الآثار والأعيان
إنما هذه الحياة عناء	فليخبرك عن أذاها العيان
ما يحسّ التراب ثقلاً إذا ديس	ولا الماء يتعب الجريان
نفس بعد مثله يتقضى	فتمرّ الدهور والأحيان

ومرثيته الخالدة خير معبر عن فكرته في الحياة التي لا يرى فيها ما يستحق منه دمة أو ابتسامة حيناً يقول :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد
أبكت تلك الحماسة أم غنت على فرع غصنها المياد

ولكنه سما بتفكيره إلى عالم الحقيقة عالم القيم المحضة المعينة المستقر الذي لا يتغير فحذبه نحوه كالغناطيس وعلا به إلى مكانته العليا ووهبه قوّة على الهوض فوق قوّة مستواه الطبيعي فرأى أن العالم ليس مجرد مجموعة ذرات مادية محشودة بدون معنى وأنه ليس مجرد فراغ تدور حوله حياة الانسان ، فقال :

بوحداية العالم دنا فذرني أقطع الأيام وحدي

وقال :

انفرد الله بسلطانه فما له في كل حال كفاء
ما خفيت قدرته عنكم وهل لها عن ذي رشاد خفاء
والبيت الأول لا يمدو قول الله عز وجل (قل هو الله أحد) إلى آخر
السورة ، لأنه يثبت الوحداية ويثبت القدرة بلفظ القرآن .

وقال :

أما ترى الشهب في أفلاكها انتقلت بقدرة من ملك غير منتقل
وهنا يقصد استقرار الموجود المطلق ، ثم قال :

والله أكبر لا يدنو القياس له ولا يجوز عليه كان أو صار
وهنا قال بعالم لا يتناهى ومكان لا يتناهى وإله في هذا العالم لا يتناهى .

وقال :

هو الفلك الدوار أجراه ربه على ما ترى من قبل أن تجري الفلك
له العزم يشركه في الملك غيره فيا جهل إنسان يقول لي الملك
وأيامه منظومة في حياته ولا نظم يبقى حين يمضي السلك
خلقنا لشيء غير باد وإلما نعيش قليلاً ثم يدركنا الهلك

وهنا استمد ضرورة الايمان من ضرورة المنظم لهذه الخليقة التي حارت بها الافكار وهو يرى اننا خلقنا شيئا غير باد لعقلنا المحدود .

وهو بمناسبات عديدة يبين لنا اعتقاده القوي في الحياة الآخرة وعبادته الموجود المطلق عبادة خالصة لوجه تعالى ، لاحبا بحبته ولاخوفا من ناره ، ومنها :
وقدرة الله حق ليس يعجزها حشر الخلق ولابعث لاموات
فالعجب لعلوية الاجرام صامتة فيما يقال ومنها ذات اصوات

واعبد الله لاارجو مثوبته لكن تعبد اعظام واجلال
اصون دني عن جعل أوامله اذا تعبد اقوام باجعمال

ماالخير صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحا ونفضك الصدر من غل ومن حسد
مادامت الوحش والانعام خائفة فرسا فما صح امر النسك للاسد
وقد وضع على مايفهم من نصوص الكتاب في زمن متأخر من حياته كتاب
الفصول والغايات بقدر الله فيه ويبجله بقديس النادم المستغفر الذي يعتقد أن
ذنوبه اعظم من ان تغفر واشد من أن تجدد بحالا للغفران .
وللتدليل على ذلك اذكر لكم ماقاله في هذا الخصوص :

(استغفر من لايعزب عليه الغفران لو كانت الذنوب سودا صارت بشرتي
كلك انغراب واصبح دمي كالخبر المستنعت للكتاب واعديت ماجاورني من وقت
ومكان حتى يكون مقعدي في الشمس الصافية مظلمة وانا في رأد الضياء) وقد
وضعه في تمجيد الله والمواعظ ، وقال :

(قد علم ربنا ما علم اني الفت الكلم آمل رضا المسلم واتقي سخطه المؤلم فهب
لي مابلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب) . والكتاب من الناحية العلمية
متعة الاديب وامنية العالم ملاءة بشق العلوم من اللغة والادب والعروض والنحو
والصرف والتاريخ والحديث والفقه والفلك ، بث فيه كل ماوعاه صدره من العلم
وغيره مما لم يسبق لغيره جمعه بالطريقة التي سلكها ذلك انه يولي الفقرة على تلامذته

ثم يختتمها بالغاية وهي عنده منزلة القافية من بيت الشعر ، وقد تطول الفقرة وقد تقصر ثم يلي التفسير .

فالمعري شاعر حقيقي وفيلسوف مزاجي واكبر مميزات شعره انه صادر عن الم فياض وهيجان نفسي، ولكن آراءه ساطعة وطراز تفكيره موافق لاصول مراقبة الوجدان وسبيل استدلاله مثال للمنطق الحسي وسلسلة محاكاته تنطلق من تموجات حواسه ، وطول عراكه في ظلمات الحياة ساقه للغضب وانكار قدسية الاديان .
 وذهن المعري فعال في كل ميادين الحياة . وجوامع الكلم التي جاء بها غذاء روحي للمثقفين من ابناء الامة العربية .

وفعالية الملكات المعنوية في كل مؤلفاته والتنوع الذي لم يسبق اليه يجلبان لنا الدور الذي لعبه العقل والحس والالام وكلها تحتاج الى فكر وقاد ووجدان رقيق حساس وعلم جم والهام رائع يجب ان يحاكم من اتى بثلها وجدانه قبل ابرازها محاكمة دقيقة وان يتنور كل ما يحيط ويتمركز في قرارة نفسه ووعيه لانها لاترد عفوا ولا يمكن أن تأتي من العدم بل هي ثمرة عملية ذهنية مصقولة جريئة وليست مما يقدر أن يأتي به كل انسان بل خص بها الافذاذ وصقلها العلم والتفكير ولذلك فان شاعرنا الفيلسوف من ارباب الخلود الذين انارت خواطرهم وسوانحهم عقول المثقفين وزادوا ثروة العالم الفكرية ، فلا غرو اذا ان يحتفل به العرب احتفال الامم الاخرى باكبر مفكرها .

اربيب وهيب

مندوب شرق الأردن

المعري والمرأة

أبا العلاء ! هل كان يخطر ببالك أن تشترك امرأة في تقديرك وتكريمك ؟ أما
تعجب يا عدو المرأة الجبار أن تقف امرأة الآن تفخر بك وتشيد بآثرك ؟ أما تستغرب
فيلسوف المعرة أن أقف اليوم لأعيد مأسطرته قريحتك الناقمة الفياضة من الطعن
واللذع والحط من قيمتنا نحن معشر النساء ؟
أأنت أنت القائل :

ألا إن النساء جبال غي بهن يضيع الشرف التليد
وهل تنكر قولك :

أنت خنساء مكة كالثريا وخت في المواطن فرقدتها
ولو صلت بمنزلها وصامت لالفت ماتحاولة لديها
وهل نسيت قولك :

ودفن والحوادث فاجعات لاحداهن احدى المكرمات
وقولك :

ودفن الغانيات لهن أوفى من الكلل المنية والخدور
هبالك أبا العلاء تسرف في تجريح المرأة فتراها شيطانة غي تجرر وراءها الفتنة
حيث سارت وحيثما حلت واني هبطت حتى ولو كانت في مكان من أقدس الاقداس .
وما الذي حدا بك حتى اوسعتها ذماً وتقريماً ورغبت في دفنها وسلبها نعيم الحياة
وعهدها بك تمتت القسوة والظلم فهل اعتقدت اسحالة اصلاحها ؟ وليس عجيباً أن
تشترك المرأة في احياء ذكراك وتكريم آثارك الخالدة بعد أن تناولتها بلسان لاذع
وقول قارس لأن ظلمك الناس لم يكن مقتصرأ على المرأة فحسب بل تناولت الرجل
أيضاً بنصيب وافر من النقد والتشنيع إذ قلت :

فأفٍ لعصريهم نهار وحنس وجندي رجال منهم ونساء
فكنت إذا تحدثت عن الحاكم نعمته بالظلم وعن الولد ريمته بالعقوق وعن

الضديق وصفته بالخلل والقدر وفد شككت بكل شيء حتى في القدرة الالهية فلا عجب إن شككت بعد هذا ، وكان حقاً عليك أن تنقلها الى جحيمك فتصلبها بناره وتحرقها بأواره . ولكن المرأة المستضعفة في نظر الناس استطاعت أن تصمد أمام حملات طائشة مفرضة وأن تبقى أمد الدهر موئلا الرجل وملاذه .

وأنا زعيمة بأن الرجل الذي يكثر من التحدث عن المرأة نقداً وتجريحاً ، قذفاً وتشويهاً إنما هو اقرب الرجال الى المرأة واشدهم حباً لها واشاراً لأن من أحب الشيء أكثر من التحدث عنه .

سيداتي سادتي عاش أبو العلاء في عصر زهده في الحياة ورغبه عنها وملا نفسه سوء ظن بها ، عصر فتنة واضطراب عصر ضج بالظلم والزور والبهتان ، عصر عم فيه الفساد ونزرت العصمة ، عصر غمره الفجور فسادت فيه الإباحية الخلقية وهوت الحياة الاجتماعية الى أحط للدركات ففسخت الأسرة وعمت القوضى ففضلت الاماء على الحرائر وتكونت لدى شيخنا المعري النواة الأولى لنسيجه الفلسفي التشاؤمي حتى صب نقمته على المرأة وعلى الحياة لابل على الوجود أجمع حتى أنه لم يستثن ذم نفسه حيث قال :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم فاني بنفسي لامحالة أبدأ
لاشك في أن الآلام التي بلاها في حياته جسدية أو روحية كانت العامل الأكبر في تشاؤمه وزهده في الحياة ، ففقدان بصره وحرمانه من عطف امرأة تحذب عليه وتحن إليه تشاركه آلام الحياة وتصور له مباحجها تخلق له جواً سعيداً يسهل لديه اسباب العيش ويحبب إليه البقاء تلك أسباب حملته أن يركب هذا المركب الساخط الصاخب على الحياة .

اجل لم يحظ أبو العلاء بمطف امرأة في حياته ولعله أصابه أذاها فمنه كبرياؤه من ذكر هذا الأذى فنقم عليها نقمة اللتاع وأطلق لسانه في ذمها .

من يدري لو أن حكيم المعرة هذا لاقى حناناً واشفاقاً من شريكة أو اخت أو ابنة لما ضن عليها بوفاء أو تناء ولكف عن ذمها وأحمد من نار عدوانه لها وحقد عليها . على أن شذوذه حمله على التناقض في رأيه فبينما نراه يطن بالمرأة ويصب عليها اللعنات نراه يشفق عليها وينكر تعدد الزوجات وينسى عداوته حين يذكر المرأة الأم بقوله :

العيش ماضٍ فأكرم والديك به والام أولى بأكرام وإحسان
وحسبها الحمل والارضاع تقدمه مران بالفضل نالا كل إنسان
تلك الأم التي عد نعمها أكبر صدمة من صدمات الدهر أتم بها بناء بيته المظلم
من الحزن الذي لزمه طيلة حياته ففاضت شاعريته برثائها بقصيدتين مفعمتين
بالزفرات الحارة التي كان يصعدها بعد وفاتها .

سيداتي سادتي لو كنا جميعاً معشر النساء والرجال في عصر أبي العلاء وتوالت
علينا مصائبه وويلاته لاشتركنا معه في وضع المرأة بأحط منزلة في ذمة التاريخ .
ولو شهد فيلسوف المرة عصرنا هذا عصرًا اشتركت فيه المرأة مع الرجل في
العلم والأدب والفلسفة عصرًا برهنت فيه أنها مبعث إلهام الرجل وموقظ القوى
الخاملة فيه ، عصرًا شعر الرجل فيه أنه بجانب شريكه تبادل الرأي وتشاطره
آلام الحياة وافراحها ، عصرًا ظهرت فيه دأبة لاتمل متحركة لاتسكن نشيطة
لاتفتقر ولجت ابواب العلم ونحت بكل غالٍ وثمين لكشف النقاب عن أعظم سر من
اسرار الوجود خلص البشرية من أكبر الآفات ، عصرًا قطعت فيه السنة من كانوا
يصمون بالضعف بما خللته من المآثر العلمية والأدبية .

لو شهد المعري هذا العصر لغير رأيه في المرأة فما آذى شعورها ولا جرح
إحساسها وقدمها أجل تقديس ونالت من نفسه مكانها الأسمى ولسكن الى زوج
جعلت من نفسه المتشائمة المظلمة نفساً مشرقة متفائلة تريح السعادة في الشباب والهرم
في الفنى والفقر في الصحة والمرض وتنير الناحية المظلمة من آرائه وافكاره ،
وتترجم خلجات نفسه ووحى شعوره وتكشف النقاب عن الكثير من كنوز اسراره .
لك العذر أبا العلاء لأن المرأة لاتعتمد في كل عصر عدواً لها يرى في كل عمل
من أعمالها نقصاً وفي كل حركة من حركاتها عيباً ولكن المرأة يذكي نشاطها النقد
ويقوي حركتها التهجيم ونحن مهينات انفسنا لاقتحام كل صعب وتخطي كل حاجز
بزعمة لاتخور وهمة لاتفتقر .

مهران الموصلي

مندوبة الندوة الثقافية النسوية

ابو العلاء واقطاب الفكر المحمديون

ايها الحفل الكريم ،

يسرني قبل البدء بالكلمة التي أعدتها لهذا المهرجان ان أذكر حضرتكم وحضرة الآنسة الموصلي ان عدو المرأة في الوقت الحاضر هو توفيق الحكيم وان الدكتور طه حسين بك والدكتور مهدي البصير والداعي المائل أمامكم من عشاق المرأة وأنصارها . المؤمنين بجليل قدرها وخطير شأنها في حياة الافراد والشعوب ، وأن لنا أزواحاً واولاداً من اجلهم نحيا لا من اجل أنفسنا فغفواً أيها الآنسة الفاضلة واغفري ذنب أبي العلاء الذي يكفيه جزاء ان حرم عطف المرأة وخانها. تلك المرأة التي قال الله عنها في كتابه العزيز = « ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . الآية . . »

وبعد اتقص قدر أبي العلاء بعض مواطني اللبنانيين بغية النيل من الثقافة العربية وتقديس الثقافة الغربية الحديثة فمز علي " وانا المدافع بحكم حرفتي على المجرمين أحياناً ان لا ادرك الظلم عن أمة لم يعرف التاريخ بين الغزاة من هو ارحم منها ، وعمن يُمثل ثقافتها أحسن تمثيل ، لا سيما أن بيني وبينه رابطة العاهة .

وقد رأيت خير سبيل للرد على مواطني المصايين بهوس الاستغراب ولاظهار الحق أن أقارن بين المعري والمفكرين الغربيين المحدثين جملة وأن أختار موضوعاً لهذه المقارنة الخاطفة اسمي مالدی الانسان من مميزات — العقل والقلب .

يفتخر العلماء الغربيون بالاعصر الحديثة افتخاراً عظيماً ويدعونها بأزمة النور لاستعادة العقل فيها سلطانه المسلوب وبسط نفوذه على المذاهب والآراء والمعتقدات كافة .

بيد أننا لو أجلنا الفكر في تلك الازمنة المضئنة لتبيننا أن ضياءها كان في أكثر الاحيان كسواء البلاد التي انبثق فيها مشوهاً غير خالص النقاوة والصفاء وسر ذلك أمور أخصها وأعماها معاً هو أن فريقاً من أئمة المفكرين الذين أوجدوا ذلك الضياء

لم يمتروا بحقوق العقل الطبيعية ولم يتركوه حراً طليقاً يستشف الحقائق من وراء الحجب والاصداد التي نسجتها الأعصر المظلمة بسخاقتها وأهوائها المزمنة المتركة . فالفيلسوف الفرنسي الامام « ديكارت » مثلاً بالرغم من تمجيد العقل تمجيداً عظيماً وتوجيه الفكر الحديث نحو التنظيم لم يعلن سيطرة العقل على المعارف كلها بل استثنى منها كل ما تملك الكنيسة وتعاليمها ، وقال بوجوب الأخذ بتلك التعاليم كما هي دون ما نقد ولا تمحيص .

وإذا ذكرنا ما كان للكنيسة في عصر «ديكارت» من أثر بين في صميم الحياة النورية الخاصة والعامة أدركنا دون عناء مدى الافق البعيد الذي اعتبره أمام العقليين المحدثين حراماً وحذر العقل أن يضيئه بشعاعه .

ولإذا انتقلنا من «ديكارت» الى «بسكال» وجدنا عند هذا المفكر المشهور ما يدهش من لا يدهش ، ذلك أنه بعد أن نهج في الشطر الاول من حياته ازاء العقل نهج «ديكارت» لم يلبث أن رجع في الشطر الثاني منها عن هذا المنهج وانطلق — على أثر حادث عربة جرت له فجأ منها كما يقولون — ينتقد العقل إنتقاداً شديداً — ويدعو إلى تمجيد الكنيسة واعتبارها وحدها — ام الحقائق .

وفضلاً عما تقدم ان أكثر هؤلاء المفكرين وإن اعترفوا في القرن الثامن عشر وما يليه بسلطان العقل فانهم لم يتجردوا في اغلب الاحيان عما انطبع أو اشتد في أنفسهم وأذهانهم من أهواء ومعتقدات .

وحسبي أن أذكر حضرتكم أن المفكر الاجتماعي العظيم « مونتسكيو » على الرغم من وجوده في عصر كله تحرر وانطلاق من سلاسل الماضي واغلال العهد الاقطاعي فانه لم يتجرد عن هواء الطبعي الموروث بل طالب بالمحافظة على امتيازات النبلاء وان المؤرخ الاشهر «ميشله» لم يتجرد عن هواء الحزبي فشوه عامداً متعمداً وجه تاريخ امته تشفياً من الملكية والملكيين . وان أكثر المستشرقين والمستعربين لا يتجردون عن شعوبيتهم ضد العرب والاسلام فيشوهون الحقائق ويحرفونها عن مواضعها تحريفاً لبقاحيناً وحيناً وتحاطماً منهم في هدم ايماننا بماضنا وأملنا بان يتبع ذلك انهدام ثقتنا بمستقبلنا فنبقى بلا أمل ولاطموح وتبقى للغرب الغلبة علينا أبد الدهر .

اما أبو العلاء خير من يمثل الفكر والثقافة الميريين وان جارى العاطفة حين لها أو التي نفسه امام المعضلات الفلسفية الكبرى التي لم يطق حلها والتي لا يستطيع العقل الانساني استكناه اسرارها فانه لم يتهيب مبدئياً حرمة الماضي ولا قداسة تراث الاباء فاعمل فيها العقل غير هباب ولا متحفظ كما اعمله في كل شيء لاقتناعه ان العقل سبيل المعرفة العامة الاوحد .

كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء وواضح ان هذا البيت المشهور الرائع في لفظه ومعناه ليس من شوارذ الخيال أو فلتات اللسان عند الميري ولكنه في رأيه اعلان حقوق العقل وان شئت تعبيراً احدث فقولوا انه ميثاق المعرفة بل بيان حكيمة الفكري اذاعه على المفكرين من الف عام وكان من اول من تقيده به في كل موضوع تناوله بالبحث لم يفرق بين ان يكون الموضوع دينياً أو غير ديني اسلامياً أو غير اسلامي عربياً أو غير عربي . ولا شك ان بحث هذه الموضوعات وما اليها بالعقل المتجرد عن الميل والهوى ليس بالشيء اليسير حتى عند صفوف العلماء والمفكرين مثل « ميشله » و « مونتسكيو » كما اسلفنا بل هو من اصعب الامور واشقها على النفس لما يستلزم ذلك من انكار ما انفرس او اشتد فيها من اهواء ومعتقدات امتزجت بالنفس امتزاجاً تاماً واصبحت مع الزمن جزءاً من اجزائها بل كيائها المعنوي حتى اننا لنفكر باهوائنا ومعتقداتنا واوهامنا اكثر مما نفكر بالعقل .

ولولا أن أبا العلاء من احدث الناس ذكاء واثقهم فكراً وارجحهم عقلاً واشدهم انقطاعاً عن اسباب الدنيا لما استطاع بل اريب ان يبحث كل موضوع عاجله بالعقل ولا ان يبلغ تفكيره ذروة التحرر والانعتاق حتى اتت آراؤه رغم ما بينها من تناقض احياناً حقائق نقية صافية لا يشوبها قصر نظر « ديكارت » ولا هوى « مونتسكيو » ومن هنا نحوها في البحث والتفكير .

يبد أن تفوق أبي العلاء على اكثر المفكرين الميريين المحدثين لم ينحصر في الناحية العقلية النظرية البحث بل تعدى ذلك الى الناحية الخلقية العملية أيضاً .

فبينما نرى الاديب والمصلح الفرنسي الاشهر « فولتير » مثلاً ينفي القسم الاكبر من اوقاته في تملق الملوك والامراء وذوي الوجاهة والثراء فيحوك معهم أو ضدهم

مختلف الشباك نبيلها وحسيسها لجلب الدنيا حلالاً أو حراماً ، وبيننا نرى الفيلسوف الانكليزي الامام « ييكون » بالرغم من ثروته الطائلة وجاهه العريض ومنصبه السامي في الدولة يأكل اموال الناس بالباطل فيحكم عليه بالزج في غيابة السجن اعواما ، وبيننا نرى الفيلسوف الالماني الشهير « لاينتز » يوغر صدر المليك الغازي لويس الرابع عشر على الشرق ويقدم له مشروعاً خطياً منطقياً على افناء الملايين من الشرقيين للجرم ارتكبوهم بل ليجرد انهم مسلمون أي أن لهم في عبادة الخالق مذهباً غير مذهبه ، وبيننا نرى طائفة من المستشرقين يتخذون العلم اداة لافتح والاسترقاق ويعتبرون الامم والشعوب المستضعفة اقنانا لمجتمعاتهم وعبيداً كما كان اباؤهم الاقطاعيون يعتبرون تلك المجتمعات ذاتها اقنانا وعبيداً .

بيننا نرى كل هذا وأكثر من هذا عند فريق من مصاييح ازمنة النور اذا بمفكرنا العربي المحدث والمنشأ أبي العلاء يرفق بالطير والانسان والنحل والحيوان على حد سواء واذا به يأبى التكسب بالشمر مخافة أن يفتصب بواسطة الحكام والامراء الممدوحين مال الشعب والفقراء . واذا به يعتبر البشر قاطبة سواسية لافرق عنده كما قال بين هاشمي وآل بربر ولا بين الامام علي كرم الله وجهه ومولاه قنبر ، واذا به يتعالى عن الدنيا ويأبى الا ان يمش على هامش الحياة مكتفياً منها بما لا يكاد يقيم اوده .

واذا قيل أن أبا العلاء لم يترفع عن الدنيا الا بسبب العاهة التي اطفأت النور من عينيه وغمرته منذ الطفولة بالظلمة الدائمة فاني اذكر حضرتكم ان تلك العاهة ذاتها لم تمنع الدكتور طه حسين بك ولا الدكتور مهدي البصير ولا بشار بن برد ولا الشيخ سليمان الفاروقي ولا المائل امامكم عن طلب الدنيا واستمراء ما بث لنا الله فيها من نعمة كما ان وجود الضياء في عيني « كانت » و « سبينوزا » لم يمنع هذين الفيلسوفين العظيمين عن التزام حياة المزلة والتقصف حتى ان « سبينوزا » وهو اليهودي النجار لم يقبل اكثر الهدايا والمرببات التي عرضت عليه من الامراء والاغنياء بل أبى الا أن يمتاش من مهنته اليدوية الشاقة وهي صنع زجاج النظارات . ولا ريب ان هذه الامثلة وما إليها تثبت بصورة لا تحتمل الجدل ان العمى ليس

في حد ذاته سر الاعراض عن متع الحياة وان سلامة البصر ليست في حد ذاتها سر الاقبال عليها .

اما انوار الذي يعتبره الاستاذ العقاد سر التقشف عند أبي العلاء وان حال بلا ريب دون التهنك والاستهتار فانه لا يحول ابدأ دون الذاث والمسررات التي يبيحها العرف وتقرها الشرائع والانظمة .

فاعراض أبي العلاء عن متع الحياة ليس اذاً صدى عاهته المشهورة كما يتوهم بعض المفكرين ولا نتيجة وقاره المعروف كما يعتقد الاستاذ العقاد ولكنه منبعث عن اسباب وعوامل وان عزت معرفتها معرفة دقيقة لتعلقها باختلاجاته النفسية الداخلية فان اهمها على ما يظهر لي ، مزاجه الخاص ثم ما شهد من عسف يرافق الحياة ويتغلغل في صميم مظاهرها المختلفة .

تفني أيام أبي العلاء كاعب من الكواعب كام كلثوم في زماننا مثلاً ساعة أو بضع ساعات فتجني الف دينار ، إن لم أقل أكثر ، فوق ما تجني من نشوة الزهو والاعجاب ويشغل عامل من المال أو فلاح من الفلاحين الدهر كله فلا ينال لقاء أعماله المرهقة العائدة على المجتمع بالنفع العميم والخير العظيم ما تجني تلك المغنية في حفلة واحدة . ولنقل مثل ذلك عن تاجر يبرم عقداً من عقود البيع أو الشراء فيكسب من المال في دقائق مالا يكسبه الف قطب من أقطاب الفكر والادب أنفقوا أعمارهم في خدمة العلم والانسان .

هذه هي الحياة في عصر أبي العلاء وهكذا كانت في كل عصر من العصور وفي كل مجتمع من المجتمعات وهكذا ستكون مادامت على الارض حياة وما دام فوقها بشر يختلفون مواهب وحظوظاً .

وبين أن حياة كهذه قوامها الظلم وفلسفتها ابدأً الاخلال بالتوازن بين مال المرء وما عليه ، بين ما يعطي وما يأخذ ، ما يستحق وما ينال ، ليست مما يفري حكيماً كأبي العلاء حرم على نفسه اللحم والعسل مخافة أن يمتدي على ما للنحل والحيوان وامتنع عن الزواج مخافة أن يجني على نفس بشرية بشقاء الوحد .

إن حب الحقيقة دعا أبا العلاء الى إنكار ما يوافق من المذاهب والآراء والمعتقدات

عقله فلا عجب أن يدعو مزاجه الحساس النبيل وحبه العدل إلى ترك ما لم يرض من اللذائذ والمسرّات وجدانه .

وعلى كل حال وأياً كان السبب الذي أهاب بحكيم المعرة إلى التزام حياة العزلة والتقصّف فما لا يقبل الجدل أن أبا العلاء قطب من أقطاب الفكر والفضل والادب وركن من أركان الثقافة والعدل والرحمة وأنه إذا جاز للغربيين ولبعض مواطني اللبنانيين المصايين بهوس الاستغراب أن يفخروا بالأعصر الحديثة ويدعوها بآرمنة النور فإن من حقنا أن نمجد أبا العلاء وأن ندعو مفكرنا العربي الاعمى بالضياء بل بالشمس طلعت في معرة النعمان فاضأت الشرق والغرب بأشعتها النقية الخالدة خلود الفكر .

عارف العارف

مندوب الحكومة اللبنانية



كلمة الإذاعة الفلسطينية

يطيب لي أن أقف موقفي هذا في حفلكم العظيم الكريم فاشترك بالنيابة عن دار الإذاعة الفلسطينية في القدس . فاتقدم بالشكر والتقدير العظيمين للمجمع العلمي العربي الموقر وللجمهورية السورية الجلييلة على ما صنعت أيديها للادب العربي والفكر العربي وللهنضة العربية جميعاً بما نظمت هذا المهرجان الالفي لذكرى أبي الملاء وكأقد أحسن المعري إلى الادب العربي والفكر طوال هذه القرون العشرة الماضية فقد أحسن الادباء والعلماء الذين عرفوا في أبي الملاء أدبه العميق وفكره الخالد السامي فعرفوه إلى الناس ونوهوا به في الشرق والغرب — أقول كما قد أحسن هؤلاء الادباء والعلماء محدثين وقدماء إلى الادب والفكر معاً بما قد قدموا للناس من شرح للادب الملائي والفلسفة الملائية . فقد أحسن المجمع العلمي العربي في دمشق وأحسنن الجمهورية السورية الجلييلة بحفاوتها الالفة هذه بذكرى ذلك الشاعر العظيم والفيلسوف الحكيم فاحيكم أيها السادة الاعلام . وأنقل لكم تحية فلسطين بهذه المناسبة السعيدة العظيمة .

أيها السادة الاجلاء لست أقصد هنا إلى البحث في أدب أبي الملاء وفكره وفلسفته ولن يكون هذا القصد موفقاً . وأنا أعلم أن فيكم من تفرغ لأبي الملاء وتعرف إلى أبي الملاء وعرف بأبي الملاء على نحو يدعو إلى الإعجاب والتقدير حقاً . وإنما أقصد كما قد أشرت إلى أن أعرب عن شكر فلسطين للقائمين بهذا المهرجان العظيم وبهذه الحفاوة البالغة لذكرى علم من أعلام الفكر العربي معلناً بذلك أن هذا المهرجان سيكون خدمة جديدة لكنها بارزة تضاف إلى ما قد أدى إلى الفكر الملائي من احسان وخدمات .

على أنني فيما أزجي كلمة الشكر والتقدير هذه لايسعني الا أن افضي أمام هذا المحفل الكريم بأن فكر المعري إنما قد خلد هذا الخلود لانه أثار مشاكل في هذه الحياة مازال قائمة . ومع ان الدراسات التي ظهرت للمعري وتظهر الان ستظهر

بسبب هذا الاحتفاء نفسه كثيرة . فان بسط هذه الفلسفة لم يستفد بعد . وان
لاولي الاقلام وحملة العكر في بلادنا لجالا وأي مجال في هذا المضمار الفسيح .
وليس هذا المهرجان الذي تجمع عليه البلاد العربية هو وحده شاهداً على أن
أدب المعري خالد ولكن هذه الدراسات المتوالية في غضون القرون العشرة المنصرمة
شاهد آخر . وليس هذا غريباً فالرجل الذي قال عن وجوده .

هذا جنه أبي علي وما جنيت على أحد .

والرجل الذي قال عن الحكم الجائرين .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

والرجل الذي قال :

يرتجي الناس أن يقوم امام ناطق في الكتبية الخرساء

كذب الظن لامام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

الرجل الذي قال هذا وغيره انما اثار مشاكل لا تزال ماثلة وهذا هو لعمر

الحق سر الخلود .

غير أن الانصاف يقضي بالقول أن فلسفة أبي العلاء اثار مشاكل ولم تشر الى
حلها ولعل حل هذه المشاكل أن يكون من واجب المدنية الحاضرة في ديمقراطيتها
الصحيحة . بل لعله يكون من حقنا أن نأمل ذلك لئتم لرجال العكر في العالم
العربي الحديث مابداً به أبو العلاء .

وقد ينسى الناس أبا العلاء عند ما يجدون سبيلهم الى حل هذه المشاكل
فينعمون بالمدنية زاهرة زاهية بريئة من اسباب الكدر والشقاء . ينسونه اذا هم
فقدوا يومئذ حس الوفاء وعرفان الجميل وهبات لهم أن يفعلوا وهبات اذن أن
لايظل أبو العلاء خالداً

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عزمي النسائي

مندوب الاذاعة الفلسطينية

(١) لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي

مدخل البحث

كنت منذ حين أتوقع قيام المجمع العلمي العربي بقضاء حق واجب عليه لأبي العلاء الممرّي فالممرّي من حيث منهجه في البحث العلمي اللغوي في أكثر كتبه المعروفة ما هو إلا مجمع من أعظم المراجع العلمية وأكثرها عائدة على الأدب واللغة ولست مغالياً إذا قلت أن الممرّي سبق زمانه بألف سنة في القيام بأعظم ما تقوم به المراجع العلمية الحديثة من المهام وقد تخلى عن جميع متع الحياة لينجز بمفرده عملاً عجز عنه جمع غفير من العلماء فهو والحالة هذه أحق أئمة العلم واللغة والشعر بهذا المهرجان وقد فطن مجمعا العلمي العربي إلى ذلك فنهض بواجبه وأدى الحق لصاحبه وهي لعمري مآثرة من مآثره وحسنة كبرى تضاف إلى حسناته الأخرى .

كنت من جملة من دعي إلى المساهمة في هذا المهرجان وقد تلقيت دعوة الرئيس بكثير من الابتهاج وذلك لولمي بأدب الممرّي منظومه ومشوره بيد أنني تحيرت بأي ناحية من نواحي الممرّي أبداً وهي والحق يقال كثيرة يحار فيها الكاتب والأديب أأكتب فصلاً في سيرة الممرّي وأخباره أم في عصره وأحواله فأردد ما كتبه المؤرخون أم أملي كلمة في حكمة الممرّي وآرائه في الحياة وهو موضوع أكثر خوض أعلام الفكر والأدب فيه أم أنثي مقالة في أدب الممرّي وهو بحث مطروق ثم نظرت فإذا أمامي نسخة محصلة مختارة من اللزومات طالما تأملتُها واستوحيتها في شرح الشباب وقد ألهمتني هذه النسخة الآن أن أكتب في هذا الموضوع ألا وهو لزوم ما لا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية .

(١) الكلمات التي بحث بها أصحابها لتشر في الكتاب بعد أن تذر حضورهم إلى دمشق في أسبوع المهرجان .

لزوم مالا يلزم في تاريخ آداب اللغة العربية

في لزوميات المعري نواح جمة تثير فينا حب الدرس والنظر فمن ذلك ناحيتها الفلسفية وهي أوفر نواحي اللزوميات حظاً من عناية الادباء فقد اوردوا فيها الرسائل والفصول غير انه قل من أفرد بمبحث في تاريخ تطور هذا الفن المسمى « لزوم مالا يلزم » وكيف نشأ في الأدب العربي سواء أكان ذلك قبل عصر المعري ام بعده لذلك رأيت من المفيد الامام بهذه الناحية الادبية اللغوية من نواحي اللزوميات ومن الواضح انه لاعلاقة البتة لهذا البحث بالفلسفة الملائية .

لزوم مالا يلزم في شعر العرب

قال أبو العلاء المعري (١) :

كثيرٌ انا في حرفي اهبت له في التاء يلزم حرفا ليس يلتزم
أبي شاعرنا الحكيم الا ان يكون مؤرخا في بيته هذا يؤرخ الفن الذي احبه
ونذر له نفسه ألا وهو التزام مالا يلزم .
يقول أبو العلاء انه حذا حذو كثير عزة الذي التزم اللام في تأنيته التي
يقول في مستهلها :

خليلي هذا ربيع عزة فاعقلا قلو صيكا ثم احللا حيث حلت
وهذه القصيدة — وهي مما يستجد من شعر العرب — تمد حسب رواية
القالبي (٢) خمسة وثلاثين بيتا بناها من اولها الى آخرها على التزام حرف معين قبل
الروي وهو امر لم يسبق اليه شاعر من شعراء العرب وله قصيدة أخرى اولها :
أدارا اسلمى بالنباع فحمت سألت فلما استعجمت ثم صحت
فلزم الميم كما فعل باللام فهل كان كثير اول شاعر استخدم هذا النوع من
انواع البديع فقلده الشعراء وهل اراد المعري ذلك ؟ الجواب كلا . ومن رأيي أن
المعري في اقتدائه بكثير عزة لم يفعل ذلك لان كثيرا اول من استخدم هذا الفن
كما توهم فريق من علماء البيان بل لأن لزوم مالا يلزم لم يرد الا نادرا في شعر العرب

(١) اللزوميات ٢ : ٢٣٠ ط الجالية سنة ١٣٣٣

(٢) امالي القالبي ٢ : ١٠٩

قبل عصر كثير كما انه ورد عفوا في نبد ومقطوعات قصيرة اما كثير فقد نظم اشهر واطول قصيدة لزومية تناقلها الرواة وبذلك يتداعى زعم من زعم غير هذا من علماء البديع . وفي مقدمة اللزوميات للمعري نفسه مايفند مزاعم القوم في المقدمة المذكورة (١) شواهد تدل على أن هذا النوع من أنواع البديع ورد في شعر الأعشى وطرفة والنابغة وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من القدماء ولا حاجة إلى القول بأنه شيء غير مقصود وقد ورد عفواً في شعر القوم أو في كلامهم المطبوع أما صاحبنا كثير فقد تصنع وقصد التفنن في تأنيته فحذا حذوه الشعراء وحسب كثير أن يعترف المعري له بهذه الفضيلة .

وللمعري فصل لطيف في تاريخ علم القوافي ومصطلحاتها أو ألقابها كما يقول وهل هي — أعني مصطلحات القافية — من وضع العلماء في عصر التدوين أم تلتقت عن العرب فان سكان العمدة وإن كانوا لا يعقلون هذه المصطلحات إلا أنه وجد فيهم من يعرف مواقع الحروف ويقرأ ويكتب وقد ورد في هذا الفصل من مقدمة لزوم ما لا يلزم ذكر الخليل وسعيد بن مسعدة (٢) والفرء وخلف بن حيان من علماءهم بالشعر والنحو واللغة وقد استنبط المعري من الباب الذي عقده أبو عبيدة القاسم بن سلام للبحث في القوافي (في كتابه الغريب المصنف) ومن إسناده لها عن الشيوخ ان صاحب الغريب يرى أنها أي المصطلحات مأخوذة عن العرب كما تؤخذ عنهم اللغة وهذا الفصل الذي كتبه المعري من أقدم ما وصل إلينا في هذا الموضوع (٣) .

هذا وقد أكثر شعراء العرب قبل كثير عزة وبعده من التزام ما لا يلزم قبل تاء التأنيث هذه فتارة يلزمون اللام كما رأيت في قصيدة كثير وهو الأكثر وطوراً يلزمون الميم وقد يلزمون غيرها من الحروف وأكثر ما اتفق لهم في ذلك من الشعر يعد من الرائق المستجاد ومن هؤلاء الأعشى وعمرو بن

(١) مقدمة اللزوميات للمعري ١٩ و ٢٠ ط الجالية سنة ١٣٣٣

(٢) هو ابو الحسن المعروف بالاخفش الاوسط انظر ترجمه الالباء ١٨٤ ومجم

الادباء ١٢٢:٤ و ١٤٤

(٣) مقدمة للزوميات ١١ و ١٢ ط الجالية سنة ١٣٣٣

معديكرب ومن بعدهم يعقوب بن سليمان بن طلحة بن عبدالله ومن أحسن شواهد هذا الباب وأشهرها الأبيات التي أولها (١) :

سأشكر عمرًا أن تراخت منيتي أيادي لم تمن وإن هي جلت
وأول أبيات الأعشى :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي وراكبها يوم اللقاء وقلت
وأول أبيات يعقوب بن سليمان (٢) :

وقد كنت لي حسبًا من الناس كلهم ترى بك نفسي مقنعًا لو تملت
ومن القوافي التي ألزم فيها العرب ما لا يلزمهم كاف الاضمار في مثل
« جمالك وشمالك » وقد ألزموا اللام فيها قبل الضمير وقد علل المعري التزام
العرب بذلك في خصوص هاتين القافيتين أعني التائية والكافية بأن تاء التائيث
هذه وكاف الاضمار ضعيفتان وكلتاها من حروف الهمس (٣) فكان اللام الملتزمة
في هذه القصائد هي القافية وكأن كلاً من التاء والكاف صلة لها لا أكثر .
هذا ويمكن أن يلتزم الشاعر حرفين أو أكثر إلى أربعة أحرف أو
خمس (٤) وعن بلغ الغاية في ذلك أبو الملاء المعري نفسه فقد بنى قافية على
« دارم مزدارم صدارم » ملتزمًا فيها أربعة أحرف وبنى أخرى على « ضارم
حارم سارم » ملتزمًا فيها خمسة أحرف وثلاثة على « يعذبون يكذبون
يجذبون » ملتزمًا فيها أربعة أيضًا إلى غير ذلك .

لزوم ما لا يلزم في أدب المولدين

لزوم ما لا يلزم معدود على الأكثر من صناعة المحدثين أو المولدين كبقية
أنواع البديع فالمحدثون استخدموا هذا الفن فأكثرُوا من استخدامه عن علم

(١) رويت الأبيات المذكورة في كتب الأدب لجماعة منهم عبدالله بن الزبير على وزن
[فعليل] ومحمد بن سعيد البغدادي وإبراهيم بن العباس الصولي وغير هؤلاء . ومن نسبها إلى
الصولي ابن خلكان في الوفيات ٣ : ٢٣١

(٢) ذيل أمالي القاضي ٢٩

(٣) مقدمة اللزوميات ١٨ ط الحماوية سنة ١٣٢٣ ويقول المعري أن حروف المعجم مقادير

في القوة إلا ما ذكر من التاء والكاف المصدر نفسه ٢٢

(٤) المصدر نفسه ٢٨

وخبرة وبذلك تميزوا عن القدماء ومن أوضاع المحدثين على الأغلب هذه الألفاظ أو الألقاب التي أطلقوها على فنون الديع ولذلك لا يكاد يخلو شعر شاعر من خولهم من لزوم ما لا يلزم نجده في شعر أبي نواس على قلة وهو أكثر في شعر أبي تمام ولا يخلو شعر البحري منه قال المعري (١) وقد بنى أبو عبادة قصيدة على الطويل الأول وجعل قوافيها على «أروى وجدوى» فلزم الواو إلى آخر القصيدة فقد لزم فيها ما لا يلزم أن جعل روي القصيدة الألف أما ابن الرومي فهو على ما يقول علماء الأدب والبيان من أكثر المحدثين ولما يلزم ما لا يلزم قال المرزباني «ابن الرومي أشعر أهل زمانه بعد البحري وأكثرهم شعراً وأوسعهم افتناناً في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه يركب من ذلك ما هو صعب متناوله على غيره ويلزم نفسه ما لا يلزم ويخلط كلامه بألفاظ منطقية يجعل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ (٢)» وقال الزبيدي كان ابن الرومي من أكثر الناس ولماً يلزم ما لا يلزم في شعره (٣) إلا أن المعري أغفل ذكره في من ذكر في هذا الباب مع أنه أولى المولدين بذلك وهو خاصة أولى من البحري لأنه أكثر استخداماً منه لهذه الصناعة ولا ندرى على وجه التأكد علة ذلك الاغفال ونرجح أن للمعري رأياً خاصاً في صاحبه ونحن نعلم أن الاثنين مختلفان في المذهب والمزاج متباينان في الطباع ومن رأي المعري على الأرجح أن ابن الرومي مدخول العقل كما يظهر من وصفه له في رسالة الغفران (٤) ويؤخذ على ابن الرومي شيء من الغموض والتعقيد وله أسلوب في البيان يفتقر إلى الصقل والعناية وإلى ذلك يومي المعري في قوله (٥) :

لونطق الدهر هجا اهله كانه الرومي أو دعبل

(١) مقدمة اللزوميات ٢٨ وأول قصيدة البحري المذكورة :

لنا أبدأ بث نانيه في أروى وحزوى وكم أدتكم من لوعة حزوى

(٢) معجم الشراة ٢٨٩

(٣) يحيى بن حمزة الزبيدي في الطراز ٢ : ٢٠٢

(٤) رسالة الغفران ١٦١ ط. مصرية قديمة

(٥) اللزوميات ٢ : ١٦٣

وهو لعمرى شاعر مغزر بالفعل لكن لفظه مجبل

اقسام اللزوم

لم يعرف القدماء إلا نوعاً واحداً من لزوم ما لا يلزم وهو ما بنيت عليه لزوميات المعري يريد أن المتأخرين حاولوا إضافة اقسام اخرى الى هذا الباب من ابواب البديع ومن هذا القبيل قسم سموه « المنجب » وهو أن يجمع في القافية بين كلمتين احدهما كالجنية التابعة للأخرى مثل قول أبي الفتح البستي :

أبا العباس لا تحسب باني لفقري من حلى الاشعار عاري
فلي طبع كسلسال معين زلال من ذرى الاحجار جاري
وما اكبت لي الايام زندا فلي زند على الادوار واري

وهذا هو رأي كل من ضياء الدين بن الاثير^(١) وعبد الحميد بن أبي الحديد^(٢) والاكثرون على انه نوع من انواع الجناس وسموه « المزدوج » أو « المردد »^(٣) هذا وبما عده المتأخرون من اقسام اللزوم « تصغير القافية » مثل قول الشاعر :

عن على ليلى بنى سدير سوء مبيتي ليلة القمير

قال ابن الاثير اذا صغرت الكلمة الاخيرة في الشعر فان ذلك ملحق بلزوم ما لا يلزم^(٤) وقد نظم المتأخرون ونثروا بالفاظ كلها معجمة أو كلها مهملة أو جميعها متصلة أو بالعكس وبالغ كثير منهم في العبث بهذه الصناعة اللفظية وعدّ قوم هذا من قبيل لزوم ما لا يلزم قال العباسي^(٥) وبما يلحق بهذا النوع يعني لزوم ما لا يلزم ما يختبر به الادباء افكارهم ويشحذون به قرائحهم من التزام حروف جميعها مهملة أو جميعها معجمة أو لا تنطبق معها الشفتان الى غير ذلك من التفننات ويغلب على الظن أن لزوميات المعري دخلا في اتساع القوم بهذا النوع من التصنع

(١) المثل السائر ١٠٣

(٢) شرح التهج ٢ : ٣٨٦

(٣) يحيى بن حمزة الزبيدي في الطراز ٢ : ٣٧٢ وراجع أيضاً المثل السائر ١٠٣ وشرح التهج ٢ : ٣٨٦ وحنان الجناس للصفدي ٢٧ قال : ومنهم من يسمي هذا النوع « المكرر » و « المردد » والصفدي في هذا الكتاب بعض اللزوميات .

(٤) المثل السائر ١٠٨

(٥) معاهد التصحيح ٢ : ١٠٦

بعد المعجز عن محاكاة المعري في فنه زاعمين أن ذلك من قبيل لزوم مالا يلزم وليس منه في شيء ومهما كان فهو توسع لاثريه للإبداع ولا طائل تحته وانما هو عبث الأدباء في عصر استولى فيه الجمود واستحوذ الخمول على الافكار .

القاب اللزوم

ويبدو لنا من تصفح الكتب التي ألفها علماء البيان أن لهذا النوع من انواع البديع عدة القاب ظهرت في مختلف العصور ومن اقدمها « الاعنات » من العنت وهو الكلفة والمشقة وهو على ما ظن اول لقب اطلق على هذا الفن وبه عرف في كتب البلاغة والبيان التي ألفها القدماء مثل ابن المعتز (١) وغيره وقد استعمل هذا اللقب مدة بعد عصر ابن المعتز الى أن تغلبت عليه وعلى بقية اسمائه كالتشديد والتضييق الكلمة الشائعة اليوم وهي « لزوم مالا يلزم » وذلك في عصر المعري أو في عصر قريب منه وخاصة بعد أن ظهر ديوان اللزوميات .

لزوميات المعري

كثرة الالتزامات في شعر المعري

عرفنا مما مر أن لزوم مالا يلزم ورد في شعر العرب ولكنه نادر على كل حال اما في شعر المولدين والمحدثين فانه أكثر من شعر العرب ولكنه قليل لا يكاد يذكر بالقياس الى شعر المعري في اللزوميات فالمعري هو أول من التزم مالا يلزم في مجموعة كبيرة من شعر تكون في العدة كدواوين كثيرة والشائع المتداول ان المعري فرض على نفسه التزام قيد واحد في اللزوميات والواقع غير ذلك ففي هذه اللزوميات قيود أو كلف ثلاث اولها استيفاب حروف المعجم عن آخرها في الروي وثانيها استعمال الحركات الثلاث في القافية ومن بعدها الوقف أي الاسكان وثالثها التزام حرف معين أو عدة أحرف قبل الروي وهو لزوم مالا يلزم بمعناه المصطلح فهذه ثلاث التزامات صناعية على رأي المعري (٢) وأكثر من ثلاثة بعد اضافة الوقف اليها على رأي آخر (٣) وهكذا انفرد أبو العلاء بهذه الخصائص الفنية وامتاز

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز ٧٢ (٢) مقدمة اللزوميات ٢٠ و ٢١

(٣) ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ وهذه عبارة ياقوت : « لزوم مالا يلزم » على حروف المعجم يذكر كل حرف سوى الألف بوجهه الأربعة وهي الضمة والفتحة والكسرة والوقف .

على الشعراء قديمهم وحديثهم بهذا المذهب الجديد والاسلوب المخترع فقد جرت عادة هؤلاء الشعراء ان ينظموا الشعر كيفما اتفق وعلى اي روي يهديهم اليه الخاطر لا يترسمون غاية معينة كما فعل صاحب اللزوميات والواقع انك اذا تصفحت كثيراً من دواوين القدماء لا تكاد تثر فيها على ابيات التزموا فيها ما لا يلزم الا نادراً ولا يوجد فيهم قط من استوعب حروف المعجم في القوافي أو نظم في قافية مستوعرة أو حوشية وهؤلاء المحدثون أو المولدون وغولهم مكثرون وقد يكون ديوان احدهم في العدة كدواوين كثير من القدماء قلما استوعبوا في قوافيهم حروف المعجم عن آخرها واذا اتفق لبعضهم ذلك في الحروف فانه في حلٍ من الحركات وفي حلٍ من الوقف والاسكان فهذا البحري لم يثر في ديوانه على روي بني علي الخاء والتاء والغين وهذا المتنبى استعمل الهجزة مضمومة مرة ومكسورة أخرى ولكنه لم يستعملها مفتوحة ولا ساكنة إلى غير ذلك فاللزوميات والحالة هذه عمل مركب شاق لا بد للاحاطة بجزئياته ثم انجازها من قوة ذهنية ممتازة ومواهب فطرية خارقة للعادة لذلك قيل « ان المعري » أحد أذكى العالم ونادرة من نوادر بني آدم .

تفاسير اللزوميات ومختاراتها

من الخطأ أن يظن أن اللزوميات هي الكتاب الوحيد في موضوعه للمعري فقد اضطر صاحب اللزوميات إلى تأليف كتب ضخمة تتعلق بديوانه المذكور اما شرحاً لما فيه من الغريب مثل كتاب « راحة اللزوم » في مائة كراسة وقد ذكره القفطي وياقوت الحموي والحاج خليفة (١) واما دفاعاً عن آرائه فيه مثل « زجر النابج » وذلك أن بعض الجاهل تكلم على بعض أبيات منه يريد التشسر والاذية فالزم أبا العلاء أصدقاؤه فأنشأ وهو كاره في (٤٠) كراسة وكتاب « بحر الزجر » يتعلق بزجر النابج وله كتاب سماه « الراحلة في تفسير لزوم ما لا يلزم » (٢) وقد ضاعت هذه الكتب فيما ضاع من كتب المعري ولم يصل إلى أيدينا منها شيء . وللبطليلوسي شارح سقط الزند شرح على بعض اللزوميات

(١) كشف الظنون ١ : ٣١٠

(٢) ياقوت في معجم الأدباء ١ : ١٨٣ و ١٨٤ و ١٨٧ وكشف الظنون ١ : ٣١٠

تقل لنا عنه بعض الأدباء^(١) وتوجد من هذا الشرح أوراق قديمة في الخزانة التيمورية بالقاهرة وهو شرح مزوج لشعر المرعي في السقط واللزوميات . وفي الخزانة المذكورة رسالة تتضمن مباحث جرت بين القاضي أبي بكر بن العربي والبطلوسي بشأن الشرح المذكور وفيها أيضاً نسخة مخطوطة من مختصر اسمه « مختار لزوم ما لا يلزم » لم يعرف صاحبها^(٢) وقد اختار بعض أدباء القاهرة منذ أربعين سنة مجموعة من اللزوميات سموها « الا لزم من لزوم ما لا يلزم » ولها مقدمة لطيفة وفيها يقول حافظ ابراهيم :

لله درّ انتخاب بحسن ذوقك يشهد
كان كتاب المرعي فصار معجز أحمد

وفيها لآخر^(٣) :

أجدت انتخاباً يا نسيم وجدته ألدّ من الماء الزلال على الظما
لقد كان سفرّاً لم نجد لاقتنائه لزوماً فأضحى بانتخابك ألزما
وألف شميم الحلي كتاباً سماه « الاشارات المرعية »^(٤) ولا بن القامعاز^(٥)
الحلي كتاب المطاول يرد فيه على المرعي في مواضع سها فيها .

نقد اللزوميات

تقصد بهذا العنوان نقد اللزوميات من ناحيتها الادبية فمن علماء الادب من يزعم ان الكلفة ظاهرة في لزوميات المرعي وان جيدها المطبوع لا يزيد على رديها المصنوع واقدام ماوصل الينا من هذا القبيل رأي ضياء الدين بن الاثير فقد زعم ان شعر أبي العلاء في اللزوم متكلف وقال عن شعر لابي تمام في اللزوم « هذا احسن مايجي في هذا الباب وليس بمتكلف كشعر أبي العلاء » وقال ايضاً « ما ينبغي لمؤلف الكلام ان يستعمل هذا النوع حتى يجي به متكلفاً وقد سلك ذلك أبو العلاء المرعي » ومن اقواله « وقد جمع أبو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان كتاباً سماه

(١) الحفاجي في شفاء الغليل ١٩١ والبلوي في الف باء ٢٠٤ : ٥٢

(٢) أبو العلاء المرعي لأحمد تيمور ٢٨ و ٧٣

(٣) الأ لزم من لزوم ما لا يلزم ط الجهور سنة ١٣٢٣

(٤) معجم الأدباء ٥ : ١٣٨

(٥) بشية الوعاة ٧٩

« لزوم ما لا يلزم » فأتى فيه بالجميل الذي يحمد والردي الذي يذم^(١) ومن شعر أبي العلاء المتكلف على رأي ابن الأثير لزوميته التي أولها :

« تنازع في الدنيا سواك وماله ولا لك شيء في الحقيقة فيها
وقد تبع ابن الأثير في هذا الرأي جماعة منهم عبد الحميد بن أبي الحديد فقال :

« وقد صنع أبو العلاء المعري كتاباً في اللزوم من نظمه فأتى فيه بالجميل والردي
واكثره متكلف^(٢) » وللمتأخرين عن هؤلاء كلام في نقد اللزوميات أضربنا عنه
صفحة لانه لا يزيد على كونه ترديدا لكلام ابن أبي الحديد وابن الأثير مثل قول
ابن معصوم^(٣) « ألف الشيخ أبو العلاء المعري كتاباً سماه لزوم ما لا يلزم ولكن
جمع فيه الغث والسمين » الى غير ذلك من الاقوال .

فهذه كما ترى اقوال عامة لم تدعم بدليل ومنشأها اما الجهل باغراض أبي العلاء
أو الحسد والمكارة . واللزوميات على ما يرى لم تخل من تشدق أو تكلف وكيف
يخلو من ذلك سفر في ضخامة هذا الديوان ومن هذا القبيل قول المعري فيها :

غلت واغلت ثم غالت وأوحشت وحشت وحاشت واستمالت وملت
وقوله :

مابال رأسك لاتبش بلونه عين وبات بكل ذي نظر يبش
يمسي كبعض الروم ابيض باردا ولقد يكون كانه بعض الحبش
فهذا والذي قبله شيء ثقيل بارد ولهذه الابيات نظائر في اللزوميات ولكنها
قليلة مغتفرة بالقياس الى كثيرها من الشعر المطبوع .

وخلاصة القول كان صاحب اللزوميات مطبوعاً على هذا الفن وقد يتكلف
ويتعسف ولكن تكلفه ليس بكثير خلافاً لما ادعاه هؤلاء الادباء .

لزوم ما لا يلزم بعد عصر المعري

دخل هذا الفن منذ عصر المعري في طور جديد من حيث طبيعته ومميزاته
ففي هذا العصر انشئت اللزوميات وصار لزوم ما لا يلزم شعاراً لصاحبها وميزة

(١) المثل السائر ١٠٥ و ١٠٨

(٢) شرح نهج البلاغة ١ : ١٢٠

(٣) أنوار الرعي ٢٢٩

يمتاز بها اديبه حتى شاع هذا اللقب كأنما هو من الاوضاع اللغوية التي ابتكرها المعري وكأنه مدلول هذه العبارة مدلول قائم بنفسه ليس له صلة بالبدیع أو بهذه المحسنات اللفظية وذلك لأن المعري استخدم فنون البديع للتمييز عن آرائه وهي آراء خاصة فاجأ بها الناس وتناول فيها نقد عاداتهم واخلاقهم ونظم الحكيم والسياسة وشؤون الاجتماع والعمران عندهم أي ان المعري استخدم هذه الصناعة اللفظية تحديه فكرة عامة أو غاية فلسفية بعيدة وبهذا فارق سواء ممن استخدموا انواع البديع ولا غاية لهم الا مجرد العبث بالالفاظ الفارغة فللزوميات فضل ظاهر لآبي موضوع الادب واللغة فحسب بل في باب العلم والمعرفة .

فضل اللزوميات على اللغة

تركت اللزوميات اثرًا لا يستهان به في عصر المعري والعصر الذي تليه وذلك من نواح شتى فمن الناس من تأثر بها من حيث لغتها واساليبها البيانية فبعثت من هذه الناحية نهضة لغوية كبرى شاع على اثرها التزام ما لا يلزم في شعر الشعراء وفي انشاء المترسلين وخصوصاً في القرنين الخامس والسادس وهلم جرا وحاول كثير من الادباء محاكاة المعري في جزالة الفاظه أو مشايعته في طريقته أو معارضته في اسلوبه الا انهم قصر، ا عن شأوه غالباً فالمعري امام مجدد مجتهد في اديبه والقوم مقلدون على الاكثر وقصارى اخدم ان يلتزم ما لا يلزم في ابیات او في قصيدة أو عدة مقطعات واين هذا من سفر كامل مفرغ الحلقات كاللزوميات ولدينا شواهد كثيرة على شيوع الادب اللزومي في العصور المذكورة فهذه المقامات اللزومية لمنشئها الوزير السرقطي الآتي ذكره وكذلك الرسائل اللزومية لكل من ابن اسيد الفرناطي (١) وعبد الرحمن المكناسي (٢) ومن شغف بمباراة المعري ثراً ونظماً شميم الحلي (٣) روى عنه ياقوت وحدثنا عن اطواره الغريبة وله ترجمة مفصلة في معجم الادباء وهو من منشئي الرسائل اللزومية وله ايضاً كتاب الاشارات المعرية وكتاب اللزوم في مجلدين .

هذا في النثر واما في الشعر فقد سلك مسلك المعري في لزومياته كثيرون من

(١) السيوطي في البنية ٢٩٨

(٢) المصدر نفسه ٣٠٣

(٣) ياقوت في معجم الأدباء ٥٠ : ١٣٨

اشهرهم العلامة الماكسيفي الآتي ذكره ومن الشعراء الذين اشتهروا بمحاكاة المعري في شعره أو في لزومياته ابن فورجة البروجردى وابو النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغي احد افراد زمانه علماً وادباً وكان يلتزم ما لا يلزم في شعره وهو المقصود بقول الأبيوردي الشاعر المشهور (١) :

شعر المراغي وحوشيتم كعقله اسلمه اسقمه

يلزم ما ليس له لازماً لكنه يترك ما يلزمه

وفي هذا المعنى لابن معصوم (٢) :

وشاعر قريضه من كل حسن معدم

لم يلتزم شيئاً سوى لزوم ما لا يلزم

فهذا ونحوه يدلنا على أن فريقاً ممن راق له مذهب المعري في لزوم ما لا يلزم قصر عن شأوه في اللزوميات وذلك لأن صاحبها كان مطبوعاً على هذا الفن بخلاف غيره .

فضل اللزوميات على العلم

ويوجد فريق آخر تأثر باللزوميات من حيث الفكرة التي دارت عليها أي من حيث معاني اللزوميات لا من حيث مبانيها فقد ثار الجدل وكثر الخلاف بسبب اللزوميات وآراء المعري فيها وتضاربت أقوال المصنفين من العلماء والأدباء ما بين منتصف له أو قائل بأكفاره حتى أن بعض الأدباء من أنصار المعري يضع اللزوميات في الرتبة بعد الكتب الإلهية المنزلة وهو القائل (٣) .

إن كنت متخذاً لجرحك مرها فكتاب رب العالمين المرم

أو كنت مصطحباً حكماً سالكاً سبل الهدى فلزوم ما لا يلزم

فقد بعثت اللزوميات كما ترى حركة فكرية عامة تفلقت في أنحاء العالم القديم شرقاً وغرباً وظهر جماعة من البلغاء والمترسلين نهجوا بأدبهم نهج المعري في تذكير الناس وتنبيه الغافل وتعليم الجاهل وحاموا حول مقاصده

(١) ابن خلكان في ترجمة الأبيوردي من وفيات الأعيان وقهاها ابن معصوم في أنوار

الريعم ولا وجود لهذين البيتين في النسخة المطبوعة في بيروت من ديوان الأبيوردي .

(٢) أنوار الريعم ٨٢٠

(٣) قلاً من ظهر نسخة قديمة من لزوم ما لا يلزم .

في التوحيد والالهيات وأصول الدين والأخلاق لكن لم يبلغ أحدهم شأوه في ذلك لأن سيرة المعري وسلوكه كانا من مواعظه البليغة فالمعري وعظ الناس بأعماله قبل أقواله والمرجح أن الزمخشري والاصفهاني في مقاماتهما ونوانج كلمهما قد تأثرا بأسلوب المعري في ملقى السبيل أو في الفصول والغايات .
والخلاصة للمعري في اللزوميات أسلوب أخذ يشبه أساليب أساتذة التربية أحياناً فهو يترفق في صقل العقول لحلة المنقول كما يجتهد في تلقين لغة الأعراب وأصول الآداب لأصحاب التأمل والنظرات الفلسفية .

الرابطة المعرية

ونعني بهذه الرابطة تألب فئة من أئمة الأدب وفيهم جماعة من المكافيف أو العميان واتفق آرائهم على تقديم المعري والتعصب لأدبه وافتقاء آثاره في منظومه ومنتشوره وقد نشأت هذه الرابطة بعد عصر المعري ولاحظنا وجودها ونحن نتصفح كتب التاريخ والطبقات ولأدب المعري على الأرجح أبلغ الأثر في وعي أتباعه من العميان فقد نبه فيهم شعور الاعتداد بأنفسهم والثقة بكفاءتهم والاعتزاز بزعامته وإمامته في الأدب فراحوا يكترون من رواية شعره ويثبون الدعوة له ومنهم من سلك مسلكه في التزام ما لا يلزم وذلك للرابطة التي تربط بين المعري وبين هؤلاء المكافيف ودونك أشهر من عرفناه من هؤلاء :

١ — العلامة الماكسيني (١) : اسمه مكي بن ريان الماكسيني الموصلني إمام في النحو واللغة والأدب بالغ تلاميذه — وهم كثيرون — في الثناء عليه ومن أقوالهم « جامع فنون الأدب وحجة كلام العرب » وهذه الكلمة لتلميذه ابن المستوفي وأطلق عليه صاحب التبيان (٢) في شرح الديوان لقب « الشيخ الامام »

(١) أول من ترجم الماكسيني لتلميذه أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ اربل ومنه نقل المتأخرون مثل ابن خلكان ٢ : ٥٨٣ والصفدي في نكت الهميان ٢٩٦ والسيوطي في البنية ٣٣٥ وابن العماد في الشذرات ٥ : ١١ وما كسين التي نسب اليها بيده من أعمال الجزيرة على نهر الخابور يقول ابن خلكان وهي على صغرها تشابه المدن الكبيرة في حسن بنائها ومنازلها .

(٢) انظر مقدمة التبيان في شرح الديوان [ط] القاهرة سنة ١٢٨٧ ومنها يظهر أن المؤلف مرأ المتنبى على الماكسيني سنة ٥٥٩ في مدينة الموصل .

وهو في رأي الجزري (١) « إمام عالم بالقراءات والنحو » وما لاحظناه ان الماكسيني المجمع على تدوينه وورعه كان أبداً يتعصب للمعري ويطرب اذا قريء عليه شعره فسلك مسلكه في النظم وذلك للجتماع بينهما من العمي والادب على مايقول ابن المستوفي وهكذا نجد للمعري انصاراً من بين حفظة القرآن وأئمة القراءات . توفي الماكسيني سنة ٦٠٣ ومن شعره .

سئمت من الحياة فلم أردّها تسألني وتشجيني برقي
عدوي لا يقصر عن أذايا ويفعل مثل ذلك بي صديقي
وقد أضحت لي الحدايا داراً وأهل مودتي بلوى العقيق

٢ — الداودي الضرير : داود بن احمد ابو سليمان الداودي الضرير — اديب بغدادي مولع بشعر أبي العلاء يحفظ منه جملة صالحة ولذلك كان الناس يرمونه بسوء العقيدة توفي الداودي سنة ٦١٥ ومن شعره أمثلة في معجم الادباء (٢) .

٣ — السنهوري المادح : اسمه احمد بن مسعود السنهوري الضرير ويعرف بالمادح عاصر الصفدي اجتمع به واخذ عنه سنة ٧٥٨ وفيه يقول « كان حفظه الله له قدرة على النظم ينظم القصيدة وفي كل بيت حروف المعجم وفي كل بيت ظاء وفي كل بيت ضاد وهكذا من هذا اللزوم » وتجد امثلة مشهورة في نكت الهميان (٣) .

٤ — الصرصري الشاعر البغدادى الضرير : لغوي أديب من البلغاء يدخل شعره في ثمان مجلدات مدائحه النبوية سارت بها الركبان له قصائد التزم فيها ما لا يلزم وهكذا الحروف الصعبة واخرى في كل بيت حروف المعجم . قتل الصرصري في وقعة بغداد سنة ٦٥٦ وتجد في نكت الهميان (٤) امثلة بليغة من شعره تجمله بحق من خول الشعراء .

ومما يدخل في هذا الباب

الامير اسامه بن منقذ : من رواة شعر المعري في اللزوم وقد روى فيما روي

(١) طبقات القراء للجزري ٢ : ٣٠٩

(٢) معجم الأدباء ٢ : ١٩١

(٣) نكت الهميان ١١٥ و ١١٦

(٤) المصدر نفسه ٣٠٨ و ٣٠٩

له لزومية في الشيب بعبارة تدل على تقديم المعري واكباره (١) ولا توجد هذه
اللزومية في النسخ المتداولة من اللزوميات وهي :

واها لرأسك زال ادمه عنه واشبهه وارقطه
وأعاده مثل اللجين مدى قد كان قبل به ينقطه
يألت شعري حين يرتحل اا جون المودع ابن مسقطه

ابن فورجة : محمد بن حمد بن فورجة - زنة سكرجة - البروجردى نحوي
لغوي من البرزين في النظم والنثر لقي المعري في بغداد على الاكثروقرأ عليه واكثر
من الرواية عنه وبينهما مشاعرة ومكاتبة وقد ورد ذكره في سقط الزند بمناسبة
قصيدة بعث بها الى المعري اولها :

الاقامت تجاذبني عناني وتسألني بمرصتها المقيلا
فاجابه المعري بقصيدة مشهورة اولها :
كفى بشحوب اوجهن دليلا على ازماعنا عنك الرحلا
ومنها :

كلفنا بالعراق ونحن شرخ فلم نلهم به الا كهولا
وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا سيد الشجر النخلا
وشارفنا فراق أبي علي فكان أعز داهية نزولا
ولولم الق غيرك في اغترابي لكان لقاءك الحظ الجزلا

وللمعري اثر كبير في طريقته واسلوبه في الشعر ولذلك قال الباخري (٢)
«شعره فرخ شعر الاعمي اعني شاعر مرة النعمان وان كان هذا الفاضل منزها من
مرة العميان» وفي دمية الباخري وتمة اليتيمة للثعالبي امثلة من شعره (٣) ولابن
فورجة حديث ممتع في النقد الادبي جرى بينه وبين المعري بشأن المتنبي وفي هذا
الحديث اشارة إلى مقاييس الفصاحة عند القوم وقد حكاه صاحب التبيان في شرح

(١) باب الآداب [ط] الرحمانية ٣٧٥ وعبارة الامير أسامة (ولشيخ أبي العلاء بن
سلمان التقدم في هذا المعنى بقوله) وانظر ٢٠١ و ٣٧٠ و ٤٦٢ من الكتاب المذكور
(٢) دمية القصر ٩١ من الطبعة الحليية

(٣) تمة القيمة [ط] طهران ١ : ٢٢١ و ٢٢٥ ومن ترجم لابن فورجة ابن شاعر في
فوات الوفيات ٢ : ٢٤٧ و ٢٤٨ والسيوطي في البنية ٣٩ والمجد الشيرازي في البنية .

الديوان (١) وابن فورجة كما مر كثير التحدث والرواية عن أبي العلاء في الادب واللغة وفي اسمه وميلاده اقاويل مختلفة اصحها ما قدمناه .

لزوم ما لا يلزم في الادب الاندلسي

يروع المتأمل في تاريخ الاندلس نهضة منقطعة النظير في اللغة وآدابها وفي علوم النقل والرواية وكثرة غريبة في عدد اللغويين والنحاة لم يعد مثلها قط إلا في العراق في بعض عصوره والاندلس تلي العراق في كثرة من تخرج فيها من أئمة النحو واللغة وأهل الرأي والمذهب فيها ولا مجال في هذه المجالة لتفصيل ذلك هذا من ناحية ويدهش المتأمل من ناحية أخرى فتور ظاهر في الاندلسيين من حيث عنايتهم بالحكمة والمعارف العقلية في بعض العصور وقد عانى كثير من اعلام الفكر وأهل النظر ما عانوه من العنت والضيق على ايدي أمراء السوء يعاونهم على ذلك أحياناً فريق من المتفهمة الجامدين وتاريخ اولئك الاعلام والنظار في الاندلس حتى أعيان الادباء مليء بالهجن والنكبات في كثير من الاحيان وقد اسرع الانحلال الى دول الاسلام في الاندلس والمغرب ومن جملة العوامل في ذلك — على ما أظن — هذا الافراط والتفريط افراطاً اقوم في جانب المنقول وتفريطهم في ناحية المعقول وذلك خلافاً للامم المنيعة المجاورة للاندلسيين وهي امم كان جل اعتمادها في حياتها على المعقولات وعلى الحقائق التي تميزها التجربة ويشهد بها الامتحان .

وقد دخل أدب العربي من شعر ونثر الى الاندلس على ايدي جماعة من تلامذته المغاربة أو الاندلسيين الذين رحلوا الى الشرق ولازموا أبا العلاء وقرأوا عليه اوعلى من قرأ عليه من تلامذته كالخطيب التبريزي شارح الحماسة فشغف الاندلسيون بأدب ابي العلاء واءجبتهم طريقته واساليه وكثر فيهم مقلدوه واتباعه في فنونه الادبية كما يظهر لنا من تصفح كتب التاريخ والطبقات ولا نبالغ اذا قلنا ان مؤلفات العربي في الشعر واللغة خاصة بعثت من جهة نهضة أدبية لغوية كما اوجدت من جهة ثانية حركة فكرية عامة في الاندلس . فمن الاندلسيين فريق تصدى لمساجلة العربي ومعارضته وبينهم الاعيان والوزراء في كتب لم تزل باقية

إلى هذه الغاية في خزائن المغرب والاندلس^(١) ومن الاندلسيين فربق آخر تأثر بالمعري من حيث بلاغته وجزالة لفته في شعره خصوصاً سقط الزند والدرعيات وغيرها وقد عني هؤلاء برواية شعره في السقط أو شرح ما فيه من الغريب فكان السقط من جملة محفوظات البلوي صاحب كتاب « ألف باء » ومن شراح السقط ولعله أشهر شراحه ابن السيد البطليوسي صاحب الاقتضاب الآتي ذكره ومن أدباء الاندلس من حاكى أبا العلاء في التزام ما لا يلزم ومن هؤلاء أصحاب المقامات والرسائل الزومية في النثر . وأصحاب الدواوين في النظم وقد ضاع أكثرها فلم يصل إلى أيدينا منه شيء فلا نرى جدوى في التعريف بأصحابها وإنما نكتفي بذكر من وصلت إلينا آثارهم ممن حذوا حذو المعري في لزوم ما لا يلزم نثراً ونظماً من الاندلسيين مبتدئين بالقسم الاول اي بالكتاب والمترسلين .

لزوم ما لا يلزم في نثر الاندلسيين

اشتهر بالترام ما لا يلزم في النثر فربق من كتاب الاندلس وهاك اسماؤه أربعة من مشاهيرهم في استخدام الفن المذكور .

١ - السرقسطي صاحب الزوميات : اسمه محمد بن يوسف بن ابراهيم السرقسطي شاعر نثر اديب رحالة في طلب العلم جاب الاندلس وزار أشهر مدنها ومنها غرناطة قرطبة مرسية بلنسية مالقة شاطبة للاخذ عن أعلامها ومن أجاز له القاضي ابو علي الصديقي وهو أكبر مشايخه^(٢) ترجم للسرقسطي ابن الابار^(٣)

(١) من هذه الكتب الباقية الى الآن كتاب [جمد النسيج] في مساجلة المعري في خطبة النصيح تأليف الحافظ سليمان بن موسى الكلاعي كتاب [المسمى الجليل والمرعى الويل] في مازنة ملقى السيل للعافظ محمد بن الابار البلنسي ولابن الحصال وزير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين كتاب في هذا الموضوع . احكام صيغة الكلام من تأليف الوزير الأندلسي التامم محمد بن عبد الفتور الكلاعي ويذكر فيه بعض مؤلفات غير معروفة لآبي العلاء ومن هذه الكتب نسخ خطية محفوظة في الخزائن التونسية والاندلسية .

(٢) المعجم في اصحاب أبي علي الصديقي لابن الابار [ط] مدريد سنة ١٨٨٥ ص ١٢٠ و ١٢١ وراجع عن الصديقي طبقات القراء للجزري ١ : ٢٥٠ وطبقات الحقاظ للذهبي ٢ : ٢٨ وفتح الطيب ١ : ٣٦٢ و ٣٦٥

(٣) المعجم في اصحاب أبي علي الصديقي لابن الابار

وابن بشكوال (١) والسيوطي (٢) وشهدوا بفضلته وغازاة علمه وله شعر ورسائل ومن مؤلفاته « المسلسل » وموضوع هذا الكتاب لغوي ولكنه غريب لم يسبق اليه من حيث الوضع والترتيب فقد التزم السرقسطي فيه أن يفسر كل لفظة باخري لها معنيان قريب وبعيد أو معنى حقيقي وآخر مجازي ثم ينتقل إلى ذلك المعنى البعيد ويفسره وهلم جرا مثليفسر الذهب بالنضير ثم يقول النضير الناعم والناعم الخافض والخافض الواضع وهكذا على التسلسل فكأنه كتاب من كتب المجازات اللغوية أو من كتب البلاغة وما شاكل ذلك وهو مفيد في بابه . على أن أشهر ما وصل إلينا من آثاره مقاماته اللزومية .

المقامات اللزومية

هي خمسون مقامة أنشأها السرقسطي بقرطبة لما وقف على مقامات الحريري التي أنشأها بالبصرة ولا شك أنه وقف على لزوميات المعري فجمع بين مباراة الاثنين وفي هذه المقامات يتحدث « المنذر بن حمام عن السائب بن تمام » اشتهرت هذه المقامات ورويت عن منشئها ولذلك يقول ابن الزبير « له المقامات اللزومية المشهورة » (٣) ويقول ابن بشكوال « له مقامات أخذت عنه واستحسنه » (٤) ومن رواها عنه الامام النحوي اللغوي المشهور بابن الباذش ورواها عن ابن الباذش ابن الابار ومن رواها محمد بن خير الاشبيلي صاحب الفهرست المشهور الآتي ذكره جاء فيه « المقامات اللزومية خمسون لابن الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي من انشائه روايتي كذلك عنه » (٥) وقد ذكرها في كشف الظنون (٦) ومما قاله « المقامات اللزومية مشهورة جاءت على غاية من الجودة » وعدد هذه المقامات اللزومية خمسون كما مر توجد منها نسختان في مكتبة جامع لاله لي بالاستانة وقد

(١) الصلة لابن بشكوال [ط] مدريد ٢ : ٢٢٩ و ٣٠٠

(٢) بغية الوعاة ١٢٠

(٣) نقله السيوطي عنه في البغية ١٢٠

(٤) الصلة لابن بشكوال ٢ : ٢٢٩ و ٢٣٠

(٥) فهرس ابن خير [ط] اسبانية ٣٦٣

(٦) الكنتف ٢ : ٢٩٥ [ط] الاستانة

وصف النسخ المخطوطة من المقامات المذكورة أديب دمشق^(١) ونشر نموذجاً منها وهو المقامة الاولى واسمها « القفرية » ومن جملة هذه المقامات مقامة اسمها « الخداعية » وأخرى اختصت بالنظم والنثر وهي المقامة الخمسون وفي هذه المقامات دليل على بلاغة منشئها وغازاة مادته في الادب واللغة ولكن انى له بلوغ شأو المعري أو الحريري في المنظوم والمنثور .

٢ - ابن خير الاشبلي ابو بكر محمد بن خير الاشبلي حافظ ثقة في النحو واللغة والادب له ترجمة مفصلة في طبقات الحفاظ^(٢) ومثلها في طبقات القراء^(٣) وثالثة في بنية الامة^(٤) وهو يمثل لنا ولع الاندلسيين بالمعري وعنايتهم بكتبه في ذلك العصر وذلك ما حملنا على ذكره في هذا المكان توفي ابن خير سنة ٥٧٥ بقرطبة ولم يصل إلى أيدينا من آثاره الا الفهرست المسمى « فهرست ابن خير » وهذا الفهرست عبارة عن سفر جمع فيه اسانيد ما رواه من الكتب وبعضها اسانيد عالية فهو مثلاً يروى « الكامل » بسند عال يرفعه إلى المبرد وقد استطرد فيه إلى فوائد ادبية وتاريخية . ومن مرويات ابن خير على ما جاء في الفهرست المذكور^(٥) جميع كتب المعري ورسائله وسائر شعره في « اللزوم » وكل ما له من منشور ومنظوم قال روايتي ذلك عن أبي بكر بن العربي^(٦) عن أبي زكريا التبريزي عن المعري .

٣ - مترسلون لزوميون : وهذه اسماء فريق من المترسلين اللزوميين ورد ذكرهم في كتب الطبقات مثل عبد الرحمن بن اسيد القرناطي قالوا هو كاتب بارع قدر من اللزوم على ما عجز غيره حتى صار طبعا له^(٧) وعبد الرحمن السلمي الاندلسي يعرف بالمكناسي كاتب حلوا الاغراض ينشئ الرسائل اللزومية

(١) السيد محمد علي طيبان في مجلة المنتبش ٢ : ٢٦٦ - ٢٦٨ وفي مجلة الزهراء ٢ : ٢٠٢ - ٢٠٤

(٢) طبقات الحفاظ للذهبي ٢ : ١٥٢ و ١٥٥

(٣) طبقات القراء للجزري ٢ : ١٢٩

(٤) البنية ٢١

(٥) فهرس ابن خير الاشبلي [ط] اسبانية ٢١٢ و ٢٥٠

(٦) انظر عن الحفاظ أبي بكر العربي . طبع الانفس لفتح بن خاقل ٢١ و ٧٣ وطبقات

الحفاظ للذهبي ٢ : ٨٦ و ٨٩ وأزهار الرياض ٣ : ٦٢ - ٦٥ و ٨٩ و ٩٥ وفتح الطيب ١ : ٣٣٠ - ٣٢٣

(٧) البنية ٢٩٨ عن تاريخ غرناطة

وبلغ في اللزوم مبلغاً أعجز غيره وله رسائل جليلة . توفي بمراكش سنة ٥٩١هـ (١)
ومنهم ابن غلندة ذكر ابن الأبار أنه من أصحاب اللزوميات إلى غير هؤلاء .

لزوم ما لا يلزم في شعر الاندلسيين

مذهب الجماعة . مذهب اندلسي في الأدب

قال الشهاب المقرئ (٢) في ترجمة ابن جزى الفرناطي مانصه « ذهب في شعره مذهب الجماعة كابني الملاء المعري والرئيس ابن المظفر وإبي طاهر السلتي وإبي الحجاج بن الشيخ وأبي الربيع بن سالم وإبي علي بن أبي الاحوص وغيرهم » هذا ما قاله الشهاب المقرئ ومنه نعلم أن طريقة المعري ومن حذا حذوه في نظمه كانت طريقة ماثورة شائعة يدرسونها في الأندلس والمغرب وإن « مذهب الجماعة » هذا مذهب اندلسي في الأدب ويقصدون به نظم الاشعار في المواعظ والالهيات والتوحيد والاخلاق وما إلى ذلك كما نجد في اشعار السلتي (٣) وابن جزى (٤) وابن أبي الاحوص (٥) وابن الشيخ وغيرهم ممن لم يذكرهم الشهاب المقرئ في كتابه وهي اشعار التزموا فيها ما لا يلزم في كثير من الاحيان وهالك اشهر شعراء الاندلس الذين نظموا شعرهم على الطريقة المذكورة وفي مقدمتهم ابن السيد البطليوسي والسرقسطي وغير هؤلاء :

١ — ابن السيد البطليوسي : عبد الله بن محمد بن السيد نزيل بلنسية شاعر نائم بليغ مؤلف موفق في التأليف من اعلام الاندلس في اللغة والأدب وهو

(١) البنية ٣٠٣ نقلًا عن ابن الزبير

(٢) أزهار الرياض ٣ : ١٨٤

(٣) انظر عن الحفاظ السافي وفيات الأعيان ١ : ٥٣ - ٥٥ وطبقات الحفاظ للذهبي ٩٠ : ٩٠ -

٩٦ وأزهار الرياض ٣ : ١٦٧ - ١٧١ ومواضع آخر من الكتاب المذكور

(٤) محمد بن جزى أديب فقيه . مؤلف جماعة للكتب له خزنة ملوكية استشهد سنة ٧٧١

تجد ترجمته وأمثله من شعره في أزهار الرياض ٣ : ١٨٤ - ١٨٦

(٥) أبو علي بن أبي الأحموس القرشي الفرناطي اسمه الحسين بن عبد العزيز له ترجمة منفصلة

في بنية الوعاة ٣٣٤ وهو من حيث المزاج والميل إلى العزلة والانسحاب على الحياة والتمسك بما لا يلزم في شعره كثير الشبه بأبي الملاء المعري .

صاحب الاقتضاب (١) والانصاف (٢) افرد الفتح بن خاقان رسالة خاصة في ترجمته ضمنها جزءا من شعره (٣) وله ايضا ترجمة في قلائد العقبان (٤) ووفيات الاعيان (٥) وبنية الوعاة (٦) .

عني البطليوسي بشعر ابي العلاء المعري وشرح ما فيه من الغريب وله شرح مشترك على سقط الزند واللزوميات يقال انه احسن الشروح بيد انه نادر الوجود توجد منه اوراق قديمة في الخزانة التيمورية بالقاهرة (٧) وقد عثر اخيرا في تونس على نسخة قديمة منه في مجلدين فهو اقدم شرح يعثر عليه من شروح سقط الزند واللزوميات . وله شعر وترسل كثير وهو متفنن في شعره وثره نظم قطعة تنفك عنها ست قطع وأخرى تنفك عنها تسع (٨) والمعري تأثير ظاهر في طريقته واساليبه قال ابن خاقان وقد اكثر من القول في الزهد . توفي البطليوسي سنة ٥٢١ ومن شعره وقد التزم ما لا يلزم :

امرت الهي بالمكارم كلها ولم ترضها الا وانت لها اهل
فقلت اصفحوا عن اناب اليكم وعودوا بحلم منكم ان بدا جهل
فهل لجهول خاف صعب ذنوبه لديك امان منك او جانب سهل

ومن تفننه قوله في اولاد صاحب قرطبة وهم عزون ورحمون وحسون :

اخفيت سقمي حتى كاد يخفيني وهمت في حب عزون فعزوني
ثم ارحموني برحون فان ظمئت نفسي الى ريق حسون فحسوني

٢ - - السرقسطي الشاعر : هو صاحبنا منشيء المقامات اللزومية المار ذكره في الفصل السابق شاعر مكثر يلتزم في شعره على الاكثر مالا يلزم ومن شعره امثلة عثرنا عليها في كتب الادب جلها على ما نظن مقتبس من مقاماته اللزومية .
للسرقسطي في معاهد التنصيص (٩) اربعة ابيات لزومية مهد لها صاحب المعاهد بقوله ، ولابي طاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي وهو مصنف المقامات اللزومية وهي خمسون مقامة بناها على لزوم مالا يلزم واول الابيات :

(١) طبع في المطبعة الادبية ببيروت سنة ١٩٠١

(٢) طبع مصر سنة ١٣١٩

(٣) نقل المقرئ صاحب قح الطيب وأزهار الرياض هذه الرسالة برمتها في كتابه الأخير

(٤) ص ١٩٣

١٠٣ و ١٢٩

(٥) ص ٢٨٨

(٦) ص ٢٧٢

(٧) ابو العلاء المعري لأحمد تيمور ٦٨ (٨) ازهار الرياض ٣ : ١٣٢

(٩) معاهد التنصيص ٢ : ١٠٦

ياهاثما بالدلال والخفر الصقت خد العزيز بالعفر
ومن شعره في المقامات الزومية وهو مما رواه ابن الأبار (١) والأبيات
خمس أولها:

هيات من ذنب الميء تأسف وله على هول الذنوب تمسف
وله قصيدة من هذا الباب أولها:

دعا بك الدهر لو تحيب يا حبذا السامع الحبيب
منها: المجد فوز الفتى بحظ فما تميم وما تحيب

٣ - ابن الشيخ البلوي (٢): اسمه يوسف بن محمد أبو الحجاج القضاعي
البلوي يعرف بابن الشيخ عالم لغوي من محفوظاته سقط الزند عن اللزوميات في
شعره. أهم ما وصل من مصنفاته (الف باء) (٣) في الأدب واللغة وهو كتاب
غريب الوضع والترتيب التزم في ترتيبه ما لا يلزم وفيه نقل عن شرح للبطلوسي
على لزوم ما لا يلزم للمعري والبلوي المذكور مولع بالنظم على هذه الطريقة
كأستاذ الفقيه أبي محمد الخطيب (٤). توفي ابن الشيخ البلوي سنة ٦٥٣ ومن
لزومياته في شيخ فقير خطب جارية غنية:

أتخطب من قدها غصن بان ومن كالسجنجل منها اللبان
تضاف إلى الشمس من حسنها وتنسب في الميز لأمريبات
وأنت عديم أخو عيسلة مشيك في عارضيك استبان

وليكن هذا آخر البحث في تاريخ لزوم ما لا يلزم وهو فيما نظن قليل
من كثير وربما فاتنا منه ما يعادل هذه الصفحات وقد حالت حوائل القاهرة
دون استيعاب البحث مضافاً إلى كلال الذهن وتشتت البال والله المستعان
على إتمامه في المستقبل إنه ولي التوفيق .

محمد رضا الشيباني

(بغداد)

رئيس مجلس النواب

(١) المعجم في اصحاب القاضي الصدق لابن الأبار ١٢١

(٢) انظر بنية الوعاة ٣٥٣

(٣) طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٢٧٧ بمجلدين

(٤) الف باء ٢ : ٣٢١ و ٣٢٢ وانظر أيضاً ١٥٢ و ٢٧٢ و ٣٢٢

أبو العلاء المصري وعالم النحو

كتب لأبي العلاء صنوف من المجد العلمي .
كان شاعراً مكثرًا مفيضاً خلف ديوانين من أوسع الدواوين في العربية —
ومع ذلك وجد من العلماء من يقول — أبو العلاء حكيم وليس بشاعر — وكان
فيلسوفاً حكيمًا حدد لنفسه رأياً في الحياة وأملى عليه رأيه خطة من العيش
الترمها وصبر عليها ووفى بها — ومع ذلك جحدت عليه فلسفته وقيل مضطرب في
الرأي متقلب في الحكم وقيل برم بالحياة تملي عليه السوداء — ودع عنك من رماه
بالالحاد والزيف وسوء الايمان .

وكان عالماً لغوياً فكان هذا أين مجد له واشرقه . ومذ كان أبو العلاء بهر
الناس علمه باللغة وتصرفه فيها واحاطته بعلومها ولم يتعلق عليه في هذا متعلق .
ولكن البحث الجديد يبدو كأنه يمسك الطريق على السابقين في تقدير علم أبي
العلاء وتقويم مواهبه ودرس آثاره .

فاما فلسفته فقد وجدت من استنبطها واحاط بها وصورها وخدمة متاملة
تستحق أن تجد منزلتها في تاريخ الفلسفة وتاريخ الفكر وتاريخ الحياة أيضا .
ومذ بدأ الدكتور طه حسين — وهو ناشئ — يكشف عن فلسفة المصري
ويؤلف بين اشتاتها ويظهر الناس على جملتها ، وفلسفة أبي العلاء حقيقة ماثلة لدى
الناس لا يجحدونها وان اختلفوا في تقويمها .

وأما شعر أبي العلاء فلا بداء اليوم رأي حسن في تقديره وأنه الشعر علا عن
اللغو وصما بما فيه من رأي وبحث في أمور الحياة .

وانه الشعر العربي الذي يقدم للناس ثراً فيقبلون عليه راضين يتمتعون بمعانيه
قلوبهم وعقولهم .

وإن الغربيين اذا ترجوا من الشعر العربي لم يجدوا لديهم أقوم من شعر
المصري .

فقد كشفت فلسفة الممرى وقوم شعره — أما علومه اللغوية وهى المع آيات مجده فإذا دُرس منها ؟ لقد زحزحت عن مكانها وكانت الأولى . وكأنما نشر أبو العلاء فيلسوفاً وشاعراً وقد كان يحيا عالماً لغوياً .
وانا أحاول هنا أن أدرس طرفاً يسيراً من أطراف علوم أبي العلاء اللغوية — وهو العلم الذي سماه المتقدمون (بالعربية) وشمله كتاب سيويوه ونسميه الآن علم النحو والصرف أو « علم النحو » ونكتفي .
وأريد أن أكتفي من البحث ببيان موقف أبي العلاء من هذا العلم ومن سبل بحثه في فقه العربية .

أرضي أبو العلاء هذا الاسلوب من البحث أم كرهه ؟ فإن كان قد رضي فهل أحدث فيه بحثاً أو زاده فصلاً ؟ وان كان كرهه فهل بدل منه شيئاً أو حاول ان يبدله ؟ .

تعلم أبي العلاء النحو بالشام

بكر أبو العلاء إلى درس النحو صبيّاً — كما كان الناشئون ييكرون — وتلقى أول دروسه على والده الشيخ عبد الله بن سليمان ولم يكن نحوياً مذكوراً ولا عرف له رأي في النحو وإنما تعلم منه ما كان ينبغي أن يتعلم فقيه يتهياً للقضاء .
وكان الشيخ عبد الله فقيهاً قاضياً عربي النجر يفتخر بنسبه من تنوخ .
وكان أشياخ العرب يقبلون على نحو الكوفة ويمرضون عن نحو البصرة نحو الموالى وكان الفقهاء يحبون نحو الكوفة أيضاً لأن الكوفيين أكثر رواية وحما للآثار وحفظاً للحديث ولأن البصريين اقلوا الرواية وتورطوا في الفلسفة والجدل واطرحوا الحديث ان يحتجوا به ولحنوا المحدثين .
لذلك أخذ الشيخ يعلم ولده كتاب النحو الذي تعلمه من قبل وهو « مختصر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي » المتوفى سنة ٢٣١ وكان هذا الكتاب مما يتدارسه الناشئون بالشام ويؤثره الفقهاء .
وكان بمدراس الشام موجز آخر يسمى « الجمل » ألفه عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي وكان الزجاجي من أئمة النحاة وقصد إلى الشام واقام بطبرية وتوفي بهاسنة ٢٣٩ هـ وترك له مدرسة وتلاميذ يدرسون كتابه « الجمل » فدرسه أبو العلاء .

وكذلك كان باشام كتاب في النحو مختصر يسمى «الكافي» ورد اليهم من مصر ألفه الشيخ أحمد بن محمد المرادي المصري المتوفي بمصر سنة ٣٣٨ قالوا «كان شيخاً تقياً ورعاً انتفع به خلق كثير» ونقل تلاميذه كتابه الى الشام فكان مما يدرس بها ولقيه أبو العلاء وقرأه ايضاً وقد بقيت هذه المختصرات تدرس بالشام الى أن جلس أبو العلاء بالمعرة استاذاً يعلم الناس فعلها لتلاميذه كما سنراه بعد .

انتقل هذا الفتي المستكثر من العلم الى «حلب» قالوا «دخل أبو العلاء حلب وهو صبي فقراً بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي» ولم يقولوا ما قرأ عليه ولكن ابن سعد لم يكن نحويّاً ولا ذكر في النحاة وان سمي نحويّاً وانما كانت رواية لديوان المتنبي .

وكان شعر المتنبي متغنى أهل الشام وهتاف عاطفتهم وذاكريهم فاجبه الشباب واحبه أبو العلاء ثم زاده فيه جبا ان معانيه لامت نفسه فأكب عليه جمعاً وحفظاً ثم قصد ابن سعد هذا الذي لقي المتنبي وسمع منه وحفظ عنه وعد رواية له ولكن الفتي كان أجمع لشعر المتنبي وأروى له من روايته .

قالوا «ان ابن سعد كان يروي من ديوان المتنبي قصيدته التي مطلعها» :
«أزائر يا خيال أم عائد»

فقال منها .

أَوْ مَوْضِعاً فِي فَنَانِ نَاجِيَةٍ

فرد عليه ابو العلاء — وقد اجتمع معه بحلب وهو صبي — وقال بل هو

او مَوْضِعاً فِي فَنَانِ نَاجِيَةٍ

فلم يقبل ذلك ابن سعد ومضى الى نسخة عراقية صعدت مع ابي علي بن ادريس من المراق فوجد القول ما قال ابو العلاء ولم تكن القصيدة مما قرأه على المتنبي ولكن بما بث اليه .

فلم يجد أبو العلاء في حلب استاذاً له لا في الرواية ولا في النحو .
وانما كان في حلب آثار مدرسة نحوية عظيمة أساسها أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه سنة ٣٧٠ وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ ولهذه المدرسة اسلوب في البحث يتميز بمنائيتها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ماسمى منها

شاذاً وعمل الامامين في هذا الباب هو مرجع الدارسين له وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة في البحث وان لم يلق احدا من أئمتها وألف كتاباً سماه « تظلم السور » يتكلم فيه عن لسان السور وتظلم كل سورة عن قرأها بالشواذ ويتعرض لوجه الشاذ .

لم يفلح المعري في أن يلقى استاذاً بالشام فامحدر الى بغداد على وعناء الطريق وعناء الرحلة ومشقة السفر عليه خاصة ولكن لقاء الشيوخ كان من تمام العلم ولربما كان الرجل عالماً مليئاً ثبثاً ثم عيب بانه لالقاء له وبانه صحفي لم يأخذ عن كبار الشيوخ .

بغداد ونحاتها

كانت بغداد تصطبغ بأصوات العلماء وعلماء النحو خاصة كان فيها قبيل مقدم أبي العلاء الامام أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي المتوفي سنة ٣٦٨ كان الى امامته في النحو فقيها قاضياً ورعاً وشرح كتاب سيديوه فجاء اوسع شرح واسيره وابقاه الى الآن وهو يبلغ حجم « الكتاب » اضعا فاف ثلاثة أو أربعة والناس يحرصون عليه ويجاهدون في تحصيله ويتفخرون باقتنائه .

وكان الى جانبه ، الامام أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفي سنة ٣٧٧ وكان يلقب سيديوه الثاني وقالوا « لم يشهد النحو بعد سيديوه اعلم به ولا أدق نظراً في قياسه من أبي علي » .

كان الشيخان يتنازعا في رئاسة النحو في الدنيا ولكل منهما فابو سعيد أكبر رواية وأوفر حظاً من الشعر واللغة والسباع وإث كان نحوه نحو البصريين وجدهم وقياسهم .

والفارسي أدق نظراً وأصح قياساً وأغوص على أسرار العربية وكان يقول « اخطي في خمسين مسألة مما تأتي به الرواية أحب إلي من ان أخطي في مسألة واحدة مما يأتي به القياس » .

وكان الى جانب هذين الامامين الشيخ أبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ وهو تلميذ الفارسي وفي طريقته . ثم الرماني علي بن عيسى المتوفي سنة ٣٨٤ وهو ذو طريقة وحده كان اعظم من الفارسي غوصاً على القياس وعلته حتى كان الفارسي يقول .

« ان كان النحو بما بأيدينا فليس مع الرماني شيء منه وان كان النحو ما عنده فما بأيدينا منه شيء » .

كل هذا يبين عن كثرة المدارس النحوية وتفرع المذاهب ونشاط الجدل اللغوي ولكن ابا العلاء نزل بغداد وقد تخرمت المنية هؤلاء الائمة . السيرا في سنة ٣٦٨ ، والفارسي سنة ٣٧٧ ، والرماني سنة ٣٨٨ ، وابن جني سنة ٣٩٢ . فكانما كتب له الايلي مدارس النحو الا في أعقابها وكان الموت كان يساقه إلى لقاء الشيوخ .

كانت رئاسة النحاة قد انتهت الى الشيخ علي بن عيسى الربي المتوفي سنة ٤٢٠ وكان شيخاً كبيراً وكان اماماً واسع العلم ولكنه كان ضيق الصدر غير محمود العشرة ولم يكن لأبي العلاء بد من ان يقصد اليه ويحكون ان ابا العلاء منذ استأذن على الشيخ اذن له في عبارة تسيء اليه فكر راجعاً ولم يعد ولم يتلق عن الربي شيئاً . ونحن نعلم خلق الربي وانه صرف عنه بعض النابهين من تلاميذه سئل ابن برهان « لم تأخذ النحو عن أصحاب الربي وترك الشيخ وقد أدركته . فقال يمنعني جنونه وما تعلمون مني » . (انظر يا قوت . ترجمة ابن برهان) . وكذلك نعلم طريقة الربي في الجدل النحوي واتباعه سبيل استاذه أبي علي الفارسي .

وكلا الامرين لا يلائم أبا العلاء فلم يكن من سبيل الى أن تطول الصعبة بينها . وعندي ان أبا العلاء قصد الى الربي وأخذ عنه قليلاً ثم انصرف وابن المديم ينص على أنه تلقى عن الربي . أما القصة فانها أبدعت في تصوير هذا النفور وسرعته وبت اللقاء كأن لم يكن لقاء .

لم يجد أبو العلاء اذن استاذاً له في بغداد كما لم يجد من قبل استاذاً في الشام واضطر ان يطلب النحو من المكتب وان يكون قارئاً لامتلياً .

وسنحاول ان نعلم ما اتصل به من كتب النحو وكيف اتصل بها وزى كيف قدرها وقدر أصحابها .

الكتاب وسببويه

نعلم من بعض رسائل المعري (ص ٢٦ مرجليوث) أن أبا العلاء كتب الى أحد أخواله — أبي طاهر بن سبيكة — يسأله أن يحصل له نسخة من « الكتاب »

ومن شرحه وإن ظاله لقي عناء في تحصيله وكأنه كتب إليه بما لقي فأرسل إليه المري رسالة منها « وفهمت ما ذكره الشيخ من أمر النسخة المحصلة وهو — ادام الله عزه — الكريم المتكرم وانا المثلث المتبرم جرى في التفضل على الرسم والحجت الحاح الوشم فاما الشرح فان سمح القدر والا فهو هدر »

وكننت قلت في بعض كتبي الى سيدي ان كانت الخطوط مختلفة والابواب مؤتلفة فلا بأس يعني عن السرق ثوب من خلق ماعدا خط علي بن عيسى فانه رجل اتكل على ما في صدره قهوان في سطره .

وهو — ادام الله تأييده — من الملامة في احصن لامة فلا يبعثه تميز الحاجة على اللجاجة اهو الكتاب المكنون الذي لا يعسه الا المطهرون انما هو اباطيل إياه وتعليق في ايام الحياة ، اه

اما تقديره سيويه رحمه الله فانه لم يزل يتعرض له بالنقد والتخطئة في مواضع من رسائله منها :

« ان ابن القارح سأل ابا ليلى نابغة جمعة كيف تنشد قولك :

فليس بمعروف لنا ان زردها صحاحا ولا مستنكرا ان تعقرا

أقول — « ولا مستنكرا » ام « ولا مستنكر » فيقول الجمدي بل « مستنكرا »

فيقول الشيخ فان انشدكم منشد « مستنكر » فما تصنع قال « أزجره وازبره نطق

بامر لا ينجبه » فيقول الشيخ انا لله وانا اليه راجعون ما أرى سيويه الا وهو في

هذا البيت لان أبا ليلى ادرك جاهلية واسلاما وغذي بالفصاحة غلاما .

وامانا سيويه يذكر هذا البيت في كتابه (ج ١ ص ٣٣)

ويميز فيه « مستنكر » بالجر ويتكلم في توجيهه

ومثل هذا ما زاه في سؤاله عدي بن سعد عن بيته :

ارواح مودع ام بكور انت فانظر لاي امر تصير

وأن سيويه يزعم ان « أنت » يجوز ان ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر

فيقول عدي بن زيد دعني من هذه الاباطيل .

وقد ينبغي ان تثبت عند هذين التقدين قليلا ففيها أصلان يرجع اليها اكثر ما

نقده ابو العلاء من نحو البصرة الاول أن نحاة البصرة بقياسهم قد قولوا العرب مالا يقولون وأجروا على السنتهم غير ما يرضون .
والثاني انهم تكلفوا في توجيه الكلام وتخريجه بما اوقمه في الاباطيل .
واذ كان هذا يبين عن رأي أبي العلاء في سيبويه وفي الكتاب فلنحاول أن نشرف الى رأيه في أبي سعيد والشرح .

السيرافي وشرحه

طلب أبو العلاء شرح السيرافي من خاله أبي طاهر مع الكتاب كما قرأنا في الرسالة السابقة وقال في تقديره « أما الشرح فإن سمح القدر والا فهو هدر » .
وطلبه ايضا من صديق له آخر هو أبو عمر الاسرأبادي وكأنه لقي في تحصيل الشرح عناء ايضا كما يفهم من رسالة أبي العلاء (ص ٣٨ مرجليوث) .
« كان أيسر من عنائه في ذلك كذف الشرح في سيج . . . »

انما هو افانين كلام اصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع لا يخلد من رواه قد عاش الناس بسواه . . . ولا أقول لمن غاب ريش سهمه اللغاب ولا اقول لكتاب ابي سعيد — « اولئك ينادون من مكان بعيد » بل انا من التثقيل حذر ، مشفق من ذلك معتذر ، وانما سألت أن يستسمد برائه لقلعة نظرائه وهو عندي أجل والكتاب أيسر وأقل من أن يكلف خطوات ولو كن كديب القطوات » .
وأبو العلاء لا يزهده في الشرح زهده في الكتاب ولا يجعله كما جعل الكتاب « اباطيل إياه » وانما اشفق من التثقيل وعاب من الشرح انه « أصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع » وأبو العلاء يضيق بالقياس صدرا ولا يعدل بالمسموع شيئا ولكن الشرح مع ما فيه من القياس غزير الرواية والشيخ أبو سعيد فياض الاستشهاد وذلك اغرى أبا العلاء بتحصيله .

أما الرأي في أبي سعيد فانك قد تراه في ثنايا ما نقص عليك قال ابو سعيد في الجزء الاول من الشرح عند ترجمة سيبويه « باب ما يكون في اللفظ من الاعراض ، مانصه :

حضرتُ أبا بكر بن دريد وقد أنشد أياتا تنحل آدم وهي :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض مغبر قبيحُ
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشة الوجه الملمح .

فقال أبو بكر أول ما قال الشعر أقوى فقلت له انشاد البيهقي على وجه لا يكون فيه اقواء وانما هو :

..... وقلّ بشاشة أرجه المليح

على تقدير وقل بشاشة فتحتين وجمل يستشهد لحذف التنوين في هذا الموضع اذا تلاه ساكن بشواهد عدة من الشعر ومن القرآن الكريم ثم قال وحذف التنوين عند الالتقاء بساكن غير داخل في ضرورة الشعر وقد رأيت بعض من ذكر ضرورة الشعر أدخل فيه حذف انتنون وهو عندي ليس كذلك . اهـ . من تفصيل المعري وفي روي .

وابو العلاء يعرض لهذه القصة حين يلتقي ابن القارح بابينا آدم ثم يقول ما نصه : قلت انا هذا الوجه الذي ذكره ابو سعيد شر من اقواء عشر مرات في القصيدة الواحدة اهـ . (رسالة الغفران ص ١٠٩ و ١١٠) .

أبو علي الفارسي وكتبه

ونحن مضطرون ان نطيل عليك بنقل من نص رسـ لة الغفران ص ٥٧ لتعلم تقدير أبي العلاء للفارسي وكتبه .

« قال ابن القارح : وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا فلما رأني أشار بيده فجثته فاذا عنده طبقة منهم يزيد ابن الحكم الكلابي وهو يقول ويحك أنشدت علي هذا البيت برفع « الماء » يعني قوله : فليت كفافاً كان شرك كله وحيرك عني ما ارتوى الماء مرتوي ولم أقل إلا « الماء » . وكذلك زعمت اني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلاً بي كشكلك شكله فاني — خليلاً صالحاً بك — مقتوي وإنما قلت « مقتوي » بضم الميم . وإذا هناك راجز يقول تأولت علي أني قلت : يا ابلي ما ذنبه فتأبى به ماء رواء ونصي حو ليه (١)

(١) يروي هذا البيت أبو سعيد في الشرح :

يا ابلي ما ذامه فتأبى ماء رواء ونصي حو ليه

شاهداً على تثنية « حول »

فحركت الياء في « تأيه » ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب
 وإذا رجل آخر يقول أدعيت علي أن الهاء راجعة على الدرس في قولي :
 هذا سراقاة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشى أن يلقها ذيب
 أفجئون أنا حتى أعتقد ذلك . وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه
 على تأويله . فقلت يا قوم ان هذه أمور هينة فلا تفتنوا هذا الشيخ فانه يمت
 بكتابه في القرآن المعروف « بالحجة » وانه ما سفك لكم دماً ولا احتجن
 عنكم مالا فتفرقوا عنه وشغلت بخطابهم والنظر في حويرهم فسقط مني الكتاب
 الذي فيه ذكر التوبة فرجعت اطلبه فما وجدته فأظهرت الوله والجزع اه .
 فهو يخطئه في روايته ويكره منه تأويله ويزعم أنه يقول العرب ما لم يقولوا
 ويحمل كلامهم ما لم يريدوا وانه انما يرضى من عمله (كتاب الحجة) وهو في
 اعراب القرآن وتوجيه قراءاته .

وكذلك انصرف المعري عن بغداد لم يتلق عن أحد من ائمة النحويها وقرأ
 كتبهم فضاقت صدرها بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف في التأويل والغلو في
 التعليل والمضي مع القياس مضياً يراه المعري منتهياً الى أن يحجز في المربية ما ليس منها

تدريسه النحو بالمعرة

عاد أبو العلاء الى المعرة واستقر بها استازا فإذا علمهم من النحو ؟
 جعل يعلم من شاء منهم كتب النحو الموجزة التي تعلمها من قبل في المعرة
 وفيما حولها من بلاد الشام وهي .

(١) الجمل — للزجاجي — (٢) الكافي — للنجاشي (٣) المختصر —
 لابن سمدان .

وجعل يؤلف الكتب شرحاً لها أو بياناً لشواهدها . فألف لكتاب الجمل :

(أ) — عون الجمل (ب) — اسعاف الصديق

وألف على « الكافي » كتاباً سماه « قاضي الحق » . وعلى مختصر ابن سمدان
 كتاباً سماه « المختصر الفتحي » ألفه لأبي الفتح ابن كاتبه .

فان املى كتاباً مبتدئاً به فهو على مثال هذه الكتب من الايجاز — وعلى هذا
 ألف كتاب « الحقيير النافع » كتاب مختصر في خمس كراسات . ثم ألف كتاباً

يتصل به سباه « الطال الطاهري » كتبه لأبي طاهر المسلم بن علي من رجال الدولة وهو قريب في الحجم من الكتاب الأول وقد يخلط الكتابان كتاباً واحداً. لم يؤلف كتاباً موسماً ولا تعرض لهذه الكتب النحوية المطولة التي اتصل بها في بغداد إلا أن يكون كتاب سيبويه هم بشرحه فشرح قليلاً منه أو من شواهد ثم انصرف عنه ولم يتممه .

وكان يعلمي هذه المختصرات ويهديها إلى أصدقائه أو إلى أحد من رجال الدولة قضاء لحق أو جزاء على معروف أو برأ بصاحب كما ترى في تسمية كتبه « اسعاف الصديق » و « قاضي الحق » وكما نقرأ في اخباره ففي ترجمته في كثير من الكتب التي ترجمته — « قال الشيخ أبو العلاء لزم مسكني منذ سنة أربعمئة واجتهدت أن أتوفر على تسييح الله وتمجيده إلا أن اضطر إلى غير ذلك فأملت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن الله معونته فالزمني بذلك حقوقاً جمة وأيادي بيضا لأنه افنى في زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمنه والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » اهـ .

وقد كتب لولد هذا الشيخ كتابين في النحو « المختصر الفتحي » و « عون الجمل » قالوا وكان هذا الكتاب آخر ما أملاه الشيخ وما شغله من التأليف رحمه الله .

الخلاصة

طفنا مع أبي العلاء حينما اتصل بالنحو متعلماً أو معلماً قارئاً أو مملئاً ورأينا أنه لم يتلق عن أستاذ يحترمه ويقدره ويتأثر بتوجيهه إلا أن يكون أباه فقد وجهه إلى نحو الكوفيين وحببه في الرواية والسباع ثم أورثته المدرسة الشامية الميل إلى إعراب القرآن وإلى توجيه قراءاته .

أما في بغداد فقد نقر من المدارس النحوية البصرية وذاق بما فيها من قياس وتعليل وجدل .

ولما عاد إلى المرة اكتفى أن يعلم من النحو المختصرات أو يعلمي الجمل وأخذ يث في رسائله نقده لمذاهب البصريين وما فيها من تعليل وتكلف في التأويل. أما اجتراء أبي العلاء بالمختصرات والجمل فقد يكون مذهباً تعليمياً نافماً

وقد يصلح لمن شاء أن ينال من النحو حظاً ثم ينصرف إلى غيره مما قد يحتاج إلى النحو كالفقه والأدب . أما من شاء النحو على أنه فقه اللغة وكشف أسرارها وخصائصها وتعليل قوانينها ومجاريها فإن ذلك لا يجديه شيئاً ولا يصله بشيء .

وأما نقد أبي العلاء للنحاة للمبالغة في التعليل والتكلف في التأويل فقد يكون له من ذلك ما يتقده على أنه نقد لم يكن دقيق المسلك ولا خفي المكان وكل ما ابتدعه المعري هو أسلوبه الشعري في هذا الانتقاد .

وأستطيع الآن أن أقرر مطمئناً أن أبا العلاء كان عالماً بالنحو وأن أقرر — كذلك — أنه لم يكن نحويّاً ولا أراد أن يكون نحويّاً وإنما كان ناقداً لغويّاً درس النحو فعابه وضاق به وانصرف عنه واكتفى من قواعده بما يمكنه من العمل الذي وافق هواه وسائر طبعه وهو — النقد — ونظرات في مثل (عبث الوليد) أو (ذكرى حبيب) تبين أنه انصرف إلى النقد ولم يمن بمسائل النحو ولا بتخريج النحاة .

من بعد أبي العلاء

لم يذهب مع الريح نقد أبي العلاء للنحاة وأسلوبه الشعري الذي اتبعه في النقد زاد من أثره فشاع وتندر الناس به .

ولو أنه كان نقداً أعنف من هذا وأعمق بحثاً ثم مضى في بطون الكتب النحوية لما بلغ هذا المدى من الذبوع ومن الأثر .

نرى عقب زمن أبي العلاء عرساً ظاهراً في كتب النحو — وكتب الاثمة منهم — يبدؤون كتبهم بالدفاع عن النحو والذود دونه ذوداً عنيفاً يرى أنه درء لهجوم قوي مر .

فالامام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧٤ يبدأ دلائل الاعجاز — وهو كتاب يعده الجرجاني ونمده معه كتاباً في النحو — يبدأ هذا الكتاب بمجمل قوي لمن زهد في النحو واحتقره واصفر أمره وتهاون فيه — وإن صنيع هؤلاء أشبه بالصد عن كتاب الله وتعرف ممانيه ثم يفصل ما عابوه من النحو بما لا يبعد مما ندد به أبو العلاء — (وانظر تفصيل ذلك في أول الدلائل) .

والامام ابو القاسم محمد بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ يبدأ كتابه «المفصل» بمثل هذا الدفاع ويجعل الذين يغمصون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون ان يخفضوا ما رفع الله من منارها لا يبعدون عن الشوعية منابذة للحق الابليج وزينا عن سواء المنهج وذلك لأنهم لا يجدون علما من العلوم الاسلامية فقها وكلامها وتفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية لا يدفع ويرون الكلام في معظمها مبنيًا على علم الاعراب

والزمخشري رحمه الله يتحكك بابي العلاء في مواضع اخرى في تفسيره للمرسلات عند آية « ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر » . جلب ذكر أبي العلاء لأدنى مناسبة — كما يقول النحاة — فذكر بيت المعري :

حمراء ساطعة الذوائب بالضحي ترمي بكل شرارة كطراف

وجعل يعيب المعري ويلمزه لسوء تشبيهه وهو ظاهر التجانف والميل . وتعودنا من الزمخشري رحمه الله ان يعرض لخصوم المعتزلة وليس ابو العلاء منهم ولكن الزمخشري كان رجلاً أديباً قرأ رسائل المعري وفطن لموقفه من النحاة فحمله كرهه على التحرش به .

وهذه الخصومة النحوية قد جنت على ابي العلاء ايضا فان النحاة اهملوا شعره ونذر جداً ان تعرضوا له بشرح أو استشهاد أو نقد وقد عنوا بشعر ابي تمام والمتنبي لما فيها من تصرف في اللغة وفي الاساليب النحوية وقد كان في شعر ابي العلاء من ذلك ما يغريهم بدرسه ولكنهم اعرضوا عنه .

وأظهر من هذا اعراضهم عن كتبه في النحو فلم يدرسوها ولا نقلوا عنها حتى لم يبق منها كتاب ولا أثر من نقل . وتلك خصومة جنت على المتخصصين ولم يجن العلم منها شيئاً .

ولقد أرى أن ابا العلاء فكر في النحو بالطبيعة التي فكر بها في كل امور الحياة يحس العيب — فيما يراه عيباً — فيعبر عنه ويندبه وربما التزم ان يتجنبه ويعصم نفسه منه ولكن رأيه في اليأس والقنوط يمنعه ان يثور الى شيء من الاصلاح .

واذا ما نهض النجو — واظنه ينهض — فانه سيشهد ان النجاه المتقدمين
والبصريه منهم خاصة قد ابلوا في كشف اسرار اللغة ووصلوا من فقهها الى قيم كثير
وان آثارهم قد طمت تحت ركام من الاعراض والفتور وان ابا العلاء كان شيئاً مما
فقر الناس عنها ...

وكتب بالاسكندرية في رمضان من سنة ١٣٦٣ وقدم الى المهرجان الألفي
المقام لأبي العلاء في سوربة وأملاه ابراهيم مصطفى
« مندوب جامعة فاروق الأول »



بعض ملاحظات

تعلق بحياة أبي العلاء وآثاره

« تشرفت بدعوة المجمع العلمي العربي بدمشق إياي لحضور مهرجان الشاعر الحكيم العظيم أبي العلاء المري . وأنا أشكر للمجمع العلمي الموقر دعوته باسمي وباسم أديباء فارس وعلمائها ورجالاتها . وأعتذر لحضوري متأخراً فما كل ما يتمنى المرء يدركه .
لقد هيأت بحثاً موحزاً كتبته باللغة الفرنسية لألقيه إبان المهرجان فلم أتمكن من ذلك وقد طلبت إل صديقي الدكتور أسعد طلس أن يترجمه إلي العربية فقبل مشكوراً .
وسأرجع إل طهران حاملاً ان بلادي أطيب التكريات لرجال سورية الأفاضل الذين غمروني بمطعمهم وبخاصة رجال المجمع العلمي العربي وأديباء دمشق » .

* * *

قال بعض شعراء فارس متذنباً بحظ الشعراء بعد موتهم :
« حينما يكون الشاعر حياً لا يقدر الناس شعره حق قدره، بل ان بعضهم ينقد لفظه كما ان آخرين يتهجمون على آرائه .

ولكنه إذا مات أصبح قوله أغلى من الدر واثمن من الابرز .
فياحبذا تلك الحالة الحسنة التي يصبح فيها الموت افضل من الحياة » .
لاشك في ان هذا الشاعر يتألم من حال كثير من معاصريه الذين لا يقدرون قيمة شعره وعبقريته لما في نفوسهم من الحسد والفكر الضيق . كما لم يقدر كثير من الاقدمين عبقرية غيره من الشعراء والنوابغ .

إن ابا العلاء هو واحد من هؤلاء الشعراء الذين لقوا من معاصريهم ما لقيه هذا الشاعر فانهم تهجموا على عبقريته وضيقوا عليه انفاسه في حياته ومنعوه أن يظهر بصورته الحقيقية . وذلك ان ابا العلاء ما كان يشبه قليلا او كثيراً من تقدمه من الشعراء إما بأسلوبه الخالص او بأفكاره الجريئة فكان طبيعياً أن ينظر الناس اليه نظرة قاسية ويتهجموا عليه ويشتموه ويلعنوه ويكفروه لاشيء سوى انهم حاسدون او متعصبون رأى ذلك أبو العلاء من معاصريه فتعب منهم وتألم من مجتمعاتهم

واحتقرهم فانزوي في « محبسه » يعيش عيشة نساك وانزواء ويعبر عن آرائه بالفاظ غامضة واسلوب مبهم كل ذلك بتعمد منه لئلا يطلع على مذهبه وافكاره من ليسوا لها اهلا .

اشتهر ابو العلاء شهرة واسعة في حياته على الرغم من ذلك الانزواء الشديد الشديد وهو بحق اهل لتلك الشهرة لان قدره لم يكن قط بحاجة الى مرور الازمان ليعرفه المسلمون في كافة نواحي الارض .

ان الذين قدروا ابا العلاء في حياته هم كثيرون كما ان العلماء الذين كانوا يفتخرون بالنسبة اليه والاستفادة منه كانوا لا يحصون ، اما الملوك والامراء الذين كانوا يحبون ان يتشرفوا به وبزيارته فهم كثيرون أيضاً .

اما لا استطيع ان احدث طويلا عن ابي العلاء في هذا الجمع الحافل من علماء الشرق والمشرقيات لقلّة بضاعتي ولكني حثت التي بمض ملاحظات تتعلق بحياة ابي العلاء احد كبار مفكري الشرق واحد مفاخره . وانا آمل أن اكون في بحبي هذا قد امطت اللثام عن بعض الامور المهمة في ادب ابي العلاء .

على الرغم من انزواء ابي العلاء في معرة النعمان فان صيته كان قد وصل الى اقصى حدود خراسان وما وراء النهر وذلك قبل نصف قرن من وفاته .

اذا استثنينا رحلة ابي العلاء القصيرة الى بغداد فانتالانجبد، رحل الى بلد وراء بلاد الشرق الاسلامي ولكن هذا لم يمنع مواطني الفرس من ان يرحلوا الى بغداد من كل الجهات ليفيدوا من اقامته القصيرة في تلك المدينة . وكثير منهم من استسهل الصعاب فقصده معرة النعمان ليقرا على الشيخ في داره .

وانه لمن الفخر ان يكون هؤلاء الفرس هم الذين نشروا آثاره وكتبه في بلاد الشرق الاسلامي في حياته وبعدها . وانه لمن الخير ان نلاحظ انهم كانوا اسبق من غيرهم في نشر ادب ابي العلاء .

ان من اول من تحدث عن المعري فيما اعرف من ادباء فارس هو ابو منصور الثعالبي في كتاب «تمة اليتيمة» الذي نشرته في طهران [انظر ج ٩/١] . والذي ألفه بين عامي ٤٠٤ و ٤٠٧ للهجرة اي قبل موت ابي العلاء بربعين او خمس واربعين سنة . وقد خصص الثعالبي فصلا عن حياة الشيخ كما روى لنا بعض شعره واليك نص كلامه [كان حدثني ابو الحسن الداني المصيصي الشاعر وهو من ائقته

قديماً وحديثاً في مدة ثلاثين سنة قال لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب رأيت
اعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والترد ويدخل في كل فن من الجد والهزل
يكنى أبا العلاء سمته يقول أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر فقد
صنع لي واحسن بي اذ كفاني رؤية الثعلاء البغضاء قال وحضرته يوماً وهو يملي في
جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وإني الكتاب فأوجب الشكراً فضمته ولتمته عشراً
وفضضته وقرأته فإذا أجلى كتاب في الورى يقرا
فمحاه دمي من تحدره شوقاً إليك فلم يدع سطراً
فتحفظها واستعملتها كثيراً في مكاتبات الاخوان اهـ [

وقد أورد ياقوت نص الثعالي باختصار في معجم أدبائه [ج ١ / ١٧٢ - ١٧٣]
وقد أضاف على ذلك (قال أنشدني لنفسه :

لست أدري ولا المنجم يدري ما يريد القضاء بالانسان
غير أنني أقول قول محق قد يرى الغيب فيه مثل العيان
إن من كان محسناً قابلته بحميل عواقب الاحسان .

وإذا قارنا عبارة ياقوت بعبارة تمة اليتيمة وجدنا أن هذه المقطوعة التي
أوردها ياقوت ليست لأبي العلاء وإنما هي للمحسن بن عمرو بن المعلى الذي
ترجمه الثعالي في التتمة بعد أبي العلاء مباشرة . والراوي لهذه المقطوعة على
قول الثعالي هو أبو يعلى البصري لا أبو الحسن الدلي كما زعم ياقوت . وتفسير
هذا ان نسخة التتمة التي رآها ياقوت كانت مخرومة ينقصها بعض مقاطع
فاشبهه الأمر على ياقوت فخلط بين شعر أبي العلاء وشعر المحسن . فأنبه العلماء
على هذه الغلطة التي وقع فيها ياقوت وأرجوهم أن يصححوا ما قاله اثلاً يقعوا
في الفخ الذي وقع فيه .

بعد الثعالي جاء ناصر خسرو الداعي الباطني والشاعر الفارسي المشهور الذي
زار معرة النعمان في ١٥ رجب سنة ٤٣٨ أي قبل موت أبي العلاء بأحدى عشرة
سنة وقد حدثنا في رحلته « سفرنامه » بأخبار هامة عن شيخ المعرة وقد اعتمد
عليها كثير من المستشرقين والشرقيين في دراساتهم ولذا فاني لا أحب أن أقف
طويلاً أمامها وأناقشها .

ونحن إذا رحنا نفقش عن العلماء الفرس الذين ترجوا لآبي العلاء وشرحوه ونشروا آثاره تقف أمام عالم كبير هو أبو زكريا بن الخطيب التبريزي (٤٢١ - ٥٠٢) الذي سار على قدميه من تبريز إلى المرة ليلقي حكيماً ويفيد منه مع أنه لم يكن له من العمر أيامئذ إلا قريب من سبعة عشر عاماً ولكن القدر قد عاكسه فان مدة استفادته من الشيخ لم تطل أكثر من سنة أو سنتين على أقصى تقدير. وهذا يفسر حملة صاحب التنوير على كتاب ضوء السقط للتبريزي واليك نص كلامه عن هذا الكتاب [غير واف بالمقصود ولا دال على الغرض المطلوب لتقصيره عن بلوغ ما يجب من الإبانة والابضاح وقصوره على إشارات من مواضع معدودات لا تكشف الغطاء من مشكلة ولا تشفي ذاغلة، قد عني الشارح فيه بشرح الألفاظ وتفصيل ما غمض من اللغات غير أنه حرم توفيق الاتقان فيما نقله ولم يصب شاكلة الصواب فيما استنبته وأصله، ولما لم يكن ضوءه كافلاً باضائة المعنى ولا معترفاً على ما هو المقصود من إبانة الفحوى ...] (طبع مصر سنة ١٣٢٤ ص ٥). وستتكم مفصلاً فيما صاحب التنوير.

وهناك مؤلف فارسي آخر تحدث عن أبي العلاء ونقل شيئاً كثيراً من مختار شعره وهو الباخري صاحب كتاب دمية القصر المؤلف في سنة ٤٦٤ أي بعد موت أبي العلاء بخمس عشرة سنة، فقد حدثنا الباخري بأخباره منقولة عن أبي عثمان الصابوني الذي زار شاعرنا في معرة النعمان.

بعد أن انتشر كتاب ضوء السقط في العالم الاسلامي أصبحنا نجد عدداً كثيراً من الشراح الفرس ولن أتحدث اليكم في هذه الفترة عن شروحيهم الكثيرة فان الوقت أضيق من ذلك ولكني أحب أن أقف وقفة طويلة أمام شارح واحد وهو صاحب التنوير الذي لا يزال إلى عهدنا هذا مجهولاً.

إن هذا الشرح القيم قد انتهى منه صاحبه في شهر محرم سنة ٥٤١ وقد نشر للمرة الأولى مطبوعاً على الحجر في تبريز سنة ١٢٧٦ ثم نشر في القاهرة مرات عديدة وقد ذكر صاحب معجم المطبوعات العربية ومفهرس دار الكتب المصرية أن صاحب هذا الشرح هو ابن طاهر النحوي أبو يعقوب يوسف

ولكنهم لا يعرفوننا شيئاً عن أخبار أبي طاهر هذا ولا عن مصادرهم التي اعتمدوا عليها في هذا القول .

إن قولهم انه [نحوي] هو تحريف ظاهر عن كلمة (خويي) لأن المؤلف كان من [خوي] وهي بلدة لا تزال موجودة الى ايامنا هذه في الشمال الغربي من بلاد آذربيجان في فارس وقد ذكر السمعاني في كتاب الانساب في نسبة [الخويي] ما يأتي : « من المنسوين الى خوي احدي بلاد آذربيجان صاحبنا ابو يعقوب يوسف ابن محمد — كذا وهو تحريف ظاهر لكلمة طاهر — ابن الخويي من اهل خوي سكن طوس وكان حسن السيرة فاضلا كتبت عنه اقطاعا من الشعر بنوقان وكان ينوب عن القاضي » [كتاب الانساب ورقة ٢١٢ ب] وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان [٥٠١/٢] في مادة خوي : « يوسف بن طاهر بن يوسف بن الحسن الخويي الاديب ابو يعقوب من اهل خوي اديب فاضل وفقه بارع حسن السيرة رقيق الطبع مليح الشعر مستحسن النظم كتب لابي سعد الاجازة وقد كان سكن نوقان طوس ولي نيابة القضاء بها وحمدت سيرته في ذلك وله تصانيف من جملتها رسالة تنزيه القرآن الشريف عن وصمة الالحن والتحريف وقال ابو سعد وظني انه قتل في وقعة الغزاة بطوس سنة ٥٤٩ أو قبلها يسير . »

واذا نحن قارنا عبارة ياقوت بمباراة السمعاني عن ابي يعقوب نجد ان ما اورده ياقوت عن السمعاني إما ان يكون من نسخة كاملة من كتاب الانساب لم تصل إلينا وإما ان يكون من كتاب آخر للسمعاني .

ومما يجدر قوله انه قد بقي لنا كتاب ثانٍ من آثار أبي يعقوب وهو مجموعة أمثال عربية عنوانها — فرائد الخرائد — ومن الكتاب نسخة في المكتبة الوطنية بباريس رقمها ٣٩٦٨ . وفي مقدمة هذا الكتاب نجد اسم المؤلف هكذا يوسف ابن طاهر الخويي . ويذكر الحاج خليفة هذا الكتاب فيقول : « فرائد الخرائد في الأمثال والحكم لابي يعقوب يوسف بن طاهر الخويي فرغ منه سنة ٥٣٢ ذكر في اوله ان ابا الفضل احمد بن محمد الميداني وانه استاذة ألف كتابا لكنه اطل فيه فذكر فيه ما اهل من الامثال وألفه على ترتيب الحروف وادرج فيه الايات السائرة والحكم » .

ويلاحظ المرء أن الحاج خليفة كان يعرف كتاب التنوير كما كان يعرف بابيعقوب الخويي مؤلف الفرائد ولكنه لم ينسب كتاب التنوير إليه لأن اسم المؤلف لم يكن مذكوراً في صدر كتاب التنوير .

ولاشك في أن مؤلف كتاب التنوير هو نفس مؤلف كتاب الفرائد الذي ذكره الحاج خليفة. كما أنه لاشك في أن مؤلف التنوير هو نفس الرجل الذي ترجمه ياقوت والسمعماني. قد لاحظنا أن ياقوتاً والسمعماني لم يذكر كتاب التنوير في عداد مؤلفات أبي يعقوب الخويي ولكن نلاحظ في مقدمة التنوير أن مؤلف هذا الكتاب كان مضطرباً بعلوم الدين والعقائد والطب فضلاً عن الآداب . وأنه كان يعيش في خراسان . وليس هناك ما يمنع أن يكون نائب القاضي في طوس وأنه ألف كتاباً دينياً اسمه تنزيه القرآن . [انظر: كلمان ٢٨٩/١ الذيل ٤٥٣/١ و ٥٠٧] .
وخلاصة ما سبق :

١ — أن مؤلف كتاب التنوير هو أبو يعقوب يوسف بن طاهر بن يوسف بن حسن الخويي من خوي إحدى بلاد آذربيجان .
٢ — كان شاعراً ومحدثاً وأديباً وفقهياً وكان مقيماً في طوس يشغل وظيفة نائب القاضي .

٣ — كان تلميذاً لأبي الفضل الميداني صاحب مجمع الأمثال وكان السمعاني صاحب الانساب ممن أخذوا منه اجازة .

٤ — إنه ألف كتاب فرائد الخرائد ليرتب كتاب أستاذه ويتممه في سنة ٥٣٢ هـ ، وألف كتاب «تنزيه القرآن الشريف عن وصمة اللحن والتجريف» .
٥ — إن كتاب تنوير سقط الزند قد تم تأليفه في خراسان في شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ وإن المؤلف قتله الغز في أواخر سنة ٥٤٨ هـ أو أوائل سنة ٥٤٩ هـ بطوس وكان ذلك بعد استيلاء الغز على خراسان وأسرهم صاحبها السلطان سنجر . ومن أغرب الحوادث أن هناك شارحاً آخر لسقط الزند هو صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (٥٥٥—٦١٧) مؤلف ضرام السقط الذي أتم تأليفه سنة ٥٩٧ هـ أي بعد تأليف التنوير بست وأربعين سنة ، قتله التتار في سنة ٦١٧ في خوارزم .

وقد أشار صدر الأفاضل في ضرام السقط [المطبوع بتبريز سنة ١٢٧٦
على هامش كتاب التنوير] إلى شراح السقط قبله وهم ابن الخطيب التبريزي
صاحب التنوير . وهو قد حمل حملة على صاحب التنوير . كما حمل على صاحب
شرح آخر هو الايضاح لمؤلف لا نعرفه .
أيها السادة الأفاضل

أختم كلتي بالاعتذار اليكم لأنني لم اجثكم بشيء ذي قيمة في بحثي هذا .
فقد كنت أحب أن أتحدث اليكم عن الخيام وعلاقة أدبه بالمعري لأنها يشابهان
في مواضع كثيرة ولكن ضيق الوقت وقلة البضاعة مناني من ذلك فأعذر
اليكم ثانية والسلام عليكم ورحمة الله .

عباس اقبال



مخطوطات أبي العلاء المهرى

في مكتبة جامعة برنستون

تمتاز مكتبة جامعة برنستون بجزائنة كتبها العربية التي شرع في تأسيسها عام ١٩٠٠ المستر غربت من تلامذة الجامعة سابقاً وأمنائها حالياً . فالخزانة تستوعب اليوم ما نيف على عشرة آلاف مخطوط عربي مما يحولها حقّ تبوء المقام الأول بين خزائن جامعات العالم . على أن مكاتها ليست بكثرة مخطوطاتها فحسب بل بمدد الاثّامات والنواتر منها .

فمن هذه النفائس « كتاب الصناعة الطبية لحنين بن اسحق العبّادي . نسخته عثمان بن علي بن محمد السمرقندي عام ٥٧٢/١١٧٦ — ٧٧ . وهو ترجمة كتب جالينوس النابية ويحوي موادّ لا وجود لها في مخطوطات جالينوس اليونانية واللاتينية . وفضلاً عن ذلك فالخطوة العربية أقدم من كل المخطوطات اليونانية واللاتينية الباقية اليوم . ومنها « الكتاب الملكي » لعلي بن العبّاس المجرسيّ نقله ركّات بن ثابت عام ٥٨٦/١١٩٠ . وهو النسخة الوحيدة الكاملة في هذا الكتاب على ما نعلم باستثناء نسخة في حوزة الدكتور سامي حداد في بيروت . ومن طريف أمر هذا الكتاب أنه التّأليف العلمي الرّيضي الوحيد الذي حفل الصليبيون بنقله إلى اللاتينية وذلك في أنطاكية عام ١١٢٧ . ومنها « الموجز في الطب » لابن النفيس الدمشقي المتوفى عام ١٢٨٨ وهو بخط مسعود ابن محمد القزويني نسخته عام ٧٩٥/١٣٩٣ وابن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس البرتغالي المنسوب هذا الاكتشاف له بمائتين وثلاثين سنة . ومنها « المدخل إلى صناعة الموسيقى » للفارابي نسخته أحمد بن محمد ... عام ٨٦٦/١٤٦١ وهو مزدان بالرسوم والرّموز الموسيقية التي لا يستطيع أحد اليوم قراءتها .

وبين مخطوطات هذه المجموعة تأليفات وتعليقات يد عدد من اعلام التاريخ

الاسلامي في التأليف والخط بينهم ياقوت الحموي الجعفي وابن الاثير المؤرخ وابن النفيس المتطبب وابن عربي الفيلسوف المتصوف والفيرو زابادي اللغوي وابن حجر العسقلاني الفقيه .

ولما تكرم الاستاذ رئيس المجمع العلمي العربي وطلب اليّ إعداد كلمة لمهرجان أبي الملاء راجعت الفهرس الذي كنا نشرناه بالطبع عام ١٩٣٨ لمجموعة (غرير) العربية التي كانت يومئذ في حوزة مكتبة جامعة برنستون فوجدت فيه ذكر ثلاث مخطوطات تحمل اسم المعري فرأيت أن اصفها واتحف المجمع بمصور بعض صفحاتها . ولا بد من ان نذكر في هذا المقام ان الجامعة اقتنت بعد طبع هذا الفهرس مجموعة ثانية من المخطوطات العربية تبلغ نحواً من ستة آلاف لم يتيسر لنا الآن درسها ووضع فهرسها لذلك لا ندرى ما إذا كان فيها نسخ غير هذه من مؤلفات أبي الملاء .

إن أحدث مخطوطات المعري في جامعة برنستون هي « الرسالة الاغريضية » (رقمها ٢١٩١ في فهرس مجموعة غرير المطبوع . والاغريض زهر النخل وكل أبيض طري) . نسخها عام ١٢٧٥/١٨٥٨ في المدينة محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي وضمها مع غيرها من الرسائل في مجلد واحد كلها منقولة من مجموعة وجدها في خزانة شيخ الاسلام بالمدينة . وهي رسالة في اللغة والشعر والمنطق نشرها (مرغليوث) مع رسائل غيرها لأبي الملاء في او كسفورد عام ١٨٩٨ ولا نعرف لها أختاً سوى مخطوطة في خزانة الاسكوريال بمدريد (وصفها درينبورغ في فهرس هذه الخزانة تحت رقم ٤٧٠ - ٢) . ومخطوطتنا تقع في ٤ ورقات طول كل ورقة منها ٢٧٠٦ سنتيمتراً . وعرضا ١٨٠٥ سنتيمتراً . وطول المکتوب من الصفحة ٢٢ وعرضا ١١٨ . وعدد السطور في الصفحة يختلف بين ٢٩ و ٣١ . ورقها أوري صقيل وحبرها أسود باستثناء العنوان وعلامات الوقف فانها بحبر أحمر .
جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه

رسالة أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري وتسمى الاغريضية كتبها جواباً عن الرسالة التي كتبها الوزير ابو القاسم هبة الله المغربي . والمغربي هذا توفي سنة ٤١٨/١٠٢٧ على ما ترجم له ابن خلكان .

وفي نهايتها :

وكان تمامها في يوم الاثنين المبارك الموافق خمسة وعشرون [كذا] خلون من محرم الحرام من شهور افتتاح سنة الف ومائتين [و] خمسة وسبعون [كذا] على يد ناقلها لنفسه أضعف الوري محمد علي بن حسين بن عمر الدمشقي نزيل المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وعلى هامش المخطوطة بعض التصحيحات . وهي في حال حسنة . غلافها من الطراز الشرقي الأزرق له ردة وعليه طوابع حمراء . والمخطوطة مشتراة من بريل الكتبي المعروف في هولانده عام ١٩٠٠ . وكان بريل اشتراها مع غيرها من السيد امين بن حسن الحلواني المدني الحنفي عام ١٨٨٣ لمناسبة افتتاح المعرض الاستعماري في امستردام . وبريل استشار المستشرق الاسوجي لانديبرغ في امر مجموعة الحلواني لدى اقتنائها .

أما اقدم نسخة من مخطوطات الميري في مجموعة برنستون فهي من « لزوم ما لا يلزم » ام مجموعة شعرية لابي الملاء (رقمها ٢٨ في فهرس مجموعة غريت المطبوع) نقلها حسين بن احمد بن حسين الجزري بتاريخ ١٠١٣/١٦٠٥ . عدد اوراقها ٢٠٠ الواحدة منها ٥ ، ٢٠ × ١٤ سنتيمتراً والمكتوب منها ٥ ، ١٧ × ٢ ، ٧ . وتشتمل كل صفحة على ٣١ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوروبي صقيل . جاء في مستهلها :

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله وعلى الأئمة الابرار من عترته قال ابو الملاء احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي الميري رهن الحبسين [البيت والمعنى] تجاوز الله عنه .

وفي نهايتها :

وكان الفراغ منه يوم الجمعة المبارك في اواخر شهر شعبان من شهور سنة ثلث عشر بعد الالف على يد افقر الوري الى رحمة الله تعالى حسين بن احمد بن حسين الجزري غفر الله له ولوالده ولجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين والحمد لله وحده .

وفي حواشها تملائق وتقييدات من مقتنيها ومطالعيها . وهي في حالة حسنة

وجيدة التجليد . وعلى دفتي غلافها مطبوع مداليتان مذهبتان . ولغلافها ردة مطبوع عليها أيضاً مدالية مذهبة . والمخطوطة مشتراة من خزانة مراد البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

وهناك مخطوطة نالثة للمعري في برنستون وهي « سقط الزند » (رقمها ٢٩ في فهرس مجموعة (غريت) المطبوع . وهي أول مجموعة اشعار نظمها (المعري) نسخها عام ١٠٥٣/١٦٤٣ علي الراشدي سبط المعروفي . عدد اوراقها ٧٨ الواحدة منها ١٩٠٥ × ١٣٠٥ سنتيمتراً والمكتوب منها ١٢٠٥ × ٦٠٥ . وعلى كل صفحة ١٩ سطراً بالخط النسخي المضبوط بالشكل على ورق اوربي صقيل بمحبر أسود فيما سوى العناوين وعلامات الوقف فمحبر أحمر أو أزرق . والمخطوطة مخرومة من اولها والصفحة الاولى منقولة ثانية بخط ناسخ متأخر . جاء في مستهها:

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين اما بعد . . . وفي نهايتها: تم الديوان المعروف بسقط الزند من شعر أبي العلاء احمد بن عبد الله المعري على يد الفقير الحقير علي الراشدي سبط المعروفي وكان الفراغ من تليقه يوم الاثنين لخامس عشر شوال من شهور سنة ثلاثاً [كذا] وخمسين والالف احسن الله تعالى ختامها آمين يارب العالمين .

ويتلو ذلك حاشية مؤداها ان النسخة هذه منقولة من نسخة بخط القاضي عبد اللطيف بن القاضي محب الدين في معرة النعمان .

وعلى هامش المخطوطة عناوين ضمن دوائر حمراء وكثير من التعليقات والاضافات والشروح . ولقد عبث المثلث بعدد من صفحاتها . وغلافها من الطراز الشرقي مطبوع على دفتيه مداليتان والمخطوطة مشتراة من البارودي في بيروت عام ١٩٢٥ .

جامعة برنستون ٢٠ تموز عام ١٩٤٤ فيليب صني

«الناس تخطب في عراك وتفسر»

لمضي ألفٍ من سنينك أحمدُ
ذي (مهرجانات) تقام بجلاقي
الوفد تلو الوفد جاء مشاركا
جاؤك من شرق البلاد وغربها
يحيون ذكرك بعد موتك أعصراً
شيخ المعرة والحوادث جمّة

الناس تخطب في علاك وتنشدُ
ونظيرها من حول قبرك تعقد
فيها وكل عن بلاد موفد
وشعارهم لأبي الملاء المقصد
طاب المات وطاب منك المولد
وكفالك أنك لم تنلك لها يد

* * *

يا صاحب العلم الغزير ومن رأى
والخلق لا يفنون بعد مماتهم
يا من عجمت من البرية عودها
ووصفت فلسفة الحياة بصورة
هل أنت تسمع منشديك قريضهم
أترى عرفت بأن شعرك لم يمت
في كل بيت من بيوتك حكمة
شعريه — السامعين نشيده
جلت معانيه وأفصح لفظه

سرّ الحياة حواه حتى الجلمد
لكننا أعمارهم تتجدد
وخبرت جيلك غوروا أو انجدوا
فيها تساوى يوم وصفك والغد
أم أنت فان لا تمي مرف ينشد
فله بالسنة الانام تردد
للناس بالغة وشعر جيد
شعر تقوم له النفوس وتقمعد
وكانه في السبك ثوب مؤجد

* * *

مات الملوك ولم تمش اخبارهم
روي حديثك مؤمن ومنافق
شعراً وفلسفةً وزهداً صادقاً
لله من صيتٍ بعيدٍ نلته

وقديم ذكرك في الوجود مخلد
ومحايدون ومغرضون وحسد
في كلها عجب لمن يتفقد
أعلى مكاتته الحجي والسؤدد

شيدت مجداً لم تشده أئمة
وبلغت من كرم الطباع مكانة
ودّ الملوك لو أنّ فضلك فضلهم
خطبوا اليك ودادهم ووصالهم
وغدوت عنهم راغباً مترفعاً
وسلكت في دنياك غير سلوكهم
ورغبت عن أكل الاحوم زهادة
وحبست نفسك لا تروود ديارهم
يأتون نادبك الندي ليأخذوا
فيسارحونك قاصدين ديارهم

حسدتك أقوام وأب فتية
وسمي لفضلك جاهل ومناوي
الناس فيك مؤالف ومخالف
وكذا العظيم بموته وحياته
شاهدت شر الناس في أفعالهم
تقدّاً تنزّه عن غلو أو هوى
وسخرت من فتك الطغاة وبطشهم
هذي لعمرك جرأة نبوية

أبأ العلاء وما عليك غضاضة
لترى بعينك كيف يقتل الورى
فيها النساء مع الرجال تجندت
ساروا إلى الهيجاء صفّاً واحداً
يصلون نار الحرب لا يخشونها
لا درع داود تقيهم من ردى

ان عدت للدينا فعودك أحمد
وجيوشهم للصوت كيف تمحّد
وعلى النضال تدربوا وتموّدوا
ما منهم إلا الكمي الاصيد
والحرب تحترم الجسوم وتحصد
كلّا ولا درع كوصفك تسعد

ناهيك من حقدٍ لهم وتطاحنٍ
في كل ثانيةٍ وكل دقيقةٍ
في الأرض حربهم وحرب في السما
ركبوا القلاع الطائرات كأنها ال
يرمون بعضهم لبعضٍ من علٍ
دُكت بها للأبرياء منازل
وئهاك (قنبلة) تطير بنفسها
لا تستطيع الطائرات لحاقها
تهوي فتنفجر انفجاراً هائلاً
قتل الرضيع بها ومات أمه
كم نائمٍ في بيته مع أهله
وجرت كصخر السيل دباباتهم
أما بوارجهم فهن حوارس

* * *

قالوا نحارب حرب سلمٍ دائمٍ
وعدالةٍ بين الشعوب جميعها
كلٌ يبرّر بالدعاية دينه
أبا العلاء فذي حكاية حالهم
نم في ثراك ورح فؤادك من عني

لاظم الربيعي
قنصل العراق في تبريز

تبريز ٢١ آب سنة ١٩٤٤



المعري والموسيقى

قد يستغرب هذا العنوان وحق للسامع ان يستغرب فابو العلاء شاعر وابو العلاء
فيلسوف حكيم وابو العلاء زاهد وابو العلاء لغوي ونحوي وصرفي .

ولكن ماحيلتي وانا امروء ولع بالموسيقى وايقن ان الطبيعة البشرية لاغنى لها
عنها الا اذا كانت شوهاء او بتراء وابو العلاء ذو طبيعة رقيقة في الطباع وذوق
كريم بين القلوب فاذا كان قد اخذ نفسه بالامتناع عن طيبات الحياة فانه لم يفعل
ذلك لنقص في شعوره بما امتنع عنه ولا لخلل في جسمه يباعد بينه وبين تفهم تلك
الطيبات وانما امتنع عنها وهو بها شاعر واي شاعر ولها مدرك واي مدرك . وما
اعتقد ان ابا نواس ذكر الحجر ووصفها باكثر من ذكر ووصف أبي العلاء لها وان

اختلفت بينها الغاية واساليب العرض وما ارى صريح الغواني وعمر بن ابي ربيعة
ألم بفواض غرائز النساء واخلاقهن كما ألم أبو العلاء بها وتحليلها وان اختلفت
بينهم الاساليب والغايات . فابو العلاء كان عالما بما اتى من زهد وكان عالما جدا بما
ترك من طيبات حتى نرى ان شعره ونثره قد فاضا بتحليل مازك ولم يلبأ الا قليلا
بتحليل ما آثر لنفسه من طرائق العيش فلم يصف ولم يحلل اثر المطعم الجشب واللباس
الخشن والعزلة القاسية في نفسه بمثل ما حلل اثر الحجر والمرأة والمال والمجد .

فهذا بعض ما جماني ابحت عن الموسيقى في حياة هذا الانسان العظيم وشيء آخر
هو ادعى لان ابحت عن اثر الموسيقى في نفس المعري خاعة وهو انه رحمه الله كان
بصيرا انقطعت بينه وبين الدنيا الاسباب الاسبب من اذنه ولمسه فكان بالحري ان
تراعي هذه الاذن المرفهة كل نائمة من حوله وكل هيعة . وهو لم ينقطع عن خوض
ما كان يخوض فيه جميع الناس من مجتمعات عامة وخاصة الا بعد ان شارف الاربعين
من عمره فهو اذن قبل ذلك قد استمع الى الموسيقى ساعيا لسماعها او غير ساع سمعها
في الافراح وسمعها في المآدب العامة وسمعها على افواه الحداة في القوافل التي كانت
تحمله بين الشام والعراق وسمعها من صديق يدمدم او جار يترنم على الاقل .

ولم يمهني المعري ان اسأل عن موسيقاه الرسوم والاطلال فهو قد أثبت تذوقه لها وتحليله لآثارها واطلاعه على ضروبها والحنانها في شتى اشعاره ومؤلفاته .

اما اطلاعه على ضروب والحنان موسيقى عصره فقد انبأنا به كتاب الفصول والغايات بتفصيل لانجده عند مؤلفي ذلك العصر حتى المغنين منهم والملحنين فقد جاء في الصحيفة الثامنة بعد الثمانين من ذلك المؤلف بعد ذكر شيء عما ينطق به العود من طرائق الفناء مايلي :

« والطرائق الثماني . الثقيل الاول وابقاعه ثلاث نقرات متساويات الاقدار على مثال مفعولن (مف) نقرة (عو) نقرة (لن) نقرة وهي نقرات تقال وانت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسبب المضطرب وذلك ان الوتد المفروق ثلاثة احرف اوسطها الساكن والسبب حرفان فانت اذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكونا اطول من السكون الذي على السبب مثل قولك فخر مجردهر فعلى هذا يجري الثقيل الاول . وخفيف الثقيل الاول وحقيقته ثلاث نقرات متواليات وهي اخف من التي ذكرنا واسرع تواليا كقولك مفعولن بلا فصل والثقيل الثاني وقد اختلفوا في ابقاعه فاسحاق يوقعه ثلاث نقرات نقرتان متساويتان ممسكتان وواحدة ثقيلة على وزن مفعولان ومنهم من يوقعه اربع نقرات متساويات الاقدار لاختلاف محوثرات ولا تقال ممسكات على مثال مفعو مفعو ومنهم من يوقعه اربع نقرات ثلاث متساويات والرابعة اثقل منهن على مثال مفعولان .

وخفيف الثقيل الثاني وحقيقته اسرع حثامنه وهو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة وهو الخفيف الذي اختاره اسحاق ويسمى الماخوري وهو عكس الرمل ووزنه مفعولان .

والرمل هو نقرة ثقيلة واثنان محوثران (لان مفعو) ومثله في الكلام (مل)

وصلي صد عني

وخفيف الرمل . وخفيف الرمل جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع جاء على غير جنسه وذلك ان خفيف كل نوع مثل ثقيله الا انه اخف حث الايقاع فالما الرمل فلم يحج خفيفه على عدد نقراته وهو على نقرتين بينهما فصل ووزنه على مثال فملان فملان

والهزج . وهو على نقرة نقرة . واحدة ثقيلة وأخرى خفيفة على وزن (قال لي) .
 وخفيف الهزج . وخفيف الهزج مثله الا انه اسرع حثاً منه . . .
 ولسنا نعلم ما كانت تضم في هذا الباب المؤلفات الكثيرة التي فقدت لأبي العلاء
 على أن فيما انتقل لا يدبنا بعض الغنية عن افتقاد ماضع فشعره ونثره يؤكدان لنا
 أن المعري لم يكتف بان يلم بطرق الالحان وضروبها بل هو يتذوقها ويحلل آثارها
 في نفوس السامعين . استمع له في لزومياته وهو ينمى التكبر على الانسان فيقول:
 ماكبره وتقبل اللحن ينعمه من سرعة الفهم ترسيل وتمديد
 فالمعري لا يكتفي أن يعدد ضروب اللحن من ثقيل وخفيف الثقيل والرميل
 والهزج وغيرها بل أنه ليعرف طبائع هذه الضروب معرفة من تخطت هذه الالحان
 سمعه الى قلبه وشعوره . فهو قد وعي طبيعة اللحن الثقيل وشعر أن من طبيعة هذا
 اللحن أن لا يكون سريعاً الى الفهم اطول الترسل والتمديد فيه .
 ولا ابالغ إذا قلت لكم إن واحداً من المئة من المغنين حتى الحذاق منهم لا
 يعرفون تأثير صفات الغناء — التي منها الاسترسال . والتمديد . ولا باس من أن
 يذكر الان بعض صفات الغناء لتروا من ذلك ان أبا العلاء كان في هذا الفن من
 العلماء فنفا الاجتهاد . والاستهلال . والاسترسال . والمناضلة . والحائلة . والتفريد
 والتفخيم . والترخيم . والمراسلة . والمطاولة . والترجيع . والتفريع . والتقدير .
 والتوطئة . والاتفاق . وتقدير الانفاس . والاضعاف والتذلل . والتدلل . والاتصال
 والتحرش . ولا ابتداع الى غير ذلك مما لا يعرفه الا الراسخون في هذا الفن والمعري
 لا يكتفي بذلك أيضاً بل انه يطلعك على خبرته بعلاقات الالحان بعضها ببعض وبانه
 خبير بقواعد الانتقال من لحن الى لحن حتى يأتي على آخرها في رسالة الغفران
 يقول على لسان ابن القارح لاحدى قيان الجنة (اعلمي قول ابي أمامة) .
 أمن آل مية رائج او مقتد عجلان ذا زاد وغير مزود
 تقيلاً أول (فتصنعه فتجني به مطرباً وفي اعضاء السامع متسرباً ولو نحت صنم
 من احجار ثم سمع ذلك الصوت — لرقص فيقول (هلم خفيف الثقيل الاول)
 فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض لاقران ماترجم به مريض فاذا اجادته قال (عليك بالثقيل
 الثاني) فتأتي به فاذا رأى ذلك قال (سبحان الله كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب

فصيري الى خفيف الثميل الثاني فانك لمجيدة محسنة ثم يقترح عليها امل وخفيفه وأخاه المزج فاذا تيقن لها حذاقة وعرف منها بالعود لباقه هلال وكبر واطال حمدربه واعتبر ا. ه. فمن هذا الخبر يظهر لنا أن المعري كان عارفاً باصول الخروج من لحن الى لحن اذ ان بين الانغام توافقاً وتنافراً وليست كل نغمة توافق السير مع غيرها من النغبات بل أن هناك نغبات لا تأتلف مع غيرها البتة ونرى الجهلاء اليوم لفن الموسيقى يقترحون على مغن اغنية من مقام (السيكاه) بينما يكون المغنى آخذاً بالنشاد اغنية من الحجاز كار مثلاً في مثل هذا الحال لا يعلم الا الله مقدار ما يصيب المغني من التأثير التنافري الواقع بين النغمتين وهذا ما لم يغفل عنه أبو العلاء كما ظهر لنا في الخبر السابق وقد جاء في رسائل اخوان الصفا ان الخروج من لحن الى لحن والانتقال منه ليس له طريق الا على احد الوجهين اما أن ينقطع ويسكت ويصلح الدساتين والاولى بالحدق والارخاء ويتبدأ ويستأنف لحناً آخر ويترك الامر لحاله ويخرج من ذلك اللحن الى لحن قريب منه مشاكلاً له — وهو ان يتقل من الثقيل الى خفيفه او من الخفيف الى ثقيله او الى ما قارب منه .

اما تحليله لآثر الموسيقى في النفس فظاهر في شعره ونثره على صورة تدعونا الى ان نقف عند هذا التحليل متأينين غير مستعجلين فابو العلاء في لزومياته وفي فصوله وغاياته وفي غير ذلك من مؤلفاته يدعو الى اجتناب اللهو والتمتع بمفاتيح الحياة واجتناب كل ما يمين على ذلك وفي جملتها الموسيقى فهو اذن — يدعو الى اجتنابها لانها كالخمر والنساء من افتن مفاتيح الحياة ولان لها سحراً لا يمتنع منه اصعب القلوب ولا اشد الاعصاب ولأنها لا تغلاء الحياة آمالاً واحلاماً وهو لا يرى بحكم زهده وتشاؤمه أن يسمح للحياة ان تلعب بنا بهذه الامال والاحلام التي تزينها لنا بالموسيقى أو بالخر أو بالنساء أو بها جميعاً .

ولكن الموسيقى لذة منزهة لا تخاب الالب كما تفعل الخمر ولا تلثم الشرف او تنقص العيش كما يحتمل أن تفعل النساء وانما هي لذة منزهة كما قلت تسمو بالروح ولا تهيج الجسد الا اذا استعانت بمعاني الشعر أو بحرارة الخمر أو بقرب الكواعب الفر .
فالمعري من ذلك بين نارين النار الاولى هي أنه ليؤثر الموسيقى لو كان يمكن ان تكون اللذة المنزهة الوحيدة التي يلجأ اليها الناس وهو لا يتعمت في كبت اغنجابه بها بل يقول مثلاً :

وهواك عندي كالفناء فانه حسن لدي ثقيله وخفيفه
ويسترسل مع شعوره وخياله في عالم الالخان فيقول :
وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الاصائل مهال
أتزهر أغصافها اجت بزهر مشانيه احشاء لطمن واوصال
فهذا كلام من افسح لحسه ولشعوره المجال الى مداه في لحظة من تلك اللحظات
التي كان يتناسى فيها أخذه بالزهد كل خشن من قول او عمل .
والنار الثانية هي التي اكتوى بها المعري رضاه واراد ان يكوي بها جميع
العالمين وهي الاحتشاد بكل قوى الارادة لخلق الفرائز وكبت المشاعر واجتباب
الذائد والابتعاد عن كل ما يغري بالاستسلام لمفاتيح الحياة :
والموسيقى أجلّ خطراً من أن نهمل شأنها في هذا الباب فهي مفتاح لكثير من
الاخيلة والذائد — والشهوات

طربت لقمرتي مربع على غصني ضالة غنتا
بدت لهما زهرات الربيع فاحسنتا القول واقتنتا
وتعذر نفسك عن الحنين وتعذر عنك أن حنتا
فهواذن على تذوقه لها وفهمه لرفعة شأنها مضطر الى أن لا يجعها تكأة الى غيرها
من الذائد الجسدية الدموية ولا مغرياً يحرك الفرائز ويدوق الاماني والاحلام .
ولهذا فهو اذا ذكر لك الموسيقى في أي موضع من شعره ونثره فانه لا يهمل
مطلقاً ان يذكر الى — جنب ذلك بانها ضرب من الذب والنواح أو باعث على
الندب والنواح فهو ما يفتاء يردد :

وشبيه صوت النعي اذا قيد — س بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلکم الحمامة أم غنة — ت على فرع غصنها المياد
ويقول :

ردي كلامك ما املت مستمعا وهل يمل من الانفاس ترديد
هاجت بكاي اغاني القيان بها كأنها من ذوات الشكل تعديد
ويقول :

تسمى رشيداً من لؤي بن غالب امير وهل في العالمين رشيد
فان أغاني الليالي نياحة ومنها بسيط مقتضى ونشيد

وقوله :

تحالفت الغرائز والمعاني فكيف توافق المتجسّدات
فما بين المقابر ناديات وما بين الثروب مفردات
او هو على الاقل يذكر في تلك اللحظة التي تنعم فيها بالموسيقى ان الاحداث
والفواجع ملء برديك فلا تذهب مع تنعمك الى مداه
هي النفس عذاها من الدهر فاجع برزء وغذاها لتطرب ساجع
فنفسك يابن آدم لا تزيد على انها العوبة بيد الحياة ماتفتنها السواجع الا لتنعمها
الفواجع رحمك الله ابا العلاء فلقد انشأك الله عقلا جباراً لا ينع الا بان يحيط بجميع
ما حوله وشعوراً عميقاً زاخراً يتقد كالكوكب الخالد ولا يسطع كالهشيم المحترق
رحمة سابغة وسعت العالمين والسلام

فخري البارودي

- ملاحظة -

الفهرس

الصفحة	
٥	المقدمة الأستاذ خليل مردم بك .
٩	الحفلة الأولى في دمشق
١٢	كلمة نخامة رئيس الجمهورية
١٤	كلمة وزير المعارف
١٧	كلمة رئيس المجمع العلمي العربي
١٩	الفصول والفتايات للدكتور طه حسين .
٢٦	الفياسوف الحر (قصيدة) للأستاذ محمد مهدي الجواهري
٣٠	أبو العلاء المعري شاعر أم فيلسوف ؟ = أحمد الشايب .
٤٦	الحفلة الثانية في دمشق
٤٨	سلطان العقل عند أبي العلاء للأستاذ أحمد أمين .
٦٥	التفاؤل والاثنية في كلام الشيخ محمد اسعاف النشاشيبي =
١٠٥	أبو العلاء (قصيدة) محمد البزم .
١١٧	المعري في نظر المستشرقين الفريد غليوم .
١٢٤	المعري وآراؤه في الإصلاح الاجتماعي عارف النكدي =
١٣٥	الحفلة الثالثة في معرة النعمان على ضريح أبي العلاء
١٣٧	شاعر البشر (قصيدة) للأستاذ معروف الرصافي .
١٣٩	علي قبر أبي العلاء الدكتور مهدي البصير .

١٤٤	الحفلة الرابعة في حلب
١٤٦	أبو العلاء شاعر انساني للاستاذ ابراهيم عبدالقادر المازني
١٦٤	سر الخلود في شعر أبي العلاء طه الراوي . . .
١٧٥	الفيلسوف (قصيدة) عمر أبو ريشة . . .
١٧٩	الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء سامي الكيالي . .
١٩٠	الحفلة الخامسة في المزدقية
١٩٣	ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء للأستاذ عبد الحميد العبادي .
٢٠٢	فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء للدكتور جميل صليبا . . .
٢١٣	الدهر ملك العبقرية (قصيدة) للأستاذ بدوي الجبل . . .
٢١٧	أسلوب الميري ومنهاجه محمد الشريقي . . .
٢٣١	الروح العالائية وأثرها في أدبنا الحديث أنيس المقدسي . .
٢٠٧	الحفلة السادسة في دمشق
٢٥٢	لزوم ما لا يلزم، متى نظم وكيف نظم ورتب الدكتور عبد الوهاب عزام .
٢٧٠	شيخ المعرة والشيخ الذرا للأستاذ عبد القادر المغربي . . .
٢٨٠	دين أبي العلاء محمد سليم الجندي . . .
٢٩٣	اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء هنري لاوست . . .
٣٠١	ذكرى أبي العلاء (قصيدة) شفيق جبري . . .

تكملة

(الكلمات التي وردت وتناثرة فألحقت بالحفلة السادسة)

٣٠٦	من ضحايا العقل للأستاذ فؤاد افرام البستاني .
٣٢٢	من هو أبو العلاء الميري أديب وهبة . . .
٣٢٩	الميري والمرأة للآنسة جهان الموصلي . . .
٣٣٣	أبو العلاء وأقطاب الفكر المحدثون للأستاذ عارف العارف . . .
٣٣٨	كلمة الاذاعة الفلسطينية عزمي النشاشيبي . . .

(الكلمات التي بها أصحابها لنفسر في الكتاب

بهم ان تذكر مضمورهم الى دمشق في أسبوع المهرجان)

٣٤٠	لزوم ما لا يلزم في الادب العربي . . .	للاستاذ محمد رضا الشبيبي . .
٣٦٢	ابو العلاء المعري وعلم النحو . . .	ابراهيم مصطفى . .
٣٧٥	بعض ملاحظات تتعلق بحياة ابي العلاء وآثاره	عباس اقبال . . .
٣٨٢	مخطوطات ابي العلاء المعري في مكتبة جامعة برنستون	للدكتور فيايب حتي .
٣٨٦	الناس تخطب في علاك وتنشد (قصيدة)	للشيخ كاظم الدجيلي . . .
٣٨٩	المعري والموسيقى	للاستاذ فخري البارودي . .



MILLENARY FESTIVAL
OF
ABŪ AL-‘ALĀ’ AL-MA‘ARRĪ

DAR SADER *PUBLISHERS*
P.O.Box 10
BEIRUT